عودة المرشد

عودة المرشد

◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇

أشرف المقدم

◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇

رواية

الناشر:

زحمة كتاب للنشر والتوزيع

Www.za7ma-kotab.Com

Www.facebook.com/za7makotab

Za7ma-kotab@hotmail.Com

01205100596_01100662595

رقم الإيداع:

2016/21790

الترقيم الدولي:

978/977/6527/75

المراجعة اللغوية

عمرو مغيث

"مكتب ضاد للمراجعة والتدقيق اللغوي"

تصميم وتنسيق داخلي

أحمد عويس.......«E,W»

جميع الحقوق محفوظة لدى الناشر زحمة كتاب للنشر والتوزيع

عـــــودة المرشد

رواية

أشرف المقدم

زحمة كتاب

الاهداء

الى استاذى اللذى علمنى دون ان يدرى اهديك اول اعمالى

(1)

كان يومًا شديد الارتباك، هذا هو شعورها تجاه هذا اليوم. وربما يعود السبب المباشر لهذا الارتباك أنها ستذهب إلى مدفن العائلة لزيارة قبر والدتها.

هي أول زيارة لأمها منذ أن ماتت، ولا تدري على وجه اليقين أن أمها قد دفنت في مدفن العائلة أم لم تدفن هناك، وليس لديها دليل غيره عندما أتى ليشكر لها عدم حضورها مراسم الدفن وأعطاها شهادة الوفاة وأخبرها أن أمها دفنت بجانب أبيها في مدفن العائلة. علمت كذبه لأن أباها لم يدفن في مدفن العائلة ومنع أصدقاء أمها المقربين من حضور مراسم الدفن لذا لم يكن لديها دليل غير كلماته تلك عن مكان أمها، لا تدري لماذا استبعدت نفسيًا أن تكون أمها قد تم إطعام جسدها للكلاب وهذا ما يفعلونه دومًا مع أمثال أمها، هل لعاطفة البنوة دور في ذلك الشعور؟ لا تدري، ولم تجلس كي تتحقق لأنها باعت كل ما ورثته عن أمها وأبيها، باعت كل شيء عدا بيت العائلة، لكنها هجرته وتركته خاويًا ورحلت، فهي تحمل في طياته ذكريات خوف أليمة جعلها تكرهه كما كرهت أمها المعذبة والمسحولة حتى الموت، وكانت على يقين من أن أمها كانت تستحق تلك النهاية المهينة لحياتها. لكن اليوم واليوم بالتحديد قررت أن تذهب لزيارة أمها، مما أثار داخل روحها عواصف هائجة مضطربة، تسببت في عدم قدرتها على التركيز.

كانت الأم تدرك مشاعر الرفض البادية من ابنتها تجاهها بل والتجاهل وخاصة عند عودة الأم من المعتقل بعد قضاء فترة طويلة، ظنت الأم أن ابنتها تكرهها، واجتهدت كثيرًا في التفكير في تلك الحالة حتى تصل إلى تفسير صحيح ووصلت إلى جواب واحد، إنه الخوف.

إن ابنتها تخاف منها وأدركت أن ابنتها تعاني صراعًا داخليًا شديدًا بين حبها لها والخوف من أن تصبح مثلها وأدركت أن هذا الصراع سيؤدي إلى طريقين، فإن تغلبت البنت على مخاوفها فسوف تصبح البنت نسخة مطابقة منها، وتمعن في تقليدها، أما إذا تغلب الخوف على قلبها فسوف تكرهها وسوف تميل إلى احتقار وتسفيه كل ما تفعل.

وبالفعل تغلب الخوف على قلب هالة ومسخ روحها وجعلها حبيسة، فبدت، رغم جمالها الأخاذ، لا تطيق الاستمرار في النظر إلى وجهها لمده طويلة وكانت الأم في حديثها الداخلي عن هالة كانت تقول لنفسها إن روح هالة بلا ملامح وأهم ما يميز روحها هو رائحة الخوف المنبعثة منها. وكانت الأم تكره خوف المرأة وانكسارها وكانت شديدة النفور من النساء اللاتي يخفن ولولا أن هالة ابنتها، لفارقتها منذ زمن بعيد، وكانت في كل أحاديثها تلقي اللوم على المرأة الأولى التي خافت واستكانت لبطش الرجل.

أصبح لدى هالة عقدة ذنب وألم نفسي تجاه والدتها وخاصة عندما تتذكر شعورًا بالارتياح غمر روحها عندما تم إبلاغها بوفاة والدتها، وكانت هالة تتجنب ذلك الألم بقولها لنفسها إن أمها كانت تستحق ذلك وأكثر، لكن الآن، أكثر ما يقلقها عند زيارة والدتها هو كيف ستقابل والدتها مع هذا الذنب الذي بالتأكيد قد عرفته بعد وفاتها.

شعرت هالة بدمعة دافئة على خدها، مسحتها بطرف كم ثيابها، وقالت عندما أجلس بين يديك يا أمي سأعترف، وسأعترف أنني لست مثلك يا أمي، أنا ضعيفة وكنت أخاف أن تتملكني روحك المقاومة.

كنت أقاوم يا أمي إعجابي بقدرتك الفذة على الصمود، وكنت أرى تصاعد الإعجاب بك داخل نفسي كتصاعد خيط رقيق أبيض، كنت أعاني وأقاوم بقوة حتى أستطيع أن أكتمه، لكن اليوم سأقف بين يديك وسأعترف وألقي كل الأثقال التي كانت تحملها روحي، وسوف تسعدين عندما تسمعين ما كتبته من مذكرات في أجندتي، فقد كنتُ وأنتِ في المعتقل أتذكر كلماتك وأحاديثك مع أصدقائك وأدونها. كنت أدون كل شيء حتى أحاديثك التي كنت أحاول أن أمنعك من قولها، لكن سأعترف بضعفي وأنى رغم التغيرات الكثيرة إلا أنني ما زلت أخاف.

أصدر محرك سيارتها "البيجو" "موديل ٢٠٣٥" صوتًا متقطعًا انتزعها من سرحانها لأنها علمت أنها تقترب من المبنى ٦٦. فمنذ أن اشترت تلك السيارة وأورثتها خوفها من هذا المبنى، فصارت السيارة مع اقترابها من هذا المبنى - سواء أدركت هالة أنها اقتربت من المبنى أم لم تدرك- تصدر هذا الصوت المتقطع معلنة أنها ستتوقف، مما يخلق حالة من الهلع لدى هالة.

والغريب أن السيارة لم تتوقف في أي مرة قبل أن تسافر أو حتى بعد عودتها، لكن قلب هالة في كل مرة صباحًا ومساءً، يضطرب ويدق بعنف لمدة دقائق مع عبورها البوابة.

لكن سرعان ما تحققت مخاوفها وتوقفت السيارة في المكان الذي تمنت ألا تتوقف فيه أبدًا، كان ذلك المبنى يقف متفردا بمساحة عظيمة وسط الصحراء ورغم عدم وجود أية مبانٍ بجانبه، إلا أنه يحمل رقم ٦٦ .

كان سوره الممتد المحيط بالمبنى في عمق الصحراء ولا تدرك العين نهايته، مرتفعًا معطيًا مشهدًا كئيبًا مرعبًا وانطباعًا بأنه مبنى غير اعتيادي أو تابع لجهة أمنية.

لكن احتمال أن يكون مبنى غير اعتيادي أكبر، لأن هالة لم تشاهد يومًا خروج أو دخول أي شخص، حتى إنها لم تشاهد أي حارس على البوابة، وبالطبع سمعت قصصًا مرعبة عنه وأشياء تحدث في المساء حول المبنى تجعل أشد النفوس تماسكًا ترتعد فرائصها عند المرور به.

إذن تحققت أكبر مخاوفها وتوقفت السيارة أمام بداية المبنى، وهو التقاء السور والبوابة. خرجت من باب السيارة حاملة زجاجة ماء لتفرغها في القربة، وبصعوبة وارتباك فتحت «كبوت» السيارة فاكتشفت تبخر ماء القربة تمامًا، وأدركت أن زجاجة الماء غير كافية لإعطاء القربة كميتها المحددة، لكنها حاولت - حتى قبل أن يبرد محرك السيارة- أن تقوم بتشغيل السيارة، لأن قلبها يدق بعنف معلنًا عدم مقدرته على تحمل موجات الخوف التي تزداد، وأيضًا لعدم مقدرتها الجسدية على تحمل حرارة شهر يوليو لوقت طويل وخاصة أنه وقت الظهيرة، فساعتها تشير بأنها تقترب من الثالثة عصرًا.

لكن بالطبع لم يكن لسيارة ذات طراز عتيق مثل هذه أن تستجيب، وبعد فشل د-هالة في تشغيلها، لم يكن أمامها سوى خيارين، إما أن تترك السيارة تبرد تمامًا أو تطلب من السيارات القليلة العابرة مساعدتها ببعض الماء، وعلى ما يبدو أنها لن تستطيع الانتظار. فأمسكت بزجاجتها كي تشير إلى المار بها، فيفهم أنها في حاجة إلى ماء، ومضت قرابة نصف ساعة ولم تمر أي سيارة في الاتجاهين، ولم تعد السيارة وحدها الآن في حاجة إلى الماء فقط، لكن هالة أيضًا.

بـدأ العطـش يـمارس اسـتبداده عـلى عقلهـا، وبـدأت صـورة اسـتبداده تظهـر عـلى شـفتيها فأضحـت جافـة خشـنة، فمـررت لسـانها عليهـا محاولـة ترطيبهـا، لكـن عـلى مـا يبـدو أن تلـك المحاولـة لم تفلـح.

كانـت أمهـا تخبرهـا أن شـفتيها تشـبه شـفاه ممثلـة أمريكيـة قديمـة اسـمها "أنجلينـا جـولي" وسـألتها هالـة هـل كانـت جميلـة؟ فقالـت لقـد كان جمالهـا مسـار حسـد النسـاء الجميـلات وكان أبيـك يقـول عنهـا إن شـفتيها أشـهى مـا يتذوقـه رجـل، لكـن شـفاه هالـة تشـتكي الآن نقـص السـوائل فصـارت بيضـاء خشـنة، وتحركـت هالـة مسرعـة إلى السـيارة لتحتمـي بهـا.

لكـن دعـوني أخبركـم عـن حـرارة شـهر يوليـو في صحـراء القاهـرة في أسـوأ موجـة جفـاف تـضرب العـالم، ربـما تكـون مميتـة إن تعـرض لهـا الإنسـان لفـترة قليلـة متصلـة دون مـاء، وعـلى أقـل تقديـر ربـما تصيـب عقلـه بالهذيـان.

وذلـك مـا تخشـاه هالـة، لـذا دخلـت هالـة السـيارة وتركـت بابهـا مفتوحًـا حتـى يمـرّ بعـض الهـواء و أيضًـا إذا سـمعت محـرك سـيارة مقـترب، تسـتطيع أن تقفـز بـلا عائـق.

شـعرت بعدمـا احتمـت مـن أشـعة الشـمس أنهـا قـد انتقلـت مـن قيـظ جهنـم إلى الفـردوس، لكـن سرعـان مـا بـدأ يـزول ذلـك الإحسـاس مـع سـيل مـن العرق حامـلاً معـه أمـلاح الجسـم، فتمنـت أن تخلـع الخـمار الـذي ترتديـه وتـترك ذلـك الكـم مـن الشـعر ينسـاب بعيـدًا عـن رأسـها فيقلـل مـن شـعورها بالحـرارة لكـن خوفهـا مـن مـرور شرطـة الحسـبة دفعهـا دفعًـا لطـرد تلـك الفكـرة مـن رأسـها.

راحـت تتلصـص بـين الحـين والحـين عـلى المبنـى وكانـت التفاتاتهـا عـلى مـا تبدو غريزيـة، نابعـة مـن الخـوف، فبـدت مثـل شـاة وحيـدة ضائعـة في الصحـراء ورغـم خوفهـا مـن ظهـور الذئـب إلا أنهـا لم تسـتطع أن تمنـع نفسـها مـن الالتفـات إليـه.

بعـد أن هـدأت نفسـها قليـلاً ومـع انعـدام الخيـارات أمامهـا، ويأسـها مـن وصـول أي سـيارة، تولـدت لديهـا روح طفـل يريـد أن يسـتكشـف أي شيء مخفـي حتـى لـو كان فيـه هلاكـه أو قـل ربـما أرادت أن تهدأ مـن مخاوفهـا، أو ربـما للحظات تحلـت بـروح كلـب خائـف وطريقـه للهـرب مـن مطـاردة كان مسـدودًا، فاسـتدار ليقاتـل، فـما للمـوت بـد فـلا بـد أن يمـوت بـشرف، ربـما يكـون واحـد مـن تلـك الاحتـمالات صحيحًـا وربـما لا، لكنهـا تحركـت في اتجـاه البوابـة التـي كانـت عتيقـة الطـراز ذات الحجـم الهائـل، وبعـد تـردد كبـير بعـد رؤيتهـا للجـرس، ضغطـت

عليه، لكن بعد ضغطات متتابعة، لم تسمع صوت الجرس، فنادت بصوت متحشرج خافت وكأنه خارج من أعماق النفس البشرية أو سحابة صيف تتبدد تحت نار القيظ فلا ترى لها أثرًا غير سراب لا يراه إلا هائم.

خلاصة القول، لم يسمعها أحد أو قل لم يكن هناك أحد كي يسمعها، فأرادت أن تستجمع قوتها ونادت مرة أخرى، لكن صوتها كان خائر القوى ورغم ذلك انتظرت وتلصصت بأذنها محاولة أن تسمع الإجابة.

وعلى ما يبدو أن القدير كان رحيمًا بها، فقد سمعت أذنها صوت سيارة تقترب، فجرت مسرعة في اتجاه الطريق وحملت زجاجتها ووقفت جانب السيارة في انتظار القادم وتهللت أساريرها، فقد كانت سيارة شحن كبيرة تستخدم لنقل البضائع وهي دائمًا ما يكون بها كثير من الماء لأن سائقيها يسافرون لمسافات طويلة في مناطق مختلفة، شعرت باطمئنان عارم، فقد تأكدت رغم بعد المسافة أن السائق قد رآها بوضوح.

قالت حالما يتوقف سأجعله يساعدني في إصلاحها فإن أمثاله يكون لهم خبرة كبيرة لكن على ما يبدو أن القدير أراد أن يختبر صبرها فلم يتوقف السائق، بل على العكس عندما اقترب ضغط على البنزين أكثر فتجاوزها مسرعًا مما أعطى لهالة مدلولاً مرعبًا.

أرادت أن تترك السيارة وتفر بعيدًا عن المبنى لكن تذكرت أن سور المبنى الموازي للطريق يستغرق منها بالسيارة أكثر من ثلث ساعة، فطردت تلك الفكرة من رأسها، ولشيء ما لم تستطع تفسيره، ظلت عينها متعلقة بالسيارة إلى أن أصبحت نقطة في المنتهى واندمجت قبل اختفائها عن عينها مع السور.

مجتمع الفصام

ذلك ما قالته وهي تلتفت إلى سيارتها وتضع يدها على محرك السيارة كي تختبر درجة الحرارة، لكن يدها لم تستطع أن تتحمل الاقتراب فأبعدتها مسرعة، لكنها لم تستطع أن تتوقف عن الحديث وقالت بكل حنق غير مبالية:

تمارسون علينا ذكوريتكم من السمع والطاعة لأنكم حماة لنا وتتباهون أن الرجل منكم من الممكن أن يدفع حياته ثمنًا للدفاع عن امرأته عن طيب خاطر وأصدقكم أنكم تفعلون ذلك عندما تعتقدون أن هناك من يراكم، أما إذا شعرتم أنكم بمأمن عن أعين الآخرين فتضحون بالأنثى عن طيب

خاطـر، ولا تهتـز ضمائركـم خجـلاً.

وتذكـرت أنهـا لا تصـف الذكـر فقـط بالفصـام لكـن الأنثـى أيضًـا فهي تتشـدق بالعفـة والطهـارة وترتـدي ذلـك الحجـاب، وخلفـه توجـد أنثـى نهمـة للجنـس والمحرمـات، ومـا تـكاد تشـعر بالأمـان عندمـا تسـنح لهـا الفرصـة حتـى تلقـي مـا تدعيـه جانبًـا وتقـوم بإشـباع تلـك الأنثـى بداخلهـا، وقالـت أنـا لا ألومهـم عـلى الفعـل لكـن ألومهـم عـلى الكـذب عـلى النفـس.

شـعرت هالـة أن هنـاك شـيئًا في أفكارهـا قـد تغـير أو أن روحهـا حصلـت عـلى بعـض الحريـة. مـن أيـن أتـت؟ لم تسـتطع هالـة أن تسـتمر في هـذا الحـوار الداخـلي كثـيرًا.

فمـع السـكون وفحيـح الصحـراء الخافـت، هجمـت عـلى عقلهـا إحـدى موجـات الخـوف، فلـم تسـتطع حصونهـا لهـا دفعًـا ونظـرت إلى المبنـى مجـددًا. وكادت أن تسـقط قتيلـة تلـك المـرة، وفركـت في عينيهـا محاولـة أن تتبـين إن كان مـا تـراه حقيقيًـا أم هـو جـزء مـن تراوحـات العقـل بـين المنطـق واللامنطـق أو بـين الحقيقـة والوهـم.

فقـد رأت رجـلاً يخـرج مـن جانـب السـور يتحـرك مسـتندًا عليـه. فـرّت هاربـة ولم تنظـر خلفهـا تلـك المـرة لأن عقلهـا لديـه قـرار واحـد، هـو الفـرار، لكـن أذنهـا سـمعت صـوت اصطـدام جسـد آدمـي بـالأرض، وبعـد فـترة قصـيرة مـن العـدو لم تسـمع أي صـوت، أو صـوت أقـدام تحـاول اللحـاق بهـا، فتوقفـت تحـت ضغـط التعـب وهـي تنظـر خلفهـا فوجـدت جسـد الرجـل قـد افـترش الرمـل السـاخن ووجهـه قـد غـاص في الرمـل.

وبشـعور لا إرادي نابـع مـن إنسـانيتها، فلـم تقـم باستشـارة عقلهـا وعـادت باتجـاه الرجـل محاولـة إسـعافه، لكـن قبـل أن تصـل إليـه يبـدو أنهـا قـد اسـتنفدت قـدرًا كبـيرًا مـن مخـزون شـجاعتها فلـم تتحـرك. وقفـت بجانـب سـيارتها في الجهـة المقابلـة لذلـك الرجـل إلا أن جسـد الرجـل كان في حالـة سـكون مماثـل لسـكون المـوت، فاقتربـت منـه، فسـمعته يتنفـس بصعوبـة بالغـة، فحاولـت أن تعـدل مـن وضعيـة رأسـه وجسـده لكـن لاحظـت كطبيبـة سـابقة قبـل أن تتخصـص في الهندسـة الوراثيـة، أن حرارتـه مرتفعـة بطريقـة غـير طبيعيـة لكـن عقلهـا لم يسـتطع أن يعطـي تفسـيرًا صحيحًـا لدرجـة الحـرارة تلـك، وأدركـت أنـه يعـاني مـن غيبوبـة وأنـه غـير قـادر عـلى الإيـذاء.

ودفعها ارتباكها إلى أن تتحرك إلى الطريق، لكن تلك المرة لم تكن هربًا ولكن من أجل طلب المساعدة من أي عابر للطريق الخالي من أي حياة، لكن اليأس سرعان ما استبد بها سريعًا، فعادت إلى الرجل لتختبر حالته مرة أخرى، وما كادت تصل إليه حتى طرأ على عقلها فكرة عبقرية بالنسبة إلى حالتها المضطربة، وهي الاتصال بالإسعاف.

على الفور وضعت يدها في جيب العباءة لتخرج "الموبيل" لكن لم تجده، فتذكرت أنه في السيارة فاتجهت إليها مسرعة، وأخرجت "الموبيل" من السيارة وقامت بمحاولة الاتصال مرات عديدة لكن كعادة القاهرة القديمة تكون تلك الأرقام دائمًا مشغولة ولا تجيب، وكأنها أرقام وهمية. لكنها لم تيأس فظلت تعيد الاتصال مرة بعد أخرى، فلم يكن لديها أي حل آخر، ومع فقدان الأمل في أن يجيبها أحد، راحت تتحرك بخطوات متثاقلة مرتعشة باتجاه الرجل لتختبره.

عندما وصلت إليه، وضعت "الموبيل" بين صدغها المائل وكتفها ومالت عليه كي تطمئن عليه، لكن يديها الخبيرتين لم تشعر بنبض عروقه، فأغلقت "الموبيل" وفحصت النبض بدقة أكبر مرة تلو الأخرى. لكن على ما يبدو أن روحه انتقلت إلى السماوات العلا، وراحت تتحسس تلك المناطق في الجسد التي تشير إلى وجود الحياة أو انقضائها وتبينت من كل مؤشراته الحيوية التي توضح بشكل جلي أن الرجل قد فارق الحياة، لكن شكًا ما راح ينبت بداخلها.

فدرجة حرارة الرجل ما زالت مرتفعة فاتجهت إلى السيارة مرة أخرى كي تحضر البرفان الخاص بها، فلو كانت غيبوبة ستكتشفها عن طريق البرفان

وكان هذا هو المحكّ كي يستريح قلبها لإعلان وفاته.

وقبل أن تشيح بوجهها عنه سمعت صوت صادر من واد سحيق متحشرج كفحيح الأفعى وكان هو مصدر الصوت.

مالت مسرعة عليه كي تنصت إلى ما يقول لكن لم تسمع أي شيء.

انتبهت إلى أنه يحمل ملامح غربية فأضاف إلى رعبها رعبًا جديدًا وراودتها

أفكار عن المكان أنه ربما يكون مهبطًا للكائنات الفضائية، وربما يكون

ذلـك الرجـل كائـن فضائـي، ورغـم سـذاجة الفكـرة إلا أنهـا قالـت لمـا لا.

فارتفـاع الحـرارة لكائـن ميـت أو مقبـل عـلى المـوت بتلـك الطريقـة، هـو أمـر غـير طبيعـي حتـى وإن كان مريـض كبـد، لأن درجـة الحـرارة التـي هـو عليهـا أكـبر مـن الأربعـين أو الخمسـين أو السـتين، خبرتهـا تؤكـد ذلـك، عندئـذٍ انتبهـت إلى ألـوان وجهـه، تتغـير بفعـل الاختنـاق عـلى مـا يبـدو.

جحظـت عينـاه بشـكل غـير طبيعـي، كاشـفًا عـن عينـين زرقاويـن مختلطتـين بحمـرة شـديدة وانفرجـت يديـه كاشـفة عـن شيء لمـع تحـت وهـج شـعاع شـمس.

تلصـص مـن خلـف السـور المهيـب. لم تلتفـت إلى مـا يحمـل وكان انشـغالها بذلـك الإنسـان، ضغطـت عـلى نفسـها لأقـصى حـد حتـى تسـتطيع البقـاء معـه كـي لا يدفعهـا خوفهـا مـن الهـرب أو المـوت بجانبـه، وأحـضرت البرفـان ووضعته في منخـاره وضغطـت إلى أقـصى حـد فاندفـع السـائل قويًـا ووصـل لأعمـق أعـماق رئتيـه، هكـذا اعتقـدت، لكـن لم يبـدو عـلى هـذا الكائـن أي اسـتجابة وأيقنـت أنـه لـن يفاجئهـا بإصـدار صـوت مـع محاولـة رحيلهـا. ومـع تيقنهـا بوفاتـه عاودتهـا أحاسـيس الرعـب وبقـوة لدرجـة أن رجفـة مصحوبـة بقشـعريرة مـرت بجسـدها جعلتهـا غـير قـادرة عـلى الحركـة وبـدت متعثـرة في نقـل خطواتهـا والابتعـاد عـن الجثـة، شيء عجيـب جعلهـا تتذكـر ذلـك الخاتـم فعـادت بصعوبـة إلى الجثـة ومالـت عـلى يديـه والتقطتـه، لم يكـن منظـره الغريـب مـا جعلهـا تتأكـد مـن أن ظنونهـا السـاذجة تقـترب مـن الحقيقـة، فمعـدن الخاتـم غريـب ورغـم أنهـا ليسـت عالمـة معـادن، لكـن هـذا المعـدن المصنـوع منـه الخاتـم لم يكـن شـبيها لأي معـدن قـد رأتـه مـن قبـل وأضفـت نقوشـه الغريبـة شـيئًا مـن الإثـارة، عندئـذٍ تركـت لسـاقيها العنـان وفـرت إلى سـيارتها وأدارت مفتاحهـا ناسـية مـن الخـوف أن تلـك السـيارة لـن تتحـرك.

ويبـدو أن مـا نسـمع عنـه عـلى قـدر مـن الحقيقـة ، ففـي لحظـات الحاجـة تسـتجيب الآلات الميكانيكيـة متخطيـة حالتهـا الطبيعيـة ، فقـد أصـدر محـرك السـيارة صوتًـا يقـول إنـه أصبـح مسـتعدًا للحركـة ولم تـترك قدماهـا لـه فرصـة للتراجـع فانطلقـت السـيارة. وأظهـر مـؤشر الحـرارة تراجعًـا ممـا منـح السـيارة فرصـة الحركـة وعـلى إثـره اسـتجاب محـرك السـيارة.

لم يبدُ على وجه هالة أي أثر للسعادة نتيجة نجاحها في الهروب من المكان لأن شيئًا من تأنيب الضمير قد استبد بها فكيف تترك جثة وتهرب، وتحت تأثير هذا التأنيب الذي لم تكن حالتها تسمح لها أن تتحمله، اتصلت على الفور بالشرطة ورغم علمها بما ستعانيه من متاعب ومن شك الشرطة بها وتعرضها لكثير من الأسئلة والاحتجاز والمضايقات الشرطية المعروفة إلا أنها أصرت على استكمال الجرس حتى النهاية وجاء الرد سريعًا من الطرف الآخر، فأبلغت وأعطت المستقبل لاتصالها كل المعلومات التي طلبها منها وأغلقت "الموبيل" وانطلقت بأقصى سرعة إلى القطامية حيث توجد شقتها.

لمع الخاتم بوهج قوى تحت تأثير شعاع الشمس على «تبلوه» السيارة.

وعلى غير العادة، لم يساورها أي تأنيب ضمير لأنها أخذت ذلك الخاتم، بل بدت مرتاحة الضمير لأقصى حد لأنها قررت أن تسلم ذلك الخاتم للشرطة حالما تذهب للإدلاء بشهادتها، ثم تنسى ما قد حدث للأبد، وربما تغير مكان شقتها.

أوقفت السيارة أمام العمارة التي تسكن في إحدى شققها في القطامية، عندئذٍ

أصدر "الموبيل" الخاص بها أزيزًا معلنًا بصوته الكئيب عن اتصال غير مرغوب، ظنت أنه من الشرطة وقد كان بالفعل من الشرطة، يطالبونها بالعودة إلى ذلك المبنى بأقصى سرعة ممكنة.

كان سؤال الضابط برتبة النقيب عندما وصلت مذهلاً !

– أين الجثة؟

نظرت هالة بريبة إليه فقد كان يقف مكان الجثة بالضبط.

هنا في المكان الذي تقف فيه.

نظر إلى وجهها بتفحص كي يستبين من إن كانت ملامحها تحمل أي أثر لمرض نفسي.

فأكدت حديثها وقالت مرة أخرى، كانت في هذا المكان بالضبط.

ونظـرت يمينًـا ويسـارًا وقمعـت رغبـة ملحـة في أن تنظـر داخـل سـيارتهم للبحـث

عـن الجثـة ونظـرت تحت قدميهـا لتتطلـع لأي أثـر عـلى الأرض تثبـت بـه أن في هـذا المكان كان يوجـد جثـة بالفعـل، لكـن لا أثـر لهـا عـلى الرمـل.

وهـي متأكـدة أن تيـارات الهـواء كانـت في حالـة سـكون، إذن مـا الـذي قـد أخفـى آثـره. نظـرت إلى السـور الممتـد بـلا نهايـة في جـوف الرمـال، متشـككة في أن يكـون قـد اسـتطاع أن يتجـاوزه رجـل بمثـل حالتـه، عندئـذٍ بـدت ملامـح الاضطـراب تظهـر عـلى وجههـا.

فما من دليل لديها يثبت للضابط أن جثة ما كانت هنا وأنها لا تهذي،

وحاولـت أن تؤكـد لـه أنهـا رأت يقينًـا جثـة لشـخص مـا هنـا وحاولـت أن تضيـف إلى كلامهـا مصداقيـة بإضافـة ملامحـه الغريبـة وحالـة وفاتـه الغريبـة لكنهـا ابتلعـت الـكلام لأنهـا تعلـم أن تلـك الكلـمات سـتؤكد شـكوكه فيهـا.

ورغـم نظـرات شـكه فيهـا إلا أنـه أراد أن ينتهـي مـن ذلـك الموقـف بسرعـة، وخاصـة أنهـا قامـت باسـتخدام غريزتهـا الأنثويـة وهـي البـكاء أمـام الذكـر والتـي تبعـث فيـه نوعًـا مـن إحسـاسٍ ذكـوري بالسـيطرة والامتـلاك وتدفعـه للتـصرف وكأنـه حامـي الحمـى ومـوكلاً للدفـاع عنهـا.

لكـن هـذا الرجـل لم يأبـه لتلـك الدمـوع وأراد أن يقطـع عليهـا طريقتهـا تلـك، يبـدو أنـه خبـير بالنسـاء، وأراد أن يتخلـص مـن حـرارة الجـو فقـال سـأتحرك بجانـب السـور حتـى أتأكـد إن كانـت تلـك الجثـة موجـودة بجانبـه أم لا، ونظـر حولـه وقـال لا يوجـد مـكان آخـر للاختبـاء.

وبعـد مـرور وقـت طويـل عـادت معـه وكان الرجـل مخلصًـا في عملـه فقـد كان يبحـث بعينيـه في كل أرجـاء المـكان وينظـر للرمـال بدقـة ليتبـين إن كانـت هنـاك آثـار لأي سـيارة مـا مـرت قبلـه مـن هـذا الطريـق، وقـد حملـت الجثـة، فلـم يجـد، ومـع بحـث شـبه دقيـق، وكان هـذا أقـصى مـا يسـتطيع فعلـه، لم يجـد الجثـة أو أي أثـر يـدل عليـه، وتأكـد أن تلـك المـرأة قـد مـرت بظـروف عصيبـة نتيجـة توقفهـا في هـذا المـكان، وسـألها مبـاشرة:

تقولين إن سيارتك توقفت هنا لعطل.

قالت نعم.

كيف أصلحتها؟ هل ساعدك أحد؟

قالت لا، هي تحركت وحدها عندما أدرت محركها.

علمت ما يفكر فيه الضابط وارتعبت.

لكنه كان رحيمًا وأوكل الأمر إلى الخوف من المكان والعطش،قد هيأ لها ذلك أو ربما هي مصابة باضطراب نفسي، ربما هي مجنونة، فتهيأ لها أنها توقفت واخترع عقلها تلك القصة. ونظر إليها بإمعان.

اعتبرت هالة أن تلك النظرة وما تعنيه إهانة لها، فتذكرت أمر الخاتم وحمدت الله أنها أخذته معها ولم تتركه، وربما يكون هذا الخاتم وما يحمله من معدن غريب ونقوش أغرب، دليل صحتها العقلية أمام هذا الضابط.

أخبرته بأمر الخاتم فترك لها فرصة إحضاره ليؤكد لها أن كل ما رأته كان وهم، لأنه يعلم أن هذا الخاتم ربما يكون ملكًا لها لكن عقلها يفترض أنه ملك للجثة أو ربما لا يكون هناك خاتم من الأساس، لكنه استعد ليقيم الحجة عليها إن وجدته ويثبت لها أن هذا الخاتم ملك لها هي.

وغابت في بحثها في سيارتها وكادت أن تقلبها رأسًا على عقب، عندئذٍ اقترب الضابط منها.

وقال بصوت أجش لكن رحيم، ستأتين غدًا للقسم لغلق ذلك المحضر على أنه بلاغ كاذب، وكان مجاملاً ومقدرًا لحالتها وتركها تنصرف.

(٢)

وقـف الصـول عبـد العاطـي ينظـر بعينـي كلـب مسـعور نحـو الرائـد حسـن، ويريـد أن ينقـض عليـه، وكان الرائـد حسـن يتنـاول فطـوره بتلـذذ عـلى غـير العـادة.

وكان يعلـم كل مـا يـدور في ذهـن الصـول عبـد العاطـي دون أن ينظـر إليـه فعبد العاطـي هـو صنعتـه، هـو مـن حولـه إلى تلـك الحالـة، ويعلـم مقـدار غضبـه منـه، ويعلـم أيضًـا أن الصـول عبـد العاطـي رغـم قوتـه الهائلـة، يمتلـك عقـل ثـور أحمـق لا يحركـه إلا غريزتـه، فـكل مـا اكتسـبه مـن حسـن، اكتسـبه بالغريـزة، لا بالمعرفـة لـذا فـإن الحالـة التـي هـو عليهـا هـي حالـة حيوانيـة بحتـة لا عقـل فيهـا، لذلـك لـن يسـتطيع الصـول عبـد العاطـي أن يصـل إلى جوهـر حالتـه ويفسرهـا كـما فسرهـا حسـن.

ويعلـم حسـن أيضًـا أن مقـدار المتعـة للفعـل عنـد عبـد العاطـي أكـبر بكثـير منـه، لأنهـا نابعـة مـن الـذات، مـن تكوينـه، مـن إرادتـه، لذلـك لم يكـن في حاجـة إلى تبريـر مـا يفعـل، لكـن حسـن كان دومًـا يحتـاج إلى تبريـر.

في تلـك اللحظـة شـاهد حسـن اندفـاع رجـل عبـد العاطـي تجاهـه ثـم تراجعـه، فواصـل حسـن طعامـه دون أن يعـيره انتباهًـا لأنـه يعـرف أن الصـول عبـد العاطـي كأي حيـوان يعـرف بغريزتـه، إن كان حجـم المخاطـر التـي سـيقدم عليهـا عنـد محاولتـه الهجـوم أكـبر منـه فلـن يقـدم عليهـا.

عندئـذٍ اتـكأ الصـول إلى الحائـط بعـد محاولتـه النفسـية الفاشـلة في الانقضـاض عـلى الرائـد حسـن، لأنـه يعلـم مقـدار قـوة الرائـد وحصانتـه، فتراجـع، لكـن ظـل يراقـب الرائـد حسـن وشـيئًا فشـيئًا تغـيرت حالتـه ونظراتـه إلى الرائـد مـن ثـورة إلى اسـتعطاف، وكان يمنـي نفسـه بـأن الرائـد حسـن سـيعود إلى مـا كان عليـه. فمنـذ أن عمـل معـه منـذ عـشرة أعـوام يعـرف أنـه غريـب الأطـوار، متغـير المـزاج ويعلـم أنـه أيضًـا مـن أكفـأ الضبـاط ويقـال إنـه أكثرهـم ذكاء بـل يطلقـون عليـه العبقـري، لكـن هـذه المـرة طالـت الحالـة التـي هـو عليهـا الآن وأيضًـا ولأول مـرة يطـوي أدوات التعذيـب فأضحـت حبيسـة ذليلـة، مركونـة في ركـن قـصي.

فما الذي قد غيره إلى تلك الدرجة، وغمغم بغيظ أنه هذا الشيخ الملعون الذي لم يسمح الرائد حسن لي بقتله، أو تعذيبه، واستأثر هو بتعذيبه، ومنذ أن التقاه وهو قد تغير.

لكن ورغم طول مدة الحالة التي عليها حسن أو تصميمه على البقاء فيها إلا أن أملاً ما زال يراود الصول، و بنظرة خبيثة واثقة قال: أعلم أنك لن تستمر في تلك الحالة طويلاً وأعلم أنك ستعود.

وعلى ما يبدو أن الصول عبد العاطي أخطأ في تقدير الأمور. و على الرغم من معرفته الواسعة بالرائد حسن إلا أنه لا يعرف ما ينتويه حسن هذه المرة، أو ربما لن يجد تفسيرًا لما ينتويه حسن طوال حياته.

وربما آخرون لن يجدوا تفسيرًا أو ربما يصيبهم ما ينتوى فعله بذهول، لأنه قد نوى أن يستقيل.

و لأن الرائد حسن كان واحدًا من القلائل الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه، أو ربما هو الحالة الأولى التي تصل إلى هذا المكان وأن يصبح ضابطًا في أمن النظام، وأبويه لا ينتميان إلى التنظيم أو أحد أجداده، لذا ستفسر حالته بمجنون أو متآمر.

- كان الرائد حسن في ٣٣ من عمره فتيًا قويًا، حاضر الذهن شديد الذكاء غير متزوج، يعشق عمله.

لكنه لن يستطيع أن يستمر، رغم اعتقاده أنه يقوم بعمل وطني شديد الأهمية وفي خدمة الدعوة إلى الله اليوم، لكن قرار استقالته لا رجعة فيه وسيجعل أمر الاستقالة سرًا حالما ينتهي من ترتيب أفكاره وترتيب المأوى الآمن لاختباء طويل، لأنه يعلم أنه سيلاحق بلا هوادة تذكر، كيف أصبح ضابطًا في شعبة أمن النظام، كانت ضربة حظ حظي بها حسن جعلته ينضم إلى هذا المكان، عندما كان في احتفال التخرج وكان ترتيبه الأول على دفعته مما أعطاه الفرصة كي يظهر أمام سيادة اللواء (عبد الكريم قاسم) الذي اختاره بعد ذلك ليتدرب على يديه والذي أحبه كثيرًا واعتبره كابن له ولم يبخل على حسن بالمعلومة وكان يثني عليه دائمًا ويقول له إنك ضابط مميز كثير الأسئلة تدقق في التفاصيل لكنك لن تكون على الرغم من موهبتك محققًا حقيقياً، لكن حسن حاول بتحدٍ أن يكون محققًا حقيقيًا.

أصـدر الصـول عبـد العاطـي صوتًـا هامسًـا حتـى يحظـى باهتـمام سـيده الـذي نظـر إليـه بعـين الشـفقة تلـك المرة، لم يكـن حسـن غاضبًـا أو حانقًـا، عـلى الصـول عبـد العاطـي بـل التمـس لـه عـذرًا، وقـال لعبـد العاطـي دون صـوت، أعلـم أنـك تقـول ألم تكـن تسـتمتع بـما أفعـل، ألم تمـزج فطـورك بسـماع سياطي المزوجـة بأنّـات المعذبـين.

نعـم يـا عبـد العاطـي، لم أكـن أسـتطيع أن أتنـاول فطـوري دون سـماع أنـات المعذبـين المختلطـة بالسـياط، كنـت أسـتمتع بحماسـتك للعمـل، وخاصـة مـع اقـتراب انهيـار ضحايـاك، نعـم أنـت مَـن ألهمتنـي أنـك حـين تعـذب، فإنـك تـؤدي طقـوس وصلـوات في محـراب العبـد الكامـل والسـيد الكامـل، لـذا كنـت أشـاهد كرهـك ونفـورك مـن الذيـن يعترفـون مسرعـين، ولا يوجـد بداخلهـم أمـارات التحـدي، بـل وكنـت تعاملهـم باحتقـارٍ شـديد.

أمـا الذيـن يـصرون عـلى أقوالهـم فكنـت تقـترب منهـم كاقـتراب الحيـة بهدوئهـا حتـى لا تصيبهـم بارتبـاك ثـم تنقـض عليهـم وتعطيهـم قبلـة المـوت في ثـوان ثـم تعـود لهدوئـك مـرة أخـرى منتظـرًا أن تقـع الفريسـة مضرجـة في دمائهـا بـين أحضانـك، فلـم تحرمهـا مـن ملمـس جلـدك الناعـم فتلتـف عليهـا وتكرمهـا وتجعلهـا جـزءًا مـن جسـدك وروحهـا تصـير مـن روحـك.

كان هـذا الصـول يخـترق جسـد ضحيتـه الجديـرة بالاحـترام، فيصـل إلى روحهـا وبعـد أن يقـوم بطقـوس الحيـة معهـا، كان يعطيهـا شرف الامتـزاج بروحـه، إنـه يشـعر ويفعـل دون أن يعـرف تفسـير ذلـك، ولم يكـن الرائـد حسـن يعـرف ذلـك التفسـير إلا اليـوم.

إن عبـد العاطـي يصـل معهـم إلى نشـوة الوصـول إلى ثنائيـة السـيد الكامـل والعبـد الكامـل وهـي لحظـة لـذة مماثلـة للحظـة الـذروة الجنسـية وأشـد في متعتهـا، وكان يسـتخدم في ذلـك أحـدث وسـائل التعذيـب، والبدائيـة منهـا، ولم يكـن يحـرم ذلـك الشـخص الـذي اصطفـاه أن يتحـول إلى عبـدٍ كامـلٍ وكانـت اللـذة تـزداد مـع طـول مـدة المعانـاة في التحـول.

أراد حسـن أن يختـبر صـدق أفـكاره عـن العبـد والسـيد، وأن عبـد العاطـي لا يعـذب بـل يـمارس طقـوس، فـترك عبـد العاطـي مـع ضحيتـه بـل وأمعـن في إظهـار السـعادة لعبـد العاطـي كـي يوحـي إليـه برضـاه، فـلا يقلـق.

ومـا أن رأى الصـول السـعادة البادية عـلى وجـه الرائـد حسـن، فـزادت حماسـته وبخبرتـه في الشـخص الـذي يتعـذب، علـم أنـه مـن ذلـك النـوع الـذي لـن يعـترف، فشـعر بالسـعادة، وراحـت سـياطه تشـق ظهـر المعتقـل ومـع كل سـوط تتدفـق نافـورة دمـاء، ويـزداد الـصراخ، لكـن المعتقـل لا يتوسـل.

نظـر الصـول بإعجـاب إلى نفسـه، لأنـه يعـرف جيـدًا القماشـة التـي تحـت يديـه، وبـدأ يشـعر بمتعـة الوصـول، فلقـد اقـترب مـراده، وهـا هـو يتهيـأ لأداء طقـوس الحيـة مـع فريسـتها، واقتربـت لحظـة الـذروة، وكان الرائـد حسـن يراقـب الصـول عـن كثـب وانتظـر لحظتـه ومـا كاد يصـل إلى الـذروة حتـى قـام الرائـد حسـن وقـال آمـرًا:

- توقف

قالهـا بصـوت قـوي حاسـم، فـلا يـترك الفرصـة لعبـد العاطـي كـي يكـسر الأمـر، فنظـر إلى الرائـد حسـن بتنمـر، ولـولا معرفتـه بقـوة الرائـد حسـن التـي تفوقـه بكثـير، لفتـك بـه هـو الآخـر وليكـن مـا يكـون.

وتوقـف الصـول، عندئـذٍ تحـول وجـه الرائـد حسـن مـن صرامـة مفرطـة إلى رقـة بالغـة وقـال:

- فك المعتقل وعالج جروحه.

نفـذ الصـول الأمـر دون أن ينطـق بكلمـة، أو ينظـر للرائـد، لكـن عندمـا وقـف الرائـد أمـام آلات تعذيبـه غـير منتبـه للصـول، نظـر إليـه الصـول نظـرة المتعجـب وكأنـه يريـد أن يقـول إن شـيئا غـير طبيعـي أصـاب عقـل الرائـد حسـن، وقـال للصـول أنـت تمـارس طقـوس العبـد والسـيد.

نظـر الصـول ببلاهـة لمـا يقولـه حسـن، كانـت نظرتـه تلـك مماثلـة لنظـرة حسـن عندمـا توجـه إليـه اللـواء عبـد الكريـم قاسـم بالسـؤال مـع بدايـة التتلمـذ عـلى يديـه، وقـال لـه اللـواء هـل تريـد أن تصبـح سـيدًا أم عبـدًا؟

لاحـظ اللـواء تحـرج حسـن مـن الـرد ومحاولتـه المصطنعـة أن يبـدو خجـولاً أمـام أسـتاذه، فأكمـل حديثـه دون أي اعتبـار لمـا يبديـه حسـن مـن بلاهـة.

إن السؤال قد يبدو لا أخلاقي، لكن بعض الموهوبين فهموه، فصارت الإجابة هي مفتاح الحياة، ومعظم البشر فهموه دون تفسير فاختاروا أن يكونوا ما يريدون، سادة أو عبيدًا. وكثيرٌ لم يفهموه، فلم يعرفوا ذلك المعنى الخفي للحياة، فتنتهي بهم الحياة إلى اختيار واحد، وواحد فقط هو الانتحار؛ الخروج من الحياة.

اختر واحمل على كتفك تبعات اختيارك، واعلم أن السيد هو الفاعل، والعبد دومًا مفعول به فإن اخترت أن تكون سيدًا فلا تأبه لصرخات العبد تلك، لأن العبد من طقوسه الصراخ، فإن لم تجعله يصرخ فقد منعته حقه، وسينقلب عليك بحثًا عن سيد آخر أكثر ارتقاءً منك وأكثر فهمًا لروح العبد.

- استغرب حسن آخر كلماته وسأله هل هناك ارتقاء للسيد؟

- هناك ارتقاء للسيد حتى يصل إلى حقيقة السيد الكامل، كما أن هناك ارتقاء للعبد حتى يصل إلى العبد الكامل.

- واعلم أن سوء الاختيار قد يجلب عليك مشاكل لا حصر لها.

- كيف؟

إن كنت عبدًا واخترت أن تكون سيدًا، فسوف يثور عليك العبيد لاستبدالك بسيد حقيقي.

- هل يثور العبيد....؟

- نعم، يثور العبيد.

- كيف أعرف الفرق بينها وبين ثورة السيد؟

ثورة العبد سوف تعرفها من بحثه، فهو يبحث دومًا عن سيد آخر حتى وإن غلف كلامه ببعض شعارات السيد، والذي تكون ثورته بحثًا عن قيمة فهو لا يحتاج إلى سيد آخر.

- هل يصنع الخوف عبيدًا؟

ضحك اللواء وأكمل، يبدو أنك لم تفهم ما قلت، إنها يا صديقي من متطلبات العبودية التي يجب أن يحملها على كتفه.

انظر يا صديقي إلى أعداد العبيد والسادة على مر العصور، فالسادة دائمًا أقل بكثير، حتى أو ربما ليس هناك مقارنة بين العددين، فالسادة قليلون جدًا.

ربما لأن السيد يملك من أسباب القوة الكثير.

السيد هو فرد، وإن حمل سلاحًا فهو فرد أمام أمة من العبيد.

كان هذا أشد ما حير العقل البشري، كيف لسيدٍ واحدٍ أن يسيطر على كل هؤلاء؟ فلما لم يستطع أن يصل عقله إلى تفسير، نراه يلحق صفات أسطورية بهذا السيد.

انظر في روحك واعرف من أنت، ولا تحزن إن وجدت نفسك عبدًا، لأن هناك علاقة عضوية بين السيد والعبد تضفي كثيرًا من المتعة، مثل التي بين الليل والنهار، الخير والشر، الصياد والطريدة.

– لا أستطيع أن أصدق أن العبد يستمتع من تلك العلاقة، ويجد لذة في ذلك.

– لماذا يعبد الإنسان؟

– لأن الرسل تأمره بذلك.

وقبل الرسل ألم يعبد الإنسان؟ ألا تتذكر كفار قريش؟ كانوا يعبدون يغوث ومنات، وكان هؤلاء العبيد يبكون بجانبها، وإن لم يبكوا فيتباكون، يتضرعون إلى السيد... وفي الحقيقة إنهم لا يتضرعون إلى السيد وإنما يبحثون عن العبد بداخلهم، لذة العبد الكامل الذي لا يحضر إلا إذا وجد السيد الكامل الذي يفترض وجوده أو استحضاره هي "ممارسة طقوس استحضاره".

شعر حسن يومئذٍ أنه يقف أمام شخص استثنائي.

أنهى اللواء درسه باسمًا وقال يجب أن تبحث في روحك وتعرف ما هي عليه وتقرر ما سوف تكون.

راودت حسن خيالات كثيرة، إن قرر أن يصبح سيدًا، وأفكار أخرى عن الحاكم السيد الذي يستعبد شعبه، عندئذٍ طاف سؤال بذهنه وشعر أنه يستطيع أن يباغت اللواء به.

إن ما تقول يتناقض مع المواثيق الدولية، فهل سيسمح العالم الحر بذلك؟

كل العالم يستمتع بذلك، فدول اختارت أن تكون آلهة تعبد وأخرى اختارت أن ترزح تحت نير العبودية، ولا تعتقد أن من يحكمون تلك الدول هم سادة بل عبيد انتقتهم تلك الآلهة بعناية شديدة.

ذلك لقوتها وبطش آلتها العسكرية والاقتصادية الجبارة ؟

ذلك ليس صحيحًا، فإن الحرة تموت ولا تأكل بثدييها، أما القوة العسكرية فإن الغازي مهما امتلك من قوة فلن يستطيع أن يسيطر على وطن من الأحرار ببساطة لأنه لن يبقي كل جنوده على تلك الأرض إلى الأبد، لذلك يختار أحد العبيد بعناية ويجعله سيدًا بالوكالة على قوم من العبيد والكل مستمتع، ثم يوجد العبد لنفسه المبرر الذي يحتاجه، والسيد يوجد لنفسه المبرر الذي يحتاجه.

- أتدري لماذا؟

- لماذا؟

- لأن كليهما يوجد المبرر العقلي الذي يحتاجه الآخر.

- لذلك إن أصبحت سيدًا، أوجد لعبدك المبرر الذي يستطيع أن يبرر به فعلك وإن لم تجد، فاجعل عملك سريًا وكن مرتاحًا إلى أن ما تفعله هو عملٌ مشروع.

ومرت سنوات أمضاها حسن متنقلاً من نجاح إلى نجاح، و على الرغم من أنهم يصفونه بغريب الأطوار، إلا أنهم لقبوه بسيف الله المسلول، الذي يسلطه على أعدائه، فيفتك بهم، فهو يستطيع فك رموز أي قضية. كان رؤساؤه يقولون بأسى شديد فيما بينهم، لو كان أبوه من التنظيم لأصبح له شأن كبير ولاستطاعوا أن يضموه إلى شعبة أمن المرشد فإنه أكفأ من أقرانه هناك بكثير ولانفتحت أمامه كثير من الأبواب المغلقة.

وكانـت تلـك التقاريـر عـن نجاحاتـه وتفوقـه اللافـت، تغضـب رجـال كثـر مـن شـعبة أمـن المرشـد، وهـي الشـعبة الأعـلى في نظـام الأمـن المـصري وهـم الأكثـر سـطوة ونفـوذًا في دولـة الخلافـة وأيضًـا الـذي باعـد بينـه وبـين الشـعبة وجعـل التحاقـه بهـا مسـتحيلاً.

هـو مـا عـرف مـن أمـر صداقتـه باللـواء (عبـد الكريـم قاسـم) وخاصـة بعـد اختفـاء اللـواء المريـب، بعدمـا سـدد بعـض اللكـمات لنظـام الحكـم، لكـن ولله الحـق عـلى الرغـم مـن تتلمـذ حسـن عـلى يـد سـيادة اللـواء إلا أن إيـمان حسـن المطلـق بالنظـام لم يهتـز، وأن مـا قالـه اللـواء ممكـن تبريـره بغضبـه مـن فسـاد بعـض الرجـال حـول مولانـا أو اكتشـافه أخطائهـم لكـن ليـس خروجًـا عـلى الخلافـة أي خروجـه مـن رقبـة الإسـلام والعيـاذ بـالله فسـيادة اللـواء أجـل مـن ذلـك.

ولم يكـن إيمانـه الصـادق بالنظـام الحاكـم هـذا هـو مـا قـد حمـاه مـن ضبـاط أمـن المرشـد حينـما تـم التحقيـق معـه عـن طبيعـة العلاقـة بينـه وبـين ذلـك اللـواء، لكـن تدخـل مولانـا "محمـد عبـاس، نائـب المرشـد".

عـلى الرغـم مـن تيقنهـم مـن أن اللـواء قـد أعطـاه عنـوان المـكان الـذي سـوف يسـتقر فيـه، وهـذا بالضبـط مـا يريـدون معرفتـه، لكـن حسـن لم يعـطِ أي إشـارة تفيـد بأنـه قـد يتعـاون في ذلـك الأمـر، وأنكـر تمامًـا.

ظـل حسـن مراقبًـا لفـترة، ومـع تباعـد المـدة بـين فـرار اللـواء عـادت ثقـة الجهـاز في حسـن، وعـاد إلى حسـن تقديرهـم لعملـه وأوكلـوا إليـه مـرة أخـرى، كـبرى القضايـا.

لكنـه اليـوم قـرر الاسـتقالة مـن عملـه وظـل كلام سـيادة اللـواء جـزءًا في فضاء عقلـه لا يعـرف فلسـفته بحـق إلا عندمـا قابل الشـيخ.

ولقـد كان لقائـه بالشـيخ شـيئًا اسـتثنائيًا، غـير مجـرى حياتـه، لأنـه لم يكـن رجـل عـادي أو مجـرم عـادي، حسـب التوصيـف الشرطـي والقضائـي. كان شـيخًا جليـلاً مـلأ السـمع والبـصر، وكانـت قضيتـه بالغـة التعقيـد، اسـتطاع حسـن أن يفـك رموزهـا، ولم تكـن براعـة منـه.

بدأت القضية بحادثة قتل لزوجة رجل مهم، سبقه اختفاء زوجة الشيخ.

بدأ حسن كالعادة وبحث عن آخر اتصال أجرته تلك السيدة وكان مع ذلك الشيخ وعند سؤال الشيخ، أجاب إنها أرادت أن تستفتيه في بعض أمور دينها وعلى الرغم من منطقية الإجابة إلا أن خبرة حسن دفعته إلى عدم التصديق بحث مرة أخرى في مكالماتها وكان شيئًا مذهلاً أنه قد وجد اتصالاً يوميًا بينها وبين الشيخ.

فسأل حسن الشيخ عن ذلك فقال: إن تلك السيدة كانت من النوع المتشكك الذي لا يثق في نفسه، فيحتاج إلى فتوى في كل شيء، ولأنها كانت من علية القوم فلم يكن باستطاعته أن يرفض لها اتصالً.

نظر حسن إلى الشيخ وقال: إن وصولك إليّ يعني أنك لم تعد محميًا وغير مرغوب فيك. عليك أن تجيب حتى تستطيع إنقاذ نفسك إن شئت.

ابتسم الشيخ ابتسامة الظافر، ابتسامة حملت الكثير من المعاني، فقد أنزل الرائد حسن من عليائه، فطلب حسن الصول عبد العاطي، فنظر الشيخ إلى

الرائد نظرة الظافر المسيطر على الأمور، وأن الرائد حسن سيفعل ما يريده.

عندئذٍ شعر حسن بكره شديد لهذا الرجل، فلم يترك لعبد العاطي فرصة الفتك به، ولكن تولاها هو، وراح يذيق الشيخ من فنون التعذيب، قديمها وحديثها،

لكن الشيخ كان متماسكًا قويًا ولم تنهار همته تحت لهيب السياط، وظل الرائد مصممًا، فقد كان تحد ولم يكن لمثل حسن أن يخسر تحديًا.

ومع اقتراب وفاة الشيخ، اقتربت لحظة الانتشاء لدى حسن، وكأنها لحظة الذروة، ومع اقتراب تلك اللحظة، التي سيطر فيها حسن على روح الشيخ، ثم إدراكه أنه الآن ملك ممكن أن يهب الموت.

إنها لحظة السيد الكامل، واهب الحياة والموت، فبدأ يشعر بخوف يتسلل إلى روحه من أن الشيخ قد يفعلها، ويعترف، فخلطت روحه بين اقتراب الانتشاء واستعجاله، حتى يدرك تلك اللحظة، لكن الشيخ نظر بابتسامة إلى عيني حسن وأدرك حسن مغزى الابتسامة وسمع الشيخ يقول بصوت قاطع سأعترف.

فتوقف حسن على الرغم من أن باستطاعته أن يكمل ويقتله.

لكن توقف! وقاوم موجات من الانكسار، لكنه لم يستطع أن يوقف موجة غضب اجتاحت وجدانه، تحولت مع كتمانها إلى موجة كره.

تجاهلها الشيخ الذي قال مرة أخرى مؤكدًا، سأعترف.

نظر حسن إليه بتوجس غير مصدق وقال لنفسه: هل ينوي التلاعب بي؟

كانت نفس الرائد حسن قد مالت للهدوء بعد خروجه من حالة الاهتياج التي كان عليها، ولم يمهله الشيخ كثيرًا ولم يدعه لحالة التفكير، راح يروي قصته بتعبير فج، غير جيد بالنسبة لشيخ جليل.

كانت تلك المرأة ذات صوت أخاذ.

جاءني اتصال منها، لم أكن أعرفها وعلى الرغم مما كنت أدعيه، أو أحسب نفسي عليه، أو إن شئت قل كنت مسجونًا في وعيي تحت دعوى تقواي وورعي، تمنيت أن يطول حديثنا.

فيما كان حديثكم؟

كانت تستفتيني في بعض أمور حياتها، وعلى غير العادة رحت أدلل على فتواي، كي يطول الوقت، وكان فهم الأدلة أصعب وأقسى من فهم الفتوى. فاستدعتني إلى قصرها ولم أستطع أن أرفض طلبها أو أجد في نفسي قدرة على دفع الأمر عني وكان لدي إلحاح داخلي وتساؤل، هل صاحبة الصوت أجمل من صوتها أم صوتها أجمل؟

- و هل يا ترى هي تلبس نقابًا أو إنها سافرة الوجه؟

- هل ستكلمني من خلف حجاب أم سوف تمن عليّ وتطالعني بجمالها؟

- آه، أسئلة كثيرة طافت بذهني،

لم يمض وقت كثير حتى توقفت سيارة فارهة أمام بيتي، وقبل أن يطرق سائقها بابي، وجدني واقفًا أمامه.

كاد قلبي يخرج من بين ضلوعي عندما وصلنا إلى باب القصر، أجلسوني على كرسي في مواجهة السلم الداخلي للقصر، لا أدري إن كان جلوسي في ذلك المكان كان مصادفة، أم أنه كان أمرًا مدبرًا منها.

نزلت كملكة تجر في زينتها، وخلفها كانت الجواري.

آه لو تدري ماذا قد أصاب فؤادي.

كانت يا سيدي، فاتنة كالآلهة، فيها من سحر ربات مصر القديمة.

نظر حسن إلى صورتها مرة أخرى ورأى ما لم يكن يراه من قبل، نعم إنها فاتنة بل لم تكن فاتنة وفقط...

ثم أطرق لوصف الشيخ لها وراح ينصت باهتمام إلى شيخ يصف امرأة مميزة وبدأ في وصفه كصوفي في محراب العشق.

كانت جميلة مثل الزنبق الأبيض، شهية بطعم النرجس، شفاهها مصبوغة بلون الكريز، أي امرأة مثلها كانت أعز من أن تمنح نفسها لأحد.

جلست بجانبي ولا أدري لما منحتني ذلك الشرف شرف الاقتراب وتنفس

رائحتها المتصاعدة.

نظر حسن مرة أخرى للصورة، ورأى مع الوصف أشياء لم يكن يراها، وأكاد أجزم أنه قد شم رائحة الزنبق الأبيض.

انتظرت أن تتحدث مع أمنية ألا تتحدث، لشعوري بأني راهب في محراب الجمال، فخفت أن تتحدث فتقطع الحلول والاتحاد في روحها العليا.

لكن الأسئلة هي أسوء ما يواجهه صفاء راهب، فخرجت من الاتحاد على أسئلة مثل، لماذا اختارتني ولأي ميزة في قد اصطفتني حتى الآن لا أدري، ولحسن حظي لم يكن هناك وقت لأسأل.

- منذ متى وأنت تعرفها ؟

- ما يزيد على عامين.

- ولم يكن لديك وقت........

نظر حسن إلى صورتها مرة أخرى، فرأى أشياء لم يكن يراها وقال ما لهذه المرأة، كيف تكون، كلما رأيت صورتها شعرت بشعور مختلف وأرى أشياءً لم أكن أراها.

- قرأ الشيخ ما يدور في عقل حسن وقال تحسس روحها.

- كيف ؟

مرر أصابعك على صورتها واغمض عينيك وسترى.

فعل حسن ما قاله الشيخ واعترى عقله بعض التشوش الذي سرعان ما صفى، راح يشعر بها بل يقترب منها ولمس روحها وتاه حسن معها.

لكن الشيخ أيقظه عندما قام بالنداء عليه وشعر أنه يأتي من مكان بعيد.

نظر حسن إلى الشيخ بعين معاتب تقول لما لم تتركني؟

وجلس بين يدي الشيخ كتلميذ أمام أستاذه، لا يقاطعه بل ينهل من فيض علمه

ونسى أنه محقق أمام متهم.

أسكرني حديثها، اقتربنا، لم تكن أحاسيس جنسية التي راودتني بقدر ما كانت طقوس عبادة. وفي ذروة الشوق أصدر التليفون أزيزًا معلنًا منع الاقتراب أكثر، كان من زوجها، أنا أتذكر كان من زوجها الوزير، يخبرها أنه لن يحضر اليوم. وكان إعلانه منع الاقتراب إعلانًا كاذبًا لأني أحسست بالأمان.

فتحررت أكثر وأكثر، كان الخوف يكبلني عن المجازفة، كنت كمن يقف بجانب الشط يرى البحر الهائج يدعوه للسباحة، فلا يمنعه إلا الخوف لكن مع شدة السكر فيها، قررت أن ألقي بنفسي، على الرغم من أنى لا أعرف فن العوم.

ألم تخشَ أن تصدك؟ ألم تخشَ أن تبعدك عنها؟

بعدما تكلمت مع زوجها رأيت عينيها كانت فرحة لغيابه، وحسبت أنها إشارة قبولي ووجودي بقربها، فتركت كل المخاوف ورائي، قررت أن أغامر ولا أخفيك سرًا، رحت أنصب شباكي حولها، وانتظرت رغم الشوق، لكنها قطعتها؛ قطعت شباكي كلها.

لم أكن أنا الصياد، بل كنت الفريسة!

ذكرتني أنني العابد أمام ربته، فلا يجوز لعبد أن يطلب.

انتظرت كثيرًا والشوق يأكلني، ورأيتها تطلبني، اقتربنا، امتزجنا. تسمع كثيرًا عن اللذة في لحظة الذروة بين ذكرٍ وأنثى، إنها لا شيء إذا ما قورنت بتلك بين عبدٍ وربه.

أنا يا سيدي، المتزوج مرتين، لم أشعر يومًا بمثل ما شعرت به يومها من لذة، لكن مولاتي لم ترض.

نظرت إليّ باشمئزاز، وقالت إن هذا ليس جنسًا، إن ما قمت به معي كان هراءً.

هل قتلتها من أجل ذلك؟

نظر الشيخ إلى حسن نظرة المؤنب، تعني اصمت إن جلست في حضرة الأستاذ. فهم حسن الرسالة وشعر لأول مرة أنه طفل غرير، يؤنبه أستاذه، فلاذ بصمته وتضائل رغم حجمه الكبير في كرسيه.

قالت سأنتظرك غدًا، فقلت وأنا مطأطئ الرأس، أنا لم أتذوق مثل هذه اللذة، نظرت إليّ، أتذكر نظرتها، أشعرتني كم أنا مسكين.

أراد حسن أن ينظر إلى صورتها مرة أخرى، لكن خوفه من أن يغضب أستاذه دفعه إلى مقاومة تلك الرغبة، لكن لم يستطع أن يمنع لسانه من السؤال.

ألم تشعر بتأنيب الضمير من فعل منافٍ لما تؤمن به بعدما هدأت نفسك وعدت إلى بيتك؟ومن قال بأن النفس قد هدأت؟ إن النفس قد علمت.

شعر حسن بعدم الراحة لإجابة الشيخ لكنه لم يعلق.

ذهبت اليوم الثاني دون اتصال، فدخلت وأجلسوني في نفس المكان الذي جلست فيه بالأمس، انتظرتها أن تنزل، شعرت بثقل الوقت على نفسي وكان صبري نابعًا من معرفة حجمي، فأنا عبد ينتظر ربته، سأظل أنتظرها ربما هي تستعد لتعليمي، وتلبس أبهى ثيابها، دعني لا أسرف في التوقع، قلت لنفسي ذلك.

ولم تمض غير لحظات حتى سمعت صوت حجرة تغلق بالطابق الأعلى، وأقدام تقترب.

اعتدلت في جلستي وانتابتني موجة سعادة، لم أستطع أن أغلق شفتي، وتركتها معلنة بتلك الابتسامة سعادتها، لكن سرعان ما زالت الابتسامة مع اقتراب الأقدام وتحول وجهي من لونه إلى لون آخر، وبردت أطرافي فقد كان سيادة الوزير.... زوجها هو الذي استقبلني!

عندئذٍ راح الشيخ في إغفاءة، لكن الرائد حسن حاول إيقاظه، فلم يعد يطيق صبرًا، يريد أن يعرف، لكن لم تفلح المحاولات التي قام بها لإيقاظ الشيخ. الرائد حسن، يعلم جيدًا أن الشيخ قد أنهك من التعذيب، لكن يريد أن يعرف ما الذي فعله الوزير مع الشيخ. هل علم بما حدث بين الشيخ وزوجته؟ أم أن الشيخ استطاع خداعه؟ أم أن شيئًا آخر قد حدث؟ هل قتلها الوزير؟

نظر حسن إلى الشيخ ولسان حاله يقول استيقظ، أرجوك!

استيقظ مولانا مبتسمًا وقال لحسن: أرأيت لذة أن تصبح عبدًا؟ لم ينتبه حسن إلى تلك اللذة لكنه أدرك أنه اختبرها.

وأنا أيضًا استمتعت بكوني السيد، واستطرد الشيخ؛شعرت يومها بخوف شديد، فابتسم حسن لسماعه تلك الكلمة، فقد اعتقد أن هذا الرجل لا يخاف أي شيء، حتى الموت لا يهابه، وكأنه قد ولد هكذا، رجل بلا قلب.

لم يكن خوفي من هذا الوزير خوف عبد لسيده، وإنما كان خوف من ذاق لذة القرب وخاف أن يفقدها، لكن سرعان ما هدأت بعض مخاوفي بعدما طلت عليّ مولاتي من خلفه.

نزلت ببهائها، ربة كانت، لم أستطع أن أتمالك نفسي ونسيت سلطان زوجها وأي شيء يداني سلطان القرب من تلك الربة.

وماذا فعل زوجها، هل قتلك؟

ابتسم.

انتابت حسن غصة، تلاها قلق نفسي، لأن هذا الوزير يشغل كرسيًا مهمًا داخل التنظيم، وهو داع من دعاة الفضيلة، وغالى في تشدده حتى أصبح مقصدًا لكل المتشددين، وأصبح عنوان الفضيلة والتدين وكان حسن ينظر إليه بالتبجيل والاحترام عندئذٍ قال حسن مستنكرًا وكأنه يحدث نفسه، ابتسم؟

نعم ابتسم لكني كنت مشغولًا معها عن التفسير، فأنا في حضرتها، أعطتني يديها فقبلتها.

ماذا فعل الوزير.

ابتسم

شعر حسن بأن الرجل يهذي، وقال لا يمكن أن تكون صادقًا.

إن شأنك مثل كل العبيد، لا يصدقون أن أسيادهم بهذا الضعف، فلا يصدقون أفعالاً تأتي من السيد حتى، ولو رأوها، ثم يبررون ويا ليتهم يبررون فعلته إنما يبررون........

أتقول بأنني عبدٌ؟

أجـاب الشـيخ بابتسـامة سـاخرة ثـم صمـت، لكـن حسـنًا لم يسـتطع صـبرًا فقـال:

اكمل.

لم تمهلنـي مـولاتي، ولم تتركنـي لمخـاوفي، وبـدأت طقـوس المتعـة، طقـوس التحـرر.

– طقوس؟ هل للجنس طقوس؟

– كل عبادة لها طقوس.

تحسـس حسـن مسدسـه في تلـك اللحظـة، أراد فعـلاً أن يقتـل الشـيخ، وأراد أن يخفـف مـا يشـعر بـه.

وقال تقصد مثل الطقوس السحرية؟

لم يفهـم الشـيخ مـا قالـه حسـن، فهـو لا يفهـم الفـرق، فهـو يـدرك أن السـحرة يـؤدون طقـوس العبـادة التـي يؤمنـون بهـا، وهـم بشـكل أو آخـر عبيـد للسـيد الـذي يعتقـدون أنـه السـيد والسـاحر، عبـد مـن العبيـد التـي اصطفاهـا السـيد.

أتـدري أنهـا لم تكـون طقـوس جنـس؟ لكنهـا كانـت طقـوس اسـتخراج العبـد والسـيد. وكان الجنـس أحـد طقوسـه، دخلـت غرفـة نومهـا ودخـل الـزوج معنـا وكانـت الغرفـة تحتـوي عـلى بعـض آلات التعذيـب البدائيـة، أصفـاد وسـوط وبعـض بطاريـات السـيارات وأشـياء أخـرى لم أرهـا مـن قبـل!

أزاح الـزوج الثـوب عـن زوجتـه برقـة بالغـة، قطعـة قطعـة، وكان كريـماً، فقـد كان يقاسـمني رائحـة ثيابهـا، كانـت امـرأة لهـا رائحـة، واعلـم أن هنـاك نسـاء بـلا رائحـة، هـم بـلا روح، فـلا تقربهـم، ثـم جلـس بعدمـا ظهـر بهاؤهـا.

كانـت عجيبـة، لـو رأيـت جسـدها كل يـوم فلـن تمـل أبـدًا لـذة النظـر إليـه، وكلـما نظـرت إليـه تجـد فيـه حُسـنًا، لم تكـن تـراه مـن قبـل، جلـس الـزوج عـلى كرسـيه وأشـعل سـيجارة وارتشـف بعـض النبيـذ مـن كأسـه، وراح يراقبنـي عـن كثـب.

- هل كان يحبها؟

- بل قل كان يعشقها.

مررت بيدي على مرتفعاتها وهضابها، وكنت كلما توقفت يدي، ترجوني عينيه أن أكمل، قبلتها وقبلتني قبلة غجرية لم أذق مثيلاً لها يومًا.

تعريت، تحررت من كل ثيابي، تلاصقت، وأعلن ذكري عن استنفار، أراد أن يدكّ حصون تلك الأنثى، لكن يا سيدي وبصدق، لم تكن تلك اللذة التي ذقتها، كانت تفوق مثيلاتها بالأمس كثيرًا، وشعرت ببعض الخيبة، فلم أحصل على ما وعدتني به، وأنا أعلم أن ربتي حرة، والحر لا يكذب. راودني شعور بالضيق وهممت بالانصراف، عندئذٍ قام الزوج وشاركني تقييدها، وبدأنا ممارسة طقوس استخراج العبد والسيد!

إنها طقوس يرى الإنسان نفسه بكل وضوح بين تلك الثنائية؛ عبد أو سيد. أكرمني زوجها مرة أخرى وتركني أكمل منفردًا الطقوس.

آه من ذلك الإحساس، عند تحرر السيد الكامل منك، أظنه شعور لا يدانيه إلا وصول المعذب والمنتهك المخترق جسده بشكل عنيف إلى العبد الكامل، واعلم أن طريق الوصول إلى الصورة الكاملة ليست سهلة، وعلمت بعد ذلك أن الوزير لم يكن كريمًا كما اعتقدت، لكن سأروي لك ذلك. بعد أن انتهينا من ممارسة تلك الطقوس، سألت الرجل:

- أليست زوجتك؟

- قال: هي زوجتي.

- قلت: ألا تحبها.

- قال: بل أعشقها.

واستطرد الوزير في حديثه، وأجاب عن سؤال لم أسأله، هو إحساس بلذة لن تختبرها إلا بالتجربة، إنها أقصى ما يستطيع المرء تخيله.

- هل جربته؟

أقنعت أحب زوجاتي إلى قلبي، أن تشاركنا تلك الطقوس. راحت تتحرر من الثوب المهلهل المسمى ثوب العفة، الذي يحرمنا من لذة المعرفة أو لذة الوصول. حقرني في نفسك كيفما شئت، لأنك ما زلت خائف. سوف ترقب ما أقول وتحب أن تسمع ما أقول، لكن خوفك من أن تعرف من أنت، سيبرر لك أن تنعتني بأقصى الألفاظ وأشدها وكلما خفت أكثر زاد حنقك عليّ وكرهك لي ومحاولة الابتعاد عني، لكنك لن تستطيع.

أتدري لماذا؟ لأنك تريد أن تتعرى، كي ترى نفسك، لكنك خائف لذلك صب عليّ ما شئت من غضبك.

بدأت أختبر اللذة إلى أن وصلت معها الطقوس مداها، كانت هي الأخرى موهوبة.

أما أنا فشعرت بإحساس لم أعهده من قبل، إنه إحساس لن أقول لك أكثر مما قاله لي، لن تشعر به إلا عندما تختبره، لكن سأصف ذلك الإحساس الفلسفي، إنه إحساس خليط بين السيد والعبد في نفس الوقت، إنه المزيج، أعلم أن العبد والسيد هي متلازمة الإنسان وأعلم أن الآلهة دائمًا ما يحتاجون إلى عبيد، كما أن العبيد دائمًا ما يحتاجون إلى آلهة.

وأعلم أننا نستطيع أن نصبح آلهة، كما نستطيع أن نصبح عبيدًا لكن اعرف ما تريد أن تكون. سيداً أم عبداً؟ واعلم ما أنت عليه جيدًا.

إذن كيف قتلتها؟

صمت الشيخ ولم يجب، بل ترك ابتسامة واعترافًا مكتوبًا بأنه قد قتلها.... ترك الحديث مع الشيخ انطباعات مختلفة على نفس حسن، وبالطبع لم يذكر أية كلمة مما قالها الشيخ في تحقيقه، بل رتب القضية كما أراد ووضع الشيخ إمضاء، لكن لم يستطع أن يفلت من التفكير فيما قاله الشيخ، بل إن هذا

الـكلام أنعـش ذاكرتـه، ليتذكـر حديثًـا تـم بينـه وبـين اللـواء (عبـد الكريـم القاسـم) في مقتبـل حياتـه المهنيـة.

لكـن كلام الشـيخ كان أوضـح وأكثـر تأثـيرًا عـلى نفـس حسـن، لأن فلسـفة الـكلام كانـت مقرونـة بتجربـة عمليـة اختبرهـا الشـيخ بنفسـه، فكانـت أكثـر صدقًـا وتأثـيرًا وأكثـر قـدرة عـلى التبـصر، فـرأى حسـن العـالم مـرة أخـرى بنظـرة مختلفـة.رأى حسـن أن عملـه اسـتطاع أن يسـتعبد روحـه، وأصبـح حسـن دون أن يـدري عبـدًا للنمـط، وشـعر بثقـل النمـط عـلى قلبـه، ثـم نظـر في المـرآة وقـال لنفسـه أهـذا الشـخص أنا؟هـل كان يسـأل عـن تغـير طـرأ عـلى وجهـه؟ أم تغـير طـرأ عـلى روحـه؟ أم كليهـما؟

كان هـذا السـؤال تحـولاً كبـيرًا في حيـاة حسـن، إنه إنـذار للنفـس الرتيبـة للفكاك مـن أسر العبوديـة؛ للفـكاك مـن ذلـك القيـد المعنـوي الـذي يطفـئ طاقـة الـروح، ويمنعهـا مـن التجـدد، ويدفعهـا دفعًـا إلى الانحـلال الـذاتي ثـم الفشـل بعدمـا أنهـى حسـن اسـتعداداته للرحيـل.

قـام حسـن مـن عـلى مكتبـه بعدمـا انتهـى مـن مسـببات الاسـتقالة، التـي يعلـم أنهـا ستسـبب دويًـا هائـلاً في الـوزارة، قـد يسـتتبعه اسـتدعاء الوزيـر لـه.

أو قـد تجعـل أمـن المرشـد يفتـح تحقيقًـا موسـعًا يسـتدعي أشـياء قديمـة يربطونها باليوم.

لكـن مهـما يكـن سـأكون سـيدًا، سأسـترد روحـي وأتحـرر مـن قيـد ذلـك العمـل، خـرج مـن المكتـب تملـؤه الحماسـة متجهًـا إلى مكتـب السـيد اللـواء مديـر شـعبة أمـن النظـام.

كان جمـع مـن الضبـاط في الخـارج يتحركـون مسرعـين في خطاهـم، كـما هـي العـادة، لكـن كان جميعهـم يتحـرك باتجـاه مكتـب مديـر شـعبة أمـن النظـام.

(٣)

ضغطت بقوة على دواسة البنزين، كي تهرب بأقصى سرعة، كانت تريد أن تهرب من خوفها ومن هذا الضغط العصبي الذي تعرضت له منذ توقف سيارتها أمام هذا المبنى المرعب، ثم تلاه ظهور الرجل اللغز الذي توفي ثم اختفى، ثم محاولتها إثبات أنها ليست كاذبة أو مجنونة أمام الضابط. لذلك لم تشغل بالها بالبحث عن الخاتم دليل براءتها وسلامة قواها العقلية، كل الذي سيطر على ذهنها هو الهروب!

وهو من عاداتها القديمة، فلا ملجأ من أي ضغط يقابلها غير الهروب، ينقلها دومًا من حالٍ إلى حال، تعلمت منذ صغرها فن ممارسة الهروب.

فقد كان ضباط أمن النظام ضيوفًا شبه دائمين على والدتها، فما تكاد تخرج من المعتقل حتى تراهم، وكان هؤلاء الضباط يتعمدون ممارسة الإيذاء البدني واللفظي لأمها أمامها، وكان في بادئ الأمر ينتابها موجة صراخ خوفًا على أمها، يتبعه حالة فقدان الوعي، لكن عقلها على ما يبدو قد طور طريقة للتغلب على الألم والخوف الذي تعانيه؛ عن طريق غلق المسارات العصبية لمناطق الخوف والألم النفسي وهي حالة الهروب والانتقال من ذلك العالم المر إلى عالمها الافتراضي، الذي تجد فيه بعض السكينة، فتنتقل من حالٍ إلى حالٍ مغايرة تمامًا.

وضعت الفلاشة في الكاسيت، أرادت أن تسمع فيروز، كانت أمها تقول إن فيروزًا نسمة صيف رقيقة فوق موجة بحر حالمة، ما أن تسمع صوتها حتى تسبح بك بعيدًا فلا تكون إلا معها، إنها فيروز، وهذا ما تحتاجه د- هالة الآن.

وصلت شقتها ثم ارتمت على سريرها مستلقية على ظهرها، شاخصة بنظرها عابرة لهذا السقف، إنها تنظر في فراغ العقل اللامتناهي.

استيقظت هالة من نوم عميق، اكتشفت أنها قد غاصت فيه دون أن ترتدي ملابس الغوص الخاصة بالإبحار في بحر النوم.

آه لو رأيتني الآن يا أمي وأنا نائمة بملابس العمل لتغيرت فكرتك عني تمامًا. كانت أمها معجبة بشخصيتها المرتبة ودائمًا ما كانت تثني عليها،

شعرت هالة بعرق النوم الذي لم تكن تطيقه يومًا، فقامت مسرعة إلى البانيو وتركت الماء ينساب فيه حتى امتلأ، كانت قد تخلصت من كل ملابسها ووقفت أمام المرآة عارية لتتخلص من ماسك الشعر الذي تستخدمه لتثبيت شعرها الطويل المنهدل ذا السمرة الفاتحة تحت الخمار ومع إتمام عملها وتمكنها من إزالة آخر ماسك، تهدل شعرها على صدرها فترك جزءًا من الصدر عاريًا وآخر مختبئًا خلف الستارة الحريرية من الشعر، في منظر لم يبدع إلا فنان واحد في رسمه، الانتخاب الطبيعي الذي يمسك بفرشة الحياة تلك المسماة ((DNA!

أدهشها الجمال البادي إلى حد أن جعلها تستدير لتعطي ظهرها للمرآة، ثم تستدير بعنقها للخلف كي تشاهد ما تبقى من اللوحة، ذلك الجزء شديد التماثل والنضارة في نصفه الأسفل وكان وصول الشعر بين شقي التماثل ليكون كبندول ساعة بين الجزأين شبه المستديرين المنفرجين إلى أسفل، ثم استدارت إلى المرآة مرة أخرى ووقفت تشاهد مرة تلك اللوحة الفنية التي أسرف الفنان في إضفاء لمسات الجمال عليه.

لكن سرعان ما خرجت من سحر الجمال إلى غصة واقعها الأليم.

فهي مثل كل فتاة شرقية تنتظر الذكر الذي سيأتي لكي يشعل تلك الأرض نارًا ثم يغرس علمه في أرضها معلنًا وصول الفيض مداه، ناشرًا في أرضها بذور اللذة، الذي يعرف كيف يعزف على أوتارها.

أقسمت من طول الانتظار إن أتى ذلك البحار، فلن تحرمه من أي مرسى وستتركه يغرس علمه في أي وادٍ ارتضى، وستستخرج كل فنون الرغبة وستضعها بين يديه. إن أرضها عطشى إلى الماء، ظمأى إلى حبه، وكانت غصتها أنها مع كل هذا الشوق تنتظر.

يصل الشوق مداه و يكاد يفتك بها في قمة الموجة قبل الانحسار ويكون دومًا انحسارًا مصحوبًا بالأسى على حالها، لأنها مثل كل بنت شرقية هي المفعول به، هي لن تذهب أبدًا كي تخطب وإن فعلت فقد تخطت قيم الزيف التي وضعها الرجل ليشعر أنه الفاعل، أنه المسيطر، وخضعت الأنثى! لذا عليها أن تمثل، ويجب أن يظهر امتثالها في إظهار حياء مصطنع يصحب ذلك وصلات مدح وحمد من الذكر لأنه سيحصل على عبدة جيدة مفعول بها.

لن تصبح يومًا فاعلاً، لأنها دومًا مفعول به، وستحرص دومًا على أن تكون جزءًا منه، ممسوخة روحها في روحه، فهي لا شيء بدونه فهي تحيا بحياته وتموت بموته.

إنها طائعة، إنها لا شيء، إنها الأنثى الشرقية صاحبة الحياء، مختومة بختم غشاء البكارة، عذراء، هكذا يصفونها إنها امرأة شريفة وغشائها دليل على عذرية قلبها، وأنها لم تحب وأن قلبها ما زال فارغًا بانتظارك أيها الذكر كي تملؤه، ويمدحها الذكر الأحمق أنها امرأة ذات خلق ودين، لأنها استطاعت أن تحافظ على أعضائها التناسلية من الخدش.

عليها أن تظل منتظرة، تتحمل وتصبر حتى تقدم الدليل على أنها جزء من عالم الفاعل، ذلك العالم الذي لا يوجد فيه هي، بل يوجد فيه هو، ويجب عليها هي أن تصبح جزءًا من هو.

وحفاظها على الأعضاء التناسلية هو دليلها على أنها عاشت، وستعيش من أجله. لكن هو يعيش ما شاء قبل مجيئها وبعد مجيئها. افعل ما شئت أيها الذكر لكن هي ستظل تنتظرك، ورغم كل ذلك قد تأتي أو لا تأتي، وستعيش تلك الأنثى تنتظرك وقد تمضي حياتها دون أن تختبر تلك المتعة وتعرف إن كانت تستحق هذا العناء.

انسحبت هالة من أمام المرآة، وقالت يا لقيم مجتمع ذكوري تغذيه تفسيرات دينية منحازة وفقط إلى الرجل، وتذكرت أنها أرادت أن تتحدى قيمه الذكورية قبل سفرها إلى ألمانيا وتتحرر من تلك القيم.

كانت تفكر في شيء واحد، أنها تمتلك جسدها، لا وصاية لأي ذكر عليها. إنها تمتلك القدرة على الاختيار، وستختار ما تشاء، لن تنتظر أن يقع عليها الاختيار من ذكر ما.

وقالت عندما أختار لن ترهبني سياط الجلاد، أو حتى تلك الألفاظ الذكورية التي وضعت لتحقير المرأة الحرة، مثل عاهرة وأخواتها من كلمات إهانة المرأة الحرة التي استطاعت أن تختار، لكن قبل أن تشرع في فعل ما قررت، حظيت ببعثة لإتمام الماجستير في ألمانيا لكن الغريب أن تلك الأفكار لم تختبرها في ألمانيا، بل لم يأت على ذهنها أن تفعل ذلك، رغم تودد بعض الشبان الألمان إليها ولا تدري تفسيرًا لذلك.

هل وجودها في مجتمع حر يجعل الأمور مختلفة إلى هذا الحد؟ هل هناك ارتباط بين الكبت والتفكير في الجنس فقط ؟ لا أدرى ومطت شفتيها.

عندما كنت صغيرة كنت أنتظر ذلك الحبيب، أضع الكتاب على نهدي مطمأنة قلبي إلى أنه سوف يأتي، ومع مرور العمر والاقتراب من العنوسة، تتحول تلك اللمحة الرومانسية إلى البحث عن ذكر فقط لا غير، آه منك يا مجتمع الفصام، وضعت جسدها في البانيو وغاصت وتركت أفكارها على سطح الماء.

لكن أزيز الموبيل كان مفزعًا، انتشلها من البانيو وأفكارها انتشالاً.

نظرت إلى الموبيل مرة بعد الأخرى، غير مصدقة ما ترى أن المتصل هو الدكتور عبد الرحمن مدير المستشفى، وكان قبل سفرها مديرًا لقسم الهندسة الوراثية الذي تعمل به الآن و تطلق عليه لقب كبير السنافر.

نظرت إلى ساعة الحائط فوجدت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليل،

- لم يتصل بي؟

- الو..

- السلام عليكم يا دكتورة، أنا آسف ممكن تجيلي البيت حالاً، فيه أمر ضروري

- خيرًا يا دكتور.

- ما ينفعش الكلام في الموبيل.

- المشكلة الطريق يا دكتور.

- لازم تيجي ما فيش عذر، الوضع خطير.

- خلاص أنا هتحرك.

- سلام عليكم.

لم تنتبه إلى البخار المتصاعد من فوق جسدها العاري في مشهد سحري، واتجهت إلى الدولاب وارتدت ثيابًا لائقة، ورغم أن اتصال الدكتور بها وطلبه حضورها العاجل كان مقلقًا! إلا أنها لم تفكر فيها وراء هذا الاتصال، لأن أشد ما يرعبها هو عبور المبنى ٦٦ مرة أخرى ليلاً مع هاجس توقف السيارة أمام المبنى.

(4)

توقف أحد الضباط الأقل رتبة أمام الرائد حسن.

- السيد اللواء يدعوك لاجتماع عاجل الآن سيادة الرائد.

- ليه دة مش ميعاد اجتماع.

- بصوت خفيض: هناك أنباء عن اغتيال مولانا نائب المرشد محمد عباس.

لم يذهب الرائد حسن خلف الضباط إلى مكتب مدير الشعبة، رغم أنه كان مقصده، بل عاد إلى مكتبه وجلس على كرسي، محاولاً استيعاب الأمر.

فقد كان مولانا نائب المرشد محمد عباس صديق سيادة اللواء (عبد الكريم قاسم) وكان معروفًا بأنه قائد الجناح المنفتح، وعلى يديه دفعت الحقوق والحريات دفعات كبيرة، على عكس رغبة التيار المحافظ الذي اتهمه اتهامات كبيرة تصل إلى العمالة وكان من أهم إنجازاته التي لم يرض عنها حسن نفسه، هي تعليم الفتيات في الخارج، وفوق ذلك أنه كان الحامي لحسن من فتك ضباط أمن المرشد في تلك التحقيقات التي طالته.

- من قتله؟

- هل قتله أحد رجال الدين المحافظين؟

تمنى حسن أن يعمل على تلك القضية، لكن الأمر لم يعد هامًا بالنسبة له لأنه قد أعد جواب الاستقالة ولن يتراجع عنها.

لكن خطط الاستقالة يجب أن تتغير بعض الشيء، خاصة وأنه ربما يتم التخلص من المحسوبين على مولانا، ولذا ربما يجب عليه الاختفاء الآن وللأبد. مصمص شفتيه وقال لا يهم على أية حال، لن أبقى في مصر، قال لنفسه ذلك، ثم قام متوجهًا إلى مكتب رئيس الشعبة.

بدأ رئيس الشعبة في استعراض التقرير المبدئي للحادث والذي يؤكد على مقتل مولانا بطلق ناري هو وسائقه في طريق القطامية، ولم يتعرض جسد السيارة لأية رصاصة، غير أن الزجاج يوجد به فتحتين و يشير قطر الفتحتين إلى أن هذا المظروف غير مستخدم في مصر.

- قال حسن: أليست سيارة مولانا مضادة للرصاص؟

- يبدو أن هذا الرصاص كان من النوع الخارق.

- هل طبيعة المكان تسمح بوجود قناص؟

- لا، فالمكان فسيح وخالي من أي مبنى ولا يوجد غير رمال حول الطريق.

- ألا يوجد أحد من ضباطنا في موقع الحادث؟

- حتى الآن لم يصل إلينا أمر بالتحقيق وما زال التحقيق في يد أمن المرشد.

- تململ حسن قليلاً لكنه لم يستطع أن يعقب، وقال لنفسه لماذا لم يسمح لنا...؟

يبدو أن هناك شيئًا غير سَوِي، وزادت شكوكه في التيار المحافظ، ويبدو أن شعبة أمن المرشد ستقوم بإتلاف الأدلة كي تؤدي التحقيقات إلى المجهول وإذا ازداد التدخل الإعلامي فستؤدي إلى قربان، وطريقة القتل تقول إن ذلك القربان يجب أن يكون ثمينًا.

شعر حسن بقلق داخلي لا يعرف مصدره.وانصرف الجميع بعد استعراض الموقف وكلهم على استعداد للعمل على تلك القضية حين يتم استدعائهم. قام حسن من على كرسيه لكن مدير الشعبة أشار بيده له أن يجلس، وقال لحسن بعدما غادر الجميع:

أنا متأكد أنهم سيحرصون على ألا تعمل في تلك القضية لكني سأحرص على أن تكون أنت المسؤول عنها.

صمت حسن ولم يجب، وراح في شرود عميق وقال لنفسه سأنتظر حتى المساء وهذا وقت كافي لأقيم الوضع ثم أقدم استقالتي أو أهرب.

(5)

وصلت هالة إلى بيت الدكتور عبد الرحمن أو كبير السنافر كما تحب أن تطلق عليه، كانت فيلا قديمة الطراز، محاطة بجنينة قليلة الأشجار لكنها قديمة ونادرة يحدها من الخارج سور خشبي قديم، وكانت غرفة المكتب ذات جدار زجاجي مطل على الحديقة مباشرة، جعلتها مميزة واستطاعت أن تصل إليها بسهولة.

وقالت رجال التنظيم عادة ما يسكنون في قصور مثل هذه أما نحن.....

تركت سيارتها بالقرب من الفيلا، حيث كان ذلك هو المكان المتاح وقبل أن تضغط على الجرس رأت كبير السنافر يتحرك وسط حجرة المكتب بعصبية واضطراب بادٍ عليه، وما أن ضغطت الجرس حتى خرج مسرعًا إلى الباب يجري في مشهدٍ بهلواني، فلحيته الطويلة المتدلية على كرشه وشحومه الكثيرة التي تهتز، جعلته كمصارعين السومو!

استطاعت أن تسيطر على شفتيها حتى لا تنفرجان من الضحك ووضعت يدها على فمها مخبأة أي أثر للابتسامة.

استطاع كبير السنافر أن يرى أثر تلك الابتسامة لكنه تجاهلها فقد كان الأمر جلل وما أن وصل إلى باب الفيلا حتى جذبها من يديها وأدخلها ونظر يمينًا ويسارًا بشكل غريزي ودخل مسرعًا وهو يجرجرها خلفه.

- حد شافك؟

- إيه...............؟

- لاحظتي أي حد ماشي وراكي؟

اصابها ذهول لما يقول.. دخل غرفة المكتب وهي خلفه..

مال هذا الرجل؟ فهو منذ أن عرفته والصورة الذهنية التي كونتها عنه أنه يكره النساء، غير ودود معهم، ماذا يريد مني؟

هـل هـو خائـف مـن شيء مـا؟ هـل علـم عـن طريـق صلاتـه الأمنيـة الواسـعة شـيئًا مـا؟ هـل مـاضي أمـي وأبي مـا زال يطـاردني حتـى الآن؟

انتشلها الدكتور عبد الرحمن من أفكارها بسؤال:

- أنت بتنتمي لأي تنظيم ليبرالي أو شيوعي أو علماني أو............

نظرت إليه مستغربة..

- وقالـت: تنظيـمات إيـه.......... إحنـا في ٢٠٦٥ الحجـات دي انتهـت مـن العـالم مـن زمـان.

- إحنا في مصر غير العالم!

تذكـرت مـع تلـك الجملـة أمهـا وهـي تقـول لهـا في أحـد انفعالاتهـا؛ نحـن في دولـة الـلا شيء، دولـة الحريـات ولا يوجـد حريـات، دولـة الديـن ولا يوجـد إلا أشـكال متدنيـة، دولـة الخلافـة ولا يوجـد خلافـة، دولـة العلـم ولا يوجـد أي علم.كتمـت غصـة في حلقهـا، وانتبهـت لسـؤاله، أمـن النظـام سـألني عليكـي النهـاردة ليـه؟ شـعرت هالـة بـدوار وكادت تسـقط أرضًـا ولم تنطـق.

- فقال: لولا مقتل مولانا نائب المرشد وانشغال الجهاز لكنتِ هناك الآن.

لم تستطع التعليق !

- أنتي عملتي إيه؟

- أنا معملتش أي حاجة.

- أنتي ليكي صلات بأي حد برة؟

- برة فين؟

- بلاد الفرنجة.

- لا.

فقال بصوت خافت يملؤه الخوف:

- افتكري كده..

- أنا مش عارفة وكادت تبكي.

فرق قلبه لها وكاد ينطق بشيء ما، لكن تجمدت الكلمة في حلقه ولم ينطق وظل فاغرًا فاه في مشهد عبثي، شاخصًا بصره إلى الخارج.

انتبهت هي إلى تلك النظرة وقبل أن تتبع عينيها نظرته، شاهدت على زجاج نظارته انعكاس لطائرة صغيرة بدون طيار تقف أمام الحائط الزجاجي، وما كادت تلتفت حتى انطلق صاروخ صغير الحجم ذو رأس ذات قدرة تفجيرية محدودة، وكانت كافية لقتل كل من هو موجود في الغرفة وتدمير كل الحوائط.

مرت لحظات كدهر عليهما، فشل العقل في التفكير واتخاذ أي قرار، فتيبست العضلات وتصلب الجسد، لكن مرور الصاروخ بينهما لفح بحرارته وجهيهما وتنبه عقلهما بعض الشيء، فتحركت مقلة عينيهما فقط متابعة حركة المقذوف الذي انفجر بعد أن تجاوزهما عند ارتطامه بالحائط على بعد خطوات منهما، مصدرًا دويًا هائلًا، كان كافيًا لكي يهرع كل من في الحي إلى الفيلا وكانت أجزاء من الفيلا ما زالت مشتعلة مع قدوم سيارة المطافئ وسيارة الإسعاف الموجودة في حي الأغنياء.

وبعد إطفاء ألسنة النيران، قام المسعفون وأعضاء المطافئ ومعهم بعض المتطوعين بالبحث عن ناجين تحت الركام.

اكتشفوا جثتين لرجل قد فارق الحياة وامرأة، والذي لم يتضرر من أجزائها. قام اللهيب بشوائه وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتمنى كل من يراها أن تموت بسرعة حتى تتخلص من الألم.

وقفت هالة في فراغ العقل بمعزل عما يدور حول هذا الجسد، من محاولات الطبيب المسعف لإنقاذه، وهرجَ ومرجَ الواقفون حوله يراقبون هذا الجسد، وكانت مشاعر هالة مختلطة، حائرة، غير قادرة على تفسير ما يحدث، وكانت غارقة في التفكير، في هذا الجسد الذي تضرر تمامًا وربما لم يعد صالحًا للحياة.

ومحاولـة إيجـاد تفسـير علمـي لمـا يحـدث مـن تغـيرات داخـل الجسـد، تشـعر بهـا الآن، ربـما لا يعرفهـا الطبيـب الـذي يفحصهـا لأنهـا رأت مـرات عديـدة الكثـير مـن حـالات الوفـاة أمامهـا في المستشـفى وكانـت تنظـر لهـا مثـل نظـرة الطبيـب الآن، نظـرة مـن الخـارج، لكـن هالـة محظوظـة لأنهـا الآن تراقـب عـن كثـب مـا يحـدث بالمقبـل عـلى المـوت مـن الداخـل وتشـعر مـا يحـدث لـه أيضًـا وكانـت تـرى انحصـار الـدم رويـدًا رويـدًا بدايـة مـن الأطـراف فيتبعهـا بـرودة تلـك الأجـزاء المنحسـر عنهـا الـدم فـلا تقـوم بوظائفهـا الحيويـة واسـتهلاك الطاقـة فتـبرد.

كان شـيئًا عجيبًـا مـا تشـعر بـه هالـة الآن، فمـع بـرودة تلـك الأطـراف وعـدم صلاحيتهـا للسـكن، شـعرت أنهـا تتحـرر شـيئًا فشـيئًا ومـع نبـض القلـب المتـدرج مـن القـوة إلى الضعـف، ثـم إلى الوهـن وصـار الانحسـار متلازمًـا مـع ضعـف عضلـة القلـب، فتمـوت تلـك الأجـزاء لانقطـاع الـدم عنهـا وتنقطـع بالتـالي أسـباب الحيـاة.

شـعرت هالـة بتحـرر كامـل مـن الجسـد مـع وصـول الـبرودة إلى الحلقـوم، شـعرت بتحـرر وخفـة كأنهـا تتأرجـح عـلى موجـات الهـواء بنعومـة مماثلـة لرقـة النسـيم عندمـا يلامـس خـد البنفسـج. وخرجـت مـن فـراغ العقـل إلى الفـراغ الكـوني وشـعرت باضطـراب وخـوف مـن هـذا الوجـود الجديـد الـذي لم تختـبره مـن قبـل، وصـارت تـرى الوجـود بعيـدًا عـن عـين الجسـد، فشـعرت بشـعور مختلـط، بـين حريـة وخـوف، ولم تـدر مـا يجـب أن تفعـل فهـي خرجـت مـن الجسـد كخـروج الجنـين مـن رحـم الأم، لكـن الجنـين عنـد خروجـه لديـه أم سترشـده إلى مـا يجـب أن يفعـل حتـى يظـل مسـتمرًا عـلى طريـق الحيـاة، لكنهـا في الحيـاة بطريقـة أخـرى بـلا مرشـد فـماذا تفعـل؟

عندئـذٍ تنحـت ووقفـت بعيـدًا في أحـد جوانـب الغرفـة المحطمـة. لم تسـتطع الاقـتراب أكثـر لأنهـا لم تسـتطع تحمـل الضوضـاء الناتجـة عـن بحـث الرجـال عـن أي جثـث تحـت الـركام.

وقفت تراقب عن كثب ما يحدث وخاصة عندما بدأ الرجال بإزالة الركام من على جسدها وأزاح أحد الرجال التراب من على وجهها برقة بالغة، فترقرقت من عينيها دمعة، كانت دمعة امتنان لهذا الرجل، فهي لم تعتد على مثل تلك الرقة من الرجال.

كانت دمعة صادقة، لم تكن مثل دموعها السابقة مع الرجال، فكانت عندما تقع في مشكلة ما تضطر إلى ممارسة عادة قديمة وهي بذل بعض الدموع من عينيها وقت الحاجة لاستعطاف الرجال وغالبًا ما كانت تفشل، لذلك كانت تعتبر الذكور جنس قاسي القلب، عنيف الطبع، وكان ضباط أمن النظام دومًا يؤكدون ذلك عندما يجذب أحدهم أمها؛ الأستاذة الجامعية من شعرها، ويلقي بها إثر صفعة عنيفة على وجهها يتبعه فيض من الشتائم.

لم تكن تعتبر أبيها من هؤلاء الرجال لأن أمها عندما كانت تحدثها عنه فتصف كيف كان رقيقًا جميلاً حرًا محبًا للحياة غير ممسوخ العقل بتلك الأفكار الذكورية.

تفحص الطبيب المسعف جسدها بدقة كبيرة باحثًا عن أي أثر للحياة داخل الجسد، وكان الجسد رغم ما حاق به، ومفارقته الحياة إلا أنه ما زال محتفظًا بنضارته، ووضع المسعفون الجسد على النقالة، وكان الثوب الذي ترتديه قد تمزقت معظم أجزائه، وتلك الأجزاء الباقية هي التي لم تحترق، وهي قليلة فلم يتبق من الثوب غير بعض من ورقة توت تسترها وكانت أجزاء من عانتها ظاهرة.

رأت هالة بعض الأعين التي تتلصص عليها بنظرة خاطفة إلى الجسد على الرغم من محاولتهم الظهور بثوب العفة وتعطير ألسنتهم بقول استغفر الله العظيم وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم وذلك بعد أخذ نظرة خاطفة على الجسد!

أرادت أن تمد يديها وتضعها أمام أعينهم كي تحجب عنهم الرؤية وفعلت وتحركت إلى أقرب رجل للجسد ومدت يدها. فانتبهت لذراعيها العاريين فاندهشت كيف حدث ذلك ونظرت إلى جسدها كله فكان عاريًا تمامًا بلا ورقة التوت فأصابها ذهول شديد و انتابتها حالة خجل شديدة، وعادت إلى مكانها في الركن البعيد عن الأعين، وكان خجلها عظيمًا.

فماذا تفعل وهي عارية أمام هذا الجمع من الرجال؟ فوضعت يديها على مكمنها محاولةً إخفائه، فصار ذراعاها مفرودين مارين بصدرها العاري ضاغطين على ثدييها شبه كاملي الاستدارة نافري الحلمات للداخل.

فأضاف وضعها هذا جمالاً على جمال لهذا الجسد، مما أصاب قلبها إعجاب قلل من خجلها قليلاً، وكان جسدها بلا زيادة أو نقصان، أبيض مشرب بحمرة فمال إلى اللون الوردي النضر، فلا تمل العين من النظر إليه.

ومع إحساس الطمأنينة المتسلل إلى قلبها، هدأت نفسها واختلط ذلك بشعاع خارج من أعماق الروح حاملاً، إرادة التحدي وصارت أفكار أمها أقرب إليها من ذي قبل فقالت:

- لماذا أخجل من جسدي؟

- ما العيب الذي أرادونا أن نخفيه في أجسادنا؟

فوضعنا أرتالاً من الثياب دون إرادتنا على أجسادنا، فصارت عبئًا على أرواحنا.

تذكرت أمها وهي تقول لأصدقائها، آه من ذلك العبد الذي لم يستطع أن يتحرر، فراح يتغزل ويجمل في القيد على الجسد إلى أن صارت دليل عفة وطهارة وكي يثبت العبد جدارته بالعبودية، وضع قيودًا أكثر حتى يطمئن السيد، ولأن السيد يريد عبده ذا روح ممسوخة فيه، تدور في فلكه، راح يحقر تلك الأرواح التي تبحث عن ذاتها، فصارت تحقيراته أنشودة للعبيد، تابو تحريم.

لماذا لا نتعرى أو نلبس ما نشاء وقتما نشاء، غير خائفين أو عابئين بأي شيء؟ نفعل ذلك فقط لأننا نريد ذلك، إننا أحرار.

تذكرت أيضًا حديثًا مع صديقتها نجوى والتي عادت من فرنسا بعد عودة هالة من ألمانيا بأسبوع، عندما جلستا منفردتين وراحت تحدثها عن إحصائية قرأتها في الصحف الفرنسية تشير إلى تزايد أعداد المرتادين شواطئ العراة، وتذكرت أنها كان يجب عليها أن تبدي بعض الاشمئزاز من النوع التمثيلي حتى تبدو كفتاة مؤدبة وأنها ترفض ذلك الفعل المشين!

وقالت لنجوى وهي تبدي أنها متأففة متلعثمة، هل هذا الشط مقفول على جنس واحد أم أنه مختلط للجنسين؟

للجنسين!

هل تستطيع أن تخلع الأنثى ثوبها أمام جمع من الذكور؟ ألا يوجد حياء؟ أنا لا أصدق ذلك، يستطيع الرجل أن يفعل ذلك أما المرأة فمِن أين جاءت بمثل هذه القوة حتى تستطيع أن تفعل ما تقولين؟

مطت نجوى شفتيها وقالت هذا ما قرأت.

– هل هناك شواطئ للعراة فعلاً؟

– طبعا فيه أنتي ما سمعتيش عنها في ألمانيا؟

– لأ.

– صديقاتي وأنا في فرنسا دعوني للذهاب معهم.

– روحتي؟

– ههههههه لأ لكن........

– لكن ايه؟

– لما روحت للسكن خلعت هدومي كلها ووقفت اتفرج على نفسي كتير في المراية.

– بيمارسوا الجنس على شواطئ العراة ولا مش مسموح؟

- مش بالضرورة.

- ليه ما بيحصلش إثارة لما بيشوفوا بعض عرايا؟

- ههههههه الزوجين لما بيتعودوا على بعض ويشوفوا بعض عرايا ما بيحصلش إثارة.

- بتحصل ازاي بقى.....؟

- بتحصل بشبه التعري أكتر، لما تتجوزي هتعرفي.

كان ذلك الحديث ممتعًا بالنسبة لهالة لكنها لم تحاول أن تتحدث فيه مرة أخرى كي تبدو أمام نجوى فتاة مؤدبة، وكانت بين الحين والآخر تظهر لنجوى اشمئزازها حتى لا تظن بها الظنون، على الرغم أن قلبها كان يدعو الله أن تتحدث نجوى مرة أخرى لأن هذا عالم لم تختبره، واختزان الرغبة داخلها دون تفريغ جعل للحديث مذاقًا جميلاً.

تذكرت هالة بعد حديثها مع نجوى، أن أول شيء فعلته عندما ذهبت للبيت هو التجرد من ملابسها كلها أمام المرآة، وكانت تلك أول مرة تتعرى أمام المرآة قاصدة التعري ونظرت إلى جسدها بافتخار، فهو جميل ولو تعرت لن تخجل من أي شيء مسيء، أو أنه لن يلقى استحسانًا بل تأكدت من حسنه ولأن شقتها تطل على هضبة المقطم غير المأهولة ففتحت الشباك تاركة أشعة الشمس الذهبية تتسلل إليها وكانت تلك أول مرة تمر أشعة الشمس على جسدها فكان مترقرقًا كجدولٍ نيرٍ متصل، كل قطرة تسلمك إلى الأخرى في سلاسة، فضاء متصل غير منقطع فلا متعة تضاهي متعة النظر إليه، أكثر من متعة المرور على وديانه وهضابه بأناملك.

مررت يديها عليه فشعرت بجمالٍ ولذة وعلى الرغم من بعض لمسات الحرية التي انتابت وعيها، إلا أنها شعرت بخوفٍ بالغ من أن تعشق جسدها فتضن به على غيرها، فهي تعلم أن هناك نوع من النساء يعشقن أجسادهن فيتوحدن معه في ثنائية النفس والجسد.

انتبهت إلى الطبيب وهو يوقع على تقرير يشير إلى أنها قد فارقت الحياة. لم تحزن أو تفرح!

فلم تكن تعني لها تلك الشهادة غير شيء واحد، أنها قد تحررت من الجسد وأنها أصبحت طيفًا يمتلك واقعًا غير الذي امتلكه الجسد، وبالطبع سيخضع لقوانين غير التي كان يخضع لها الجسد، وشعرت باضطراب خفي مع فكرة ألا يكون هناك واقع أو قوانين، وقالت: ذلك ما يجب عليّ اكتشافه. وكان لديها حلمًا قديمًا، كانت تريد أن تحققه، وربما الآن صار ممكنًا وكانت تحلم بالطواف بالعالم، ربما الآن بإمكانها، وستستطيع أن ترى كل الأعراق والأجناس.

سترى ثقافاتهم رأي العين، ستقتطع ما تشاء من الزمن كي تتعلم وتدرس تلك الثقافات، لن تتعجل لأن الزمن لن يتعجلها، فهي تعتقد أن الزمن لم يعد ذا تأثير عليها، لن تكبر أو تصغر، هذه فكرتها عما يجب أن يكون عليه الطيف.

ستجالس الحاصلين على نوبل في كل العلوم والآداب، ستحضر نقاشاتهم، ستتعلم في معاملهم، ستطوف بالغابات، ستجالس المفترسات من الحيوان والفرائس أيضًا، ستجالس البدائيين في الغابة، ستشاركهم طقوسهم، وصاحت بفرح: آه يا الله، يا له من عالم سأعيشه وواقع سأحياه، وأطرقت إلى فكرة مقلقة ومضت بعقلها، هل تستطيع فعل كل ما تتمنى أم أنها سترافق الجسد إلى القبر؟ هل سيكون هناك قيد ما يربطها به؟ فتظل بجانبه وهو يعود إلى دورته الأولى فيصبح جزءًا من أمنا الأرض عندما يمتزج الكل بالكل؛ ذلك الامتزاج الذي يجعل الجسد جزءًا من نبات فيأكله الحيوان، فيصير جزءًا من الحيوان فيأكله إنسان، ويصير جزءًا من إنسان آخر.

ومطت شفتيها باستغراب متسائلة، هل سأبقى بجانب لا ش؟فقد كان جسدًا ذات يوم ثم صار جزءًا من حيوات متعددة! وقالت قد يكون البقاء بجانب الجسد فكرة بلهاء، صنعها خيال أحدهم ونظرت متسائلة: أنا لم أقابل أي طيف ألا يوجد غيري؟ هل سأظل وحيدة في هذا العالم بلا أنيس؟

هل الأطياف لا تستطيع رؤية بعضها؟

رأت الطبيب وهو يوقع شهادة وفاة كبير السنافر أيضًا، فطافت بأرجاء الغرفة بحثًا عن طيفه ثم اقتربت من جسده وهم يحملونه على الناقلة كي تبحث عن الطيف بجانبه، لكنها لم تجد له أي أثر.

- أين ذهب؟

- هل يبحث عني مثلما أبحث عنه؟

- هل هو موجود أصلا أم لا طيف له؟

قالت لنفسها لو كان موجودًا لرأيته، وإن لم أره سيصبح هذا هو الحال مع كل الأطياف الأخرى، صمتت ثم طافت في ذهنها فكرة أسعدتها، فإن لم يكن لكبير السنافر أي طيف تراه الآن، ربما يكون قد رحل، لذا ربما يكون بإمكانها الرحيل ويكون هناك أمل و احتمالية أن تقابل أحدهم ويصبح رفيقًا لها في رحلتها حول العالم.

انتهى المسعفون من وضع الجثتين في سيارة الإسعاف واستعدوا للمغادرة بعد انتهاء الطبيب من الإجراءات.

عندئذٍ جلست هالة على السور الخشبي تراقب جسدها الموضوع داخل السيارة كي تلقي عليه النظرة الأخيرة قبل الرحيل، نظرة الوداع، فقد عزمت على الرحيل وبدأ حياة جديدة كما تريد وتضع هي قوانينها ليست تلك الموضوعة عليها!

تهادى إلى سمعها صوت محرك سيارة الإسعاف معلنًا الرحيل، شعرت هي بحزنٍ عميق من ألم الفراق لجسدٍ كان يومًا يحتويها، وتحركت السيارة فلم تستطع أن تكتم دمعها وظلت تراقبها إلى أن وصلت إلى نهاية الشارع، ثم انعطفت باتجاه اليمين وما عادت تراها.

عندئذٍ بدأت تشعر بشعور عجيب، هناك شيء ما يجذبها وازدادت قوة الشد تدريجيًا، فتشبثت بالسور الخشبي محاولة منع نفسها من الوقوع في براثن تلك القوة العجيبة التي تجذبها ولا تعرف مصدرها.

- إلى أين ستأخذني تلك القوى؟

- هل آن الرحيل إلى السماء؟

بكت وحاولت أن تتشبث أكثر فهي تريد أن تظل على الأرض وتطوف بها، ازدادت قوة الجذب أكثر وأكثر، حاولت أن تقبض بيديها على السور لكن السور بدا كطيف مرت يداها من خلاله.

- هل أنت طيفٌ أم أنا؟

سألت السور الخشبي بعد أن أبعدتها تلك القوة عنه، فطارت بعيدًا عن السور ثم اصطدم طيفها بشجرة صنوبر فاخترقتها الشجرة كأنها طيف بلا ذرات.

أين ذهب تماسكك؟ قالت للشجرة متسائلة وهي تحاول أن تمسك بفروعها لكن ما تكاد تقبض على فرع حتى يتحول إلى طيف تخترقه يداها. نظرت بتأنٍ، هل أنا الطيف أم أنت؟ كانت يداها متماسكة إلى حد ما، ليست هي التي تتلاشى، إنها الشجرة!

تحرك طيفها في نفس الاتجاه الذي اتخذته سيارة الإسعاف بعد مغادرته للشجرة تحت تأثير قوة الجذب.

علمت أن تلك القوة كانت تشدها في اتجاه سيارة الإسعاف عندما رأت السيارة، لم تشغل بالها عن طبيعة تلك القوة أو لماذا حدث ذلك؟

لأنها اختبرت شيئًا جديدًا، شعورًا بالمتعة، متعة السباحة عارية في الهواء. فردت زراعيها كي تعانق الهواء، فبدت كصقر سابح بين أمواج الهواء، ما يكاد يصل إلى قمة موجة حتى يبحث عن موجة أعلى.

ما أجمل الحرية، قالت، صاحت، أرادت أن يسمعها كل من في الأرض. أرادت أن يتذوق الإنسان تلك الحرية المفعمة بالسعادة، أصبحت تعتقد أنه لا يوجد سعادة تعادل سعادة الحرية.

نظرت بودٍ إلى جسدها العاري وبحب وقالت: ليس هناك ما أخجل منه حتى ولو رآني طيف كبير السنافر فلن أضع يدي على شيء كي أداريه.

الآن فهمت معنى العري الفلسفي، إنه ليس عريًا بحثًا عن غاية لكنه بحث عن الحرية، أنا أمتلك ذلك الجسد، لا وصاية لك أيا ما تكون عليه.

شعرت بحرية في الحركة عندما اقتربت من السيارة، فقد تلاشى تأثير قوة الجذب ولم تعد تشعر بها. دخلت سيارة الإسعاف كي تلقي نظرة على الجسد المتهالك.

كان جسدها يرقد في سكون مغطى بجلال الموت وبجانبه جسد كبير السنافر الذي يبدو أنه قد تضرر أكثر ونظرت باحثة مرة أخرى عن طيف كبير السنافر لكنها كالعادة لم تعثر عليه، قفزت إلى فكرة من أفكارها العبقرية أن طيف كبير السنافر ربما يكون موجودًا ولكن لا تراه، لذلك هو لا يراها وقد يكون ذلك أحد قوانين الأطياف.

انتبهت إلى توقف السيارة وسمعت ضوضاء شديدة خارج السيارة لم يكن لديها شغف الخروج لرؤية ما يحدث وما هي إلا لحظات حتى تحركت السيارة مرة أخرى في اتجاه مخالف للاتجاه الأول، رأت المسعف وكأنه قد تبدل، فأصبح كائنًا بلا روح، شاخص البصر محلقًا في الفراغ، جسدًا يملك من أسباب الحياة البقاء لكنه بلا روح.

لكن لم تهتم به كثيرًا وعادت إلى إحساس الحرية ونظرت إلى جسد كبير السنافر متسائلة: هل أدرك طيفك معنى الحرية أم أن قيمه الذكورية التي كان يريد أن يفرضها علينا ما زالت هي المحرك لروحه؟

زفرت بعمق وقالت بمرارة: خوفي منك جعلني أشاركك جريمة ظلم "د-ساميه فؤاد" عندما انحزت إليك في التحقيق ضدها خوفًا من أن تنكل بي أيضًا، رغم اعتقادي أنها حرة فيما تعتقد حتى ولو كنت ضده فهي حرة، أما أنت فكنت تريد أن تمارس القمع الذكوري عليها فتحديتها حينًا واستدرجتها أحيانًا وعندما أفحمتك استخدمت أمن النظام في قمعها.

كانت امرأه مثقفة جميلة، عندما دار نقاش بينهما وكان حاميًا، "أدركت هالة الآن أن دفاع د. سامية لم يكن عن نفسها".

وقالـت: لا أعتقـد الآن أنهـا كانـت تدافـع عـن نفسـها، بـل كانـت تدافـع عـن جنسـنا كلـه ضـد قيمـه؛ قيـم الذكـر، وعـن الحريـة، عندمـا صـاح د-عبـد الرحمـن في وجههـا متحديًـا:

- أنت تدافعين عن الحرية وتقولين أن الحرية هي أساس الإبداع.

- نعم الحرية هي أساس الإبداع ولا إبداع بلا حرية،

- صاح محاولاً إخافتها.

- إبداع العهر! تريدون الحرية كي تبيحوا الزنا والسحاق واللواط.

كانـت تلـك الدكتـورة مـن جيـل أمـي الـذي لم يكـن يرهبـه شيء، فقـد كان جيـلاً تحـدى الخـوف. لم تكـن تأبـه لصياحـه بـل كانـت تضحكهـا لأنهـا تعلـم ضعفـه وقالـت:

- هذا مفهوم الكهنة عن الحرية في عصور الظلام!

- هتف منفعلاً أنتِ تشبهيننا بالكهنة! تشبهي الإسلام بالكهنة!

ورغم شجاعتها، لكن على ما يبدو أن بعض الاضطراب ظهر على صوتها.

- التشبيه هنا بين مفهومك ومفهومهم عن الحرية.

- بعد نظرة اشمئزاز وجهها إليها قال: إيه هو المفهوم الصح؟

- نظـرت إليـه ولسـان حالهـا يقـول كيـف لمثلـك أن يفهـم الحريـة لكـن عـلى مـا يبـدو أنهـا قـد وجدتهـا فرصـة لتعلمنـا نحـن شـيئًا فقالـت:

إن الكائـن الحـر هـو كائـن غـير قابـل للاسـتعباد، لا يقبـل الظلـم، إن الحـر لا يظلـم.

كان الإنسـان قديـمًا يتـم اسـتعباده بعـد الحـرب وكان المنتـصر يخيرهـم بـين العبوديـة والمـوت، فـكان الأحـرار دائـمًا يختـارون المـوت، وبعـد تطـور المجتمعـات وأضحـت هنـاك حكومـات، فصـار الحاكـم سـيدًا لقـوم مـن العبيـد وكان يسـتعبدهم بالقهـر والبطـش، لكـن تلـك الأمـور كانـت مكلفـة وغـير مجديـة فـكان لزامًـا عليهـم أن يرهبـوا العقـل ويسـتعبدوه حتـى يدفـع العبـد نفسـه عـن

طـوق العبوديـة ويلبسـه عـن طيـب خاطـر. فاسـتخدموا إمـا الديـن أو شـعارت جوفـاء لا معنـى لهـا فانتقـل الحاكـم مـن السـيد إلى ظـل الله عـلى الأرض المنفـذ لشرائعـه، الحاكـم بأمـره، فـلا يسـتطيع عبـد أن يخلـع طـوق العبوديـة ويلقيـه بعيـدًا عـن رأسـه لأن ذلـك سـيلقي بروحـه في الجحيـم.

أطلـق كبـير السـنافر ضحكـة استخفاف كـي يبعـد شـبح التفكـير عـن رأسـه أو رؤوسـنا لكنهـا لم تهتـم وأكملـت حديثهـا.

إن العبيـد درجـات، وتحـدد درجـة العبـد بالبعـد أو القـرب مـن السـيد الأكـبر، فـلا يظهـر الاسـتعباد بالقـدر الـكافي ولكـن يظهـر الاسـتعباد بشـكله الجـلي عنـد أضعـف حلقـات المجتمـع، عنـد المـرأة والطوائـف الدينيـة المختلفـة في العقيـدة عـن عقيـدة الحاكـم.

كان الضيـق قـد أخـذ بـه كل مأخـذ ولكـن بـدا في تلـك الحالـة كصيـاد وجـد ضالتـه، فقـال هـل تقصديـن أن الديـن يسـتخدم لاسـتعباد الرعيـة؟

- وبكل حزم قالت نعم!

ثـم نظـرت إلى هالـة، تذكـر هالـة نظرتهـا جيـدًا وتذكـرت هالـة رعبهـا مـن تلـك النظـرة خوفًـا مـن أن يحسـبها كبـير السـنافر عـلى تيـار الدكتـورة سـامية فـؤاد.

عندئـذٍ اسـتبدلت هالـة النظـر إليهـا بالنظـر إلى كبـير السـنافر، فوجدتـه قـد سـكن سـكون صيـادٍ قـد أعـد شَرَكَـه جيـدًا فـلا يـأتي بـأي حركـة مـن شـأنها أن تفـزع الفريسـة أو تقـوم بتنبيههـا وكان عـلى مـا يبـدو موفقًـا إلى حـدٍ بعيـد فتركهـا تكمـل.

نعـم الأديـان هـي تلـك الأطـواق الذهبيـة التـي يلبسـها العبـد مختـارًا متخيـلاً عبادتـه قـوى عليـا وهـو في الحقيقـة عبـدًا لسـيدٍ أرضي يخشـى أن تفيـق، وبهـذا الطـوق يقتـادك إلى أي مـكان حتـى ولـو كان هـلاكك موجـود فيـه، فبالديـن يسـتطيع أن يتـزوج الرجـل العبـد وكيـل السـيد أربـع نسـاء وهـن راضيـات ولا تجـد العبـدة غضاضـة في ذلـك، بـل تقـف تلـك العبـدة مدافعـة عـن حقـه في ذلـك.

- أتريدين أن تتزوج المرأة أربعة رجال؟

- لا أريد ذلك لأنه ظلم للإنسان، لكن بالمساواة يكون سؤال لماذا يكون حقًا حصريًا للرجل ويشرع له الدين ولا يكون حقًا للمرأة؟

- من أجل ألا تختلط الأنساب!

- الآن عن طريق (DNA) نستطيع معرفة النسب، أو تدري قديمًا في إحدى الحضارات، كانت الأنثى تتزوج أربعة رجال وكان ما يدينون به من دين يسمح لهم بذلك.

- ضحك ضحكة ارتج لها كرشه وقال لا أدري من أين أتيت بكل تلك الأضاليل والأوهام؟

- قالت قبل أن تصبح الذكر المسيطر الذي يعتبر المرأة جزءًا من ممتلكاته

- أو تدري ما هو دافع الغيرة عند الرجل؟

- ما هو؟

- لأن الذكر يعتبر نفسه سيدًا ولا يجوز لسيدٍ آخر أن يعبث بممتلكاته، إنها حضارة الذكر!

- أتساوين بين حضارتنا وتلك الحضارات الوثنية القديمة؟

- إن المساواة ظالمة، لأن تلك الحضارات كانت أكثر احترامًا للإنسان.

- ماذا تقولين؟ هل أصابك جنونٌ؟

انظر، كان الجنس قديمًا طقسًا للوصول إلى متعة الاندماج والوصول والمعرفة أما في حضارتنا الذكورية هو جنس القهر، فبعدما أصبحت الديانات الذكورية هي المسيطرة، ظهرت ديانات الإله الغيور الذي لا يقبل أن يعبد غيره، ومن تحته الملك، ظل الله على الأرض الذي يريد أن يسيطر بسم الإله الذي يعبده على كل الأرض، فانتشرت الحروب وسُفكت الدماء وكان الملك المنتصر يغتصب الخاسر حتى يؤكد سيطرته وقهره.

أصبـح جنـس الرجـل مـع زوجتـه هـو جنـس القهـر، بعدمـا كان يتقـرب إليهـا بجـزءٍ مـن جسـده، كان الرجـلُ قديـمًا ينظـر إلى المـرأة فـيرى الحيـاة تخـرج مـن رحمهـا، فعبـد واهبـة الحيـاة وأجلَّهـا لأن الحيـاة لا توهـب إلا مـن إلـه، فنظـر إليهـا بغيـظ شـديد لكنـه استطاع أن يسـيطر عـلى انفعالـه، لكـن الدكتـورة لم تأبـه وأكملـت، إنهـا واهبـة كل حيـاة وخصـب، فتعبـد لهـا الذكـر قديـمًا وترنـم وقـال مـن ثـدي إنانـا ينـزل المطـر، اقـرأ ذلـك في الترانيـم القديمـة التـي كان يتعبـد بهـا.

أمـا الآن هـي أداة للرجـل لا يعتبرهـا إنسـانه كاملـة أو ربـة واهبـة بـل أداة يجب السـيطرة عليهـا ولكـي يسـيطر عليهـا يجـب أن يمتهنهـا، يخترقهـا عندمـا يـمارس الجنـس معهـا.

بعدمـا وصـل إلى مـراده واعـتراف كامـل بوثنيتهـا، فلـم يتركهـا تكمـل بـل صـاح بـكل تجـبر: أتريديـن الحريـة و الجنـس وعبـادة الربـات القدامـى؟

أنـا سـأعمل عـلى رفـدك بـل سـأعمل عـلى أن تصـلي لأمـن النظـام بتهمـة الهرطقـة وسأشـهد عليـكِ كل هـؤلاء النسـوة الـلاتي تريديـن أن تفسـدي عقولهـن وإيمانهـن.

تذكـرت هالـة كيـف كان هـذا الرجـل الغبـي يسـيطر عـلى عقلهـا بمنتهـى السـهولة مسـتغلاً خوفهـا مـن أن تحسـب عـلي الدكتـورة سـامية فـؤاد، ومنشـطًا أشـياء مثـل الحيـاء، تلـك الأطـواق الجميلـة التـي يضعهـا السـيد عـلى رقبـة عبـده. فشـهدت ضدهـا و ذكـرت في التحقيقـات مـا أراد كبـير السـنافر ومـا أمـلاه عليهـا قبـل أن يتـم اسـتدعائها.

زفـرت بعمـق وقالـت يـا ليتنـي أسـتطيع مقابلتـك حتـى أسـتطيع أن أعتـذر لـكِ حتـى وإن كنـت أختلـف معـكِ فيـما تعتقديـن وأعلـم أنـكِ تسـتطيعين تفهـم خـوفي كـما تفهمـت أمـي خـوفي، لكـن أيـن أراك فمنـذ القبـض عليـكِ مـن أمـن النظـام لم نسـمع عنـك شـيئًا!

تنبهـت إلى أن المسـعف مـا زال شـاخص البـصر فانتابهـا بعـض القلـق وعـدم الشـعور بالراحـة مـن أن هنـاك شيء مـا غـير طبيعـي قـد حـدث بالخـارج.

(6)

أنهى الرائد حسن استعداداته للرحيل عن الجهاز، فأخفى ما يتوجب عليه إخفائه وجعل ملفات معينة لم يستطع إزالتها تحت حماية برنامج قد قام هو ببرمجته، فهو يجيد البرمجة أيضًا واحتفظ بملفات سيستخدمها عند الحاجة إليها وهي ملفات ضد زملائه ورؤسائه تتضمن فسادهم المالي و حتى فضائحهم الجنسية ووضعها في المكان الآمن الذي لا يعرفه غيره كما يعتقد.

لأنه يعلم أن بقاء تلك الملفات بين يديه ستؤمن له القدرة على الاستمرار في الحياة وكانت تلك أسلحته التي قام بجمعها بعد المحنة، فقام بالتصنت على أصحاب النفوذ من مشايخ وعلماء موجودين في دائرة المرشد وقد روعه في أول الأمر أن بعض العلماء المحافظين والمعروف عنهم دعواهم وحضهم على الفضيلة هم أكثر مَن ينتهكونها، استطاع تسجيل مواد فيلمية لهم وأحدثت له تلك المواد الكثير من الأزمات النفسية وصدمته صدمات مروعة كادت تلقيه بعيدًا عن الدين، لكن ثقته في مولانا المرشد الأعلى جعلته على يقين في عدالة ما يؤمن به والحق، إنه يدرك تمامًا أن الصلاح لهذه الأمة هو بقاء نظام الخلافة فلا إيمان بلا خلافة، إنه يدرك ذلك تمام الإدراك وهو يعلم أنه لولا نظام الخلافة لما استطاع الإسلام أن يستمر ولتكالب عليه العلمانيون والملحدون والمدعومون من اليهود والنصارى وأن الخلافة هي الحامي للإسلام، فإنها تحفظه من الحروب، فلا يجرؤ أحد أن يهاجم الإسلام وإنه الخير المطلق للبشرية وإن أي نظام آخر هو مفسدة، أي مفسدة!

يدرك تمامًا أنه في مهمة مقدسة وأنه جند من جنود الإسلام ويدرك أنه مبعوث لحماية النظام وأن ذلك هو المعنى الحقيقي لحياته وتلك عقيدة لن يتزحزح عنها وقد اتخذ عهدًا ألا يخالف ذلك، أما استقالته هذه مرددوها أنه ربما يكون أكثر إفادة للإسلام في موطن آخر وخاصة بعد فهمه الجديد، فإن الإسلام قد جاء ليحرر الناس من رق العبودية وها هو يتحرر، لكن هناك فواصل لن يتخطاها، وهي حماية النظام من أي موقع ولأنه من جنود

الله عليـه أن يخـوض المعـارك ويحـرص عـلى البقـاء حيًـا وكـي يسـتطيع البقـاء حيًـا، كان لزامًـا عليـه أو أي جنـد مـن جنـود الله وكان في مـكان مثـل مكانـه كان يتوجـب عليـه أن يكـون لديـه مـا يسـتطيع أن يحمـي بـه نفسـه، وتلـك مهـام الجنـدي لذلـك قـام بجمـع تلـك الملفـات.

اطمـأن حسـن بخبرتـه الأمنيـة أن المـكان الـذي اختـاره هـو آمـن تمامًـا وأنـه لا يوجـد مـن يسـتطيع الوصـول إلى ملفاتـه التـي سـيظهر بعضهـا إذا تـم إلقـاء القبـض عليـه مـن شـعبة أمـن المرشـد حتـى تكـون ورقـة ضغـط عليهـم.

ارتشـف آخـر رشـفة مـن القرفـة بالزنجبيـل التـي يـداوم عـلى شربهـا، فقـد أوصى بهـا مولانـا المرشـد في إحـدى خطبـه.

ثم قام وعدل هندامه واستعد للخروج إلى مكتب اللواء.

لكـن عـلى نحـوٍ مفاجـئ وقبـل أن يضـع يـده عـلى مقبـض البـاب كان هنـاك مـن يديـر مقبـض البـاب ودخـل اللـواء وأغلـق البـاب ودخـل مسرعًـا وجلـس عـلى الكـرسي الرئيـس للمكتـب ولم يـترك حسـن لاندهاشـه أو لتـك الأسـئلة التـي فـارت في رأسـه، فقـال

إن الأمـور آخـذة في التصاعـد في القاهـرة وقـد تلقينـا نبـأ اختفـاء سـيارة إسـعاف وبهـا جثتـين لرجل وامـرأة.

نظـر حسـن باندهـاش إلى مديـر الشـعبة ولسـان حالـه يقـول هـل وصـل بنـا الحـال أن نهتـم باختفـاء رجـل وامـرأة وسـيارة إسـعاف في مثـل تلـك الظـروف؟ أيـن البوليـس الجنائـي؟

بالطبـع مـا كان لنـا أن ننشـغل بقضيـة مثـل هـذه لكـن طريقـة القتـل هـي مـا أتى بي هنـا بعيـدًا عـن مكتبـي حتـى يصبـح الأمـر بينـي وبينـك وتشـعر أن الأمـر بالـغ التعقيـد والسريـة. لقـد قتـلا بواسـطة طائـرة بـدون طيـار حسـب روايـة الجـيران الذيـن ذكـروا أنهـم شـاهدوا طائـرة بـدون طيـار أمـام فيـلا القتيـل وبعدهـا رأوا صـاروخ ينطلـق مصحوبًـا بـدوي انفجـار وبعدهـا اختفـت الطائـرة!

- هل هذا الرجل كان شديد الأهمية لتلك الدرجة؟

رجـل عـادي مـن عامـة الشـعب ولا يشـغل أي منصـب ذي مسـؤولية كبـيرة، رغـم أنـه مـن التنظيـم.

- لماذا تستهدفه طائرة بدون طيار؟

- أعتقد إجابة السؤال هو حل القضية.

- هل ذهب أحد من الشعبة لموقع الحادث؟

ليـس مسـموح لنـا أيضًـا ممـا يوحـى أن هنـاك أمـر مـا غـير عـادي داخـل هيئـة الصلاحيـة (هيئـة شـورى العلماء) وإعـادة ترتيـب البيـت مـن الداخـل ولا يريـدون منـا أن نتدخـل.

- هـل تعنـي أن تلـك الأحـداث لهـا علاقـة بمقتـل مولانـا محمـد عبـاس النائـب الأول للمرشد؟

- بصوت قاطع: لديّ شعور بأن هناك رابط.

- هل سنقف متفرجين حتى ينتهي جهاز أمن المرشد؟

- لقـد ضغطـت كـي يسـمحوا لنـا بالمراقبـة حتـى، لكـن كان الأمـر قاطـع أن الجهـاز المخـول لـه، هـو جهـاز أمـن المرشـد وحذرونـا بوضـوح مـن الاقـتراب إلا عندمـا يطلـب منـا ذلـك بـل وكان هنـاك تحذيـر أكثـر وضوحًـا هـو ألا تسـند القضيـة إليـك!

ثم صمت اللواء ولم يكمل.

صمـت حسـن ولم يعـرف مـا يقـول وانتظـر أن يكمـل اللـواء، فنظـر اللـواء إلى عينـي حسـن وقـال بتحـدٍ:

- لكني أريدك أن تعمل على حل ألغاز تلك القضية!

- لو علم ضباط أمن المرشد ستكون رقبتي على المحك.

- سأحاول أن أدبر لك بعض الحماية.

يعلـم حسـن جيـدًا أن مـن يسـتطيع أن يشـغل رئيـس إدارة أمـن النظـام يجـب أن يكـون قـد خـدم في شـعبة أمـن المرشـد ويكـون لـه ترتيـب مـا في التنظيـم

- لكن !

ليـس أمامنـا أنـا وأنـت خيـار آخـر إلا المعرفـة، أعلـم أنـك تريـد الرحيـل عـن الجهـاز لكـن إن رحلـت دون أن تعلـم مـا يحـدث بالداخـل سيشـكل ذلـك خطـورة عـلى حياتـك وكذلـك أنـا، فكلـما اقـترب أمثالنـا مـن المناصـب العليـا تكـون المكائـد أكـبر والتخلـص مننـا أسـهل.

- بالفعل أنا أريد أن أستقيل.

أعلـم ذلـك لكـن عليـك الانتظـار حتـى نتنهـي مـن حـل تلـك الأحاجـي وسـتعمل بشـكل سري، ولا يعـرف ذلـك أُحـدٌ غـيري وغـيرك. ووضـع ملـف كان في يـده عـلى المكتـب وقـال ادرس هـذا الملـف ثـم انـصرف.

التفـت حسـن إلى مكتبـه الـذي قـد أخـلاه مـن كل شيء اسـتعدادًا للاسـتقالة وكان عليـه ملـف القضيتـين والـذي لا يربـط بينهـما إلا غرابـة عمليـة القتـل وعـدم سـماح أمـن المرشـد لأي جهـة أمنيـة غـيره بالتحقيـق ممـا أوحـى للـواء بوجـود رابط بينهـما، قبـل أن يقـرأ أوراق القضيـة، طـرأ عـلى ذهنـه أسـئلة من هـؤلاء، مـاذا لديهم حتـى يتـم قتلهـم بتلـك الطريقـة؟ هـل لهـم ارتباطـات بمخابـرات خارجيـة فتـم إزاحتهـم بتلـك الطريقـة مـن مخابـرات دول أخـرى؟ مـن يملـك الطائـرة بـدون طيـار؟ ألم يكـن يكفـي أن يسـتخدم قنـاص مـا، أو يقتلـوا بطريقـة ذكيـة لا تثـير أي جلبـة؟ مـا الرسـالة مـن القتـل بتلـك الطريقـة؟ هـل يريـد أن يرسـل لنـا في الداخـل رسـالة مـا، أم أنـه أراد أن يضمـن إخفـاء شـيئًا مـا؟

كثـيرٌ مـن تلـك الأجوبـة سـنعرفها مـن تقريـر المعمـل الجنائـي إن اسـتطعنا الحصـول عليـه.

شعر حسن أن تلك الأسئلة هي البداية الصحيحة لقراءة الملف، ففتح الملف وقام بالقراءة وبدأ بالطبع بملف مولانا لأنه قد قتل أولاً وحتى يسير في المسار الزمني الصحيح، كانت معظم المعلومات الموجودة داخل الملف عن مولانا نائب المرشد يعرفها حسن، عدا دراسته في أمريكا.

وقد أكد التقرير على أنه قد قتل برصاص خارق حارق ذي رأس متفجر داخل الجسد ونوع المقذوف ينطق باللغة العربية "المسار". السلاح المستخدم بندقية قنص موديل جيوديسك. قد سمع حسن أثناء تدريباته الأمنية بالخارج عن وجود تلك البندقية وهو لم يرها، لأن هذا السلاح لم يدخل الخدمة في الجيش المصري أو الأمن المصري ولا تمتلكه غير الدول الكبرى وقد تم إنتاجها لأول مرة عام ٢٠٢٥ وسميت جيوديسك لأن الرصاصة تأخذ أقصر مسار في اتجاه الهدف وتخترق أي حاجز حتى تصل إلى هدفها لكن لكي تصل إلى هدفها يجب أن يكون لديها البصمة الحرارية للهدف أو الحمض النووي للهدف، لم يعرف حسن ولا زال لا يعرف ما هي البصمة الحرارية للحمض النووي، لكن القناص هنا هو ليس قنّاصًا بالمفهوم العادي لكن هو حامل هذا السلاح وهو يتم تدريبه بطريقة مختلفة حتى يصبح آلة قتل لا شعور لها ويتدرب جيدًا على مهارات الاختباء وهو يعلم جيدًا أن نسبة الخطأ تصل إلى صفر في المائة. كانت تلك المعلومات الموجودة في التقرير ورغم شحتها إلا أنها أطلقت سيلاً من الأسئلة في عقل حسن وكان قد وصل إلى احتمال أنه ربما يكون خائن استطاع أن يسهل للجهة القاتلة الحصول على الحمض النووي لمولانا، لكن لماذا تم قتله؟ وما الخطورة التي يسببها رجل مثله؟ لم يكن له عداء مع أحد.

وقفز ذهنه إلى سؤال حاول أن يبعده كثيرًا لكن لا مفر من طرحه لأنه لا يوجد أحد في الداخل يأمن عواقب قتل مولانا نائب المرشد، غير مولانا المرشد الإمام.

- لالا لا لا يمكن، إنها بالفعل جهات أجنبية ما.

كانـت المعلومـات بـين يديـه، لم تكـن تسـتطيع أن تعطيـه الكثـير مـن الأجوبـة وإن كان مولانـا المرشـد الإمـام هـو مـن يسـتطيع أن يفعـل ذلـك، وإن كان وقـد فعلهـا فقـد انتهـت القضيـة فمـن يسـتطيع أن يحاكـم مولانـا المرشـد الإمـام أو مـن يسـتطيع سـؤاله؟

أمـا احتـمال تـورط جهـات أجنبيـة كـما توحـي أدوات الجريمـة، فيلزمـه الكثـير مـن الجهـد. نظـر حسـن بفتـور تجـاه الملـف الثـاني ولم يجـد الكثـير مـن الطاقـة الداخليـة لقراءتـه لأن حجـم المعلومـات الموجـودة لـن تكـون كافيـة وسـيكون مغلـول اليـد للحصـول عـلى مـا يلـزم، وشـعر باضطـراب نتيجـة اختـلاط فقـدان الأمـل مـع شـعور داخـلي بالخطـر، فقـرر عـدم الاسـتقالة، ولكـن عليـه أن يختفـي.

إنـه الوقـت الملائـم ولـن يتـضرر أحـد إذا نجـح في الاختفـاء فـلا أب لـه أو أم، فقـد توفيـا منـذ فـترة، لكـن هـل سـيخيب أمـل اللـواء فيـه؟ لا يهـم، مـع تطـور الأحـداث سـيدرك أنـه الفعـل الصـواب وإن كان الأمـر ترتيبًـا للبيـت الداخـلي فعليـه اغتنـام الفرصـة لأنـه إن لم يصبـح بالداخـل -أي بداخـل البيـت- حـول مولانـا المرشـد الإمـام فقـد تتـم الإطاحـة بـه، وإن لم يتـضرر وأبعـد نفسـه عـن مجـرى الأحـداث فقـد يفقـد وظيفتـه عـلى أسـوأ تقديـر.

إنهـم معتـادون عـلى مثـل تلـك الأحـداث مـع تعاقـب الخلفـاء عـلى دولـة الخلافـة في مـصر، قـام مـن عـلى مكتبـه وكان عليـه المـرور عـلى مكتـب اللـواء قبـل أن يرحـل ويخـبره بخطـة التحـرك الوهميـة التـي سـوف يقـوم بتنفيذهـا حتـى لا يشـك فيـه، لكـن حتـى تكـون خطتـه منطقيـة يجـب أن يقـرأ الملـف الثـاني لمعرفـة ما بـه مـن معلومـات ووضـع تصـور مناسـب للخطـة الوهميـة وكان عليـه أن يعمـق شـعور اللـواء بوجـود رابـط بـين الحادثتـين وعليـه أن يبحـث عـن هـذا الرابـط.

تشـير المعلومـات عـن الدكتـور عبـد الرحمـن إلى أنـه أرمـل ولا أولاد لديـه فمـن تكـون تلـك السـيدة التـي وجـدت معـه؟ ولأي سـبب هـي كانـت موجـودة في بيته في تلـك السـاعة؟ هـل كان الدكتـور عبـد الرحمـن هـو المقصـود أم هـي؟ أم كليهـما ولمـاذا؟ هـل كانـا في اجتـماع أم لا هـذا ولا ذاك ؟ أم يمتلـكان معلومـة مشـتركة عـن شيء مـا ووجـب التخلـص منهـما؟ لكـن التخلـص منهـما بتلـك الطريقـة لـه دلالـة مهمـة، وكتـب بخـط يـده أول ملحوظـة: مـا دامـت هـي لا تربطهـا بـه علاقـة عائليـة إذًا كان بينهـما اتصـال، يجـب تفقـد آخـر اتصـال مشـترك بينهـما.

- لم يكن في الملف تقرير الطب الشرعي لأن الجثتين قد سرقتا.

كان ملف الدكتورة هالة يشير إلى أنها عذباء، لم تتزوج، تنحدر من عائلة علمانية وتم إعدام والدها بتهمة الهرطقة، استفادت من منحة تعليمية بألمانيا، وضعت تحت المراقبة الشديدة لمدة طويلة ووجد أنها لا تنتمي لأي تنظيم مدني ولا تشكل خطورة على النظام.

بل كانت شاهدة ضد الدكتورة سامية فؤاد عندما أحيلت إلى أمن النظام.

تقرير آخر لها يشير إلى اتصالها بالشرطة اليوم فقرأ حسن التقرير بتمحيص وكان بلاغًا كاذبًا وكانت تدعي فيه رؤيتها لأحد الأشخاص ووفاته بجانب مبنى معزول على طريق القطامية، وعندما حضرت الشرطة لم تجد الجثة فاعتبر الضابط أن ما رأته كان تهيؤات نتيجة الخوف وربما العطش وقام الضابط بالتحقق ولم يجد أي أثر للجثة حول ذلك المبنى، فادعت أن هذا الشخص قبل وفاته قد منحها خاتمًا ذا معدن لم تراه من قبل وأنه دليل صدقها لكن عندما ذهبت للسيارة ولم تجده تأكد الضابط أن ما حدث لها كان تهيؤات.

كان ذلك ما أدلى به الضابط حين تم التحقيق معه من قبل أمن المرشد، وكان على حسن أن يتفحص صورتها المرفقة كي يتحقق ما إن كانت تعاني مرضًا عقليا ظاهرًا و باد على وجهها.

لكن ما حدث عندما رأى صورتها، لا يحدث إلا في تلك القصص القديمة. فمرر يده كما تعلم من الشيخ على صورتها يتحسس روحها ثم أطرق إلى ما يحدث داخل جسده ونظر بتمعن كي لا يصف عقله أن ما يحدث هو وهم، فقد رأى الدماء تضخ من الجسد إلى القلب حاملة إكسير الحياة إلى القلب الذي قد كان عضوًا وظيفيًا خاليًا من الأحاسيس، أما مع وصول خلايا الدم إلى القلب حاملة إكسير الحياة ملقيةً به على القلب الميت، بدأت الحياة تنبت من جديد. أي قوة تلك يا ربي التي تستطيع أن تعكس دورة الدماء وتهزم مقاومة القلب لها؟، أي قوة تلك يا إلهي؟

- إنها قوة الحب!

إنها فتاته التي ظل طوال عمره يهرب من لقياها ومن أجلها منع الحياة عن القلب حتى مات!

- لماذا أتيت الآن؟

- آه أيها الحب وما تملكه من قوى سحرية!

مع شعور عارم بالحياة بدأ يدب بداخله، استسلم لأحاسيس الحب واعترف أنها هي التي عاش طوال عمره يبحث عنها وراح يتحسس صورتها مرة أخرى، نعم إنها هي حبه الغجري، وكلما أتت موجة دماء حاملة إكسير الحياة ووصولها إلى المرفأ، يضع يده على الصورة مستأنسًا بروحها التي كان يبحث عنها في أحضان النساء التي كان يكذب عليهن حالما ينتهي، ويجاملهن ويدعي أمامهن أنهن ممتعات لكن في قرارة نفسه كان يشعر بتقزز، لأنها كانت أرواحًا بلا رائحة.

وضع يده فوق رأسه مغمضًا عينيه، متكئًا على كرسيه محاولاً أن يمنع دمعات ترقرقت فقد كان دمعه فيما مضى في الحوادث غالى، فلم يبك رحيل أبيه أو أمه عندما قرأ في الملف أن الطبيب قد أكد وفاتها.

قال حتى لو لم يؤكدوا فما لبشر أن ينجو من انفجار مباشر مثل هذا.

لكن انتابته حالة سكون وعدم قدرة على مواصلة التفكير أو الحركة وظل على تلك الحالة المشابهة لحالة الفشل النفسي عندما يتعرض الإنسان لضغط هائل ولا يستطيع له دفعًا، أو يجد منه مخرجًا وظل على حالته فترة من الزمن ثم استيقظ بعدها فوجد عينيه شاخصة إلى سقف الحجرة وكأنها كانت تنظر إلى السماء، متجاوزة حتى السماوات، إنها تناجي القدر وتقول أي حلم هذا الذي ولد ميتًا؟ أي عقابٍ هذا؟ فقد عشت طوال عمري وأنا أحمل قلبًا لا يضخ إلا الدم، صائمًا في وهج الحر، ظمئًا إلى قطرة ماء منتظرًا ساعة الفطور، والتي سيعلمها عندما يجد النهر الأسطوري المملوء بذلك الماء المثلج في وهج الحر، فلما وجد النهر فرح فرحًا عظيمًا ووضع يده ليغترف لكن وجد النهر قد جف.

- أي منطق في ذلك؟، أي عبرة تلك؟ لِمَ لَمَ تتركني أبحث عن أمل؟

- (أستغفر الله العظيم)..

ونظر إلى صورتها بتحدٍ وقال: سأجد من قتلك وسأقتله حتى وإن كان.... قال ذلك ومسح الدموع من على عينيه ثم عاد إلى ملف القضية يقرأه من جديد بعد أن طرد فكرة الهروب من رأسه، فقد أضحى الأمر ثأرًا شخصيًا.

لكن سيطرت عليه مرة أخرى موجة اجتياح الشوق، ضربت قلبه بقوة وعنف شديد، لم يجد منها مخرجًا إلا غفوة، قللت بعض الشيء من ألم الفقد وكانت ملاذًا من الألم.

ترك حسن نفسه لها علُها تعطيه قوة الصمود، لكن زادت أرتال حزنه لأنه رآها، شعر بدفئها، تنفس من روحها، شمّ رائحتها، إنها روح لها رائحة!

شعر أنها تحدثت إليه طويلاً لكن لا يتذكر أي شيء مما قالت، ولم تترك له غير تلك الانطباعات وشيئًا آخر قبل رحيلها زاد إلى وجعه أوجاعًا، فقد هربت دون أن تسمع منه عندما أخبرها أنه ضابط في أمن النظام، فرت تلتحف رعبها وحنقها، حاول أن يدركها لكن ثقلاً ما قد تعلق في قدميه، لم يستطع اللحاق بها، أراد أن يوضح لها أنه ليس من هؤلاء الجزارين الذين تسمع عنهم، لكن هو سيف من سيوف الله، إنه رجل قد خلقه الله لغاية.

وكان يريد أن يقول لها إن حبيبك لا يختلف عما رسمتيه له من صورة في قلبك. لكن بعد صمت ممزوج بالألم قال:

كل الذي أستطيع فعله الآن هو إيجاد من قتلك حتى لو كان.........

(7)

لا تـدرى مـاذا يكـون هـذا الـشيء الموجـود فيـه الجسـد وعـلى أي شيء يحتـوي. كانـت حالتهـا مثـل رجـل ولـد أعمـى ثـم أبـصر، فلـم يـدر مـا الـذي يحيـط بـه، فتلـك الأجهـزة الموجـودة بالغرفـة لم تـرَ مثلهـا حتـى في أفـلام المسـتقبل أو حتـى في ألمانيـا، لكـن كل مـا علمتـه أنهـا أجهـزة، لأنهـا متصلـة بالجسـدين، بالتأكيـد تيـار الدمـاء متوقـف في الجسـدين، كـما أكـدت شـهادة الطبيـب التـي وقعهـا وأن الجسـدين قـد انفصـلا عـن الحيـاة فـماذا تكـون تلـك الأجهـزة؟

حاولـت أن تختـبر تلـك الأجهـزة لكـن ذرات الأجهـزة كانـت تنسـاب في يديها،هـل يتـم إحيـاء النـاس بتلـك الطريقـة بعـد المـوت؟ هـل هـذا هـو القـبر؟، ولكـن أيـن الملائكـة الذيـن قامـوا بتوصيـل تلـك الأجهـزة؟ فأنـا لم أشـاهدهم أم أننـا لـن نراهـم إلا بعـد البعـث؟

- أين ذهب المسعف والطبيب؟ وأين دفنوني؟.

لم تشـعر براحـة ولم يتوقـف عقلهـا عـن طـرح الأسـئلة ولـن يكـون هنـاك أجوبـة عـلى مـا يبـدو، لكـن بطريقـة مـا يمكـن توصيـف الحالـة.

"إنـه بطريقـةٍ مـا قـد تـم الذهـاب بهـا للمسـتقبل، حتـى وإن كانـت تلـك الـدار الآخـرة، فهـي انتقـال للمسـتقبل "

وإن هناك شيء غير طبيعي............

وأرادت أن تتراجـع عـن فكـرة أنهـا قـد انتقلـت إلى الـدار الآخـرة لأنهـا لم تعـبر بوابـات السـماء في رحلتهـا، لكـن هـل يوجـد سـماء؟

تذكـرت حديـث أمهـا معهـا عندمـا أخبرتهـا بعـدم وجـود سـماء، وأن مـا تـراه إنـما هـو الكـون في حالـة تباعـد بينـه وبـين نجومـه وكواكبـه، مسـافات شاسـعة، أي أنهـا ليسـت كـما يوصـف لنـا سـقف ترصعـه النجـوم.

صحيح أنها لم تقتنع عندما أخبرتها أمها بذلك لأن ما تراه غير مناقض لما تدعيه الأم لأنها بالفعل ترى سماء كسطح مغلق تزينه مصابيح ورأت الأم حيرة ابنتها وعدم تصديقها لكنها لم تعقب، إلا أن هالة سألتها قائلة:

إذن لماذا تغير لونها؟ فلو لم تكن شيئًا متماسكًا لما استطاعت أن تغير لونها.

ضحكت أمها...... فظنت هالة أن سؤالها غبي أو مضحك فأرادت أمها أن تخفف عبأ اعتقادها هذا فقالت:

إن كثيرًا من الناس كبارهم وصغارهم كانوا حتى وقتٍ قريب يعتقدون ذلك، فقد كانوا يعتقدون أن سماء الليل المظلمة هي تلك السماء المنيرة التي يرونها بالنهار، لكن مع ثورة العلم اكتشفوا أن تلك السماء الزرقاء ما هي إلا غلاف غازي عندما تسقط أشعة الشمس عليها يحدث تشتت لأشعة الشمس على ذلك الغلاف فتضيئه فلا نرى الكون، لكن نرى غلافًا مضيئًا يحجب عنا رؤية الكون وقد أعطت له السحاب بُعدًا جديدًا فجعلته كشيء مختلف عن الأرض وكأنه لم يكن من نبت تلك الأرض.

لكن مع غياب الشمس نرى الكون بالليل، ولبعد المسافة نراه مسطحًا، أي يأخذ شكل سقف وهكذا رآها الأقدمون. فبدت كسماء أو سقف تنيره مصابيح وهي النجوم لكن مع الاكتشافات العلمية علم الناس أن تلك النجوم ما هي إلا شموس مثل شمسنا، أكبر منها أو أصغر، وبينها مسافات يستطيع العابر-إذا كان يمتلك كمًا من الطاقة مناسب- أن يتحرك حيثما أراد، فلا سماء ولا سقف ولا بوابات كالتي اعتقدها الأقدمون.

هذه أول مرة تخطئين فيها يا أمي، فأنا قد عبرتها بطريقة أو أخرى، قد عبرتها فأنا الآن في الآخرة.

أيعقل أن أكون قد عبرت بجانب ثقب زمني وتحت تأثير طاقته تم نقلي بين أبعاد الزمن وما كانت حالة المسعف الجسدية وشروده هذا إلا لحظة عبور؟

دخـل رجـل يرتـدى معطفًـا أبيـض مماثـلاً لمـا يرتديـه الأطبـاء فطافـت حولـه لكـي تتعـرف عليـه ولكـن عـلى مـا يبـدو أنـه لم يرهـا فتيقنـت أنهـا مـا زالـت عـلى الأرض فلـو كانـت في السـماء لرآهـا إن كان مـلاكًا.

ورغـم أن فكـرة عبورهـا بُعـدًا زمنيًـا كانـت سـخيفة بالنسـبة إليهـا وأنهـا لم تتذوقهـا لكنهـا مـا زالـت هـي الاحتـمال الوحيـد الباقـي وتيقنـت مـن صحتـه فقـد كان رجـل يحمـل وجهًـا ملائكيًـا ورغـم أنـه يحمـل سـحر الـشرق إلا أن ملامحـه لم تكـن مصريـة أو عربيـة.

بـدأ الطبيـب بإزالـة مـا تبقـى مـا عـلى جسـدها مـن ثيـاب، وبـدا الجسـد أكثـر شـحوبًا مـن ذي قبـل وكان عليـه دمـاء متجلطـة نتيجـة النزيـف وكان الجسـد رغـم ذلـك مـا زال يحظـى بقـدرٍ كبـيرٍ مـن الجـمال جعـل الطبيـب يقـف أمامـه بعـض الوقـت متأمـلاً وبعـد برهـة عـاد إلى عملـه وجـرد كبـير السـنافر أيضًـا مـن الثيـاب، فقامـت هالـة بوضـع يدهـا عـلى عينيهـا، كانـت حركـة غريزيـة، لكـن شـيئًا مـا بداخلهـا قـد دفعهـا للتلصـص مـن خلـف أصابعهـا عـلى جسـد كبـير السـنافر وخاصـة عـلى عضـوه الذكـري، كانـت تريـد أن تعـرف مـا شـكله الطبيعـي، لأنهـا لم تكـن تـدرس جسـد الذكـر في دروس التشريـح وكان الذكـر الـذي يقومـون بتشريحـه يقـوم الأطبـاء الذكـور بإزالتـه قبـل التشريـح لـذا مـا زال لديهـا تلـك الأسـئلة عـن ممـا يتكـون، شيء مـا لم تـره وكيـف يكـون شـكله وحجمـه لكـن عـلى مـا يبـدو أن هـذا الـشيء لم يكـن جـذاب المنظـر فسرعـان مـا صرفـت نفسـها عنـه وكان انـصراف المقتنـع لا انـصراف الخائـف.

وقالـت لمـاذا يـسرف النـاس في تغطيـة أجسـادهم ولمـاذا يرهبـون البنـت بحيائهـا حتـى لا تنظـر، فلـو نظـرت لعرفـت أنـه لا شيء فيـه مغـري ولـولا دافـع داخـلي لمـا وضعـت المـرأة نفسـها ذلـك الموضـع.

سرعـان مـا أزاحـت يديهـا مـن فـوق عينيهـا بعدمـا زالـت أي رغبـة في النظـر تمامًـا.

قـام ذلـك الطبيـب باسـتبدال بعـض الأنابيـب المتصلـة بالجسـد ثـم أضـاف أنابيـب أخـرى.

فقالت له متحدية: افعل ما شئت. ألا تفهم أن هذا الجسد قد مات ولو أردت أن تعيده للحياة ولو كانت لديكم طريقة ما لإعادته للحياة فأنا لن أعود إليه فأمره لم يعد يعنيني لقد كبلني بخوفه، أرهق أمنياتي التي لم تتجاوز حدوده، وضع خطوطًا حمراء ثم وضع طقوسها.

نسي أنني أنا الأصل وما هو إلا ناقل للمؤثرات الحسية فبدلاً من أن يحملني وضع عليّ أثقاله ثم أجبرني أن أعيش فيه، وفي حدوده، نسي أني أنا الجوهر، أنني لا أفنى، إنما هو دوره في حياة الأرض، أنا جزء من الوجود وهو جزء من الأرض فقط.

لذلك مع ما مارسه عليّ فلم يشعر يومًا بالراحة أو السعادة فلا سعادة إلا بتحريري، لكن خوفه كبلني، أتدري أيها الطبيب كل لحظة ألم أو سعادة لا تدوم إلا إذا تذوقتها؟ وإن تذوقتها فستشعر بطعمها في أي وقت تتذوقها؟ أما لحظات الألم والسعادة التي يتذوقها الجسد فهي عابرة لا أثر لها.

خرجت من شعور التحدي الذي يجتاحها على عين الطبيب التي تخترقها فكان ينظر مباشرة إلى فرجها فوضعت يدها عليه لكنه ما زال ينظر فاستدارت فنظر أيضًا فقد كانت أردافها قطعة من جمال باريسي..

- فقالت ألا تخجل؟

الآن لا أريد أن أعرف ما تفعله بذلك الجسد ولا أريدك أن تنظر إليّ هكذا. سأرحل وافعل ما شئت فقد دنت لحظة الأمنية، رؤية العالم، ثم بعد ذلك سأركب أتوبيسات الفضاء التي تسافر إلى الأرض البديلة التي اكتشفوها وبدأوا في إعدادها للاستيطان، سأعرف إن كان هذا الأمر حقيقيًا أم لا.

قد أخبرها جيفري بذلك عندما كانت تدرس في ألمانيا وكأنه سرٌ حربي، أو ربما كان يعتبرها مخلوقًا بدائيًا أراد أن يثير شغفه.

ستعرف الآن إن كان ذلك صحيحًا أم لا، وذلك لأنها ستدخل إلى مختبراتهم. إنها جزء من البشرية ومن حقها أن تعرف فإن كان ما قاله صحيحًا ستسافر معهم وستتعرف على منجزهم العلمي في مجال الفضاء والسفر بين الكواكب. إنها تعلم أن تعتيمًا شديدًا كان يمارس على المنجز الغربي في علوم الفضاء واستغلال طاقة الكواكب المحيطة بالأرض. وقالت لنفسها لا أعرف كيف فعلوا ذلك!

أريد أن أشاهد هذا الانجاز الذي فعله الألمان في مجال المواصلات الفائقة، حيث أنهم قد اكتشفوا قانونًا جعلها صالحة للعمل في درجة حرارة الغرفة مما جعل الأمريكان يقومون باستغلال المجال المغناطيسي للأرض في الحركة واستطردت قائلة: أنا لا أعرف ماذا يعني ذلك لكني سأكتشفه، إننا هنا. صمتت وبعض المرارة في حلقها، ثم نظرت إلى الجسد وقالت بتحدٍ:

سأرحل عن سجنك، سأطوف العالم، سأعيش كل الحيوات، حياة العالم في بحثه عن المعرفة، سأعيش حياة الرحالة الباحث في كنوز الأرض، وأيضًا سأجد حبيبًا وأكون معه ناسكة في محراب اللذة ومعه اخلط متعة الطواف بالعالم بلذة الجنس رافعة معه علم الحرية في أرض العبيد.

وقفت أمام الجسد ونظرت إليه نظرة وداع واعتذار عما بدر منها تجاهه فقد دنت ساعة الرحيل، ثم تحركت مسرعة كي تخترق الجدار وترحل للأبد عندئذٍ شمت عطر الحرية كان طازجًا بطعم البطيخ في يوم صيف.

واخترقت الجدار الذي أدى بها إلى لا شيء!

(8)

حاول الرائد حسن التخفيف من قلق ضابط النجدة، والذي كان قد قابل الدكتورة هالة عند المبنى ٦٦ لكن على ما يبدو أن سمعة جهاز أمن النظام كانت أقوى من محاولات الرائد حسن.

لم يكن أمام الرائد حسن الكثير من الوقت، فوضع صورة الدكتورة هالة بعد أن قام بتكبيرها أمام الضابط الذي كان مشغولاً بمعاينة مكتب الرائد حسن واستعراض محتوياته، كانت مساحة حجرة المكتب تبلغ ٦٠ مترًا مربعًا، عبارة عن ١٠ مترًا طول و٦ عرض، في أحد أركانها مكتب الرائد حسن وفراغ يبلغ عشرين مترًا مربعًا أو يزيد والباقي تشغله آلات التعذيب ما بين حديث وقديم، وفيها من الآلات ما لم ير الضابط مثلها، فتعاظم في قلبه إحساس الرعب، استيقظ منه على دبيب يد الرائد حسن على المكتب مصاحبة لسؤال:

- تعرف صاحبة الصورة ؟

نظر الضابط إليها باهتمام ويبدو على وجهه محاولة بذل مجهود حقيقي لتذكرها فلم يكن هذا وقت أو مكان المراوغة.

نظر إليه الرائد حسن بعدما قرأ تعابير وجهه وقال لنفسه هل يستطيع أحد أن ينسى امرأة تحمل تلك الروح، إنك تهين قلبي بتلك الطريقة.

أراد الرائد حسن أن ينعش ذاكرته قليلاً فقال:

- شوفتها عند المبنى ٦٦......؟

- أيوه يا فندم افتكرتها دي مخبولة !

لم يطق الرائد حسن صبرًا فنظر إلى آلات التعذيب ورغم أنه قد عاهد نفسه ألا يعذب أحدًا مرة أخرى لكن نظرته لآلات التعذيب كانت ذات مغذى قرأه الضابط فحاول أن يخفف من لغته.

- أقصد كانت زي المخبولة....؟

كانت بتقول إنها رأت جثة لرجل عند ذلك المبنى وتركتها وذهبت بعد إبلاغ الشرطة.

- لكنك عندما ذهبت لم تجد تلك الجثة.

- صحيح.

- كم من الوقت قد مضى حتى وصولك للمبنى؟

- نصف ساعة.

- دا وقت كافي لاختفاء أي جثة ومن الممكن يكون الشخص مامتش واختفى.

- لا يمكن يا فندم لأن السيارات العابرة للطريق دا قليلة وعلى مدار خدمتي هناك كان من النادر أن يقف أي عابر عند المبنى ٦٦.

- ليه؟

- لأن المبنى مع البيئة المحيطة شكله مرعب.....

- أليس من الممكن أن يدخل المبنى؟

- من المستحيل أن يحدث ذلك لأن الأقفال على الباب اختبرتها بنفسي، كانت صدأة و لم يتم إمرار أي مفتاح فيها منذ زمن.

- مفيش باب خلفي؟

- اتحركت بجانب السور لمدة ٢٠ دقيقة بالسيارة ومكنش فيه أثر لباب أو لسيارة.

- إذن من أين جاء هذا الرجل؟

يـا فنـدم لم يكـن هنـاك أحـد، تلـك تهيـؤات الحـر، لقـد أرادت أن تثبـت لنـا أن وجـود هـذا الرجـل لم يكـن تهيـؤات فادّعـت أنـه أعطاهـا خاتمًـا ووضعتـه في سـيارتها لكـن عندمـا بحثـت عنـه لم تجـده فأدركـت أنـه الحـر والعطـش ورهبـة هـذا المـكان. فأشـفقت عليهـا وتركتهـا ترحـل.

- إذن لماذا قُتلت؟

- قُتلت......

- واختفت جثتها أيضًا.

- نظر الضابط إلى حسن باندهاش ولم يعقب.

كان يتوجـب عـلى الرائـد حسـن عـدم الإفـراج عـن هـذا الضابـط حتـى لا يفتضـح أمـره ويعلـم أمـن المرشـد تدخلـه المرفـوض في التحقيقـات، واسـتغرب عـدم إجـراء أي تحقيـق مـع هـذا الضابـط مـن قبـل أمـن المرشـد، وقبـل انـصراف هـذا الضابـط كان عـلى الرائـد حسـن أن يحسـم أمـره.

اسـتقر عـلى أن يفـرج عنـه فحتـى لـو احتجـزه سـتصل معلومـة عـلى نحـو عاجـل عـن هـذا الأمـر إلى شـعبة أمـن النظـام شـعر هـذا الضابـط باضطـراب الرائـد حسـن باتخـاذ موقـف تجاهـه فتملكـه شـعور بالقلـق، أفـاق منـه بعدمـا أخـلى الرائـد حسـن سـبيله وأمـره بالانـصراف ولم ينـس أن يخـبره أن هـذا التحقيـق كان سريًـا وأن إفشـاء أيـة معلومـة عنـه حتـى لأمـن المرشـد ربـما يهـدد حياتـه.

انصرف الضابط شاكرًا.

ومـا كاد هـذا الضابـط يخـرج حتـى دوى صـوت آلـة سـكاي فاكـس الخاصـة بـه وهـي آلـة شـبيهة بالفاكـس قديـمًا لكنهـا مـن الممكـن أن تحمـل رسـالة مصـورة، وبرامـج الخصوصيـة لهـا جعلتهـا حصينـة لا يمكـن اختراقهـا.

استشـعر حسـن ثقـل الوقـت منـذ سـماع صـوت سـكاي فاكـس حتـى خـروج التقريـر، فالتقطتـه يـد الرائـد حسـن بمنتهـى السرعـة وكان كـما توقـع أنـه مـن سـيادة اللـواء رئيـس الشـعبة، فقـرأه باهتـمام بالـغ.

"إن الطبيب والمسعفين لدى شعبة أمن المرشد وعندما يصلني تقرير الاستجواب سأرسله إليك. لم يكن معهم الجثتين"

وضع حسن يده فوق رأسه وراح يقلب الأفكار ويسترجع معلومات التقرير مرة أخرى. قام من على كرسيه، فقد قرر الذهاب إلى المبنى ٦٦.

يجب أن يسبق محققي أمن المرشد إلى هناك وعليه محاولة إيجاد مدخل للمبنى.

كان الرائد حسن قد حصل على كل ما يلزم من معلومات عن المبنى وكانت معلومات عادية عن صاحب المبنى وهو ملياردير إخواني يحب العزلة وقد بناه بعد اعتزاله العمل العام.

لكن عندما وقف قبالة المبنى وجد أن شيئًا ما غير صحيح إذا كان صاحب المبنى يحب الانعزال فما حاجته لوسائل التأمين تلك؟ فقد كان المبنى قلعة خرسانية ذات سور عالي، لا يمكن اختراقه أو تسلقه، ممتد داخل الصحراء حتى أن العين لا تدرك امتداده داخل الصحراء، والصحراء حوله منبسطة ولا مكان للاختباء ويبدو أن حديث الضابط كان صادقًا فإن أبعاد المبنى الهندسية ووجوده منفردًا يجعل أشد النفوس صلابة يأخذها الرهبة، أي مهندس عبقري استطاع أن يفعل ذلك ومع قليل من الإشاعات ستجعل هذا المبنى آمنًا تمامًا، كانت تلك دوافعه لعدم تصديق ما قرأه عن المبنى.

لكن هل رأت الدكتورة هالة جثة رجل فعلاً أم أن رهاب ذلك المكان والحر والعطش جعل عقلها يطرح ذلك، ما أكثر ما يرى الخائفون أشياء لا نراها فكم رُوي من روايات عن العفاريت وكلٌ يروى حسب ثقافته، ذلك ما كان يخبره به والده الطبيب النفسي وكان يقول له إن العقل قادر على خلق أي عالم يريد، والإحساس به، والعيش فيه، وقال في موضوع الخوف إن العقل يطرح تلك الأشياء، وغالبًا ما تكون متوائمة مع الثقافة المحلية والبيئة المحيطة، فأهل الصحراء لهم أقاصيصهم المرعبة عن العنقاء وقصص الجان القاتل آكل أحشاء البشر والقاطنين بجانب النهر يحكون عن جنية تخرج من الماء في المساء وتنادي على ضحاياها ثم تقوم بجرهم إلى النهر وقد حكى لحسن عن جده الذي كان يعمل بالزراعة عندما ذهب ليلاً ليسقي

الـذرة وظـن أن هنـاك عفريتًـا يلاعبـه وكان قـد تشـكل عـلى هيئـة أرانـب وسرعـان مـا اصطـاد اثنـين مـن تلـك الأرانـب ووضعهـا في حجـره وعندمـا حـضر إلى البيـت لم يجـد شـيئًا، تلـك توهمـات العقـل عندمـا يكـون خائفًـا، وإلا فعليـك أن تجـاوب لمـاذا لا نـرى العفاريـت إلا مسـاءً وفي الأماكـن المهجـورة، فلـم أعـرف يومهـا لمـاذا، لكـن أبي أكمـل حديثـه وقـال لأن الأمـان يجعـل العقـل لا يفـترض تلـك الأشـياء ولا يخلقهـا.

أيعقـل يـا هالـة أن يكـون مـا حـدث معـك مـا هـو إلا توهمـات عقليـة ويكـون حـادث قتلـك مصادفـة، ويكـون ذلـك الطبيـب هـو مـن أرادوا قتلـه؟

ارتـاح حسـن إلى هـذا الاسـتنتاج واعتقـد أنـه أقـرب مـا يكـون للحقيقـة، واعتقـد أن القـدر هـو مـن وضعهـا في ذلـك الطريـق وأنهـا ماتـت لأن هـذا هـو المكتـوب ولا مهـرب مـن مكتـوبٍ أبـدًا.

تحـرك حسـن رغـم حالـة الرهبـة والقشـعريرة التـي شـعر بهـا مقتربًـا مـن البوابـة ثـم قـام بالضغـط عـلى الجـرس عـدة مـرات متتاليـة ولم يجـد هنـاك أي رد فعـل ولم يسـمع أي مـؤشر للحركـة بالداخـل ممـا يوحـي أن المـكان خـالي حتـى مـن الحرس.

قـال عـلى كل حـالٍ، مَـن يحـرس مكانًـا مـات صاحبـه ولا يوجـد مـن يدفـع مقابـل الحراسـة؟ أو لأي مـراد يحـرس؟

عندئـذٍ غـادر البوابـة وتحـرك بجانـب السـور لم يكـن لديـه خطـة لاخـتراق المبنى لكـن كان دافـع داخـلي دفعـه للحركـة بجانـب ذلـك السـور الـذي ادعـت هالـة أن أحـد مـا خـرج مـن جانبـه وعـلى مـا يبـدو أنـه لـن يسـير طويـلاً بجانـب السـور وأنـه يـرضي شـيئًا مـا بداخلـه.

وبعـد أن سـار أكثـر مـن مائتـي مـتر ظـل عـلى حالـه ومـضى، لكـن بعـد لحظـات أدرك شـيئًا لا تدركـه إلا عـين الخبـير، ولم يكـن الخبـير يدرك مـا أدركه إلا إذا مشـى، لكـن إن ركـب فلـن تسـتطيع العـين إدراك مـا أدركـه.

فقد لاحظ أن هناك فاصلاً في الجدار لا تدركه العين أبدًا ففكر أن هذا الفاصل الرأسي المستقيم في الجدار ربما يكون بابًا مخفيًا، ولكن لا وجود لأقفال أو مكان إدخال مفتاح فراح يتحسس الجدار بيديه، والتقطت يده حجرًا قابلاً للانضغاط وسرعان ما ضغطت يده على هذا الحجر القابل للانضغاط فانزاح الباب انزياحًا بسيطًا لا يسمح بدخول فرد وبصعوبة أدخل حسن رجله أولاً، وعندما أصبح نصف جسده السفلي مع يده اليمنى للداخل قام بدفع الباب بكل ما يملك من قوة، وشعر بمقاومة الباب له، وبصعوبة بالغة استطاع أن يدخل رأسه مع كامل جسده وبعد أن دخل كان للباب ردة فعل عكسي للفعل الذي قام به فانغلق الباب محتجزا حسن في الداخل، عندئذٍ عرف حسن الحقيقة الزائفة أن ما رآه بالخارج كان سورًا زائفًا لأنه جزء من المبنى وليس سور، علم ذلك بعدما دخل.

أبصرت عيناه على ظلام دامس داخل المبنى فنظر للضوء النافذ من الشق الذي صنعه الباب قبل أن ينغلق تمامًا.

شعر حسن بالخوف يتسلل عميقًا حتى ملأ وجدانه، ورغم أنه قد حسم قضيته منذ زمن مدعيًا أن الموت لا يرهبه، فطمأن نفسه من أنه لا مبرر للخوف من أي شيء، لأن خوف الإنسان نابع من أن تنقضي حياته نتيجة الشر، هكذا كان يعتقد، وما دام أنه لا يخاف الموت فلن يرهبه الشر المسبب للموت.

ولأنه يعتقد أن الروح تخرج عند الموت، وأنها طيف لا تحكمه قوانين الطبيعة، طيف لا يرى الظلام كما نراه.

- إذن لماذا أخاف؟

وشعر حسن بطمأنينة نتيجة الحوار العقلي الذي أجراه، لكن بعد لحظات من النظر في الظلام اللانهائي أمامه شعرت روحه بالخوف وتهاوت كل الحجج العقلية أمام الخوف، عندئذٍ سأل نفسه متعجبًا، لماذا ينتابني إحساس الخوف بهذا العنف؟ أيكون كلام الشيخ صوابًا؟

فعندما قابله آخر مرة قبل إعدامه فرأى أن كثيرًا من أفكاره قد تغيرت، فسأله عن سر التغير فقال:

«في لحظة الحقيقة لا يثبت إلا الصادقون»

الآن صدقتك، قال ذلك ثم تحرك إلى جانب الحائط ويداه تبحث عن زر النور لكن سرعان ما شعر بالفشل وابتعد عن الحائط قليلاً للبحث عن باب آخر أو زر الكهرباء الذي يجب أن يكون على أحد الحوائط.

وبعد مرور بعض الوقت شعر حسن ببعض الراحة النفسية وتخلت عنه بعض المخاوف وبدأ يتآلف مع تلك الظلمة فابتعد عن الحائط أكثر وتحرك باتجاه الحائط المقابل، مضى حسن في طريقه في خط مستقيم إلى الجهة المقابلة لكن بعد مضي برهة من الزمن لم يصطدم خلالها بالحائط أو لم يجد حائطًا، بدأت موجة خوف جديدة تعتريه وتكاد تفقده القدرة على التفكير ومع فقدانه أمل الوصول إلى حائط نبت بداخله أمل معرفة سر هذا المكان.

مضى الرائد حسن دون كلَل في طريقه دون تراجع، محاولاً التغلب على ما يعتريه من رعب وعدم معرفة بجغرافية المكان لكنه ظل متحركًا مادًا يديه أمامه في الظلام وظل رابط الجأش باحثًا عن الأمل ومع مضي الوقت والشعور بالإرهاق بدأ يحس بثقل التنفس مصحوبًا بثقل الزمن فهو يمضي دون الوصول لأي شيء، لم يصطدم بجدار، لم ير جنيًا، لم ير أي شيء لكن مع رحيل موجة الخوف تلك وعودة العقل رأى أن ظلام هذا المكان لا يتبدد أي أنه محكم الغلق، لم تستطع أي كمية ضوء التسلل والدخول.

تذكر أيضًا أن هذا المكان هائل الحجم وقد يتطلب منه الأمر المزيد من الجهد للوصول للحائط في الاتجاه المقابل لكن هل يا ترى المساحة كلها عبارة عن تلك الغرفة المظلمة؟

مع موجة الألفة بينه وبين تلك الظلمة شعر بتحسن في التنفس وهدوء، مما مكنه من شم رائحة المكان التي تظهر هواءً راكدًا لم يتعرض للشمس منذ مدة طويلة ولم يتغير، فلا مدخل له ولا مخرج، ووصل إلى تلك الاستنتاجات لأن الهواء كان مصحوبًا ببعض رائحة العطن الناتجة عن تفاعل الرطوبة مع

الظلمة، وشعر بنفورٍ شديد من تلك الرائحة، ولحظّه السيئ كان يجدها كثيرًا في حملاته على كتب العلمانيين، فقد كانت مصاحبة لتلك الكتب التي كان يدفنها العلمانيون حتى لا يكتشفها ويعدمها، فهي كتب حرُمت قرأتها شرعًا.

مضى حسن، لم يستسلم لتعبه، ومع شعور التحسن في التنفس باتت خطواته أسرع، ولولا خوفه من ألم الاصطدام بالحائط لجرى، لكن ظل متحركًا بخفة كبيرة على أمل أن يكون يوم حظه مثل كل القصص التي قرأها فإن أبطالها كانوا يجدون الحل مع زوال الأمل، عندئذٍ يأتي دور الصدفة السعيدة، هل تنتظرني صدفتي السعيدة التي تجعلني أجد زر اللمبة؟ وأعتقد أنه ليس زرًا واحدًا فما للمبة واحدة تستطيع أن تضيء مكانًا بمثل هذا الاتساع، وقال لنفسه أنا الآن بلا أمل، لكنه ما كاد يذكر تلك الكلمة حتى أتته موجة خوف مفاجئة على إثر فقدان الأمل، وطرأ على ذهنه سؤال؛ ما دام هذا المكان غير طبيعي فهل يا ترى من الممكن وجود أشياء غير طبيعية؟

توقفت قدماه عن الحركة للحظة تاركًا الأمر لأذنيه كي تنصت للظلمة، فقد تستطيع أن ترى أي صوت لكائن غريب مخيف أو ثعبان أو عقرب، فكل تلك الأشياء لن تنهي حياته مرة واحدة لكن ستتركه يعاني الخوف والألم.

عندئذٍ استطاعت أذنيه أن تبصر صوت فحيحٍ مكتوم آتٍ من الأعماق لكن مع سماع الصوت المصحوب بالخوف، لم تستطع أذنه أن تحدد مكانه أو تستنتج مصدره وشعر بالتصاق قدميه بالأرض وعدم قدرتها على الحركة ولم يستطع عقله أن يسيطر عليها ويحركها، ومع شعور أنه ربما يسير في اتجاه ذلك المفترس الذي ينتظره، وتخيل صورة اللعاب السائل من فمه ساقطًا على أرضية هذه الأرض المظلمة، لكن هل يستطيع أي مفترس أن ينتظر كل هذا الوقت، ومن أين جاء؟ وكيف دخل هذا المكان؟ إنها فكرة سطحية، حاول بتلك الأسئلة طمأنة نفسه لكن على ما يبدو لم يطمئن كثيرًا لأن أفكار الخوف رغم زيفها، إلا أنها أقوى من أي منطق.

زعمت تلك الأفكار أن المفترس ربما يكون أحد الزواحف التي تستطيع الصمود مدة طويلة دون غذاء أو قد يكون المكان مليء بالعقارب، وبعد لحظات من التردد قال: على كلٍ سأكون وليمة، إن كان هناك مفترس فلا

مفر من الموت وليس أمامي سوى حلٍ وحيد؛ أن أكمل الحركة في هذا الاتجاه الذي حددته سلفًا، واستجابت قدماه لتلك الفكرة وتحركت مسرعة معتمدة على يديه الممدودتين لتحديد المخاطر واستكشاف العوائق لكن على ما يبدو أن الطريق كان خاليًا لا يوجد فيه ما يعوق، فزاد من سرعته أكثر ومع شعور بالتعب توقف يلتقط أنفاسه بعد وقت طويل من الحركة.

لم يكن يدرك مقدار الوقت بالتحديد الذي أمضاه في الحركة لكنه وقتٌ طويل، عندئذٍ انتبه لفكرة الوقت وقال عليّ أن أحسب الوقت، لم يكن يحمل ساعة في يده ولم يكن من هواة حمل الساعات، وكان يعلل ذلك بأن الحياة لا تحتاج إلى الزمن فإن الله قد خلقنا لشيء واحد لا يحتاج إذا فعلناه إلى الزمن وهو العبادة لأن بالعبادة والصلاح سيمنحنا الله ما نشاء فلا حاجة للعمل أو الفعل وقد سأله بعض العلمانيين الذين كان يحقق معهم عندما كان يعرض عليهم متباهيًا فكرته عن الحياة، لماذا تعمل إذا كنت مؤمنًا بذلك؟

فكان يقول لهم لأننا كلنا غير مؤمنين وإن المجتمع يوجد به الكثير منكم وعلينا إزالتكم حتى نوجد ذلك المجتمع العابد المخلص في العبادة عندئذٍ لن نكون بحاجة إلى أي شيء، و مما تدعون من فوائد العلم أو مما تخبروننا به عن التقدم لأننا سنكون عندئذٍ عبادًا ربانيين نقول للشيء كن فيكون، إن أردنا علمًا وضعه الله في أذهاننا، وإن أردنا تقدمًا ساقه الله إلينا.

كان يضايقه جدًا سؤال بعض هؤلاء العلمانيين الكفرة، إن كان هناك ما تدعي، لماذا لم نقرأ في التاريخ عن وجود هذا المجتمع؟ ولماذا لم يوجد على طول مسار التاريخ الإسلامي؟ وكانوا يقولون إن النبي مات فقيرًا.

شعر بالخوف وقال لنفسه:

لِمَ هذه الأفكار الآن؟ يجب عليّ منع عقلي من تذكر أفكار الكفر هذه، وراح يقرأ الآيات القرآنية، وكانت مصدر اطمئنان حقيقي لقلبه، فتابع السير وهو يقرأ القرآن وكان هذا خير ما فعل لقلبه وبث بعض الاطمئنان إليه، محاولاً التغلب على أفكار الخوف لكن كان يتوجب عليه أن يتوقف عن قراءة القرآن، لأن عليه أن يقوم بحساب الزمن لكن القرآن يعطيه الطمأنينة والثبات أما حساب الزمن عن طريق العدّ فسيعطي عقله الفرصة لتلك

الأفـكار، واختـار بعـد تـردد أن يقـوم بالعـد، لكنـه احتـار بـين العـد بصـوتٍ هامـس أم أعـلى قليـلاً حتـى لا يـسرح في أسـألته التـي بـلا نهايـة، لكـن الصـوت العـالي ربـما يجعـل أي مفـترس غافـل عنـه يسـمع صوتـه فينتبـه لـه، وأخـيرًا اسـتقر أن يقـوم بالعـد الداخـلي ذلـك الـذي يقـوم بفعلـه دون إصـدار صـوت، إنـه نـوع مـن العـد في اتجـاه الداخـل، إنـه صـوت يسـمعه العقـل وتؤديـه الشـفاه فقـط.

ظـل عـلى حالـة الجـري المنظـم مـا يزيـد عـلى السـاعة عـلى مقيـاس الزمـن الذي قـام باقتراحـه ولم يصطـدم بـشيء أو بالجـدار ولا يوجـد مـا يـدل عـلى أنـه اقـترب مـن الجـدار عندئـذٍ قـام بحركـة عشـوائية بيديـه ورجليـه وكأنـه يقـوم بـركل آخـر خيـوط الأمـل، وشـعر أنـه مثـل موسـى وقومـه في متاهـات سـيناء وتهكـم عـلى نفسـه عندمـا اقتنـع بعـض الـشيء بـكلام ريتشـارد دوكنـز عـالم التطـور الشـهير في أحـد كتبـه التـي قرأهـا قبـل إعدامهـا عـن تلـك المتاهـة بأنـه قـال عنـد حسـاب مسـاحة سـيناء وسرعـة الحركـة المطلوبـة وجـد أنهـم لـو تحركـوا خطـوة واحـدة في اليـوم وفي أي اتجـاه لخرجـوا مـن سـيناء في أقـل مـن ثـلاث سـنوات وقـال لـو أنـه رأى مـا أنـا فيـه مـن متاهـة لعـرف أن المتاهـة كانـت حـق، نظـر حولـه وشـعر ببعـض الهـدوء لأنـه بعـد كل تلـك الحركـة لـو كان هنـاك أي أذى غـير الظلمـة لـكان الآن ميتًـا، واطمأنـت نفسـه لهـذا الاسـتنتاج.

فجلـس قليـلاً ليسـتريح، اختـبر الأرض التـي تحتـه بقدمـه فلـم يجـد شـيئًا غـير طبيعـي وقبـل أن يجلـس شـعر ببعـض تأنيـب الضمـير، لأنـه سـيجلس وربـما يكون بينـه وبـين الحائـط عـدة أمتـار، وقـال متسـائلاً: أليـس مـن المفـروض أن أظـل عـلى حالـة الحركـة، ولأنهـا حجـرة محـددة الجوانـب متسـعة قليـلاً لكـن ليسـت بـلا نهايـة، وكل حائـط في الأربعـة جوانـب هـو نهايـة، وإذا طبـق كلام ذلـك المخبـول؛ عـالم الأحيـاء هـذا، فسـيكون كل حركـة هـي تقربـه مـن الخـلاص، وقفـز إلى اسـتنتاج وقـال إذا تأكـدت مـن الحركـة في اتجـاه واحـد وبسرعـة فحتـمًا سـأصل ويجـب أن أكـون مسرعًـا حتـى أقلـل مـن التغـير في الاتجـاه.

وانطلق بأقصى سرعة ممكنة له في نفس الاتجاه الذي اختاره من قبل ولم تمض غير لحظات قليلة حتى دوى صوت ارتطام هائل في المكان سقط حسن على إثره أرضًا وغاب عن الوعي.

وقفت من فرط التعب والمجهود لم تستطع أن تهرب منه أكثر من ذلك فأدركها حسن، لم تستطع أن تخطو خطوات أبعد مما وصلت إليه قدماها

فاستسلمت ووقفت، فاقترب منها حسن وقال برفق:

- لماذا تهربين مني؟

لم تجاوب على سؤاله وطاف بذهنها ما حدث لأمها منهم وتذكرت حديث أمها عن إجبار أبيها على التوقيع على تهم لم يرتكبها ثم إعدامه قبل مولدها، حاول أن يهدئ من روعها فقال:

- إن ما نفعله هو تقرب إلى الله والحفاظ على دينه.

نظرت إليه وقد زاد نفورها من حديثه وقالت دون خوف:

- بل أنتم مرضى نفسيين تستعذبون تعذيب ضحاياكم، تشعرون أنكم آلهة، قضاة وجلادون!

استفزه ما قالت وقرر أن يدافع عن نفسه وليكن ما يكون فكيف لامرأة مهما كانت أن تتحدث إليه هكذا؟

إن الجلد والتعذيب مشرع للعقاب والتطهير، ألم ترجم الزانية؟ أليس الرجم هو نوع من العذاب؟ ألا تتطهر الضحايا ونحمي المجتمع؟ ألم يشرع عمر بن الخطاب الجلد لشارب الخمر؟، لماذا تلومينني أو تطالبينني بلوم نفسي لتعذيب أو قتل من هم ضد الدين وضد الخلافة؟

انظر إلى داخل نفسك وبصدق، ألم تستعذب أنات المعذبين وآهات الرجال عندما يسقطون أمام عينيك من عليائهم؟

- لا لا لست نادم.

نظرت إليه باشمئزاز وقالت:

- لست نادم؟

- دعيني أكمل، نعم لست نادم وسأذكر لك عن امرأة لو قابلتها ألف مرة لعذبتها حتى الموت كل مرة، لقد اعترفت قبل أن أعذبها بما أريد معرفته لكنها لم تتخلّ عما تعتقد.

- وماذا كانت تعتقد؟

كانت ملحدة تنشر إلحادها واكتشفنا كتابًا اعترفت أنها من ألفته بعنوان الفلكلور في الإسلام وهو كتاب يشوه الإسلام.

- دع هذا للقاضي!

لقد سبتني وتهكمت عليّ قبل وفاتها، وقالت أنتم تمارسون التفتيش مثل الذي مارسته الكنيسة في القرون الوسطى.

- انظري كيف ساوت بيننا وبين الكنيسة ألم تعلم أننا مختلفين تمام الاختلاف؟

هالة، لا أدري لماذا أنتِ غاضبة مني إلى هذه الدرجة بل يجب أن تكوني سعيدة بما أفعل، فخورة به، فأنا من حماة الدين والوطن، وسيف من سيوف الله على رقاب الأعداء.

هل تصدق ذلك... فأنت بما تمتلك من سلطة يمكنك أن تدعي بما تشاء وأن تحاسب من تشاء، بإمكانك أن تدعي أنني ملحدة أو عميلة ولن أستطيع أن أدافع عن نفسي لأنك القاضي والحكم.

أفاق حسن من غيبوبته ولا يذكر من حلمه ذلك غير امتعاضها منه وشعور غير مريح قد انتابه وظل عالقًا في نفسه.

وانتبـه حســن إلى إحســاس بــألمٍ شــديد صــادر مــن ســاقه فوضـع يــده عــلى مصـدر الألم، فوجـد أن فـوق البنطلـون المغطـي منطقـة السـاق رطـب ولـزج نتيجـة خـروج دمـاء مـن سـاقه، فكشـف سـاقه ووضـع يـده عـلى الجـرح فوجـد جرحًـا عميقًـا ممتـدًا تأكـد منـه بأصابعـه التـي قـام بتحريكهـا، ثـم قـام بإمـرار يديـه عـلى السـاق كلـه حتـى يتأكـد مـن عـدم وجـود ورم نتيجـة الاصطـدام.

شـعر حســن بقشـعريرة تـسري في جسـده نتيجـة الاصطـدام لأنـه لم يصطـدم بحائـط لقـد كان شيء مـا، وربـما هـذا الـشيء الـذي اصطـدم بـه مـا زال بجانـب حســن أو ربـما يكـون... أو قـد تحـرك...... سـيطرت حالـة مـن الرعـب والهلـع عليـه لبعـض ثـوانٍ، لكـن لم يمهـل نفسـه الكثـير مـن الوقـت للاسـتغراق في تلـك الحالـة لأنـه يعـرف أن التأخـير في الفعـل للحظـة ربـما يكـون سـببًا في وفاتـه، وهـو لا يعـرف كـم اسـتغرق في النـوم ورغـم حالـة الرعـب التـي اعترتـه إلا أنـه سـحب سـاقيه الممدودتـين بأقـصى سرعـة ممكنـة محـاولاً الوقـوف لكـن اصطدمـت سـاقه بذلـك الجســم مـرة أخـرى، محدثـة صوتًـا، شـعر حســن أن نهايتـه قـد اقتربـت وبعـد أن تشـهَّد راح يقـرأ بعـض سـور القـرآن وتأكـد أنـه ليـس هنـاك مـن المـوت بـد فقـرر أن يمـوت شـجاعًا، ومـد يديـه محـاولاً استكشـاف ذلـك الـشيء، تجمدت الدمـاء في عروقـه لثـوانٍ لأن يـده لم تعثـر عـلى أي شيء. وبحركـة غريزيـة ورعـب الغنـم الضائعـة الخائفـة مـن الذئـب تلفـت خلفه، ثـم يمينًـا ويسـارًا، وشـعر بخـوارٍ مفاجـئ في قدمـه فقعـد القرفصـاء مسـتعدًا للمواجهـة لكـن قدميـه لم تسـتطع أن تتحملـه ثانيًـا فسـقط أرضًـا وارتطـم جسـده كلـه بهـذا الـشيء، استسـلم حســن لمخاوفـه وشـعر بدنـو الأجـل وتهيـأ جيـدًا للمـوت وقـال «أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأشـهد أن محمـدًا رسـول الله» لم يكـن بحاجـة أن يغمـض عينيـه بالطبـع فهـو في ظـلام دامـس وانتظـر المـوت للحظـات، فلـم يـأت، عندئـذٍ لم يكـن أمـام عقلـه إلا تفسـير بسـيط وربـما يكـون صحيحًـا، أن ذلـك الـشيء الـذي اصطـدم بـه ربـما يكـون جـزءًا مـن المبنـى أو شـيئًا لم يتـم إزالتـه مـن تلـك القاعـة الفسـيحة أو قـل نسـوه، فمـن يأبـه لـشيء ضئيـل الحجـم مثـل هـذا الـشيء في قاعـة مظلمـة بهـذا الحجـم؟ وبعدمـا أطمئنـت نفسـه لهـذا الاسـتنتاج راحـت يـده تستكشـف ببـطء وحـذر ذلـك الجسـم.

عندئـذٍ ارتعـد جسـده رعـدة كاد معهـا يفقـد القـدرة عـلى الإدراك ثـم تصلـب جسـده بجانـب هـذا الـشيء ومـا كاد عقلـه يسـتطيع السـيطرة عـلى جسـده، حتـى انتفـض مـرة أخـرى وتدحـرج حسـن بعيـدًا عـن هـذا الـشيء.

لكـن سرعـان مـا تغلبـت طبيعـة المحقـق عليـه فجعلتـه يمـد يـده مـرة أخـرى متحسسًـا ذلـك الـشيء، عندئـذٍ تأكـد مـن صحـة مـا اعتقـده، لقـد كان هيـكلاً عظميًا لإنسـان ويبـدو أن صاحبـه مـات منـذ زمـن بعيـد لأنـه بـلا رائحـة وطغـت عليـه رائحـة المـكان.

تـذوق حسـن لأول مـرة رائحـة الألم في حلقـه لأنـه علـم أن هـذا هـو المصـير المحتـوم ويعلـم أن هـذا الشـخص بالطبـع قـد حـاول مثلـه وفعـل مـا فعلـه حسـن مـن محاولـة الوصـول إلى الحائـط والخـروج، لكـن في نهايـة الأمـر كان المـوت جائعًـا خائفًـا عطشـانًا هـو مصـيره!

ألقـى حسـن جسـده كلـه أرضًـا في وضعيـة المصلـوب ثـم أغلـق عينيـه. شـعر براحـة كبـيرة عندمـا اختـار هـو الظـلام لا أن يفـرض الظـلام عليـه، لكـن شـعورًا باطنيًـا بالقلـق لم يسـتطع أن يتخلـص منـه، جعلـه غـير قـادر عـلى التفكـير أو الخـروج بروحـه خـارج تلـك القاعـة المظلمـة فوقـع بـين حالـة محاولـة التفكـير وعـدم القـدرة عـلى التفكـير، وسرعـان مـا دفعتـه تلـك الحالـة إلى تحريـك جفونـه وفتحهـا ثـم نظـر إلى سـقف الحجـرة، هـو يعلـم أن ارتفـاع السـقف ليـس كـما يبدو في الظـلام مـن أنـه بـلا نهايـة، عندئـذٍ وضـع زراعيـه تحـت رأسـه، اسـتخدمهما مثل المخـدة، ثـم وضـع سـاقًا فـوق سـاق ورغـم إحسـاس بالألفـة مـع الظـلام إلا أن مشـاعر القلـق مـا زالـت هـي المتحكمـة في أفـكاره، عندئـذٍ أدار رأسـه إلى الهيـكل العظمـي وقـال: أتمنـى ألا أمـر بـما مـررت أنـت بـه حتـى مـت، أتمنـى أن أمـوت سريعًـا ثـم عـادت رأسـه إلى وضعهـا ثانيـة ونظـر إلى الظـلام السرمـدي الممتـد بـلا نهايـة وشـعر باضطـراب قليـل في التنفـس، حـاول تهدئـة نفسـه وخـاض عـدة محـاولات عبثيـة للسـيطرة عـلى مخاوفـه ومـع شـعوره بالفشـل لام نفسـه وقـال مؤنبًـا لذاتـه لم أكـن أعـرف أننـي أحمـل كل هـذا الضعـف.

قــام بمحاولــة خبيثــة للســيطرة عــلى ذاتــه ودفــع عقلــه دفعًــا للتفكــير في شيء خارجــي وفكــر في هالــة وأنــه ربــما يقابلهــا في الآخــرة وأنــه عاقــد العــزم عــلى اختيارهــا في الآخــرة لتكــون شريكــة مــع الحوريــات الأخريــات وليمــضي معهــا تلــك الحيــاة الأبديــة التــي لا نهايــة لهــا.

كان هنــاك شيء مــا يعبــث في عقلــه، كان يســميها وســاوس شــيطانية مــا أن تأتيــه عــن تلــك الأبديــة حتــى يشــعر ببعــض الضيــق.

فــما كانــت تأتيــه حتــى يســتعيذ بــالله مــن الشــيطان الرجيــم مسرعًــا حتــى يقطــع الطريــق عــلى الشــيطان ووسوســته، لكــن الآن هــو عــلى اســتعداد أن يعيــش الأبديــة مــع هالــة لكــن هــل هــي عــلى اســتعداد لأن تعيــش معــه، وتختــاره لتعيــش معــه لأنــه يعلــم حســب مــا ورد ومــا رواه المرشــد أن الرجــل ســيكون لــه مــا يشــاء مــن الحــور العــين أمــا هــي فليــس لهــا غــيره، اســتعاذ بــالله مسرعًــا ونظــر يمينًــا ويســارًا باحثًــا عنــه؛ عــن الشــيطان، محدثــا نفســه، إنــك لم تتركنــي، تــأتي خلفــي هنــا في هــذا المــكان الموحــش، تأتينــي كــي تفســد عــليّ دينــي قبــل وفــاتي، اســتعاذ بــالله مــن الشــيطان الرجيــم مــرة أخــرى، حــاول أن لا يلتفــت إليــه مــرة أخــرى مــع موجــة خــوف بســيطة جعلتــه ينكمــش وعــاد إلى قــراءة القرآن مــرة أخــرى وشــعر بطمأنينة ونظــر إلى الســماء متخطيًــا حــدود الظــلام إلى الله، مســتغفرًا عــن كل ذنــب وأن مــا فعلــه مــن جرائــم تعذيــب وقتــل إنــما كان دفاعًــا عــن الديــن ونــصرة شريعتــك.

عندئـذٍ اسـتعاذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم وشـعر بدنـو الأجـل لأنـه يعلـم أن الشـيطان يـأتي في صـورة أحـب النـاس إليـه مـن الذيـن ماتـوا قبلـه، يـأتي للإنسـان في نهايـة العمـر مـع اقـتراب خـروج الـروح ويقـول لـه مـت يهوديًـا كـما مـت أنـا تدخـل الجنـة، ويأتيـه في صـورة أخـرى ويقـول لـه مـت نصرانيًـا كـما مـت أنـا تدخـل الجنـة فقـد أتـى إليـه في صـورة هالـة وقالـت هـل أنـت واثـق أن الديانـة التـي سـتموت عليهـا هـي الصـواب؟ هـل أنـت متأكـد مـن ذلـك؟ فقـال مسرعًـا أعـوذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم «أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأشـهد أن محمدًا رسـول الله» وصرف ذهنـه إلى شيء آخـر.

لكــن عــلى مــا يبــدو أن الشــيطان كان مصمــمًا عــلى غوايتــه قبــل موتــه فقــال لــه وهــو في صــورة هالــة أنــت لم تســأل نفســك هــذا الســؤال أبــدًا.

أستغفر الله العظيم.

ماذا لو ولدت لأبوين مسيحيين أو لأبوين يهوديين؟ هل كنت ستسأل نفسك هل الديانة الأخرى صواب أم خطأ؟

استغفر الله العظيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

الجنة والنار ليست بالشيء السهل، إنها الأبدية يا صديقي ففي واحدة منهم ستعيش، فهل تتحمل نارًا موقدة إلى الأبد!!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لماذا لا تنصرف؟ ونظر إلى الجهة الأخرى،

لم يرغب في أن يقوم من مكانه لأنه يعلم أنه لو تحرك من مكانه سيبتعد عن هذا الهيكل وأنه لسبب ما يشعر بألفة معه فإذا تحرك في تلك الظلمة وهذا المكان اللانهائي في اتساعه فإن أي حركة بعيدة عنه تجعله يفقد هذا الأنيس وربما يموت وحيدًا.

نظر إليه وقال:

هل وسوس لك الشيطان كما يفعل معي الآن؟ هل تغلبت عليه أم هو غلبك؟ هل ظللت على دينك أم أنه استطاع أن يغيره؟

إن لم تكن تمتلك القدرة والقوة على التمسك بما تؤمن فأنت أتعس الناس، مت وحيدًا خائفًا وكذلك فقدت ما تؤمن به.

شعر حسن باحتقار للهيكل العظمي فأدار وجهه للجهة الأخرى، لموته بتلك الطريقة ولم يمتلك قوة الإيمان الكافية لمقاومة وساوس الشيطان ومات بتلك الطريقة مثله مثل أي إنسان.

عاد حسن إلى وضعه الأول وهو النوم بطريقة المصلوب، فترك يديه مفرودتان وقدميه مفرودتان أيضًا لكنهما مضمومتان عند الساقين والقدمين يبدو أن ذلك الوضع كان يريحه لكن ترك رأسه على حالها في الاتجاه المضاد للهيكل، لكن شعر بشيء ما يضع يده على يده بحنو بالغ وبشعور غريزي وقبل أن يترجمها العقل ويحولها إلى موجة خوف تحسس حسن تلك اليد،

وجدها يد ذلك الهيكل الملقى بجانبه وظل حسن مرتابًا لأنه لا يعلم على نحو جيد هل تحركت يد الهيكل إليه أم تحركت يده إلى الهيكل؟ لكن على نحو ما شعر أن تلك اليد كانت تحمل رسالة إليه.

بأنك قد وجدت رفيق عند موتك أما أنا فلم أجد ذلك الرفيق، فلا تلومني على ضعفي ولن ألومك عندما توضع في اختبار حقيقي وأنت تقترب من الموت.

- ألست أعاني نوبات الموت؟

- لا.

- وما تلك الأشياء التي أراها من وساوس شيطانية وقد علمنا أنها تأتي دائمًا مصاحبة لخروج الروح؟

- ترهات عقل الخائف، إنها مخاوفك.

- فقال لنفسه هامسًا خائفًا من أن يسمع الهيكل، هل أحمل عقلاً متشككًا غير مؤمن؟

- أنت لا تستطيع أن تعرف ماذا يحدث لك في ساعة الموت من فتن، سأنظر لك وأراقب ثباتك أيها البطل.

- هل سأعاني؟

- في حالتك تلك ستعاني.

راح حسن في صمت عميق بعدما أنهى الهيكل حديثه وصمت، لكن بعد برهة قطعه وقال: هل من الممكن أن تساعدني؟

- إنها ساعتك أنت.

صمت الاثنان ولم يتحدثا مرة أخرى.لكن حسن سمع الصوت مرة أخرى فنظر إليه مسرعًا ربما يقول له أي شيء ليواسيه به أو ربما يخبره أشياء عن العالم الآخر ربما عليه أن يعرفها لكنه وجد الهيكل على حاله في حالة السكون متأملاً الظلمة، إذن من أين أتى ذلك الصوت؟

نظر إلى الظلام السرمدي الممتد بلا نهاية لكنه لم يجد شيئًا فاعتقد أن هذا الصوت ربما يكون قد صدر من الهيكل وقال ربما أراد أن يعدل من وضعه، لكنه انتبه وعرف أنه يهذي وقال ربما لا يكون هناك صوت.

وشعر ببداية موجة خوف جديدة وكان ارتفاع قمتها قد بدا ملحوظًا من بعيد منبأ عن موجة عاتية ربما ستدك حصونه جميعها، فضغط بيده على يد الهيكل محاولاً استلهام القوة، وأنه ليس وحيدًا أمام مخاوفه، وتلك من عادات ذلك الكائن الاجتماعي الذي يقاوم مخاوفه بالجماعة، وربما يكون التغلب على المخاوف هي مشكلة المجتمعات الحديثة، المجتمعات القائمة على الخوف، مجتمعات تأكل من روح الإنسان الحرة، متى ستتخطى البشرية مخاوفها ويصبح "الإنسان" -لا هاجس الخوف- هو المسيطر؟ ويكون عقدًا اجتماعيًا جديدًا قائمًا على قيم إنسانية جديدة.

نظر حسن إلى داخل نفسه وقال متعجبًا خائفًا: هل في هذه اللحظات التي أحتاج فيها إلى الثبات، أتذكر كلام هؤلاء؟ ونظر إلى السماء مستغفرًا وقال لئن نجيتني يا رب لأكتب قصص هؤلاء في كتاب، وسأعرض على المجتمع نظرتهم الشاذة إلى الدين ولأنتصرن لدينك.

فسمع صوت الهيكل مرة أخرى وقال:

- ماذا ستسميه؟

مذكرات سيف الله المسلول على أعدائه العلمانيين والملحدين.

شعر حسن ببعض الراحة النفسية وبقدرة على تخطي موجة الخوف الآتية ومع اقترابها من قلبه ضغط أكثر على يد الهيكل ولم تمض غير لحظات شعر حسن خلالها بتصلب في أوتاره، بعدها وجد حسن عقلة من إصبع الهيكل قد انكسرت ووجدها في يده، ربما انكسرت نتيجة ضغطة يده عليها فوضعها حسن بجانب اليد، وشعر حسن بامتنان الهيكل له لأن حسن رد إليه أجزائه.

ترك حسن الهيكل ليستريح لأن الهيكل كان مجاملاً وأرهق نفسه معه، وعاد إلى النظر في الظلام والغريب أنه لم يستطع التفكير في أي شيء، فظل على سكون الميت لم يحرك ساكنًا وأغلق أذنيه حتى لا تفزعه مرة أخرى، لكنها سرعان ما التقطت نفس الصوت الذي سمعته من قبل، فنظر إلى الهيكل لكنه وجد الهيكل غارقًا في سكونه وقبل أن يترك نفسه لألم الخوف، استدعى خبرته السابقة في تحليل الأصوات وتمييزها الذي دربه عليه اللواء (عبد الكريم القاسم) قديمًا فوجد أن هذا الصوت هو نفسه الذي سمعه من قبل فتأكد من أن هذا الصوت صوتًا حقيقيًا، وليس من نبت الخيال بل هو فعل حقيقي،

إذن له مصدر، فتأهب لملاقاته وحاول الهيكل أن يستفسر منه، فأشار حسن عليه بالصمت وكانت الإشارة حاسمة، فصمت الهيكل ولم ينطق.

عاد حسن لتأهبه مرة أخرى لكنه ظل على تلك الحال فترة طويلة ولم يسمع أي صوت أو أي حركة صادرة من مركز الصوت، ومع إحساس باليأس من سماع الصوت مرة أخرى ارتخت عضلاته ووضع يده على يد الهيكل مطمئنًا وعاد إلى النظر في الظلام إلى الظلام، لكن سرعان ما سمع ذلك الصوت مرة أخرى، نعم إنه نفس الصوت.

استطاعت أذنه التقاطه وتمييزه بل وتمييز مصدره، إنه صوت صادر من الأرض، صوت احتكاك آلة تدور ويبدو أن هذا الصوت يحدث عند نقطة معينة في محور الدوران ناتج عن بعض الخشونة.

- نظر إلى الهيكل وقال أين توجد تلك الآلة؟

- لا أعرف.

- بالطبع لا تعرف فلو كنت تعرف لما كان هذا هو حالك.

- قال الهيكل محتدًا وما هي حالي؟

- حالك، مت موتة لا تليق.

- صمت الهيكل ولم يجب حسن.

- أنا لن أستسلم.

- ضحك الهيكل وقال ساخرًا وماذا تفعل على الأرض؟

- أجد طريقًا للخروج.

- ههههههههههه ثم صمت.

- لا تسخر مني هكذا.

صمت ولم يرد على حسن ولم يلتفت إليه حتى اعتدل حسن جالسًا ثم حاول الوقوف.

- ماذا تفعل؟

- سأبحث عن مخرج.

- لا يوجد أي مخرج، أرح نفسك ونم بجانبي.

- هل بحثت عن أي مخرج أم استسلمت؟

- بحثت حتى كلّت قدماي ولم أستطع الوقوف أو الحركة.

- هل سمعت صوت آلة تدور في أرض تلك الغرفة؟

- أبدًا لم أسمع.

- أنا انتبهت إلى أن هناك صوت لآلة تدور.

- وما الفائدة من المعرفة ما دمنا سنموت؟

- قد تبقيك المعرفة حيًا أيها الأحمق.

- قل لي إذن كيف ستبقيك أنت؟

- إن كان مـا أظنـه صحيحًـا فعـليّ الحركـة الآن، فأنـا أعتقـد أن عـدم مقـدرتي عـلى الوصـول لأي حائـط تـدل عـلى أننـي موجـود في متاهـة مـن نـوع مـا، لأن الغرفـة مهـما تباعـدت أبعادهـا فلـن تكـون بـلا نهايـة فـكان يجـب أن أصـل لأي حائـط.

- لأنك تتحرك في ظلمة حالكة لا تدرى أين تضع قدمك.

- لا، لأني كنـت أتحـرك في خـط مسـتقيم حسـب اعتقـادي لذلـك كان ينبغـي أن أصـل إلى نهايـة لكـن عـلى مـا أعتقـد أننـي لا أسـير في خـط مسـتقيم.

- صحيح من الممكن في الظلام أن تسير في خطوط متعرجة.

- ليـس السـبب كـما تعتقـد لأننـي تعمـدت الانحـراف فراقبـت طريقـي لكـن دون جـدوى، لم أصـل لـشيء فشـعرت أننـي في متاهـة حتـى تأكـدت تمامًـا الآن أن تلـك الآلـة تجعـل الأرض التـي ترقـد عليهـا تـدور وبسرعـة محـددة تجعلـك غـير قـادر عـلى الخـروج منهـا.

- تدور... إن تلك الصالة مستطيلة الشكل.

- نعـم هـي مسـتطيلة لكـن ربـما تكـون الأرض المتحركـة دائريـة ومحسـوب سرعتهـا فهـي أكـبر مـن سرعـة أي بـشري وربـما لا نشـعر بدورانهـا لكـبر حجمهـا والظلمـة.

- إن كانت سرعتها أكبر من سرعة أي بشري فكيف تخترقها؟

- صمت حسن قليلاً..... عليّ أن أتأكد من اتجاه دورانها وأجرى عكسه.

- ضحـك الهيـكل، لـن تصـل لـشيء لأنـك ستسـير عكـس الحركـة وكأنـك تسـير عكـس «سـير» هابـط وأنـت صاعـد.

- جلـس حسـن حزينًـا وقـد اقـترب أكثـر مـن الهيـكل في جلسـته وقـال ألديـك فكـرة أخـرى؟

- لو كانت لدي أي فكرة ربما لم يكن ذلك حالي.

صمت حسن وتمدد ووضع ساقًا فوق ساق ثم وضع يديه خلف رأسه ونظر إلى الظلام لكنه حاول أن يبحث عن حل...

مضى الكثير من الوقت وكثير من الصمت في محاولة الوصول إلى حل ونظر إلى الهيكل وقال ربما يكون ما توصلت إليه هو الحل علي أولاً أن أحدد اتجاه الحركة ثم أسير بسرعة في اتجاه ما ثم أستريح قليلاً وبعد ذلك أسير بخط مائل عكس اتجاه الحركة ثم أجلس قليلاً وأعود إلى الاتجاه الأصلي وأسرع الحركة ثم أجلس وهكذا.

جميل لكن كيف ستحدد اتجاه حركتك بعد الجلوس والحركة والجلوس؟

لم يمهله حسن حتى يكمل وقال فهمت ما تريد أن تقول سأحدد عن طريق مؤخرتي.

دوت ضحكة مجلجلة من الهيكل شعر حسن ببعض الحرج فحاول أن يشرح للهيكل.

سألتفت بعجزي مقدار ما في عكس الاتجاه وعندما يأتي وقت العودة سألتفت بعجزي بنفس المقدار للاتجاه الأول وهكذا.

جميل ربما تكون فكرة صائبة.

شكرا سأنام الآن وأضع أذني على الأرض حتى أسمع الصوت ويجب أن أسمعه مرات متتالية حتى أحدد مصدر واتجاه الصوت.

لكن أليس من الممكن..... صمت الهيكل على إثر إشارة من حسن بالصمت.

عندئـذٍ وضـع حسـن أذنـه اليمنـى التـي يعـرف مقدرتهـا عـلى السـمع فهـو يعلـم أن أذنـه اليمنـى أفضـل في السـمع مـن أذنـه اليسـرى، وظـل عـلى حالـة المراقبـة تلـك التـي أرهقتـه مـع شـعور غـير مريـح تسـببت بـه اللزوجـة الصـادرة مـن أذنـه اليمنـى التـي تعرقـت نتيجـة الشـعور ببعـض الحـر وزيـادة الرطوبـة، فاسـتخدم كـم قميصـه مـرارًا لإزالـة العـرق والهـرش لتهدئـة الأذن لكـن مـع طـول المـدة عـلى تلـك الحالـة جعلتـه غـير مهتـم بالمسـح أكثـر مـن اهتمامـه بالهـرش، لكـن طالـت مـدة انتظـاره ولم تهتـدِ أذنـه إلى أي صـوت، نظـر الهيـكل إلى حسـن نظـرة مـن أصابـه الملـل فبادلـه حسـن بنظـرة فقـدان الأمـل لكـن لسـبب مـا اسـتمر حسـن عـلى تلـك الحالـة ورغـم ذلـك لم يسـمع شـيئًا إلا أن الهيـكل قـال:

- ربـما كان الصـوت الصـادر مـن الآلـة والـذي سـمعته أنـت هـو محـض تهيـؤات.

- لم يقاطع حسن الهيكل أو يلزمه بالصمت وقال ربما.

- لكن هل نحن في متاهة فعلاً؟

- مع ابتسامة رقيقة من الهيكل وقال ربما.

لم يفهـم حسـن سر ابتسـامة الهيـكل لكنهـا لم تشـعره ببعـض الراحـة وأراد أن يخبر الهيـكل أنـه ليـس مثلـه لأن حسـن لا يعـرف الاستسـلام وإن كان بقائـه بجانبـه قـد طـال إلا أنهـا اسـتراحة محـارب ولـن يطـول بـه الوقـت عـلى تلـك الحالـة وحتـمًا سـيقوم للبحـث عـن مخـرج ولـن يستسـلم.

- صدقنـي إنهـا متاهـة وفشـلت في تخطيهـا ولا أعتقـد أن هنـاك مـن يسـتطيع تخطيهـا.

لم تعجـب تلـك الطريقـة حسـن فقـال ربـما فشـلت أنـت وكانـت تلـك هـي النتيجـة لكـن مـا زال أمامـي وقـت وسـأحاول الخـروج.

أشاح الهيكل بوجهه والتفت إلى الناحية الأخرى فلم تعجبه لغة حسن وتفادى حسن الاصطدام به ولم يعره أي انتباه بل قال لنفسه فعلت خيرًا بصمتك، ووضع أذنه مرة أخرى محاولاً سماع تلك الآلة ومضت مدة أكبر من سابقتها وهو في حالة ترقب لسماع الصوت لكن لم يسمع أي صوت بل شعر بذبذبة اكتشفتها يديه عندما ارتخت بعد شعور بفقدان الأمل، حاول سماعها لكن لم يصل إليه أي صوت فوضع أذنه فوق الأرض في مواضع مختلفة من أرضية القاعة، لكن لم يصل إلى أذنه أي صوت فعاد إلى وضعه الأساسي القريب من الهيكل ووضع أذنه مرة أخرى ولم يسمع ذلك الصوت فوضع يديه وشعر بتلك الذبذبة فتأكد من وجود تلك الآلة تحت أرض القاعة، عندئذٍ نظر إلى الهيكل نظرة الظافر فوجده غير مهتم يتثاءب تثاؤب من أصابه الملل فقال حسن:

- وجدتها.

- هل سمعت الصوت؟

لا لكن تأكدت من وجود تلك الآلة مصدر الصوت وأعتقد أنها المتحكمة في حركة الأرضية التي نقف عليها.

- هل ما زلت تعتقد أن الأرضية متحركة؟

- بالطبع وإلا لماذا لم تصل أنت إلى حل؟

- لأنها متاهة مثل كل المتاهات القديمة التي لا مخرج منها إلا بالوحي الإلهي.

- حتما سأجد مخرجًا إن شاء الله.

- أنت حر.

ما دام هناك ذبذبة فما سمعته كان صحيحًا وربما تكون تلك الآلة مثل كل الآلات عندما تصبها أعطال في بدايتها تصدر أصوات على فترات زمنية غير منتظمة، لذلك حتمًا ولابد أنها ستصدر صوتًا آخر لكن متى؟ لا أدري. عليَّ انتظاره.

أحس حسن بحاجته إلى التبول، فنظر يمينًا ويسارًا لم يجد غير الهيكل بجانبه ولم يرى أي مكان يستطيع أن يتبول فيه فقال للهيكل:

- هل تبولت من قبل وفاتك؟

لم يجب الهيكل وانتظر حسن الإجابة لكن الهيكل لم يجب، فقد راح في نوم عميق وسمع حسن صوت شخيره فقال حسن حسنًا فعلت وقام حسن وأعطى ظهره للهيكل وحرك سوستة بنطاله لأسفل وقبل أن يبدأ في التبول نظر للهيكل ليطمئن أنه لا يراه وأنه يغط في نومه، ومع شعور حسن بالراحة مع تناقص حمولة الماء التي تحملها المثانة تدريجيًا سمع صوتًا، نعم إنه صوت.

حاول أن يتوقف عن التبول لكنه لم يستطع والصوت كأن قد اختفى فأنهى حسن تبوله مسرعًا ونام على الأرض ووضع أذنه على أرض القاعة ووجد بعض الرزاز المتطاير نتيجة تبوله قد بلل صدغه فلم يهتم، فلم يكن هناك وقت ليضيعه وهو يعلم أن الآلة لا بد أن تصدر صوتًا آخر وربما يكون هذا الصوت الذي ستصدره وهو حي، فانتبه جيدًا، لكن صوت شخير الهيكل قطع صوت الصمت، فأراد حسن أن يدك عنقه، عندئذٍ بدأ صوت الآلة في التصاعد وحدد حسن اتجاهها فقد علمه اللواء نظرية دوبلر وهي نظرية فيزيائية وتشير إلى أن القطار عندما يقترب يكون صوته حادًا وعندما يبتعد يبدأ الصوت في الليونة وكان الصوت الذي يسمعه حادًا لذلك علم أن اتجاه الحركة هو عكس اتجاه مرقده هو والهيكل فقام من رقدته فرحًا صائحًا وجدتها، فقام الهيكل من نومه مفزوعًا على إثر تلك الصيحة فمال عليه حسن وقبله وقال له:

وجدتها، لقد سمعت الصوت وحددت اتجاه الحركة.

صمت الهيكل ولم يرد وشعر ببعض الحزن فهو يعلم أن تلك اللحظات هي آخر اللحظات التي سيقضيها مع ذلك الأنيس.

- سأتحرك حالاً، لأن أي وقت أضيعه من الممكن أن يعني بقائي هنا إلى الأبد هل حتمًا سترحل؟

نظر حسن إلى الهيكل وعلم ما يعانيه هذا الهيكل وكان قلبه التقط تلك الإشارة من قبل، إن الهيكل ربما يعاني ألم الوحدة الأبدية، لم يكن حسن يطيق ذلك الفراق أبدًا ونظر إلى الهيكل وقال:

أتعلم أنني أبدو لكل من يراني إنسانًا صلبًا قاسيًا ذا رأي نافذ، قادر على اتخاذ القرارات الصائبة لكن خلف ذلك الستار يوجد إنسان يبكي ألم الوجد، سريع التأثر، متردد في قرارات كثيرة لن تصدقني إن علمت حجم ألمي عند رحيل اللواء (عبد الكريم قاسم) بعد ارتباطي به روحيًا وذلك الشيخ الآثم الذي أحببته، إني أبكي ألم الفقد وما أتى بي هنا هو الحب، لحبيب لم تره عيني أبدًا. أعرفت يا صديقي من أنا؟

لكن على ما يبدو أن الدنيا محفوفة بخيارٍ واحد، لا خيارين، فلا اختيار بين الحياة والموت هو اختيار واحد، هو اختيار الحياة.

سمع حسن صوت أنينٍ صادر من الهيكل فاقترب حسن من جمجمته ووضع يده على الهيكل فتعالى صوت الأنين أكثر فمال حسن عليه وقبله في جمجمته وتساقطت بضع قطرات من عيني حسن على جمجمة الهيكل فمسحها بكم قميصه وقال:

سأرحل وربما أكون أنا الخاسر، فأنت مت موتة لائقة لأن هناك من سيذكرك أما أنا ربما لن أستطيع أن أصل إلى باب الخروج فلن أجد من يؤنسني وأنا في ساعتي الأخيرة قبل رحيلي عن الحياة، وإذا رحلت فلن أموت موتة لائقة لأنه لن يكون هناك من يتذكرني لكن علي الرحيل لأنه كما قلت لك هو اختيار واحد.

قام حسن من على الهيكل بعدما جفف دموعه ووقف، ثم نظر إلى الهيكل الذي ما زال ينظر إليه ثم انطلق حسن بأقصى سرعة ممكنة لديه في الظلام. يعرف حسن أن كل دقيقة يضيعها ستعني له الكثير، فلم يترك لنفسه فرصة للراحة وسرعان ما انتهى ألم ساقه الذي أصابه بعد اصطدامه بالهيكل نتيجة سخونة الجسم، وكان عقل حسن لا يعمل إلا في اتجاه واحد هو تحقيق الخطة التي أخبر الهيكل عنها واستعمل العد لينظم المسافة بين الحركة في الاتجاهين والجلوس والحركة.

عندئـذٍ دوى صـوت اصطـدام هائـل نـزف حسـن مـن رأسـه وأنفـه وظـل للحظـات غـير قـادر عـلى التنفـس، لكنـه قـام، وفرحـة عارمـة تمـلأ كيانـه لأنـه قـد اصطـدم بالحائـط الـذي قـد وصـل إليـه أخـيرًا وألصـق جسـده بالجـدار خوفًـا مـن أن تأخـذه تلـك الأرض المتحركـة فتقذفـه في مـكان لا يعـرف منـه كيـف يصـل لمخـرج، وقـال لابـد أن زر الخـروج في مـكان في متنـاول الإنسـان العـادي وسـأجده عندمـا أجـد ذلـك الفاصـل في الجـدار، هـو يعلـم أن تلـك المحاولـة ربـما تكـون أصعـب لأن عليـه أن يتحسـس كل الحوائـط في القاعـة، أي محيـط القاعـة كامـلاً التـي ربـما تكـون بـلا نهايـة وأن يحافـظ عـلى مكانـه مـن الجـدار فـلا يسـمح لـلأرض المتحركـة أن تجرفـه، اسـتعمل حسـن كل جسـده الملصـق بالحائـط كأداة تحسـس يستكشـف بهـا الجـدار.

هبطـت عـلى قلبـه موجـة خـوف أخـرى لا يـدرى مـا مصدرهـا وأصابتـه بضيـق لأنـه ليـس الوقـت المناسـب لهـا، فقاومهـا، لم يـترك لنفسـه فرصـة الركـون حتـى تمـضي فمـضى هـو، ويبـدو أن القديـر كان لـه معينًـا وأن هـذا هـو يـوم سـعده.

اكتشـف فاصـلاً في الجـدار فمـرر يـده عليـه فوجـده فاصـلاً رأسـيًا ارتفاعـه أعـلى مـن رأس حسـن بمـتر إلا ربـع، هكـذا قاسـه وكان خبـيرًا بقيـاس المسـافة بذراعـه وخطوتـه أيضًـا وكان هـذا الفاصـل يمتـد عـلى اسـتقامته في اتجـاه الأرض، فعلـم حسـن جيـدًا أن هـذا هـو البـاب أو المخـرج، فتعلـق بالشـق بيـده اليسـرى وتـرك يـده اليمنـى تبحـث عـن زر الخـروج أو مكبـس الخـروج وبعـد محاولـة بسـيطة لم تعثـر يـده عـلى أي شيء في هـذا الاتجـاه كـما توقـع، لأنـه الاتجـاه الـذي أتـى منـه.

لـو كان هنـاك شيء لعثـر عليـه قبـل وصولـه إلى البـاب لـذا كان عليـه أن يتخطى البـاب، لكـن كـم عليـه أن يتحـرك في هـذا الاتجـاه وكـم سـيبعد عـن البـاب؟ وهل إذا ابتعـد باسـتطاعته العـودة إلى ذلـك الشـق؟ لـذا عليـه أن يكـون حـذرًا والتصـق بالحائـط أكثـر، ثـم قـام بعـد الخطـوات التـي تحركهـا بعيـدًا عـن الشـق الـرأسي وفي تلـك الأثنـاء كانـت يديـه تبحـث في كل شـبرٍ مـن الجـدار بحثًـا جـادًا حتـى وصلـت يديـه إلى مكبـس دائـري وهـو جـزء مـن الحائـط، ضغـط حسـن عليـه بـكل سرعـة وقـوة لكـن البـاب لم يسـتجب!

قـال حسـن لنفسـه ربـما تفقـد تلـك الأبـواب حساسـيتها مـع الزمـن فضغـط مـرة أخـرى بقـوة أكثـر لكـن البـاب لم ينـزاح، فخـشي أن يكـسر ذلـك المكبـس، فتوقـف للحظـات ثـم عـاد للضغـط مـرات متقطعـة دون فائـدة ومـع شـعور بالخيبـة تـرك جسـده يسـقط ملتصقًـا بالحائـط، والتفـت لأعـلى في محاولـة لسـؤال الخبـير ومناجاتـه.

التقطـت عينـه نقطـة زرقـاء لشـعاع ليـزر لـن تسـتطيع أي عـين مهـما كانـت خبرتهـا أن تلتقطـه، لكـن عـين حسـن التقطتهـا مصادفـة، اسـتطاعت عينيـه أن تتبع مسـار الشـعاع لمسـافة قصـيرة، لم يسـمح لـه الظـلام بأكثـر مـن ذلـك، لكنـه علـم أن شـعاع الليـزر لابـد أن مصـدره مختبـئ خلـف أسـتار الظـلام، معلـق في سـقف تلـك القاعـة، أدرك حسـن أن ذلـك هـو مفتـاح الخـروج فوضـع يـده بـين مصـدر الشـعاع وتلـك النقطـة فقطـع خـط الاتصـال بـين الليـزر وتلـك الدائـرة الكهربيـة فانـزاح البـاب عـلى الفـور انزياحًـا بسـيطًا، مكـن حسـن مـن إمـرار رأسـه ثـم بقيـة جسـده، وخـرج ثـم سـقط أرضًـا غـير قـادرٍ عـلى تحمـل الألم وبصعوبـة بالغـة اسـتطاع أن يتنفـس ووجهـه مضغـوط وعينيـه جاحظـة.

حـاول حسـن بـكل قـوة التغلـب عـلى حالـة الاختنـاق، لكـن عليـه أولاً أن يهـدئ مـن حالتـه الداخليـة المنفعلـة وأن يسـيطر عـلى مخاوفـه التـي اندلعـت داخله، لأن حالتـه تلـك مماثلـة لحالـة ذلـك الرجـل، لـذا عليـه المقاومـة للرحيـل عـن هـذا المـكان بأقـصى سرعـة، لأن الحريصـين عـلى إبقـاء هـذا المـكان سرًا ربـما لـن يعجبهـم خروجـه، وسـيفعلون معـه مثلـما فعلـوا مـع ذلـك الرجـل الـذي ذكرتـه د/ هالـة ثـم يتركونـه في تلـك القاعـة المظلمـة، تلـك المقـبرة، لـذا عليـه أن يتحمـل أكثـر وقـاوم حسـن بـكل مـا يملـك مـن قـوة محاولـة الجسـد الدخـول في غيبوبـة، وكانـت الشـمس تهـم بدخـول عـين النـوم، تاركـة العـالم الأرضي بعـد أن اطمأنـت عـلى عـودة حسـن سـالمًا، هكـذا تكـون الأم، ولم يسـتطع أن يقـاوم أكثـر مـن ذلـك، فـراح في غيبوبـة.

لم يـدر حسـن إن كانـت إغفـاءة أم غيبوبـة لكنهـا سـببت لـه بعـض الراحـة واسـتجمع بعـض قـواه ونظـر إلى الأفـق فوجـد القمـر مسـتقرًا، مكتمـلاً في السـماء فعلـم أنـه قـضى وقتًـا ربـما يكـون طويـلًا في تلـك الغيبوبـة لأن آخـر مـا يتذكـره هـو ذلـك الشـفق الأحمـر الـذي تركتـه لـه الشـمس بعـد رحيلهـا.

قـام مسرعًـا لسـيارته ونظـر في المـرآة فوجـد دمـاءً جافـة قـد غطـت وجهـه بالكامـل فـكان عليـه أن يتجـه للبيـت قبـل ذهابـه إلى المكتـب كـي يغسـل تلـك الدمـاء ويـرى بوضـوح جروحـه تلـك ويعيـد مـرة أخـرى تنظيـم أفـكاره.

حصـل حسـن عـلى حمـام دافـئ كانـت كل عضـلات جسـده تحتـاج إليـه ثـم ألقـى بجسـده عـلى السريـر ونظـر إلى الجـرح الـذي ألم بسـاقه نتيجـة اصطدامـه بالهيـكل، الـذي يشـعر حسـن بشـوق وامتنـان لمـا فعلـه معـه.

- وقـال ليـس لـدي الكثـير مـن الوقـت لأناقـش تلـك الحالـة إن كانـت حقيقيـة أم لا

وكانـت تلـك الطريقـة المعتـادة لديـه كـي يتوقـف عقلـه عـن التفكـير في أمـر مـا ويـدأ بترتيـب أفـكاره.

- إن مـا رأتـه هالـة كان صحيحًـا وإنهـا هـي المقصـودة بالقتـل لا الدكتـور عبـد الرحمـن.

شخص ما قد حصل على خاتم من ذلك المبنى وأعطاها إياه.

هـذا الخاتـم هـو سـبب وفاتهـا وهـذا الخاتـم شيء حقيقـي وليـس وهمًـا، لأنهـا لم تدخـل المبنـى ولم تذكـر أن ذلـك الرجـل الـذي اسـتطاع الخـروج قـد أعطاهـا أي معلومـة عـن المبنـى، لأن حالتـه لم تكـن تسـمح لـه بذلـك، لكـن أعطاهـا خاتمًـا.

- ما قصة ذلك الخاتم؟

- ما قصة ذلك المبنى؟

- ما الرابط بين مقتل هالة ومقتل مولانا نائب المرشد؟

أصابـه ذهـول عنـد إجابـة السـؤال الأخـير، أمـن المرشـد، طـوى أسـألته مـع رعشـه فى جسـده لإحساسـه بهـول الأمـر لأنـه إن أراد أن يحقـق في تلـك القضيـة كان كمـن يلقـي بنفسـه في أتـون حـرب لا هـوادة فيهـا، لـذا عليـه أن يعيـد حسـاباته لأن رجـال أمـن المرشـد متورطـون بشـكلٍ أو آخـر، وكشـفهم لمولانـا المرشـد ربـما سـيكلفه حياتـه، وبالتأكيـد إن حياتـه أصبحـت في خطـر، لأنـه دخـل

ذلك المبنى، وأكيد من يملك ذلك المبنى علم بدخوله كما علم بمقابلة هالة لذلك الرجل وحصولها على ذلك الخاتم لذلك عليه أن يدافع عن بقائه حيًا وأن يكشفهم من أجل حبيبته، وحتمًا سيكون لمولانا المرشد رأي آخر بعد أن تتكشف الحقائق.

رسم خطته.

- أولاً علُي أن أعرف حقيقة ذلك المبنى.

- ثانيًا البحث عن ذلك الخاتم ربما يكون حقيقيًا ولم يستطع أحد الحصول عليه .

قام حسن من على سريره وارتدى ملابسه للذهاب إلى مكتبه وللمرور على اللواء لمعرفة آخر الأخبار ومحاولة الحصول على أي معلومة عن المبنى

وما كاد يضع قدمه في مكتبه حتى تم استدعاؤه من اللواء.

وقال اللواء أخبار التحريات وصلت لحد فين؟

عرض حسن كل ما توصل إليه من معلومات وما يدور في عقله من أسئلة واستنتاجات وما حدث معه داخل ذلك المبنى وقد لاحظ حسن تغير تعابير وجه اللواء عندما علم بدخول حسن ذلك المبنى، بل وأدهى من ذلك لهفة اللواء لمعرفة التفاصيل عن ذلك المبنى وبدت لهفته، لهفة من يريد معرفة، هل توصل حسن لمعرفة أي شيء مما يحتويه ذلك المبنى؟ وكيف استطاع الخروج سالمًا؟ فسأله حسن سؤال مباشر:

- هل تعلم أي شيء عن ذلك المبنى سيادتك؟

- لا.

- شعر حسن بعدم صدق اللواء مما أوحى لحسن أن ذلك المبنى ربما يكون تابع لجهة ما؟

- مفيش غير القاعة دي؟

معرفـش يـا فنـدم أنـا سـأبحث عـن المخطـط الهنـدسي للمبنـى في الكمبيوتـر المركـزي للمعلومـات.

- جيـد لكـن قبـل ذهابـك، اقـرأ التقريـر هـذا، وصلنـي حـالاً مـن مصادرنـا في أمـن المرشـد.

- هل يحتوي على أية معلومة عن سيارة الإسعاف؟

- في التقرير.

- التقط حسن التقرير واتجه إلى مكتبه.

كانـت سـيارة الإسـعاف تسـير في شـارع (غـزلان) وعندمـا وصلـت إلى تقاطـع (محمـود عـزت) مـع شـارع غـزلان وجدنـا زحامًـا غـير عـادي فأطلـق السـائق السـارينة كـي ينتبهـوا ويدعونـا نمـر، لكـن كان الحـدث أكـبر مـن ذلـك فقـد كانـت الضوضـاء شـديدة نتيجـة دخـول مجموعـة منهـم في عـراك، مما مهـد الطريق لذلـك التكـدس واختلـط صـوت البـشر المشـارك في فـض العـراك أو المتعـارك مـع كلكسـات المسـتعجلين مـن البـشر فلـم ينتبـه أحـد لنـا.

- وماذا فعلتم؟

حاول السائق حلحلة السيارة ثم التحرك بها لأحد الطرق الجانبية.

- وهل نجحتم؟

- لا أدري يـا فنـدم مـاذا حـدث بعدهـا إلا عندمـا وجدنـا أنفسـنا في المقطـم شـارع مولانـا الشـاطر (شـارع ٩ سـابقًا) ميـدان مولانـا الهضيبـي.

- فرك حسن جبهته عند ذلك المقطع وقال هل يكذب ذلك الطبيب؟

- لا أعتقـد لأنـه قـد مـورس عليـه قبـل التحقيـق أقـصى أنـواع الترهيـب والإيـذاء البـدني والنفـسي لذلـك لـن يسـتطيع الكـذب، بـل ربـما يكـون هـذا التقريـر خاطئًـا لأنـه ربـما أجـبروه عـلى قـول مـا يريـدون لإخفـاء الحقيقـة.

- من اصطحبكم إلى هناك؟

- لا أعرف يا فندم.

- أين الجثث؟

- عندما استيقظنا يا فندم لم نجد تلك الجثث. ممكن أقول حاجة يا فندم؟

- اتفضل.

- ممكن الشخص الذي قام بسرقة تلك الجثث استخدم مادة ما تفقدنا الوعي لكن لا تجعلنا ننام، بل تتركنا على حالنا.

- لماذا تدعي ذلك؟

- لأن من يفعل ذلك يحتاج إلينا كي نظل أمام الناس وهو ربما اختبأ في الخلف مع الجثتين.

ورغم سذاجة الاستنتاج إلا أن حسن وجد مع ذلك التقرير تقريرًا مرفقًا من وحدة الطب الشرعي تشير إلى أن دم الطبيب والمسعف والسائق يحتوي على نسبة من مادة غير معروفة وجاري تحليلها كيميائيًا لمعرفة ماهيتها.

أشار التحقيق مع السائق إلى إضافة معلومة أخرى، أنه رأى شخصًا ما في المرآة يقترب من السيارة ببطء وما كاد السائق يلتفت إليه حتى عالجه برزاز وعندما سُئل عن ملامح ذلك الشخص، ادعى أنه يحمل ملامح أجنبية.

دعك حسن جبهته مرة أخرى وقال إيه حكاية الرجال الأجانب اللي بيظهروا في مصر الوقتي ومشتركين في كل الحوادث؟

- هل هناك جهة أجنبية ما ضالعة في ذلك الأمر؟

تذكر حبيبته التي زجّت بها الصدفة في موقع الأحداث أو ربما تكون جاسوسة وجب التخلص منها، هل استطاعوا تجنيدها عندما كانت تدرس في الخارج؟ وهز رأسه وقال ربما، فهي تنحدر من عائلة علمانية.

شعر حسن بوخزة في ضميره لتلك التهمة التي ألصقها بمحبوبته، عندئذٍ أخرج صورتها من درج مكتبه ومرر يديه على وجهها بعدما أغلق عينيه، لكنه فتح عينيه بمنتهى السرعة خوفًا من أن تأتي إليه، فكيف سيبرر لها ما ادعاه عليها الآن وتلميحه إليها أنها ربما تكون جاسوسة.

دس صورتها في جيبه وأغلق درج المكتب وترك مفتاحه فيه على غير عادته، لأنه قرر عدم العودة إلى ذلك المكتب حتى ولو عاد فليس في المستقبل القريب لأنه لن يستطيع أن يأمن مدير الشعبة، فربما يضحي بحسن وخاصة بعد دخول حسن ذلك المبنى، لكن قبل أن يرحل إلى المكان الذي حدده، عليه أن يحصل أولاً على الرسم الهندسي لذلك المبنى والبحث عن ذلك الخاتم قبل رحيله، للبحث عن أجوبة، هو متأكد أنه سيجدها عند أستاذه لأنه متأكد أنه لن يحصل على أجوبة في مركز المعلومات، لأن استنتاجاته إن كانت صحيحة فلابد أن أمن المرشد قد أخفى أي معلومة عن المبنى ٦٦ أو ربما لم تكن هناك معلومة عن هذا المكان.

- لكن عليه أن يذهب إلى مركز معلومات الجهاز.

كانت غرفة المعلومات تترك انطباعًا على نفس حسن وتصيبه بالقلق والحيرة ولو دخلها في اليوم الواحد مرتين كان نفس الشعور ونفس التساؤل،

شعور بالذهاب إلى المستقبل فتلك الأجهزة لا تنتمي بأي حال للحاضر المصري وكان سؤاله إذا كان المستقبل بتلك الأهمية وهذا التقدم لماذا لا نذهب إليه؟

تذكر حسن دخوله أول مرة هو ورفاقه إلى تلك الغرفة والانبهار الذي أصاب عقولهم.

قال أحد رفاقه: إن تلك الأجهزة تشبه ما نراه في أفلام الخيال العلمي وقال ببلاهة هل السيارات التي تستخدم الطاقة المغناطيسية للأرض موجودة؟

فعنُفه سيادة اللواء وقال لا تتحدث إلا بأمر.

شعرت حينها ببعض القلق والكره للواء (عبد الكريم قاسم) لأن زميلنا هذا لم نره مرة أخرى لكن بعد سنوات علمت أن كل المكان مراقب جيدًا وأن هذا الضابط قد ارتكب خطأ لأن تلك الأفلام غير مسموح برؤيتها وأن اللواء كان يعلم هذا جيدًا فلم يكن يريد أن يتسبب كلامه بمشاكل له.

وتلك سياسة انتهجتها دولة الخلافة بعد مجيء المرشد الأكبر محمود عزت ودخوله في صدام مع الغرب الكافر ثم الاستئصال المستمر لأتباعه أو المتعاطفين في الداخل، حتى في يومنا هذا وحالة العزلة التي عاشتها الخلافة بعد ذلك ثم خطاب داخلي بثته دولة الخلافة عن العودة للأصول واستنهاض قيمنا القديمة، قاومه هؤلاء المستغربون فكان على الأمة الإسلامية التطهر منهم، وشعر حسن بفخرٍ شديد لأنه من هؤلاء الذين حملوا على أعناقهم مشعل التطهير، ويذكر حسن كيف استجاب المصريون لذلك فتخلوا عن ولعهم بالأشياء الحديثة، لكنهم أبقوا على بعض الأشياء المألوفة مثل السيارة والتلفزيون لأنها ضاربة بجذورها في الماضي لكن لم يرتادوا المسارح والسينمات ولم يقرأوا أي شيء يلهيهم عن ذكر الله وكان القرآن دستورهم وكتب المشايخ هي سلاحهم وقال في نفسه إنه حقًا شعب رائع متدين بفطرته يبحث عن الآخرة وترك الحياة لهؤلاء الكفرة.

كان قلقه الداخلي يتصاعد كلما دخل تلك الغرفة ومحاولات الكبح الدائمة لم تجد نفعًا لأن كل ما يراه في مركز المعلومات هو عكس السياق الذي تربت نفسه عليه.

تخلص حسن من حديثه الداخلي وجلس على إحدى الشاشات الهلوجرافك (شاشات افتراضية ثلاثية الأبعاد يصنعها الليزر) وهي شاشات فائقة السرعة والحساسية وقام بالبحث عن المبنى ٦٦.

لم يجد شيئًا كما توقع، تسلل كما علمه مولانا على بعض وكالات المخابرات الغربية فلم يعثر على أي شيء، تأكدت شكوكه تمامًا، فقام مسرعًا فالبقاء مدة أطول تحت نظر أمن المرشد، معناه خطورة شديدة على حياته، لذا وجب عليه الرحيل والبحث عن أجوبة لأسئلته للوصول إلى الحقيقة وتقديمها لمولانا المرشد.

هناك شخص واحد وواحد فقط سيوفر لي الحماية وسيعطيني الإجابة، إنه معلمي سيادة اللواء المعلم، على الذهاب إليه بعد بحثي عن الخاتم.

- لكن أين أجد سيادة اللواء؟

خرج حسن مسرعًا من مركز المعلومات، متوجهًا إلى سكن د/ هالة.

كانت القاهرة في حالة نوم عميق ورغم حرارة الجو إلا أن المصريين قد اعتادوا على النوم مبكرًا والاستيقاظ مبكرًا مع صلاة الفجر ورغم أن حسن من رجال أمن النظام إلا أنه اختار أن يتحرك بعيدًا عن الأكمنة لاحتياطات خطته الأمنية.

كان أشد ما يشغله في تلك اللحظة هو كيفية الوصول إلى المعلم فهو لا يعرف العنوان.

انتبه حسن إلى أنه الآن على مشارف المبنى ٦٦، شعر بتيبس أقدامه وانتابته موجة رعب على أساسه وزادت السيارة من سرعتها حتى تستطيع الفرار، ولم يستطع حسن أن يظل على تركيزه على الطريق فكانت عيناه تتنقل بين الطريق وسور المبنى، و مع طول الطريق شعر حسن بضيق شديد مع عدم القدرة على التنفس واختلط ذلك الشعور مع إحساس بأن هذا السور ممتد بلا نهاية، ضاقت نفسه بشدة وكادت أقدامه تفقد القدرة على القيام بوظيفتها تحت حالة الفشل النفسي التي تتسلل من أعماقه، وكادت تسيطر على وعيه لكن حسن قاوم وبكل ما يملك من قوة لأنه يعلم أنه لم يكن باستطاعته البقاء بجانب ذلك المبنى لدقيقة إضافية.

سرعان ما تجاوزت السيارة ذلك السور فشعر حسن ببعض الراحة، ارتخت عضلات ساقه المتوترة، لكن حسن لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر في المرآة على ذلك المبنى الذي بدا في الظلام كشبح عملاق ممتد بلا نهاية، لا يخاف ولا يرتجف من الظلمة المحيطة، ولكن على ما يبدو أن رعب الظلمة ممتزج مع رعب المبنى في مشهد أسطوري، فيجعل أشد النفوس صلابة يصبها الجزع، لم يستطع حسن أن يطيل النظر أكثر من ذلك فالتفت إلى الطريق.

وثار ذلك التساؤل مجددًا، لماذا غامر ذلك الرجل ودخل هذا المبنى؟ هل دخله مصادفة؟ أم أنه أراد شيئًا ما؟

- هل أراد ذلك الخاتم؟

هـل كان هـذا الخاتـم مـن مقتنيـات ذلـك المكان وكان ثمنه حياتـه التـي دفعهـا عـن طيـب خاطـر؟

إذن لمـاذا تخـلى عـن للدكتـورة هالـة التـي ربـما دفعـت حياتهـا دون أن تـدري ثمنًـا لأنهـا تحملـه؟

أم أن هـذا الخاتـم هـو ملـك لهـذا الرجـل وأعطاهـا إيـاه شـاكرًا لهـا لأنهـا لم تتركـه وفـرت؟

إذن لماذا فقدت حياتها بتلك الطريقة مع الدكتور عبد الرحمن ؟

أوقـف حسـن سـيارته بعيـدًا عـن شـقة هالـة في أحـد الشـوارع الجانبيـة حتـى لا يثير أي شكوك وتحـرك بسرعـة، كانـت العـمارة التـي تسـكنها هالـة بـلا بـواب فسـهل ذلـك مهمـة الدخـول لحسـن، فدخـل مسرعًـا، وصـل إلى بـاب شـقتها فأخـرج يديـه وعالـج كالـون البـاب فانفتـح البـاب، دخـل ثـم أغلـق البـاب بمنتهـى الحـذر وبحركـة غريزيـة نظـر يمينًـا ويسـارًا رغـم معرفتـه بخلـو الشـقة تمامًـا، فكـما تؤكـد معلوماتـه أن هالـة بـلا أب أو أم وإن هـذا السـكن قـد اتخذتـه بعـد وفـاة أمهـا، جلـس حسـن عـلى أقـرب كـرسي كـي يسـتريح قليـلاً لكـن عتمـة الشـقة أشـاعت في نفسـه شـعور غـير مريـح، ولم يكـن معـه كشـاف إضـاءة.

فتحسـس طريقـه إلى الشرفـة فوجدهـا محكمـة الغلـق وخلفهـا سـتارة غليظـة وهـذا مـا أوحـى بـه كثافـة الملمـس وكانـت ذات قـوام متهـدل غـير متماسـك مما جعلـه يشـعر أنهـا قديمـة فظـن أنهـا ربـما قـد ورثتهـا عـن أمهـا فاطمـأن إلى أن أشـعة النـور الخافـت ربـما لـن تتسـلل خـارج الشـقة فأضـاء لمبـة واحـدة توخيًـا للحـذر ثـم قـام بمبـاشرة عملـه بمنتهـى الحرفيـة.

وقـف حسـن مبهـورًا أمـام صـورة لهالـة موضوعـة في أحـد أدراج المكتـب، كانـت صـورة كبـيرة بحجـم ورقـة A٤ كان شـعرها متدليًـا عـلى صدرهـا بسـمرة فاحمـة فأعطـى وجههـا جاذبيـة وعذوبـة وكانـت تحمـل ملمحًـا غربيًـا ممزوجًـا بسـحر الـشرق، تذكـر حسـن أن جدتهـا لأمهـا فرنسـية، لكـن كيـف التقطـت تلـك الصـورة ومـن التقطهـا لهـا؟ سـأل هـذا السـؤال لأن تلـك الصـور لم يكـن مسـموح بهـا في أرض الخلافـة وقـال بثقـة ربـما تكـون التقطتهـا وهـي في الخـارج، فهـو يعلـم

جيـدًا أن هنـاك فئـة مـن المصوريـن الليبراليـين تـم القضـاء عليهـم، كان آخرهـم المصـور محمـد سـلامة، واسـتطاع حسـن الإيقـاع بـه ومـات مـن التعذيـب وكان هـذا منـذ أكثـر مـن سـبعة أعـوام ومنـذ ذلـك الحـين لم تظهـر أي صـورة لعاريـات الـرأس اللـواتي كـن يتحديـن العـرف ويقمـن بنـشر صورهـن، أولائـك العلمانيـات وخاصـة كبـيرات السـن منهـم، كـن يمتلكـن صلابـة كبـيرة وقـدرة عـلى التبجـح والاسـتهتار بمنجزنـا الحضـاري.

هـل أنـتِ منهـن؟ سـأل هـذا السـؤال وفي قلبـه حـزن كبـير لخوفـه عليهـا مـن عـذاب أليـم ربـما تلاقيـه الآن في الآخـرة وهـو يعلـم أنـه لـن يسـتطيع أن يشـفع لهـا وقـال بحـزن، ربنـا يرحمهـا.

وشـد نفسـه مـن أمـام صورتهـا وراح يكمـل تفتيشـه عـما جـاء مـن أجلـه، هـو يعلـم أن هنـاك مـن جـاء للبحـث عـن الخاتـم وربـما وجـده لكـن حركـة أمـن المرشـد التـي لم تهـدأ ربـما توحـي بعكـس ذلـك، ولأن حسـن يمتلـك إصرارًا كبـيرًا فلـم يستسـلم لتلـك الهواجـس ولم يمـض وقـت كبـير حتـى تأكـد حسـن بخبرتـه الأمنيـة أن هنـاك مـن أتـى إلى شـقة هالـة.

لم يمـض وقـت طويـل في البحـث حتـى أدرك حسـن أن شـقة هالـة عاديـة وغـير مميـزة لكـن وجـد فيهـا ألفـة كبـيرة وراحـة، ووصـل حسـن إلى غرفـة نومهـا بعد أن اسـتبقاها لتكـون آخـر مـكان يبحـث فيـه.

لاحـظ حسـن أجندتهـا الموضوعـة بعنايـة أسـفل ملابسـها ووجـد أسـفلها كتاب لـكارل بوبـر باسـم أسـطورة الإطـار، عندئـذٍ شـعر حسـن بطعـم الغصـة والخـوف عـلى حبيبتـه لأن ذلـك الكتـاب كان مـن المحرمـات ومـن يقـرأ لهـذا الفيلسـوف فهـو آثـم ولم يكـن يقـرأ لـه غـير العلمانيـين وكانـت غصتـه مـن أنهـا تنتمـي إلى هـؤلاء وقـال مولانـا المرشـد عنهـم أنهـم حطـب جهنـم لكـن لفـت انتباهـه بقـاء أجندتهـا وذلـك الكتـاب يوحـي أن أمـن المرشـد لم يكـن مهتـمًا في بحثـه إلا عـن شيء واحـد، وبالتأكيـد هـم يعلمـون أنهـا لم يكـن لديهـا كثـير مـن الوقـت لتدويـن مـا حـدث لهـا اليـوم فلـم تعنـي لهـم تلـك المذكـرات أي شيء، فعـاد مـرة أخـرى وقـال لم تجازفـين هكـذا؟ هـل تعلمـين عقوبـة امتـلاكك كتـاب مثـل هـذا؟

وضع الكتاب والأجندة على المنضدة الصغيرة الموجودة في حجرة النوم بجانب السرير.

أنهى حسن التفتيش في غرفة النوم ولم يترك رغم إرهاقه الشديد أي مليمتر إلا وفتش فيه.

نظر حسن إلى ساعة الحائط وكانت تشير إلى الواحدة والنصف ليلاً فأدرك أن هذا الوقت لم يكن الوقت المناسب للحركة والعودة إلى القاهرة ولم يستطع أن يغالب نفسه ويخرج من شقتها، فأقام اتفاق مع نفسه للبقاء في شقتها حتى صلاة الفجر ثم الذهاب للبحث في سيارتها، عن ذلك الخاتم.

أراد حسن بالبقاء في شقتها الشعور بهالة، فكل جزء من منزلها يحمل من روحها، ففرد ظهره على سريرها، لكن حرارة الجو والدماء التي تركت رائحتها وبعض لزوجتها على جسده رغم اغتساله منها وتغييره للبس قبل الدخول على سيادة اللواء إلا أنه لم يحصل على حمام، وشم رائحة عرقه المتصاعد من إبطه فأراد أن يستحم

وقال لما لا؟ أليس هذا بيتي...

فخلع ملابسه وتعرى تمامًا وذهب إلى الحمام وقام بشم العطور فيما كان الصنبور يملأ البانيو ولاحظ دقة هالة ونظافتها فامتلأت نفسه سعادة بحبيبته و لم يشعر أنه غريب عن شقة هالة، قام بتعطير البانيو ثم ترك جسده لينزاح داخل البانيو وشعر بلذة الماء البارد المعطر، لكن بدأ جرح ساقه بإصدار موجة ألم حملتها الخلايا العصبية إلى المخ وما أن فسرها عقله، حتى قرب ساقه إلى عينيه، فوجد أن الجرح بالغ وعميق، فأدرك أن عليه تنظيفه وتضميده بعد استحمامه وترك رجله لتستقر تحت الماء وركن رأسه.

استسلم لطلب الجسم باحتياجه للراحة وأسبل عينيه حتى يحصل على غفوة تعطي جسده بعض القوة تمكنه من الاستمرار، لكن عندما أفاق منها كان لجسده رأي آخر وطالب حسن بالطعام فقد نفذ المخزون الاستراتيجي ومطلب المعدة صار أكثر صراحة خاصة وأن حسن كانت مواعيد الطعام عنده منضبطة فقام من فوره ونشف الماء من على جسده وذهب إلى المطبخ

للبحث عن أي شيء صالح للأكل ووجد حسن نصف بطيخة وقطعة جبن وعلبة تونة وبعض الأرغفة وكان هذا ما يحتاج إليه، فوضع طعامه على المنضدة وقبل أن يتناول الأكل تساءل:

هل هذا الأكل حرام؟

توقف قليلاً لكن مع ضغط الجوع عليه قال إن صاحبته ميتة وحتمًا سيفسد فعليّ أن آكله ربما يكون صدقة على روحها، وبعد أن فرغ من طعامه، تسلل إلى غرفة النوم واستلقى على ظهره فوق سريرها، ولم يستطع أن يقاوم رغبة ملحة داخلية فقام وأخرج بعض ثيابها وخاصة الداخلية وقام باستعراضها وأعجب جدًا من ذوقها في ملابسها الداخلية خاصة التي لم ترتديها والتي يبدو عليها أنها من الخارج وكانت على ما يبدو تستبقيها لحين زواجها مثل كل البنات وقام حسن بالتلصص عليها فوجدها تشف أكثر مما تخبئ وتترك الفرصة للنافر من جسدها بالظهور، فقام بشم ملابسها ووجد رائحة استطاع أنفه أن يميزها جيدًا من بين العطر الذي تستعمله ومسحوق الغسيل، كانت تلك الرائحة مميزة، رائحة روحها، أغلق عينيه فأصبح لديه القدرة على لمس روحها فاحتضنها (وقفت هالة أمامه بلا غطاء الرأس وعلى شفتيها ابتسامة طفولية، فبدت خفيفة ورشيقة مثل أليس في بلاد العجائب ونظر حسن إليها نظرة غبية مماثلة لنظرة بني بني، اقترب حسن منها وقال هل أنت علمانية؟ نظرت إليه باستغراب كبير لكن لم ترد فأكمل..

هل تنتمين إلى هؤلاء اللاتي كن يتحدين المجتمع ويصورن أنفسهن عاريات ثم يقمن بتوزيعها لنشر الرذيلة في المجتمع؟

لم تجب هالة ونظرت إليه بعمق أكثر فقال:

كن ينشرنها لمقاومة سلطة مولانا والاعتراض على حكم الإسلام.

نظرت إليه هالة غاضبة وقالت من أنت؟

أصابـت حسـن دهشـة مـن هـذا السـؤال وتـألم فكيـف لم تعرفـه حبيبتـه؟ جلـس عـلى صخـرة بيضـاء نبتـت عليهـا طحالـب خـضراء زلقـة ويجـرى مـن تحتهـا مـاء الجـدول، ينظـر للـماء المـار مـن تحتـه وسرعـان مـا رأى انعـكاس صورتـه عـلى المـاء، لكـن لم يعرفهـا، فالتفـت إلى صاحـب الصـورة لكـن لم يجـد أحـدًا غـيره فـوق الصخـرة.

اسـتيقظ حسـن ليجـد سـاعة الحائـط تشـير للسـابعة صباحًـا فأصابـه بعـض الذعـر لقضائـه كل هـذا الوقـت في النـوم وأن ذلـك مـا لم يخطـط لـه عـلى الرغـم مـن قضائـه مـدة طويلـة في النـوم إلا أنـه شـعر بإرهـاق وألم نفسـي، ربـما كان ذلـك لانعـكاس هـذا الحلـم عليـه وكان في حلقـه بعـض الغصـة لكـن لأنـه لم يكـن لديـه الوقـت الـكافي للاسـتغراق في حالتـه، فقـام بترتيـب الفـوضى التـي أوجدهـا في الشـقة وقـام بإرجاعهـا كـما كانـت، ثـم وضـع صورتهـا داخـل مذكراتهـا وخـرج حسـن مـن شـقتها ولم يتخـذ أي نـوع مـن الحيطـة بـل تحـرك بحريـة تامـة وكأنـه مالـك تلـك الشـقة ونـزل إلى الجـراج للبحـث عـن سـيارتها فلـم يجدهـا، وبعـد بعـض التفكـير أدرك أن سـيارتها أمـام بيـت الدكتـور عبـد الرحمـن لأنهـا بالتأكيـد ذهبـت إليـه بالسـيارة، وبالطبـع لـن تعـود بهـا لأنهـا كانـت قـد ماتـت.

ذهـب إلى سـيارته وقـام بوضـع مذكراتهـا داخـل حقيبـة جلـد صغـيرة لأنـه لم يسـتطع رغـم شـوقه إلى معرفـة هالـة إلا أن النـوم قـد غلبـه، وعـلى كل حـال مـا دامـت قـد ماتـت فإنـه سـيحتفظ بهـا إلى الأبـد، هـذا مـن حقـي.

انطلـق بسـيارته وكان مشـتاقًا إلى قـراءة مـا خطـت يداهـا، إلا أنـه الآن كان عليـه أن ينجـز مهمتـه وإن كان محظوظًـا فسـيحظى بذلـك الخاتـم وإن لم يكـن فـلا يهـم، لأن الأهـم هـو معرفـة سر هـذا المبنـى، لـذا عليـه الذهـاب إلى المعلـم؛ سـيادة اللـواء (عبـد الكريـم قاسـم)، لا يتذكـر حسـن العنـوان الـذي أعطـاه سـيادة اللـواء إليـه لأن مولانـا قبـل رحيلـه قـد أخفـاه في تلافيـف مخـه وأنـه لـن يتذكـره إلا عنـد الحاجـة الحقيقيـة إليـه، وكان مولانـا يعلـم مـا سـوف يتعـرض لـه حسـن مـن اسـتجوابات في شـعبة أمـن المرشـد وربـما يضعـوه عـلى جهـاز كشـف الكـذب أو يعطـوه مصـل الحقيقـة عندئـذٍ لـن يسـتطيع حسـن أن يخفـي مـا أخـبره بـه سـيادة اللـواء، لذلـك بطريقـة لا يعلمهـا إلا هـذا اللـواء، أعطـى حسـن المعلومـة وأعطـاه بعـض التعليـمات التـي قـام حسـن بتنفيذهـا، عندئـذٍ لم يعـد حسـن يتذكـر أي شيء

عن العنوان وكأن سيادة اللواء قام بحقن تلك المعلومة في مخه فلم يستطع أمن المرشد الحصول عليها ولم يستطع حسن أن يتذكرها، كان قد وصل إلى أول الشارع الموجود به فيلا الدكتور عبد الرحمن فترجل من السيارة حتى يتبين إن كان هناك مراقبة موجودة على المكان من أمن المرشد، وجد الشارع هادئًا ولم يكن أمام الفيلا غير حارسين، دخل عليهما وأخرج الكارنيه الخاص به، فأدوا التحية العسكرية، التفت حسن إلى السيارة المهشمة، نظر إلى الرقم الخاص بها فوجده نفس الرقم الذي لديه فسأل العسكري ..

- هل قام أحد بفحصها؟

- معرفش يا فندم.

توجه حسن إلى السيارة، كانت السيارة بلا زجاج نتيجة التفجير ومع اقتراب حسن أكثر من السيارة بدأت حالة من خيبة الأمل تنتابه نتيجة شكوك تأكد منها مع فتحه باب سيارتها، فقد كانت نظيفة تمامًا، عندئذٍ أدرك أن أمن المرشد قد حصل على كل شيء في السيارة وعلى ما يبدو أنهم استخدموا أجهزة للكشف عن الخاتم وعندما لم يجدوه أخذوا كل محتويات السيارة حتى يزيدوا من مساحة البحث لكن ظل هناك أمل، لأن أخذهم الزجاج المتكسر ومحتويات السيارة للبحث فيها وكل هذا مؤشر يشير إلى عدم حصولهم عليه، حتى لحظة أخذهم محتويات السيارة وربما لم يجدوه وما زال موجودًا في السيارة.

عندئذٍ فتح باب السيارة، وضع حسن كل خبراته في البحث عن الخاتم وبحث في كل مكان من الممكن أن يتواجد به خاتم صغير داخل سيارة وكانت السيارة رغم قيام أمن المرشد بتمشيطها ونقل جميع محتوياتها إلا أنها بدت كمغارة علي بابا، تخفي أكثر مما تعلن، وجد حسن أشياءً كثيرة لم تصل إليها يد أحد مثل مخلفات الفئران وملاعق بلاستيكية، يبدو أن الفئران كانت تخفيها داخل تلك السيارة، بحث حسن بدقه كبيرة لكنه لم يجد الخاتم وأيقن حسن بخبرته أن ذلك الخاتم ربما يكون مع الأجزاء الزجاجية أو احتمال بعيد أن يكون ذلك الفأر قام بنقل الخاتم إلى مكان ما ربما يكون قريبًا من السيارة لذلك قام بالبحث أسفل السيارة لكن لم ينتج ذلك البحث أي نتيجة

خـرج مـن تحـت السـيارة، أضـاف حسـن احتـمالًا ثالثًـا مـع زوال أملـه في العثـور علـى الخاتـم، ربـما لم يكـن هنـاك خاتـم مـن الأصـل، وقـف بجانـب السـيارة وقـام بتنظيـف ثيابـه لكـن سرعـان مـا تراجـع عـن ذلـك الاحتـمال لأن طريقـة البحـث تلـك تؤكـد أنهـم يبحثـون عـن ذلـك الخاتـم، أسـند حسـن زراعـه عـلى شـنطة تلـك السـيارة الهاتـش بـاك فـوق حـز الزجـاج المتكـسر وقـام بمسـح حذائـه تأهبًـا للرحيـل ومـع اهتـزازة يديـه شـعر بوخـز بسـيط مـن بعـض شـظايا الزجـاج ولزوجـة السـليكون وكان حسـن يكـره تلـك الأشـياء اللزجـة فاعتـدل حسـن ورفـع يـده مـن عـلى تلـك السـيارة، فانزاحـت شـظية مـن تحـت يـده وسـقطت كاشـفة عـن اسـتدارة قطعـة زجـاج دائريـة ظـن حسـن أنهـا خاتـم ولمـا اقـترب كـي يراهـا كانـت بالفعـل هـي الخاتـم فمـد يـده بسرعـة كـي يلتقطـه وبالفعـل اسـتطاع اسـتخراجه مـن السـيلكون اللـزج، وكان عـلى حسـن الانـصراف بأقـصى سرعـة ممكنـة والخـروج مـن هـذا المـكان.

(٩)

دخل حسن القطار المتجه إلى صعيد مصر بعدما تأكد جيدًا من عدم وجود أي مراقبة عليه، أخفى حسن سيارته بعدما غير لوحتها المعدنية وكانت طريقة حسن في الإخفاء هي الظهور الساطع فترك السيارة بجانب قسم مصر القديمة.

وذهب حاملاً شنطته الصغيرة التي توجد بها مذكرات هالة، جلس حسن بجانب الشباك ينتظر بفارغ الصبر قيام القطار لأن حركة القطار تعني له الرحيل عن منطقة الخطورة، لأنه يحمل في جيبه ما مات شخصان من أجله وربما يكون هذا الخاتم له علاقة بمقتل مولانا محمد عباس أيضًا، أي سر يحمله هذا الخاتم يكلف هؤلاء الناس حياتهم؟ أراد أن يخرجه من جيبه كي يتأمله لكن لاحتياطات أمنية يعرف أن إخراجه من مكانه سيشكل خطورة شديدة على حياته وعلى كشفه للغز. ثانيًا معرفته بطول الطريق وخاصة مع معلوماته عن قطارات مصر المتهالكة، لأن العالم لم يعد ينتج تلك القطارات بعد الثورة الصناعية الثالثة، ثورة الموصلات الفائقة لذلك لا يوجد أي قطع غيار ولولا فهلوة المصريين لتوقفت السكة الحديد منذ فترة لكن الله سلم، كان حسن مؤهلًا نفسيًا جيدًا لطول الطريق وبطء القطار وربما أعطاله.

دوّى نفير القطار في محطة مصر معلنًا الرحيل وعلى الرغم من كونه القطار الوحيد المسافر يوميًا إلى الصعيد إلا أن عدد المسافرين في الدرجة الأولى كان قليلاً فجلس حسن مرتاحًا في مقعده، ولم يشاركه فيه أحد فوضع الشنطة من على كتفه ثم أسند رأسه على المقعد ورغم شوقه لقراءة مذكرات هالة إلا أنه ظل على حالته تلك غير قادر على الإتيان بأي فعل أو إدراك الزمن حتى جاوز القطار محافظة الجيزة فعدل من وضعه ووضع الشنطة بينه وبين شباك القطار ثم وضع يديه الاثنين على الشباك ثم وضع رأسه عليهما ليتابع الطريق وكان هذا أقصى ما يمكنه فعله.

مـع حركـة القطـار بمحـاذاة النيـل لاطفـت ريـح رقيقـة وجـه حسـن فأسـلب جفنيـه مستسـلمًا للنعـاس وتـرك عقلـه يعلـق في المنطقـة بين النـوم والاسـتيقاظ تلك المنطقـة الهادئـة التـي تمـد الـروح بـما تحتـاج لمقاومـة الإجهـاد والتعـب مما أعطـى وجهـه الهـدوء المطلـوب، فبـدا بشوشًـا جميـلاً، كان وجـه حسـن ذا جبهـة عريضـة منفـرج الحاجبين وكان لسـمرة عينيـه بعـض السـحر مـع لونـه الخمـري المشرب بالحمـرة، مما اعطـاه مظهـرا قويًـا مهيبًـا وجذابًـا جـدًا وكانـت تلـك الجاذبيـة مثار حسـد بعـض الذكـور وخاصـة عندمـا يتابعـون تلـك العيـون المتلصصـة إليـه مـن تحـت النقـاب وهـذا قـد منـح حسـن القـدرة عـلى إقامـة علاقـات جنسـية متعـددة، وكان لحسـن طابـع في علاقاتـه الجنسية، فعـل غريـب هـو معـاشرة المـرأة الواحـدة مـرة واحـدة، ورغـم إلحـاح بعـض النسـاء الـلاتي عاشرهـن عليـه بإعـادة الكـرة مـرة أخـرى، إلا أنـه لم يكـن يسـتجيب لهـم مما كان يسـبب بعـض الألم النفـسي لكونهـن غـير ممتعـات، إلا أن حسـن كان يحـاول أن يقلـل مـن أحزانهـم ويدعـي أنـه هـو الـذي يحمـل المشـكلة مخفيًـا مشـكلة حقيقيـة، إنـه يبحـث عـن روح أنثـى لا يجدهـا فيهـم، فضـلاً عـن أن ممارسـة الجنـس الحـرام كان يسـبب لـه مشـكلة نفسـية كبـيرة سرعـان مـا يتغلـب عليهـا تحـت ضغـط حاجـة الجسـم الملحـة إلى الجنس، ورغـم القيـود الكثـيرة عـلى الجنـس والعقوبـات البدنيـة والنفسـية التـي يتعـرض لهـا مرتكـب ذلـك الذنـب، إلا أنـه كان يجـد ضالتـه بمنتهـى السـهولة.

لكـن سرعـان مـا تغـير وجهـه مـن الهـدوء والدعـة إلى ملامـح الاسـتغراب فهـو في حقيقـة الأمـر لا يعـرف أيـن ذهـب سـيادة اللـواء ولا يتذكـر غـير شيء واحـد أنـه أخـبره أنـه ذاهـب للصعيـد وتلـك المعلومـة تركهـا سـيادة اللـواء.

دون إخفـاء، لا يـدرى حسـن مـا الهـدف، هـل هـي مفتـاح لاسـترجاع المعلومـة مـن رأسـه أم أنهـا رسـالة أراد إيصالهـا إلى أمـن المرشـد فتركهـا لهـم ليتعرفـوا عـلى مكانـه. صعيـد مـصر أرض مينـا موحـد القطريـن مـن صعيـد مـصر دومًـا يخـرج نـور ينـير الأرض بدايـة النهـر وبدايـة الحضـارة مـن أراد أن يبـدأ عهـدًا جديـدًا فليبـدأ مـن صعيـد مـصر لا يعـرف حسـن مـاذا يقصـد سـيادة اللـواء بتلـك الكلمات ولا يعـرف أيـن يذهـب أو إلى أي مـكان يتجـه، لكـن يعـرف شـيئًا واحـدًا أنـه يثـق في سـيادة اللـواء، عندمـا زرع تلـك المعلومـات في تلافيـف عقلـه أخـبره أنـه لـن يسـتطيع الوصـول إليهـا إلا عندمـا يحتاجهـا بصـدق وقـال حسـن الآن

أنا أفعل الصدق وأثق أنني سأحصل عليها ما دمت أخبرتني أنت بذلك سيادة اللواء، فعادت إلى تعابير وجهه تلك الوداعة والصفاء وقبل أن يدخل في مرحلة النوم ويترك تلك الحالة اللذيذة وخاصة مع حصول العقل على بعض القوة ومغادرته للخمول عاد إلى سؤال هالة له، من أنت؟

فتح حسن عينيه ثم فركهما ليتخلص من آخر خط موصول بينه وبين النوم ثم نظر إلى النهر مستنكرًا سرعة القطار البطيئة جدًا فقام من مقعده متمطعًا وشعر بحاجته إلى الذهاب للحمام فحمل الحقيبة الصغيرة وتوجه بها إلى الحمام فلاحظ بعض القاذورات الموجودة في الحمام فتجنبها لكن لم يستطع أن يتحمل رائحة البول المتصاعدة من الحمام، فقضى حاجته على عجل وخرج من الحمام مسرعًا وجلس على كرسيه وملأ رئتيه بقدر اتساعهما من هواء النهر، هذا العطر الصافي، فتح حسن زجاجة الماء التي كان قد ابتاعها من المحطة ثم شرب، أعطت جرعة الماء عقله بعض الهدوء مما منحه القدرة على تكرار سؤال هالة مرة أخرى

- أنا مين؟

- أنا ليه معرفتش نفسي في الحلم؟

تغيرت تعبيرات وجه حسن من إحساس بالحيرة إلى إحساس بالألم.

- أنا الورع التقي أم ذلك العاصي زير النساء؟ أنا سيد أم عبد؟ إذا كنت سيد طيب ليه بخاف أفكر في كلام العلمانيين وأقفل على عقلي بسرعة.

- ملحد ولا مؤمن؟ طيب ليه بتكلم زيهم سعات والشيخ وأمثاله بيأثروا فيا بسرعة؟

- هل حقيقي حبيت هالة؟ ولا دي رغبة في شخص مات وعقلي زيف لي الواقع عشان استمر في القضية؟

- هو فيه حب بيهبط على الإنسان بالقوة دي، بعض العلمانيين قالوا لي إن الحب هو شعور بالحاجة، هل الكلام دا حقيقي؟

طيب روحها اللي بلمسها دي زيف؟

هل أنا ذلك الشيخ حاد الذكاء رصين العقل؟ أم أنا ذلك الإنسان غير القادر على التفرقة بين الأحياء والأموات؟ بل وإجراء أحاديث معهم وتذكر ذلك الهيكل الذي يكن له كل حب واحترام،

يطلقون عليّ في العمل غريب الأطوار، الآن فهمتكم فحياتي أحجية كبيرة وبها أعاجيب كثيرة وغير منطقية، لماذا خصني الله بذلك؟

أتحدث الفصحى كما علمني شيخنا، أجتهد أن أتحدث الفصحى وأجد نفسي في منتصف الحديث أتحدث العامية.

كنت أشهر من يحقق مع العلمانيين مع إني كنت أخاف منهم وكنت أداري خوفي من كلماتهم بقدرتي الفائقة في الإبداع في التعذيب.

شبك حسن يديه على الشباك ثم وضع ذقنه مرة أخرى على زراعيه وراح في نوم عميق لم يستطع مقاومته.

ورغم عمق لحظة النوم وتأثيرها على عقله وكأنه سقط في بئر سحيقة لكن روح حسن حاولت الخروج متشبثة بأفرع شجرة الصنوبر العتيقة الممتدة مع امتداد البئر بلا نهاية بعد حصوله على المفتاح ومع اقتراب حسن من فوهة البئر أصبح الصعود قفزًا وسرعان ما استيقظ حسن فرحًا لقد استطاع الحصول على عنوان مولانا.

- هوا العنوان دا حقيقي ولا بيتهيألي؟

كان شعورًا عارمًا بالسعادة لم يقلل منه إلا تساءل "لكن أنا أعيش في عالم حقيقي"، ووقع في حيرة عدم القدرة على التمييز بين العالم الحقيقي وعالم الخيال، فوضع يديه على وجهه، حاول أن يوقف عقله عن التفكير ولم يكن في حاجة إلى أن يفكر أو يستوعب الموقف لكن كان في حاجة إلى أن يشعر أنه يعيش في العلم الحقيقي.

قـام حسـن مـن عـلى كرسـيه ثـم جلـس، هـل يسـأل مـن حولـه هـل نحـن في العـالم الحقيقـي أم أنـه مـا زال يعيـش في عـالم مـن نسـج عقلـه.

حـاول أن يغلـق عينيـه لكنـه لم يسـتطع ثـم وضـع يديـه عـلى جفنيـه وقـام بإغلاقهـا لكنـه استطاع أن يـرى ضفتـي النهـر ففتـح عينيـه وقـام مـن على كرسـيه ثـم جلـس مـرة أخـرى..

أسـتاذ أسـتاذ... كان صـوت أحـد الـركاب مـع شـعور بهـزّة رقيقـة أحدثْتهـا يـد هـذا الرجـل ففتـح حسـن عينيـه وتحسـس نفسـه ووضـع يـده عـلى الشـنطة فوجدهــا..

- تذاكر

- ايه؟

- تذاكر، حضرتك كنت نايم.

- آسف معلش أنا مقطعتش تذكرة، تمن التذكرة كام؟

- خمسين درهم.

- أخرجَ حسن النقود وأعطاها للمحصل.

بعد رحيل المحصل أخذ حسن شهيقا وقال الحمد لله.

ارتشـف بعـض المـاء مـن زجاجتـه وحـاول أن يتذكـر العنـوان الـذي وجـده في الحلـم، وتذكـر حسـن العنـوان بمنتهـى الوضـوح ولم يكـن في حاجـة إلى كتابتـه، لم يحـاول العـودة إلى تلـك الأسـئلة التـي طرحهـا عـلى نفسـه فقـد شـعر بـألم شـديد لكنـه آمـن أن ذلـك العنـوان هـو العنـوان الـذي أعطـاه لـه معلمـه والـذي وضعـه داخـل تلافيـف مخـه، واخـبره أنـه لـن يحصـل عليـه إلا إذا احتاجـه فعليـا، وبالفعـل كل فعـل أتـى بـه حسـن يعنـي أنـه يريـد أن يعـرف بصـدق لذلـك، استجاب لـه عقلـه كـما وعـده معلمــه، شـعر حسـن بالطمأنينـة لأنــه سـيحصل عـلى إجابـة سـؤاله، لان مـن يعـرف الإجابـة إن لم يعـرف معلمـه، وسـيحصل عـلى الأمـن في ضيافـة المعلـم حتـى تهـدأ عنـه العيـون ثـم يعـود بمنتهـى السرعـة بعـد حصولـه عـلى الأجوبـة التـي تمكنـه مـن تفكيـك تلـك القضيـة.

شعر حسن بالحاجة إلى النوم لكنه خشي أن يقع في تلك المغارة من الأحلام التي تخلط الواقع بالخيال، تلك المغارة التي لم يكن باستطاعته الخروج منها إلا بسلطان فتسببت بألم لم يستطع حسن احتماله ولم يستطع إجابة داعي النوم، عندئذٍ امتدت يداه إلى شنطته وبعد أن فتحها أخرج حسن أجندة حبيبته

التي كتبت فيها مذكراتها وكانت ذات لون بني مائل للحمرة ذات خطوط ذهبيه لكن لم تكن أنيقة بل كانت أجندة طبيعية ترجع أهميتها على ما تحتويه من معلومات عن حياة حبيبته..

- هل إنا شخص طبيعي ؟

- هل أحب تلك الفتاه أم تلك نزوة لأني أعلم أنها ميتة، فافترض عقلي أنها من كنت أبحث عنها.

إذن لماذا أبحث عنها بكل هذا الجهد، هل هي كانت مبرّرًا داخليًا لاستمراري في العمل الذي أحبه. إذن لماذا كان هذا الهجوم العاطفي على قلبي؟ فرك جبهته ولسان حاله يقول: إنا قربت أشك أن أنا مش موجود، أو موجود في حلم يحتوي على كل تلك العجائب.

ولم يجد حسن أي جهد نفسي يعطيه القدرة على القراءة فقام بتصفح الأجندة وأدرك بعد أن انتهي من تصفحها أنها ليست مذكرة بالمعنى الاصطلاحي بل هي مقتطفات على ما يبدو عن حياتها، كانت على ما يبدو شيقة لأن حسن رغم مللـه إلا أن بعض المواقف قد استوقفته لقراءتها بل دفعته إلى القراءة فعاد إلى البداية.

الصفحة الأولى

في يوم ١٥- ١٠- ٢٠٣٧

قد وُلدتُ لم أرَ أبي، فقد تم إعدامه قبل مولدي بخمسة أشهر..

بتلك الكلمات المقتضبة استهلت مذكرتها.

الصفحة الثانية

عنـد بلوغـي ثـلاث سـنوات أدركـت الاسـم الـذي كانـت تناديني بـه أمـي «المتمـردة"

وعـلى مـا يبـدو أنهـا كانـت صفـة أكثـر مـن كونهـا اسـم لأنهـا كانـت تخـبرني عـن نفـسي وهـي فرحـة مـسرورة.

إن الأطفـال في بكائهـم كانـوا يقولـون واء.. أمـا أنـت فكنـت تقولـين لاء ههههههههـه. بتلـك الضحكـة كانـت تنهـي وصفهـا لي..

لم أكن أستطيع أن أفسر سعادتها بتمردي في ذلك الوقت..

الصفحة الثالثة

في الخامسة عشر من عمري دخلت على أمي وهي تستخرج كتابًا من مخبأ سِريًّا في غرفة نومها لكارل بوبر، وكانت تحتفظ في هذا المخبأ بكُتب لهذا الفيلسوف ولفيلسوف آخر اسمه برتراند راسل، وكتاب وحيد في الاقتصاد اسمه رأس مال بكيتي، وعلى ما يبدو أنها كانت تكنُّ لهم تقديرًا شديدًا لأنها تحملت الإهانة والتعذيب ولم ترشد عن مكان تلك الكتب ولم أدرِ لماذا لم أرشد عنهم أنا عندما أخبرني الضابط أنه باستطاعتي إنقاذ أمي إن أخبرتهم عن مكان تلك الكتب، هل تقدير أمي وخوفها من أن تطالهم يد الحرق والتخريب لتلك الكتب جعلني دون أن أدري أقدرها؟

وعندما دخلتُ عليها كان الشحوب والخوف باديًا على وجهي فقامت إليّ وقالت مالك فيه إيه؟

أنا بموت يا أمي.

ليه بتقولي كدا؟

أنا بنزف بألم شديد.

ونظرت أمي إلى مكان الدم وابتسمت، وقالت لا تخافي إن الورد يوشك أن يتفتّح .

ما زلت أذكر ابتسامتها.

الصفحة الرابعة

كان يومي الأول في الصف الأول الثانوي، وبالطبع كانت مدرستنا مثل كل المدارس منفصلة، أي هناك مدارس للفتيات فقط وأخرى للذكور فقط لكن الغريب أن المدرسة لا يوجد بها أيّ مدرس ذكر، وعندما سألت أمي قالت إن المدارس في المراحل الثانوية لا يوجد بها مدرسين، ومدارس الذكور لا يوجد بها مدرسات

هل يحدث ذلك في الجامعة؟

بعض الكليات..

هذا الاختلاط محرم؟

حرَّموه.

لماذا لا يكون ذلك التحريم في كل الكليات؟

أتذكر وجه أمي الذي كان يحمل الكثير من الكلمات لكنها لم تتكلم.

الصفحة الخامسة

أصبحت أرى أمي كثيرًا فسألتها عن السبب.

فقالت: لقد تم فصلي من الجامعة.

فسألتها: هل هذا له علاقة بأبي؟

أكدت لي بحزن بالغ أن سبب ذلك لا يعود إلى أبي، لكن الأمر يعود إلى أن الجامعات في مصر ما عادت تدرس الفلسفة ولذلك تم صرفها عن العمل

ولم يمضِ كثير من الوقت حتى تم اعتقالها وأصبحت رؤيتي لها نادرة، فقد كانت تقضي في المعتقل أكثر مما تقضيه في بيتنا.

عوضتني مُدرِّسة لي كانت تلميذة من تلامذة والدتي وكانت كما تقول لي إنها مدرسة الفلسفة التي تدرس لنا،وأخبرتنى انها مجبره على أن تقول إن الفلسفة هي الحرام وليس عليها أن تبرز الوجه الآخر من الفلسفة.

كانت تنتقل إلى بيتنا لتعيش معى مع غياب والدتي ثم انتقلت بشكل كامل للعيش معنا حتى مع وجود والدتي غير مبالية بما قد يصيبها لقربها منا وخاصة أنها لم تتزوج.

وقد لاحظت نبوغي فقالت لي أن أي سؤال قد يطرأ على ذهنك من الممكن أن نناقشه سويًا وكانت الكلمات هذه فاتحة لإزالة الحواجز بين المدرس وتلميذه، لكن أذكر يومًا وقد دخلت عليها بسؤال وعلى ما يبدو كان مفاجئًا بعض الشيء.

ما الذكر؟

وما الحاجة إليه؟

لكـن لم تـدم دهشـتها طويـلاً لأنهـا تعلـم أننـي لم أرَ أبي ولا أرى ذلـك النـوع البـشري إلا في الشـارع..

راحـت تـشرح الفـروق التشريحيـة بـين الذكـر والأنثـى والنفسـية، ثـم انتهـت بكلمـة حملـت بعـض المـرارة وقالـت إنـه كائـن أنـاني وغبـي.

لكن لم يعد ذلك رأيي بعد رؤية كبير السنافر لأني أعتقد أنه كائن أحمق..

قامـت مُدرّسـتي وهـي تغمغـم، لكـن عـلى مـا يبـدو أنهـا لم تنتبـه إلى أن صوتهـا كان واضحًـا فسـمعتها تقـول نفـسي أصرخ مـن الظلـم الـلي إحنـا فيـه مـش ذنبنـا أن إحنـا اتولدنـا إنـاث.

التحقتُ بالجامعة، حصلتُ على مجموع مكنني من دخول كلية الطبّ، استخدمت موهبتي في الحفظ، وغضبت أمي مني كثيرًا على عكس كل الأمهات الذين يبتهجن بحصول بناتهن على مجموع كبير، وكانت تقول إن أكثر طالب حصولاً على درجات في نظام تعليم قائم على الحفظ لديه مشكلة كبيرة في عقله لأنه ربما تخلى عن مَلَكةِ النقد لحساب مَلَكةِ الحفظ فأصبح كالآلة تنفّذ ما يُملى عليها من تعليمات.

قال حسن ممتعضًا: غير صحيح..

ثم أكمل القراءة

اعتقدت أنني لم استوعب ما ربّتني عليه لكنني أردت أن أكون مثل كل الناس..

ابتسم حسن فرحًا بحبيبته.

كنتُ فرِحةً منطلقة منفتحة على الحياة مثل كل البنات في مثل عمري

لكني لاحظت إحجام الفتيات عن مصادقتي وتأكدتُ من ذلك عندما حاولت الحديث مع ابنة أحد قيادات مجلس شورى العلماء، فقالت بصراحة خالصة: نحن لا نتحدث إلى أمثالكم..

تذكرتُ أبي الذي أعدموه، وأمي التي تعيش في المعتقل أكثر مما تعيش معنا خوفًا من نشر أفكارها أو أفكار أبي وكانت أمي متهمة دائمًا بزعامة تنظيم ليبرالي، كانت أمي امرأة شديدة لا تخشى أحدًا أو معتقلًا، لم أعرف من أين حصلتْ على كل تلك الصلابة، لكنها تقول إنها جيل ما بعد ثورة عظيمة وأخبرتني أنها ستحدثني عنها يومًا لأنها ثورة رغم القضاء عليها وعلى من قاموا بها إلا أنها تركت أثرًا كبيرًا امتد إلى جيل ما بعد تلك الثورة أي من لم يشهد تلك الثورة.

قـام حسـن بتصفـح بعـض الصفحـات الفارغـة حتـى وصـل إلى عنـوان مكتوب بخـط كـوفي جميـل في منتصف صفحـة الرسـائل..

قـام حسـن بتصفحهـا بشـغف ليعـرف مَـن التـي كانـت تراسـل، وهـل لديهـا حبيـب..

كانت الصفحة الثانية تحمل تلك الكلمات البسيطة.

تركـت لي أمـي رسـائل وبعثـت إليهـا رسـائل، هنـاك مـا قرأتـه وهنـاك مـا هـو مكتـوب ولم تقـرأه لأنهـا ماتـت لكنـي لم أسـتطع أن أمنـع نفـسي عـن الكتابـة إليهـا كـي أسـتلهم بعـض قوتهـا..

شـعر حسـن بذلـك الضعـف الإنسـاني لحبيبتـه، فتمنـى لـو كان قـد قابلهـا وأحاطهـا بذراعيـه..

هـل عانيـت قبـل موتـك كل تلـك المعانـاة، وتذكـر عندمـا دخـل شـقتها أن أول مـا لفـت انتباهـه هـو ذلـك الترتيـب الشـديد، كان لـه انعكاسـات سـلبية لم يسـتطع عقلـه تفسـيرها لكـن شـعر أن ذلـك التنظيـم الشـديد ربـما يخفـي خلفـه شـيئًا مـا.

استطعتُ أن أقنع تلك الضابط على السجن أن تحمل إليك الرسالة، ربما تكون آخر ما أكتب إليك لأني أشعر بدنو الأجل وانتهاء العمر.

لقد بذرت فيكِ صغيرتي بعض قيم الحرية ودربت عقلك على التفكير النقدي وأعتقد أن ذلك إرثي الذي تركته لك فلا تضيعيه.

لأنك سترين أمورًا لن يراها غيرك، قد لا تفهمين رسالتي لكن سيأتي وقت ستبصرين فيه ،عندئذٍ سيروعك هذا العالم غير العادل..

يعتقد الحكام في بلداننا أننا ضدهم، أبدًا يا بنيتي لأنهم مثلنا عبيد، لقد رضوا أن يكونوا حلقة الوصل بيننا وبين السادة الذين يحكمون العالم، يقيمون دِولًا وينهون دِولًا، يقيمون حروبًا ويطفئون أخرى، إنهم آلهة رأس المال لا أعرفهم أو أعرف أين يقيمون بنيتي، لكن أعرف أدواتهم، الساسة ورجال الدين في كل الأديان وتلك الجيوش التي يبيدون بها البشر، ولديهم علماء الاجتماع والفلسفة يستخدمونهم حتى يصنعوا لهم أطواق العبودية التي لا تدركها أعين العبيد وعدوهم، بنيتي، هو الحرية والعقل النقدي، لذلك حربهم الدائمة على الحرية والأحرار. شعر حسن أنه قد سمع ذلك الكلام من قبل وأنه ليس غريبًا عن أذنه، لكن شعر أن أم هالة دكتورة سهير كانت مهرطقة، فحمد الله أن تلك المذكرات لم تقع في يد أحد غيره، وابتسم وقال: حتى لو وقعت فما الفائدة، فهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها؟ لذلك لم يهتم بها رجال أمن المرشد الذين عثروا عليها قبله.

وجد حسن الكثير من رسائل والدتها إليها فأرجأ قراءتها حالَ ما يكون ذهنه بحالة أفضل، لأن ما قالته مثل وسوسة الشيطان، لها منطق لا تستطيع له دفعًا فخاف من أن يسترسل فيه، لكن وجد في نفسه شوقًا جارفًا إلى رؤية ما خطّت يداها وهل ردت على أمها، لأنها في رسائلها إلى أمها ربما سترد بما يعبر عن أفكارها، شعر بأنها فرصته كي يعرفها أكثر، ولم يستغرق كثيرًا في بحثه، وسرعان ما وجد رسالةً من هالة إلى أمها بعنوان "إلى أمي".

لماذا يا أمي؟

علمتني الحرية في مجتمع لا يعرف إلا القهر والكبت وقلتِ أنني من حقي أن أختار حتى أكون إنسانًا، فإن الحرية مثل العلم لا يجب أن تجرم، لكن لأنك حرّ يجب أن تتحمل تبعات اختيارك، فالعلم به نستطيع أن نتقدم أو نستخدمه في فناء الإنسان، لكن أي ديكتاتور لن يقبل الحرية، لكن من الممكن أن يقبل العلم رغم أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر، لكنك علمتني أن الحرية هي أصل الأشياء وهي عدو كل جبار لأن سلطانه قائم على الخوف.

لكن يا أمي أصارحك أنك قد أذنبتِ في حقي، لماذا لم تتركيني أسير مثل السائرين، أنا لست مثلك يا أمي، أنتِ بنت ثورة، كنت صلبة، لكنني يا أمي أنا لست مثلك، ظلمتِني ولم تتركيني لا أعرف ما أنا فيه من قهر، ربما لم يكن عقلي كان قد استطاع إدراكه، لكن ألمي شديد لأنني عرفت.

امتلأ قلب حسن بحبيبته لأنها لم تخرج عن الإطار، وأنها مثل كل البنات. شعر بهجوم الشوق على قلبه، فراح يتصفح رسالة أخرى، يمضي بخطى المحب المطمئن.

لماذا يا أمي كل هذا التحيز الذكوري في مجتمعنا؟ ألسنا يا أمي متساويين؟

ألم يكن كلانا حيوانًا منويًا لا فرق بيننا؟، فكلانا عندما انطلق من ذكر الرجل إلى رحم الأنثى كانت له نفس الفرصة في الحصول على الحياة وقد يسبق الحيوان الأنثوي ذلك الذكر فيعطي صورة الحياة الأنثى وفي حالة أخرى يعطي النمط الآخر، وقد نصل كلانا في ذات الوقت إلى نفس البويضة فنصير توأمًا متساوِ الحقوق تمامًا في رحم الأنثى، فكيف ساوت بيننا الطبيعة في الحق في الحياة، وفصلت بيننا ثقافات متحيزة وبشدة للذكر، فدائمًا يا أمي الرجل فاعل والأنثى هي المفعول.

في لغتنا هو المانح وأنا المستقبِل، أليست روح الأنثى بداخلي مساوية لروح الرجل بل أعلى، انظري يا أمي ألا يضع البذور فقط في أرضي وأنا أمنحها الحياة، إذن أليس لي الحق أن أصرخ إذا أرادوا أن يساووا بيننا حتى؟، لأن المساواة بيننا ظلم، لأن من فرْجي تولد الحياة ومن ثديي ينزل المطر.. آه يا أمي الأولى، لماذا فعلت ذلك بنا، لماذا يا أمي حقّروكِ إلى تلك الدرجة وأنتِ قد رضيتِ، كيف يا أمي استدرجوكِ وغيروا وعيك فتحولت من ربة معبودة كان الذكر يقدم لها جزءًا من جسده قربانًا عرفانًا بفضلها، إلى عبدة مهانة، والأغرب أنك تحبين وتزيدين من إهانته، فبدلاً من أن تقاوميه، كنت له عونًا فيما أراد، حقروك فزدت من تحقيرهم، ألبسوكِ غطاء الرأس فزدت وغطيت أنت الوجه، قدموكِ قربانًا على موائدهم فلم تعترضي، تزوج عليكِ واحدة واثنتان وثلاث وله ما شاء وأنت مستكينة تحت إمرة الذكر المسيطر.

لم يستطع حسن أن يكمل ما كتبت وتحولت تعابير وجهه من البشر إلى الغيوم فنظر إلى سقف القطار راكنًا رأسه على مسند المقعد، وقال لماذا أرى أن لغتهم متشابهة ويثير حديثهم في نفسي كل هذا القدر من الخوف والاشمئزاز، لكن لا تستطيع أذني الابتعاد عن أفواههم حين تتحدث، ولا تستطيع عيني الابتعاد عما يكتبون، حتى وإن حاولت!

هناك شيء ما يدفعني إلى المتابعة..

ثم أخرج رأسه من القطار لينظر في الفراغ، ولينعش وجهه بنسمات الغروب المحملة بعبق النهر المحمول على بخاره النديّ ورغم بُطء القطار، إلا أن حرارة الجو جعلت الهواء الصاعد يحمل بين طياته بخار الماء فجعل الجو لطيفًا ورغم أنه كان محملاً بالرطوبة إلا أنه كان هواءً نقيًا خاليًا من الملوثات، ليس مثل هواء القاهرة، فملأ حسن رئتيه بالهواء ثم زفر مخرجًا كل متاعبه.

ولأنها كانت أول مرة يستقل فيها القطار متجهاً إلى الصعيد، وأول مرة يتحرك بمحاذاة النهر مع القطار، فكانت فرصته ليرى صعيد مصر، كانت الأحوال عادية، تجمعات سكانية عشوائية مكتظة حول النهر، وبينها مساحات متصحرة كبيرة لا يوجد فيها أي أثر للزراعة، رغم توفر الماء بجانبها، مما يوحي بشيء غير طبيعي، فتذكر بعض التقارير التي كان يرفعها اللواء (عبد الكريم القاسم) عندما كان يتدرب على يديه إلى فضيلة المرشد مباشرة، وكان يغمغم أنها كارثة، لكن لم يتوقع حسن أن تكون بمثل هذا الحجم، كانت التقارير تشير إلى نزوح جماعي لسكان المدن في الصعيد إلى الريف، كانت تلك الكارثة المسببة للنزوح سببها نضوب النفط في العالم، فدعا مولانا دعوة صادقة إلى الناس كي يعودوا إلى طرقنا القديمة في التجارة والزراعة وذكرهم أن الصحابة لم يكن لديهم كهرباء وأنتجوا الحضارة الإسلامية وأن المصريين كانوا يطعمون العالم القديم ولم يكن لديهم آلات زراعية تعتمد على البترول، ولأن أهل الصعيد هم أكثر المصريين التزامًا بمنهاج الصحابة وأنهم لن يتذمروا، فقد بدأ انقطاع البترول عنهم ثم الدلتا ثم الإسكندرية ثم القاهرة حالما ينتهي المخزون لكن كان ذلك منذ زمن بعيد وهو ما فجر غضب سيادة اللواء لأنه قال مثل قول العلمانيين إنه كان يجب التخطيط للأمر لكن سيادة اللواء لم يدرك أن روح مولانا موصولة بالعلي القدير، فما الحل إذن؟

لم يكن غضب سيادة اللواء منطقيًا لأنه يعلم أن مولانا دعا الناس إلى الإيمان بالله ولو آمن الناس يا سيادة اللواء ستتنزل عليهم بركات من السماء ولن نحتاج إلى بترول أو أي شيء، ألم يحدث بعدها يا سيادة اللواء هجوم من الأوبئة مثل الكوليرا والطاعون وأشياء لم نعرفها من قبل وصار

في كل بيت مأتم؟ ألم ترَ ذلك؟ ألم تعلم بأن أكثر من عشرين مليونًا من المصريين قضوا نحبهم؟ ألم تعلم أن ذلك كان غضب من الله علينا؟ ألم ترَ ما فعله مولانا المرشد؟ لقد دعا للصلاة والصيام لرفع البلاء، ورغم أن أعداد المصريين تناقصت قبل وبعد ذلك بشكل ملحوظ ولكن هناك دِولًا مثل السودان والصومال وإثيوبيا ودول كثيرة كادت أن تنتهي، لقد غضبت منك سيادة اللواء لكن لم أصارحك، افعل ما شئت لكن لا تقترب من مولانا، إنه حصن الإيمان لقد ظننتك مثل هؤلاء العلماء العلمانيين الذين لم نستطع أن نتخلص منهم جميعًا والذين يظهر منهم روافد جديدة كلما نقول انتهينا منهم يظهر أحد آخر وكأنهم سلسال لا ينتهي، لقد جعل موقفك هذا قلبي في حالة غضب شديد وعندما أوكل إلى ذلك العالم المستفز الطاعن في السنّ بعد رحيلك كان أول من فتكت به، كان رجل شديد الغرابة كان قد بلغ من العمر أرذله، تعلم في الغرب وادعى أنه عاد إلى مصر قبل اندلاع ثورة كما يقول ثورة يناير، ولم يرجع إلى أوربا رغم المغريات هناك، حتى جاءت الثورة الإسلامية فآثر الصمت ولم يستطع الهروب لأوربا فعاش بعيدًا عن الأضواء، لذلك لم نعرفه حتى أرسل رسالة إلى مولانا المرشد فقال إن أردت أن تقاوم تلك الأمراض فعليك بالحرية لأنها مِداد العلم، أرأيت يا سيادة اللواء أن هؤلاء العلمانيين الباحثين عن الحرية الجنسية يريدون أن نبتعد عن الدين حتى نتجنب البلاء، ألا يعرفون أنهم أصل البلاء وأن الله يبتلينا من أجل معاصيهم، كنت أتمنى أن تكون معي وتسمع حواره معي بعدما أوكل إليّ وكان ممهورًا بخط المرشد تحت إحالته، كنت أتمنى أن ترى خط مولانا، إنه خط نوراني وكأني عندما رأيته رأيت خطًا من نور يصعد من الورقة إلى السماء لعلك لا تصدق لكني رأيته كان مكتوبًا، إنها أقدار الله لكن هذا العلماني شكك في هذا، كنت أتمنى ألا تكون في نفس مركبهم.

أعلم أنك لست منهم سيادة اللواء ولن توافق أبدًا على ما يقولون فقد حذرتنا أنت كثيرًا من أقوالهم، وعلمتنا أن أقوالهم لها سحر ودعوتنا أن نبتعد عنهم فكانت نصيحتك وطاعتي لمولانا نبراس حياتي وسراجي المنير ضدهم لكن أعترف أن هذا الرجل كان مختلفًا.

نظـر إلى آلات التعذيـب باسـتهتار كبـير، التقليديـة وغـير التقليديـة ثـم نظـر إليّ وقـال بصـوت قديـم قـدم الزمـن لكنـه غـير مثقـل بالتعـب ونظـر إلى هازئـا وقـال كلمـة لم أفهمهـا حتـى يومنـا هـذا مـع إنهـا واضحـة وضـوح الشـمس:

إن مجالك لا يتعدى ثوبك الذي ترتديه.

ناديـت للصـول عبـد العاطـي ويـا ليتنـي مـا ناديـت، فظَهـرت أمامـه بصـورة الضعيـف الـذي اسـتعان بصديـق لكـي أسـتطيع مواجهـة هـذا الرجـل الطاعـن في السـن، فابتسـم سـاخرًا مني ومـن عبـد العاطـي فشـعرت بوخـز في نفسـي شـديد لكنـي تغلبـت عليهـا وشـعر عبـد العاطـي بـما شـعرت بـه فـكان ككلبـي الـوفي، أراد أن يفتـك بـه إكرامًـا لصاحبـه، لكنـي صرفتـه بعدمـا هدأتـه فـكان طيعًـا لينًـا ونظـرت إلى الرجـل.

تقول التقارير إنك مما تبقى من عصر الزندقة.

- أطلق الرجل ضحكة مجلجلة.

- لماذا تضحك؟

- ألا تخشاني وأشرت بحركة بهلوانية إلى الآتي.

- أضحكتني وكأننا في عصر الإيمان.

- لا أدري كيـف اختفيـت وأيـن اختفيـت عنـا طيلـة تلـك المـدة ربـما كان عمـرك قـد انتهـى منـذ زمـن.

- أنا لم أكن أختبئ لكن مَن أرشد عني؟

- خطابك.

- خطابي إلى مرشدكم؟

- خطابك إلى أمير المؤمنين مرشد الدولة الإسلامية.

- ما به؟ إن هذا رأيي.

- إن ما خطت يداك هو الكفر.

- هل صارت الحرية كفرًا؟

- إن مولانـا المرشـد فعـل كل شيء مـن أجـل إزاحـة البـلاء فمَـن أنـت حتـى تعـدل عليـه؟

- أنا بعثت إليه بتوصية إن شاء أخذها وإن شاء تركها، فلِم أنا هنا؟

- لأننا اكتشفناك وكما قلت إنك من عصر الكذب.

- عـن أي كـذب تتحـدث؟ لقـد كنـا باحثـين عـن الحريـة والباحـث عـن الحريـة لا يكـذب.

- إن الخائف من الله هو الذي لا يكذب.

- إن الخائـف لا يصـدق، لذلـك أن عصرنـا كان كشـمعة مـا كاد يـضيء حتـى انطفـأ

- إن الله متم نوره.

وقفـت مزهـوًا بنفسي فـصرت أجاريـه كلامًـا بـكلام وقـوة بقـوة لم يعـد يرهبنـي وتهيـأت للانقضـاض عليه.

- أنتم عصر الكذب والبحث عن الجنس.

- كيف كذبنا ولماذا؟

- ألم تدّعوا أننا سرقنا ثورتكم؟

- هذا حقيقي فأين الكذب؟

- الكـذب أنـه لم يذكـر التاريـخ أنكـم قمتـم بثـورة ولم يكـن هنـاك ثـورة غـير ثورتنـا الإسـلامية، ولم أسـمع أن هنـاك ثـورة إلا منكـم، مـن الطاعنـين في العمـر أمثالـك.

ضحـك الرجـل مـرة أخـرى سـاخرًا لأنكـم أيهـا الكاذبـون مـن كتـب التاريـخ وكـم حلقـة مـن التاريـخ لا نذكرهـا لأن الكاذبـين أمثالكـم هـم مـن يكتبونـه.

اتخـذت قـراري أن أطيـح بـه وأبـدأ بالاسـتمتاع بأناتـه لكـن قـررت أن أقـول شيء قبـل أن أبـدأ، حتـى وإن كان هنـاك تظاهـرات كـما تدّعـي ألم تكـن تظاهـرات تريـدون بهـا حريـة الجنـس والشـذوذ؟

- ألم تخالط البنات الشباب؟

- ألم ينام النساء مع الرجال الذين لا يعرفونهم في خيمة واحدة؟

هم بالحديث، لكني لم أهتم، فقد أعددت العدة.

قال بصوتٍ آمر لم أستطع له دفعًا وكان حاسمًا فجلست أمامه كتلميذ أمام أستاذه مستكينًا.

اسمع، كانت هناك ثورة عظيمة سميت ثورة يناير، كنت أبلغ الثلاثين من العمر وقتها، كنت عائد من ألمانيا بعد حصولي على الدكتوراه في الفيزياء النظرية وكنت أنوي ألا أطيل البقاء في مصر لأن الأجواء كانت غير ملائمة.

فرقٌ هائل في التوزيع الطبقي، وأصبحت مصر جزرًا منعزلة رغم التجاور، فالأغنياء ينعزلون في منتجعات ويحيطونها بأسوار عالية خوفًا من الفقراء، رغم غناهم كانوا خائفين من الفقراء، والفقراء يخافون من بطش الحاكم، الذي يخاف هو الآخر من زوال ملكه، فدعمه بآلة بطشٍ جبارة لكن لم تكن تلك الآلة قادرةً أبدًا على قمع المصريين وأظنه قد فهم هذا فاستعان بكم.

- بنا؟؟

نظر نظرة إلى حسن أجبره على الصمت.

- نعم أنتم، استعان بالتيارات الدينية التي ترى الخروج على الحاكم حرامًا وكان عليه أن يترك لهم مساحة كبرى رغم ما كان يشاع وكان عليه أن يطلق نفير الجهل في المجتمع حتى يضمن اندفاع المجتمع في الاتجاه الذي أراد، وأُشيع أنه يعتقلهم حتى يشيع لكل من يريد التحرر أنكم الأحرار الذين يجب اتباعهم وكان على المشايخ أن يقدموا بعض أتباعهم إلى مذبح الحاكم كأضحية وكانت دليل الوفاء والإخلاص، لكن يا سيدي كان هناك دولة تدعى تونس قامت هناك ثورة عفوية جعلت بعض الشباب في مصر يتخلون عن مخاوفهم ويدعون لثورة كانت لها إرهاصات لدى الشعب الخائف، جاء الخامس والعشرين من يناير وكنا نمضي في شوارع مختلفة، مسيرات كبيرة تتجه إلى ميدان كان يسمى التحرير والذي تسمونه ميدان الشهيد محمد مرسي، أتدري لقد قتله أحد قادتكم.

فقلت محتدًا إننا لا نخون.

بعـد ضحكـة تحمـل روح السـخرية، بـل قتلـه أحدكـم حتـى تنتهـي القضيـة المثـارة ضـده وتأجيـج الحمـم حتـى يتسـنى لكـم الاسـتيلاء عـلى الحكـم مـرة أخـرى لكـن دعنـا مـن ذلـك.

فقلت في نفسي حسنًا فعل ورغم غيظي من جرأته، تركته يكمل.

كنـا أول الأمـر خائفـين نحتمـي في أعدادنـا ولكـن كنـا نلتفـت إلى الشرطـة لنرى إن كانـت سـتحدث أي فعـل تجاهنـا وبالفعـل سـمعنا صـوت قنبلـة ففرنـا فمنـا من سـقط أرضًـا ودسـناه مـن الفـزع لكـن في نهايـة اليـوم وصلنـا إلى الميـدان واتفـق المتظاهريـن عـلى البقـاء فيـه حتـى مجـيء يـوم الجمعـة، لكـن الشرطـة أتتنـا ليـلاً وفررنـا لكـن لا أخفيـك أن سـماء القاهـرة رغـم مـا كانـت تحملـه مـن رائحـة الغـاز الخانـق إلا أنـك كنـت تشـم بوضـوح روح الحريـة وأتـى اليـوم الثـاني، أذكـر جيـدًا أنـا وصديـق لي قـد دخلنـا مكانًـا مسـدود وتبعتنـا الشرطـة فعلمنـا أننـا هالكـون، لكـن كانـت المفاجئـة، اصطفـت البنـات أمامنـا عـدة صفـوف منعـت الشرطـة مـن الوصـول إلينـا، هـل تقـول إنهـن جئـن مـن أجـل الجنـس؟

كانـت روح الحريـة أسـمى يـا صديقـي، عشـنا أيامـا في بـرد الشـتاء، اختفـت فيـه أي رغبـة إلى الجنـس بـل كانـت لحظـات إثبـات المسـاواة وأن لا فـارق بـين ذكـرٍ وأنثـى وأن أعضائنـا التناسـلية ليسـت مـا نفكـر فيـه بـل كان سـمو الآمـال.

نحـن الذيـن تجردنـا لنطلـب لأنفسـنا ولغيرنـا العيـش والحريـة والكرامـة، لذلـك كانـت ثـورة إنسـانية، رقصنـا، مررنـا بـكل شـوارع وسـط البلـد، رجـال ونسـاء، لا فـارق، كنـا ننـشر الحريـة حتـى انتصرنـا.

- انتصرتم؟

- نعـم، انجـلى الطاغـوت وخـرج الشـباب بـكل طاقتـه إلى الشـوارع ينظفهـا ويرمـم أرصفتهـا ويجمـل حدائقهـا وفي الليـل نجلـس عـلى المقاهـي، أولاد وبنـات نتسـامر، نمـشي في الشـوارع، نغنـي، بلغنـا بطموحاتنـا عنـان السـماء كنـا نريـد أن نتغـير ونغـير العـالم، في تلـك الأثنـاء اتصـل بي صديـق إيطـالي وقـال:

- ستنطلقون إلى المستقبل بسرعة الضوء فقلت له لماذا؟

- قال انظر إلى طاقة الشباب، إنها هديرٌ لن يوقفه أي سد، تمنيت ذلك.

- أتدري لماذا لم تدوم وتبددت تلك الطاقة؟

- لماذا؟

- لأن في منتصف الثورة التحق بنا في الاعتصام بعدما نادى مناديهم للنزول من سرقها.

- أتقصدنا أيها الخرف؟

- نعم أقصدكم.

- لقد شممت يومها ريحًا قذرة دخلت الميدانْ وقلت لصديقي أتشم تلك الريح ؟

لم أطق هرطقته فناديت عبد العاطي وأنهينا حياته ... كان يستحق.

لكن ما آلمني أنه لم يصرخ إلى أن مات فلم يشفي غليلي، رجلُ محمّل بالأكاذيب. لكن لا أنكر أن بعد وفاة مولانا المرشد، أخذ مولانا المرشد الحالي بنصيحة ذلك الرجل، لا أدري لماذا فعل ذلك؟ لقد كان من أشد المعارضين لتعليم الفتيات، فإذا به يعلمهن ويرسلهن إلى الخارج، ماذا حصل له؟ يبدو أنه خضع لتأثير مولانا الشيخ محمد عباس نائب المرشد.

سحب حسن وجهه إلى داخل القطار فلا مهرب أمامه من الأفكار. أسند رأسه إلى مسند الرأس ثم أغلق عينيه محاولاً الاختباء من الأفكار وعلى ما يبدو أنه قد نجح، واستطاع أن يختبأ منها لوقتٍ قصير أو تقليل التسارع في الانتقال من فكرة إلى أخرى، لكن فكرة تسللت من الظلمة التي أحاط عقله بها، حتى ينعم، ولو للحظات بهذا النوم الهادئ مشككة في مكان مولانا الذي توصل إليه مؤكدة أن ذلك محض خرافة، لكن لم يعلق حسن على ذلك فقالت ربما أعطاك عنوانًا مضللاً حتى يخفي تمامًا وجهته، ثم مَن أدراك أنه ما زال حيًا؟

راح حسن يردد بصوتٍ مسموع، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(١٠)

هبـت ريـح برتقاليـة مائلـة للحمـرة، حـارة بغيضـة، شـعرت هالـة باختنـاق شـديد، نظـرت هالـة حولها باحثـة عـن مـكان للاختبـاء، لكنهـا لم تجـد، كان فراغًـا غـير ممتـد، تـرى الحواجـز حيطـان ملسـاء ملتفـة في شـكلٍ دائـري حولهـا، مـا تـكاد تخـرج مـن دائـرة حتـى تقـع في دائـرة أوسـع، لكـن تلّـك الجـذر لا تراهـا إنـما استنتجتها مـن الريـح البرتقاليـة الحـارة التـي لا تـترك مجـالاً للـروح كـي تتنفـس لكـن لاحظـت مـع اقترابهـا مـن الجـدار أنـه يهتـز بشـكل زائـف ويشـف مـا بعـده فيتحـول مـع اقترابهـا مـن صلـب إلى ليونـة خالصـة كانـت الدوائـر تـزداد اتسـاعًا والريـح يـزداد حموهـا.

هل هذه جهنم؟

هل هذا سيكون مصيري يوم يبعثون؟

أم أنه مصيري منذ اليوم إلى يوم يبعثون؟

حاولـت أن تتوقـف عـن الحركـة لكنهـا اسـتمرت دون إرادة منهـا ولا تسـتطيع اسـتخدام قدميهـا في مقاومـة الحركـة المفروضـة عليهـا ولا تعـرف الاتجـاه الـذي تتحـرك فيـه لكنهـا متأكـدة أنهـا تتحـرك في اتجـاه جهنـم لأن الحـرارة تـزداد كلـما اخترقـت داره وتحـول الريـح مـن البرتقـالي إلى اللـون الأحمـر القاتـم، ومـع شـعور متزايـد مـن صعوبـة التنفـس تمنّـت لـو تسـتطيع العـودة إلى المـكان الـذي يوجـد بـه الجسـد.

اسـتنكرت هالـة تلـك الرغبـة عـلى نفسـها، فكيـف لهـا كل هـذا الضعـف قبـل موتهـا وبعـد موتهـا، ألا تسـتطيع أن تتحمـل يومًـا تبعـات الحريـة، خافـت أن تكـون مـن المناضـلات مـن أجـل الحريـة مثـل أمهـا في الدنيـا، خافـت وإن الخـوف آفتهـا

الكبرى، لم تكن تمتلك الشجاعة أن تدافع عما تريد، لن تنسى أنها كثيرًا ما حقرت الحرية وقالت مثل ما يقولون على من ينادون بها أنهن عاهرات يردن الحرية الجنسية، كيف فعلت ذلك وكيف تحولت؟

سأذهب.. لن أتراجع حتى وإن كنت في طريقي إلى جهنم، لا يهم، شعرت أن قوة الشد تزداد في اتجاه.... إنها دوائر لا يمكن تحديد الاتجاه لكن مع كثير من الصبر استطاعت أن تكتشف أنها تتحرك في اتجاه الدوائر الكبرى، أي من الدوائر الصغرى تتحرك في اتجاه الدوائر الكبرى وتزداد الحرارة، أرادت أن تخلع تنورتها لتقلل من تأثير الحرارة حتى تشعر ببعض الراحة لكن جسدها كان عاريًا، فشاهدت أن لونه قد تغير وأصبح مائلاً للزرقة.

شعرت هالة بحالة من الخوف على جسدها الذي تحول إلى أصفر شاحب باهت، هل هذا عذاب السموم؟ كانت تتجه مسرعة إلى الدائرة الأكبر ثم الأكبر منها وكلما اخترقت وجدت أن الحرارة تزداد، وأن الريح الملونة بدأت تسرع في نفس اتجاهها إلى الدائرة الأكبر التي ما إن وصلت إلى حوافها حتى دفعها الهواء، دفعت وخرجت إلى سطحين متوازيين، المسافة بينهما أكبر من عرض الجسد بقليل لكن امتدادهما بلا نهاية جعل منهما قريبين إلى درجة تجعل أشد النفوس تماسكًا تصاب باختناق، لكن هالة بدأت تشعر بالرعب فهي وحدها بين سطحين بلا بداية وبلا نهاية ويحملان لون حمرة الشفق.

تنفست بصعوبة وشعرت أن حركتها تتباطأ أو أنها لا تشعر أنها تتحرك أو ربما لا تتحرك، ربما تتحرك الريح من حولها لكنها ثابتة أو ربما تتحرك والريح ثابتة، إنها تكره هذا الشيء الممتد بلا نهاية، فقد كانت قبل الموت عندما كانت تجلس وتفكر، كان أشد ما يقلق نفسها ويجعل روحها ترتعد هو فكرة الأبدية سواء في الجنة أو النار، تلك الأبدية التي بلا نهاية، الممتدة مثل هذين السطحين التي انحشرت بينهما هل سأظل هنا للأبد؟، هل سأظل؟، انظر إلى لون الشفق الكئيب كم يا ترى الوقت الآن؟، وكم مضى من الوقت وأنا هنا؟، هل مرّ ما يعادل يومًا أو يومين؟، لكن هل في هذا الثبات أي معنى للوقت؟ سوف يمر يوم يتبعه يوم، يتبعه شهر، يتبعه عام، يتبعه ألف عام، بل مليون، ملايين، بل بلا نهاية.. أي ملل هذا؟! وبلحظة تأمل قالت إن لحظة في الثبات هي أبدية، أين كبير السنافر؟ لماذا لم يرافقني

في رحلة العذاب؟، أم أنه دخل الجنة؟، لماذا دخل الجنة ودخلت أنا النار؟، أنا لم أسبب أي ألم لأي إنسان ولم يكن لدي النية لإيذاء أي إنسان إلا عندما أجبرني الخوف، لكن كبير السنافر كم تسبب في إيذاء الآخرين، لماذا يدخل الجنة وأنا أدخل النار؟ شعرت ببعض الغبن، لكن على كل ليس هناك فارق كبير لديها بين الحالتين فكلاهما في الأبدية متشابه لأن الأبدية لحظة، لكن ماذا بعد الأبدية.

وقالت مغمغة: أي تخريف هذا؟ إنها الأبدية بلا نهاية، إن الأبدية في ظل الثبات هي لحظة وما دامت لحظة فلا معنى لعدم وجود نهاية، شعرت هالة نتيجة تفكيرها المنطقي بالنسبة لها بشيء من الطمأنينة. بالفعل أنا أحتاج إلى رفيق، لا، أنا لا أحتاج إلى رفيق، شعرت أن الامتداد الكئيب الممتد في كل الاتجاهات للسطحين، يسبب لها بعض الألم، حاولت أن تتحرك بعيدًا، بعيدًا عن ماذا وعند أي نقطه ستتوقف؟ وإن توقفت من أين لها المعرفة، إنها تحركت من الأساس أرادت أن تصنع نقطة تنطلق من خلالها وتكون مرجعها، لكن لا شيء مميز.. الكل متشابه، ودار في رأسها سؤال، لماذا لا تحاول الهرب، لكن من أين تبدأ وأين تنتهي فالكل متشابه حتى جسدها صار كالحًا بلون الشفق، لم تعد ترى الجمال في أي شيء، إنها الأبدية ولا جمال في الأبدية لكن هل تنتظر الأبدية حتى تنقضي أم تحاول الهرب لكن في الأبدية الكل متشابه، حتى وإن اختلف لكن هل هناك معنى للاختلاف في الأبدية؟ صارت أكثر اضطرابًا، هذا النظام متكامل؛ فسطحين بلا بداية أو نهاية في الطول والعرض، لا شيء مميز فيهما نظام لا يمكن الهرب منه، لكن إن كان هذا النظام بهذا الجمال وبتلك الدقة ربما تنبع تلك الدقة من نظرتنا إليه، من طريقة تفكيرنا القديمة التي تعتقد أنه نظام متكامل، شعرت أن قوة رهيبة تجذبها مرة أخرى، وشعرت أنها تتحرك، لكن كل شيء ثابت، لكن القوة كانت عنيفةً مفزعة مؤلمة، وراحت تصرخ بعنف.

(١١)

بـدا وجـه حسـن كوجـه الهـارب الـذي يبحـث عـن مـلاذٍ آمـن، لكنـه لم يجـد فصـارت أنفاسـه متلاحقـة، متعـب مـن طـول البحـث لكـن لا يسـتطيع أن يتوقـف لالتقـاط أنفاسـه، فلـم يجـد غـير صفحـات حبيبتـه مـأوى رغـم مـا تسـببه أفكارهـا الغريبـة لـه مـن ألم، فقلّـب صفحـات كثـيرة يقـرأ بعـض كلماتهـا فيقلبهـا مسرعًـا لأنـه يبحـث عـن شيء واحـد، مـلاذ يريحـه، لـذا لم يعـد باسـتطاعته الآن التوقـف أمـام أفكارهـا الغريبـة والتفكـير في تلـك الأفـكار، وعـلى مـا يبـدو أنـه قـد وجـد ضالتـه، فهـي تتحـدث في تلـك الصفحـات التـي بـين يديـه عـن رحلتهـا في ألمانيـا وتـروي الأشـياء الظريفـة التـي حدثـت لهـا فيمتلـئ قلبـه سرورًا وتظهـر عـلى وجهـه ابتسـامة عريضـة وعندمـا تنتابهـا ذكـرى مؤلمـة يظهـر عـلى وجهـه أثـر الحـزن، ولقـد انتابتـه حالـة مـن الغضـب والغيـظ مـن إريـك زميلهـا في كـورس باثولوجـي الـذي كان يعاملهـا بعـداء شـديد، وتفيـض عينـاه عنصريـةً واسـتعلاءً، وكأنـه ينظـر إلى حفريـات مـا قبـل التاريـخ وكان غـير ودود. وفي يـوم شـممتُ رائحـة الخـوف تنبعـث في أنفـاسي ولم أسـتطع أن أركـز في شرح البروفيسـور مـع نظراتـه المرعبـة لي وكنـت لا أسـتطيع أن أبعـد عينـي عنـه، فقـد كان الخـوف يدفعني لأنظـر إليـه فأجـد عينيـه المتحجرتـين المرعبتـين، فأغمـض عينـي لأكتـم نظراتـه داخـل روحـي فتمـلأني رعبًـا وأفتـح عينـي لأنظـر إليـه مـرة أخـرى. وحسـبت أن انتهـاء المحـاضرة أنقـذني منـه فخرجـت مـن الجامعـة أجـري في اتجـاه السـكن، لكـن انهـيار المطـر بكثافـة، أخّـر حركتـي وتناغـم المطـر مـع أغصـان أشـجار التفـاح المتدليـة والجـو المظلـم ليعطـي انطباعًـا مرعبًـا، ورحـت ألتفـت خلفـي فقـد كنـت أشـعر أنـه يتبعنـي، لم أكـن أراه، لكنـى كنـت أشـم روحـه الشريـرة مـع تلـك الأنفـاس المالحـة.

لـن أطيـل عليـك حبيبـي، وسـأحكي لـك مـا تـم في لحظـات لا تزيـد عـن دقيقـة أو دقيقتـين، لكـن كانـت دهـرًا كاملاً.

حـاول اغتصـابي، انتظـرني قبـل صعـودي لسـكني أسـفل السـلم. وبسرعـة وقـوة مفرطـة لم أسـتطع مقاومتهـا قـام بتقييـد يـدي خلـف ظهـري، ثـم قـام بشـق البلـوزة فظهـر ثديـي أمامـه، فقبـض عليـه كوحـش مفـترس، شـعرت بـألم

ولم أختبر أي معنى للذة، وبكل ما أمتلكُ من قوة حاولتُ أن أنتزع نفسي منه، فمِلت على يديه وعضضته، لكنه ثبّتَ رأسي ووضع حلمتي بين شفتيه، وكان يقول بلغة ألمانية: كيف لمثلك أن تحمل جمال هذا الصدر؟، لم تشعرني كلماته ولا لسانه وشفتيه التي تمضغ حلمتي بأي لذة فقاومت أكثر، ضمني بعد ما انتزع البلوزة كاملة ثم مزق قميصي كاملاً فصرت عارية من نصفي الأعلى فتركني ونظر إليّ، فوضعتُ يدي محاوِلةً أن أخفي ثديي، حاولت أن أستغيث لكنه لم يمهلني، فاحتضنني بجسده العاري الأبيض المائل للحمرة، كان يبدو مثل زيوس، كانت تلك أول مرة أختبر حرارة الجسد المتصاعدة من الذّكر، لكن رائحة جسده الكريه وعباراته العنصرية ذكرتني أن هذا الوحش لا يريد جنسًا معي، إنه يريد أن يقهرني قهر المستعمر الغربي لتراب بلادي، فقاومت، قاومت فيه إعلانه النصر الزائف عندما أُعلن استسلامي وأتركُ بعضه يدخل في بعضي. شعرَ هو بعد عناء أنه اقترب بأن يعلن أن أرضي ملكه وأن العبدة بين يديه ستعلن أنه السيد، عندئذٍ أدخل يديه داخل الجيبة من أسفل فلامس فخذي فضممتهما حتى لا يمس بظري، لكنه أصرّ أن يخترق فخذي وضغط بقوة واستطاع أن يصل إلى بظري، وعندما لامست يداه ذلك البظر انتفضت. كانت تلك أول مرة تصلٍ فيها يد المستكشف تلك الأرض المجهولة، فضممت جاهدة فخذي محاوِلةً أن أمنع يديه من أي اهتزازة، زادت ثورته أكثر لأنه قد اقترب، لكني علمت أن أي اهتزازة أخرى له سينزاح فخذي منفرجتان تاركة حصوني يدكّها هذا الوحش الإغريقي كيف يشاء، عندئذٍ شعرت بتقلصات في عضوي الداخلي تطلبه وربما ترجوه أن يضع بعضه في بعضي، وشعرت بمائي الداخلي يخرج معلنًا النهاية وغصبًا عني ارتخت عضلات رجلي ولم تستطع حملي، فسقطت أرضًا على عجزي واصطدمت يده بمصدر قوتي وضعفي فارتعشت ارتعاشة تطلبه بل ترجوه، لكني استفقت من سكرتي مسرعة، وأدركت حينها أني سقطت وعليه أن يعلن السيادة ويغرس علمه من فوق ربوتي حتى الوادي فيصل به إلى منبع النهر، فخلع بنطاله واقترب وقبل أن يكشف عن علمه، صرختُ بكل ما أمتلك من قوة رافضة لما يفرض عليّ.

لم يستطع حسن أن يكمل، لكن انتابته رغبة ربما تكون فكرة أن ينتقم لحبيبته من هذا الوحش ربما بعد أن ينهي تلك القضية ستكون وجهته ألمانيا، لكن كان عليه الآن أن يداري عاره، فوضع مذكرتها على ذكره المنتصب، لم يستطع أن يواجه نفسه بسؤال لماذا انتصب ولا تلك الرغبة الدفينة في أن تكمل وصفها لما حدث ولم يستطع أن يقرأ حتى تأكد تمامًا بعودة ذكره إلى

وضعه الطبيعي حتى يستطيع أن يواجه نفسه، وعلى ما يبدو أنه لم يواجه بل هرب مرة أخرى إلى ما كتبت حبيبته، لكن قال إنه سينتقم لها.

هرب مسرعًا، لم يستطع أن يعلن للناس خِسته ولم أكن أدرك أن إزاحته بتلك السهولة، لكنني لم أستطع أن أقوم من مكاني وظللت عارية الصدر لم تستطع يداي أن تلتقط ملابسي الممزقة، ثم انتابتني حالة بكاء هسترية، وضعت يدي على فمي محاولة كتمان صوت بكائي حتى لا يسمعني أي وحش عابر فيكمل التهامي رغم حاجتي الشديدة إلى حنان أبوي لأشعر بالطمأنينة من الخوف وأشعر بالرحمة والحماية.

كنت أحتاج إليك يا حبيبي، شعرت كم أفتقدك يا من عشتُ أبحث عنك، أنت الحبيب الذي أعشقه ولسوف أترك روحي تذوب في روحه وجسدي يكون أرضه يغرس محراثه في أي ربوة من رباه، ويترك علمه في أي مكان بأرضها اشتهاه، أعلم يا حبيبي أن روحك تبحث عني مثلما أبحث عنك لأنك محبوبي منذ الأزل، كم كنت أريدك أن تكون بجانبي تلك اللحظة.

قام حسن واقفًا وخبط بيده اليمنى على كرسيه ثم جلس والتقط المذكرة ثم وقف مرة أخرى ثم أخرج رأسه من القطار وتنسم هواءً بطعم العنبر الأبيض، إنها تنتظره مثلما ينتظرها وتبحث عنه مثلما كان يبحث عنها، ويعشقها مثلما تعشقه، أتمنى أن أعرف أين وضعوا رفاتك وأجلس على قبرك وألتمس روحك العذبة.

وعاد إلى المذكرة مرة أخرى بعدما هدأت جوانحه وفتح الصفحة التي توقف عندها. وبعد مُضي وقت شعرت بعودة بعض القوة إلى بدني ومكنتني من أن أجذب الثوب على جسدي فداريت صدري وبطني ولملمت جسدي فاختفيت تمامًا عن الأعين تحت السلم، فمكثت حتى عمّ الظلام وقبل أن تضاء الإنارة قمت مستندة على ما تبقى لي من قوة ودخلت شقتي ورميت جسدي على سريري ورحت في نوبة بكاء عنيفة وتركت العنان لصوتي كي يعلو كيفما يشاء ومرّت بعد ذلك بضع ليالٍ وأنا أعاني من حُمى شديدة ولم تزرني أنت حبيبي.

نزلـت مـن عينيـه دمعـة لم يسـتطع لهـا دفعًـا، وكانـت تلـك أول مـرة تدمـع فيهـا عينـاه في مـكان عـام، فمسـحها مسرعًـا ونظـر حولـه ليعلـم إن كان هنـاك مـن شـاهد لحظـة ضعفـه تلـك وبعـد أن اطمئـن إلى أن دمعته لم ترهـا أي عـين متلصصة، عـاد للقـراءة، عـلى كل حـال يـا حبيبـي انتظرتـك طويـلاً ربـما احتجتـك جانبـي في تلـك اللحظـة، لم أسـتطع أن أقـوم مـن مـكاني، ظللـت مـدة يومـين بـدون طعـام لم أسـتطع فيهـم أن أتنـاول شـيئًا غـير المـاء، لم أعـرف إذا كان ذلـك عقـاب مـن النفـس للجسـد، لكـن مـع ارتفـاع درجـة الحـرارة الشـديدة تحركـت إلى البانيـو وملأتـه بالمـاء البـارد وعندمـا أوشـك عـلى الامتـلاء تركـت نفسـي تسـقط بداخلـه، كنـت أوشـك عـلى المـوت لكـن بعدمـا نزلـت للبانيـو وشـعوري بعـذاب كنـت أتوقعـه جـراء التقـاء جسـدي الملتهـب مـن الحـرارة بالمـاء البـارد نبهـت جهـازي العصبـي، فبـدأت أشـعر ببعـض الجـوع، فتناولـتُ كـسرة خبـز ووضعـت عليهـا قطعـة جبـن ثـم تناولتهـا ببـطء، وتوجهـت إلى سريـري، نمـت ولا أدري كـم مـن الوقـت قـد مـضى وأيقظنـي شـعور بالجـوع، فقمـت مـن نومـي ثـم تناولـت قطعـة خبـز أكـبر وبعـض اللبـن لكـن لم أسـتطع النـوم تلـك المـرة.

ورغـم انخفـاض درجـة حـرارتي بعـض الـشيء إلا أنـي شـعرتُ بـألم يجتـاح جسـدي كلـه فتناولـت مسـكن، وشـعرت بانحصـار الألم ونظـرت لبـاب السـكن فوجـدت أن الأقفـال التـي وضعتهـا عـلى البـاب موصـدة ولا أدري لمـاذا لم أسـتطع أن أصـدق عينـي، فتحركـت مسـتندة عـلى الحائـط حتى وصلـت إلى البـاب ففتحت التربـاس ثـم أغلقتـه وفعلـتُ ذلـك بالتربـاس الثـاني لكـن لم أسـتطع أن أزيـح تلـك المخـاوف مـن عـلى صـدري، وبحثـت عـن الشـباك فرأيتـه محكـم الغلـق، فتوجهت إلى سريـري مـرة أخـرى فلـم أسـتطع أن أجابِـه ذلـك الشـعور العـارم بالرغبـة في النـوم، فنمـت لكـن سرعـان مـا اسـتيقظت مفزوعـة عـلى كابـوس كان بطلـه ذلـك المدعـو إرك كان يحـاول أن يغتصبنـي لكـن في تلـك المـرة نجـح، واسـتطاع أن يقـترب، لم أسـتطع أن أدفعـه تلـك المـرة، مزّق ثيـابي كلـه، لم أسـتطع أن أمنعـه، وقفـت عاريـة تمامًـا أمامـه، لم أضـع يـدي فـوق أعضائـي التناسـلية، لم أدارِ أي شيء، كنـت ضعيفـة خائفـة، شـعر باستسـلامي، رأيـت في عينيـه كيـف زهـدني، لم يكـن يريـد مـن فريسـته أن تستسـلم بتلـك السرعـة، كان يريـد بعـض المـرح، فلـما لم يجـد راح يصنعـه هـو، لم أسـتطع أن أمنعـه، جلـس عـلى الكـرسي يحتسـي كأس خمـر وراح يسـتعرض جسـدي كسـيّد يـرى جاريتـه لينظـر كـم سـيدفع أو كـم يسـتحق النخـاس كـي يدفـع لـه، فالجاريـة بـلا ثمـن وإن مـا يدفعـه ثمـن النخاسـة، ثـم راح يضـع يـده عـلى كل مـكان في جسـدي، لم أرَ في عينيـه أي اسـتمتاع لكـن كان يثمّـن بضاعتـه، ثـم قـام فخلـع ثيابـه وبـكل عنـف المحتـل القاهـر وضـع ذكـره في

دبري، لم أستطع أن أحتمل ألمه فاستيقظت مفزوعة فوضعت يدي على دبري محاولة أن استكشف ماذا حدث ولأي سبب ما زلت أشعر بالألم! لم أستطع أن أقترب، فقمت إلى الحمّام مستعملة ماء الشطّاف لتخفيف الألم، وقابل انخفاض الشعور بالألم شعور أكثر قسوة، لم أستطع احتماله أو أن أواجه نفسي به لكنه كان مزيجًا من الخوف والقهر والألم بكيت ثم بكيت..................

وضعتُ كل الأغطية على جسدي حاولت أن أحتمي لكن بمن أحتمي، فأنت يا حبيبي ما زلت بعيدًا لم تسأل عني لم تبحث عني.

شعر حسن بوخزة في روحه وضرب بيده على الجدار الحديدي بجانبه فأصدر صوت ارتطام جعل كل مرافقيه في تلك العربة يلتفتون إليه بل حاول المتلصصون استبيان الأمر لكن تلك الهالة المهيبة ونظارته السوداء حول عينيه جعلتهم يشعرون بتوجس، فجلس كلٌ في مقعده وسرعان ما عاد الهدوء للعربة..

قسما بربي لأنتقمن لمخاوفك من ذلك الكلب حبيبتي.

ثم عاد إلى المذكرة كي يقرأ.

شعر بكره شديد لألمانيا ولكل الناس فيها، وشعر أنه يجب عليه العودة بعد انتهاء المهمة والذهاب لألمانيا لقتل ذلك الوغد.

كنت خائفة وبدأ شعور بالكره لذلك البلد.

مضى يومان آخران لم أتذوق طعم الأكل، لكن في تلك المرة لاحظ أساتذتي غيابي، فمرت الدكتورة أنجيلا كول وكانت سيدة رقيقة مثل والدتي على مكان السكن حتى تستوضح سبب غيابي وكانت الحكومة المصرية قد تعاقدت معها كمتعهدة تشرف وتكتب تقارير للقنصلية المصرية عن أحوال البنات المصريات، فوجدتني في حالة إعياء شديد، بل كنت أشم رائحة الموت تملأ أنفي، فاستدعيت سيارة الإسعاف وقضيت في المستشفي ثلاثة أيام حتى شعرت ببعض القوة وأخذت ثلاثة أيام نقاهة بصحبة الدكتورة أنجيلا كول فبثت فيّ شعور بالقوة والطمأنينة لكن لم أستطع أن أخبرها أو أخبر أيّ إنسان بما حدث لكن هي أقنعتني أن أستمر في دراستي ولا أغادر حتى أحصل على ما جئت من أجله وخاصة بعدما نقلتني من مسكني إلى مسكن قريب منها فشعرت ببعض الأمن وعدت إلى جامعتي.

لم أعرف رد فعلي عند رؤية المدعو إريك، هل سأثور عليه أم سأخاف منه؟ لكن حاولتُ أن أتمالك أعصابي ولا ألتفت للمخاوف التي بداخلي وطلبت من الدكتورة أنجيلا مصاحبتي إلى محاضرة كورس الباثولوجي ووافقت لكن عندما دخلت المحاضرة لم أجد هذا الشخص وعلمت بعد ذلك أنه قد اعتذر عن إكمال الكورس هذا العام.

ورغم شعوري بالطمأنينة من عدم وجود إريك، إلا أني صرت متوجسة من كل شيء لم أستطع أن أتعامل مع هؤلاء الذكور رغم معرفتي يا حبيبي أنك من الذكور وأني أنتظرك، لكن أنت لست من هؤلاء.

نظر حسن إلى نفسه بإعجاب شديد، نعم أنا لستُ مثل هؤلاء.

ثم عاد مسرعًا ليكمل لكن وجد الصفحة قد انتهت فقلب صفحة أخرى فوجدها فارغة والتي تليها وهكذا.

لكن لم يملّ وقلب صفحات الأجندة حتى وجد صفحة ملصق عليها وردة حمراء اللون جميلة..

إلى حبيبي أهديك الوردة الحمراء، فبعد أن نضجت خلاياي وشدت قيثارتي فصارت أحاسيسي مرهفة فصرت أتفحص الوجوه باحثة عنك، ومهما كانت بعض الوجوه تشبهك إلا أن أذني لم تطرب عند سماع أصواتهم فأعرف يا حبيبي أنك لم تأت بعد.

تذوق حسن لأول مرة عسل السعادة، فراح يمصمص شفتيه ليتأكد أن ما يتذوقه حقيقي، وبسعادة وحب، قلب صفحة أخرى فلا أجمل للمرء من سماع مناجاة الحبيب فما بالك بقراءتها.

"حبيبي طال انتظاري وشوقي لكني أشعر أنك اقتربت وقريب مني وغدًا ألقاك يا روحي"

توقف حسن عن القراءة وأخرج رأسه من شباك القطار وأوقف عقله عن التفكير، إنه لا يريد أن يفكر في شيء يخرجه من تلك المتعة.

مسّ الهواء المندفع وجهه وتطايرت خصلات شعرة فشعر بأنه فارس من العصور الوسطى يمتطي صهوة جواده ويحمل حبيبته أمامه يحتويها تحتضنه وتلصق رأسها بقلبه طالبة من ضرباتها الحماية.

انتبه حسن إلى أنه لم يستطع أن يحمي حبيبته أو أن يظهر لها في الوقت المناسب لكن عندما ظهر كانت حبيبته قد فارقت الحياة وسُرقت جثتها، لا يدري في أي مكان قد استقرت ولأي شيء قد سرقت ولا مَن سرقها.

انتابت حسن مخاوف من أن يفقد سعادة اللذة التي حصل عليها فترك أفكاره وحاول أن يتغلب على طعم الغصة فعاد مسرعًا كي يغترف من مذكرتها بعض السعادة.

لكن كان الوقت قد مضى وانتهت الشمس من عرضها اليومي ولمت بقايا الشفق مسرعة فلم تترك أي فرصة لحسن كي يكمل فاستنجد حسن بلمبات القطار مستجيرًا من تعنت الشمس، لكن لمبات القطار لم تستجب فتحسس أقرب لمبة إليه ووضع يده عليها فلم يجد غير بقايا زجاج فأدرك أن هذه حال اللمبات في العربة فاتجه إلى الممر الطولي الواصل بين كل العربات كي يلمح أي ضوء في القطار لكن لم يجد فأصابه شعور بخيبة الأمل واستسلم ووضع زراعيه على الشباك ثم وضع ذقنه عليها ونظر إلى الأفق الممتد أمامه ونظر إلى أمواج الظلام المتوالية الموصولة من السماء إلى الأرض وعلم أنه لن يستطيع مقاومتها فاستسلم وأرخى جفونه ثم غطّ دون أن يدري في نوم عميق.

(١٢)

كان الهـواء المنعـش حامـلاً لريـح زهـرة مسـك الليـل التـي ترطـب هـواء الليـل فتجعلـه لطيفًـا ولا تملـك أمامـه إلا أن تمـلأ صـدرك بعبقـه ولـو كان محمـلاً بهـواء رطـب لنسـيتَ معـه كل همومـك لأن عقلـك لـن ينشـغل سـاعتها إلا بمعرفـة سر سـحر تلـك الزهـرة، ومما زاد مـن سـحره، نسـمة رقيقـة نتجـت بفعـل حركـة القطـار البطيئـة، تتحـرك في اتجـاه معاكـس لحركـة القطـار فمـلأت بـها تملـك مـن قـوى سـحرية روح النائـم بالطمأنينـة، أسـلم حسـن نفسـه لنـوم لذيـذ لم يتـذوق طعمـه مـن قبـل وخاصـة منـذ أن التحـق بالجهـاز، فبالرغـم مـنْ يقينـه أن عملـه يـرضى عنـه الله ورسـوله ولـو مـات في تلـك اللحظـة مؤكـد أنـه سـيكون مـع الصديقـين والشـهداء وحسُـنَ أولئـك رفيقًـا، إلا أن شـيئًا مـا أو عاطفـة مـا كانـت تشـعره بعـدم الراحـة لمـا يعتقـد عـن رضـاه عـن نفسـه، وكان دائـمًا مـا يرجـع ذلك إلى وسوسـة الشـيطان وكان مـبرره القـوي أن الكوابيـس التـي تأتيـه حاملـة صـور هـؤلاء المعذبـين أعـداء الديـن فلـو كانـوا مـن الصالحـين مـا ظهـروا في كوابيـس.

أرسـلت شـمس الصبـاح أشـعتها الذهبيـة عـلى وجـه حسـن فأظهـرت بتراقصها عـلى وجهـه، معدنـه الحقيقـي مخترقـة الهالـة التـي تصنعهـا ثقافـة رجـل الأمـن التـي تمـس روحـه فتعطـي انطباعًـا كاذبًـا مـن أنـه مهيـب الجانـب.

لم يطـع حسـن رغـم حساسـيته المفرطـة في نومـه شـمس الصبـاح ويسـتيقظ، لم يكـن يريـد أن يبعـد نفسـه عـن تلـك اللـذة، لـذة النـوم مصحوبًـا بالطمأنينـة.

لكـن بـرودة فوهـة ذلـك الرشـاش الملتصـق بصدغـه أعطتـه تفسـيرًا لتوقـف القطـار، فأذنـه التقطـت صـوت الفرامـل ممـا يوحـي بتوقفـه لكـن عقـل حسـن لم ينشـغل بالتفسـير..

- إنتا اصحى.

كانت حركة الرشاش عنيفة بعض الشيء على وجه حسن مصحوبة بهذا الصوت الأجش، فاستيقظ حسن.

- فيه إيه؟

- قوم اقف.

- إيه؟

- قوم اقف مسمعتش ولا إيه وإيدك فوق راسك.

نظر حسن إلى العملاق الحامل للرشاش الواقف أمامه وأيقن حسن أن توقف القطار لم يكن في المحطة بل ربما في مكان قصي بعيدًا عن أي محطة، لذا ومن أجل سلامته لابد أن يمتثل لما يقولون.. وخاصة أنه يعلم شدة رجال العصابات في الصعيد وحزمهم الذي قد يصل إلى حد التهور فالتزم وقام دون أن ينطق، وضع الرجل يده على النظارة المعلقة في جيب القميص الذي يرتديه حسن وقال:

- النضارة دي تلزمني.

ولم ينتظر موافقة حسن، وأخذ النظارة الشمسية ولم يبدِ حسن أي اعتراض أو مقاومة، لم يكن يريد أن يعرّف أحدًا هويته وأيضًا كان عدد قُطّاع الطرق كبيرًا ومنتشرين في كل مكان في العربة ورغم أنهم قطاع طرق لاحظ حسن أنهم كانوا يتعاملون مع الناس بشيء من اللين فاطمأن إلى أنهم ليسوا من النوع الذي يقتل إلا إذا لم يكن هناك بد من القتل، لكن حسن استغرب من شيء عجيب، أن الرجل الواقف أمامه لم يقم بتفتيشه أو سؤاله عن الأموال التي معه فنظر حسن إلى باقي الرجال وجدهم مثل الرجل الذي يقف أمامه لا يقومون بالتفتيش أو جني الأموال لكن مع بعض الملاحظة وجد اثنين يقومان بالتفتيش وخلفهم رجل مهيب المنظر ذا شارب كث مختلط بياضه بسواده وتحت عينيه هالة سوداء أضفت على مظهره بعض الكآبة والهيبة كانا يعطيانه كل ما يحصلون عليه من مال فيضعه بيده في شوال خيش يحمله أحد العمالقة خلفه، لذا اعتقدَ حسن أن هناك هيكل تنظيمي

يجمع قطاع الطرق هؤلاء، اقترب الرجال الذين يقومون بعملية التفتيش من المربع الموجود به حسن، وصلوا للكرسي الذي أمامه وكان يوجد به رجل عجوز وقبل أن يضع أحدهم يده في جيبه أخرج هو كل ما يملك من مال لكن رئيس قطاع الطرق في مشهد عجيب أخذ بعض المال من الرجل ورد له الجزء الأكبر، لاحظ كبير قطاع الطرق الاندهاش البادي على وجه حسن لكنه لم يعلق، ومع اقتراب المفتشين منه ارتبك حسن، وذلك لخوفه أن يعلموا بهويته فربما لا يشعرون بود تجاه رجال البوليس أو أن يعثروا على الخاتم فهو يحمله في جيب سري صغير داخل الجيب الأصلي لكن مع التفتيش بدقة سيعثرون عليه، مع اعتقاد حسن الجازم أنه مفتاح اللغز، ازداد توتره مخافة ضياعه لاحظ كبير قطاع الطرق تلك الأفكار وقرأها وعلم أن حسن يخفي شيئًا خلف ارتباكه فلم يسمح للمفتشين بتفتيش حسن وامتثل الرجال لإشارته وقال لحسن:

- اطلعلي بره الكراسي يا بيه.

- حاضر.

أحد الرجال

- فيه كراسة هنا يا سيدنا.

لم يرد ونظر إلى حسن.

- أنا هفتشك بنفسي.

ارتبك حسن وعلم في نفسه أن الرجل قرأ ما يجول بخاطره من اضطراب ولاذ بالصمت.

- إنتا منين يا بيه.

- بصوت متحشرج: من القاهرة.

أخـرجَ الرجـل محفظـة حسـن وحصـل عـلى مـا بهـا مـن مـال دون اهتـمام ووضعـه في الشـوال ثـم شـعر بالظفـر عندمـا وجـد الكارنيـه واطمـأن إلى أن هـذا مصـدر ارتباكـه.

- إنتـا ظابـط شرطـة بقـى يـا بيـه حضرتـك هتشرفنـا شـوية مـش بتقولـوا لينـا كـدا في القسـم؟

مـع نهايـة كلام الريـس قبـض عـلى يديـه قبضـة العمـلاق ثـم قـام بتقييـد يديـه وسـط تصفيـق بعـض الـركاب المراقبـين لمـا يتـم مـن العربـة الأخـرى.

- إنتا مش أخدت الفلوس يا ريس عايزني في إيه؟

نظـر الرجـل في الكارنيـه مـرة أخـرى وعلـم رتبـة حسـن وقـال بصـوت الواثـق هنبـادل بيـك.

- أنا ضابط مش مهم.

- يا بيه أنت كداب.

صمت حسن ولم يرد فقد أخرسه رد الرجل.

نظـر الرجـل إلى أحـد المفتشـين وقـال فتشـوا الشـنطة واسـتدار إلى حسـن وأكمل تفتيشـه وأخـرج الموبايـل وبعـض المفاتيـح ثـم وصلـت يديـه إلى الجيـب الصغـير وأمسـك الخاتـم ثـم قـام بإخراجـه..

- خاتم مين دا؟

لم يجد حسن أي رد.

نظر الرجل إلى الخاتم مليًا ورغم أنه لم يعجبه إلا أنه قال:

- ما يساويش حاجة بس هنديه للبنت الصغيرة.

امتقـع وجـه حسـن فالرجـل لا يعـرف مـا سـببه هـذا الخاتـم مـن قتـل واختفـاء لكـن لا يعلـم كيـف يسـتطيع أن يتخلـص مـن تلك المصيبـة فالخاتـم لم يعـد بحوزتـه وعـلى مـا يبـدو لـن يسـتطيع أن يسـترده وليـس لديـه أيـة فكـرة كيـف يسـتطيع

استرداده لكن أشد ما يقلقه أن حياته ربما تكون على المحك لو تمت تلك المبادلة فحتمًا سيذهب إلى أمن المرشد..

- أنتا كنت رايح تقبض على مين عندنا؟

- مكنتش رايح أقبض على أي أحد.

- كنت رايح فين؟

- البلينة.

- ليه؟

- كنت رايح زيارة.

- لمين؟

- أشار الرجال إلى الريس أنهم قد انتهوا من تفتيش كل العربة لكنه لم يعرهم أي اهتمام.

- لصديق.

- اسمه إيه؟

تململ حسن قليلاً وقال للشيخ همام

- مين؟

- الشيخ همام شيخ العرب.

- أنتا تعرفه؟

وجد حسن الاهتمام البادي على وجه الرجل وشعر أن تلك المعرفة ربما تكون هدية من السماء فأكد:

- نعم أعرفه أنا رايح البر الشرقي.

- تكرم من أجل الشيخ همام .

لم يصدق حسن ما سمع، لكن الرجل لم يمهله وقال للعملاق الواقف خلف حسن:

فك البيه، ثم وضع يده في الشوال وأخرج النقود ثم وضعهم في المحفظة، خد محفظتك يا بيه.

- ليه؟

- مش عايز فلوسك ولا إيه يا بيه؟

- ليه رجعتهم؟

- أنتا عايز شيخ العرب يزعل مننا ولا إيه؟

تناول حسن محفظته..

أخرج الرجل الخاتم من سيالته، خد الخاتم كمان يا بيه.. التقطه حسن مسرعًا، فاسترعى ذلك انتباه الريس لكن لم يعلق..

كانت الأعين تراقب ما يحدث باهتمام بالغ وتناقلت الألسن هامسة ما يحدث وعلموا أن الرجل ضيف على شيخ العرب همام وقال الرجل:

لما تقابل شيخ العرب قوله الريس عبد البر بيسلم عليك وبيقولك سامحنا يا مولانا.

وقبل أن يغادر هو ورجاله القطار التفت إلى حسن وقال:

إحنا ما بنخفش من الشيخ همام إحنا بنحبه.

ثم انصرف ولم يفتش العربات الأخرى الأقل درجة في القطار.

جلس حسن على الكرسي واضعًا يديه فوق عينيه لمحاولة استيعاب ما حدث

كانت حياته على المحك، تسليمه لأمن المرشد كان يعني ذلك.

فقال هامسا «الحمد لله» وكان حمده لله لتأكده من صحة العنوان الذي زرعه سيادة اللواء في رأسه فهو لا يعرف الشيخ همام لكن هو مزروع في رأسه وشعر بسعادة بالغة وسحب يده من على عينيه ليجد ابتسامة ودودة من الرجل الجالس أمامه كيف جلس أمامي دون أن أشعر به فقال الرجل باسمًا

- أنتا ضابط؟

- أماء حسن برأسه.. نعم..

- أول مرة تسافر الصعيد؟

- أيوه.

لم يكن حسن في حالة تسمح له بالحديث لذا بدا حديثه جافًا.

- أنتا رايح للشيخ همام؟

- أيوه أنتا تعرفه؟

- كل الصعيد يعرفه.

- تعرف مكانه؟

- لو معرفتش توصل إليه هوا هيلاقيك.

نظر حسن إلى الرجل العجوز مرتابًا من لغة الحوار.

- لكن أنتا يا حضرت الضابط مجالك ضعيف، أنتا محتاج الشيخ ليه؟

- عندي رسالة هوصلها ليه

نظر الرجل مبتسمًا غير مصدق.

- وقال ألم أقل لك مجالك ضعيف لكن هتوصل..

تذكر حسن العالم العجوز الذي قال له «أنتا مجالك لا يتعدى....“ شعر حسن بضيق شديد.

- أنتا بتسافر كتير؟

- أنا مسافر على الدوام.

- أنتا صعيدي؟

- لا.

- هما قطّاع الطرق بيفتشوا القطار يوميًا؟

- انتا عارف.

يعلم حسن جيدًا أن قبضة الدولة قد وهنت على الصعيد وأنها لا تستطيع حماية الناس ووصل بها الحال أنها تتفاوض معهم إذا استطاع هؤلاء اللصوص القبض على أحد الضباط فيقومون بالتفاوض والمبادلة ويعلم أن القطار هو الرابط بين جنوب مصر وشماله الآن، وأيضًا حب مولانا المرشد ولو لم يكن هذان الرابطان لانفصل شمال مصر عن جنوبها ويعلم أن رجال المرشد يعلمون ذلك لكنهم يتفادون الحديث في ذلك،

– هما ليه مفتشوش باقي العربات؟

– لأنهم مش حرامية.

– ابتسم حسن ابتسامة ساخرة.. طيب هما إيه؟

– جعانين وعايزين طعام ليهم ولأولادهم فبياخدوا فلوس من الأغنياء مرتادي الدرجة الأولى.

– أنتا مين؟

– أنا من محبي مولانا.

– مولانا مين؟

– هتعرف لوحدك.

نظر الرجل إلى عيني حسن وقال:

– لما يجي الاختيار اختار صح.

– اختيار ايه؟

– لما يجين ميعاده هتعرف.

نظر حسن إلى الفراغ الممتد من نافذة القطار وقال لنفسه ضيف يا حسن لأعاجيبك إضافة جديدة، أنا لو حاولت أحكي عما يحدث لي فلن يصدقني أحد.عاد حسن مسرعًا من شروده ليكمل مع الشيخ وأراد أن يسأله عن وجهته التي سيتوجه إليها لكن الرجل أسند رأسه وراح في نوم عميق، شعر حسن بحاجة ملحة للذهاب إلى الحمام فاصطحب زجاجة الماء وقام دون أن يحدث جلبة حتى لا يوقظ الرجل العجوز، وبعد أن فرغ من الحمام وغسل

وجهـه، طـرأت لـه فكـرة أنـه ربـما عليـه أن يقتسـم بعـض البسـكويت التـي اشـتراها مـن محطـة مـصر قبـل ركوبـه..

لكـن عندمـا عـاد لم يجـد ذلـك العجـوز فبحـث عنـه في الكـرسي الـذي كان يجلس فيـه قبـل جلوسـه معـه لكـن لم يجـده ولم يجـد أمتعتـه، جـال حسـن بنظـره في كل أرجـاء العربـة بحثًـا عـن الرجـل لكـن لم يجـد لـه أي أثـر، لكـن وجـد بجانـب الشـنطة علبـة عسـل نحـل صغـيرة وملعقـة بلاسـتيكية نظيفـة، تأكـد حسـن مـن أن الرجـل لم يكـن خيـالاً افترضـه عقلـه النشـط في مجـال التهيـؤات، ونظـر بامتنـان إلى مـا فعلـه الرجـل وظـن حسـن أن الشـيخ سـيكون في أحـد العربـات الخلفيـة لأن القطـار لم يتوقـف، وتعجـب حسـن مـن صنيعـه فكيـف لهـرم مثلـه أن يغـادر مـن السـكون وهـدوء الدرجـة الأولى إلى صخـب الدرجـة الثالثـة، وقـال لنفسـه لـن يتحمـل وحتـمًا سـيعود. راهـن حسـن نفسـه عـلى عـودة الرجـل لمقعـده خاصـة عندمـا نظـر إلى تلـك العربـات الممتـدة، وجـد تكدسًـا كبـيرًا وأشـخاصًا لم يجـدوا مقاعـد فافترشـوا الأرض وآخريـن متشـعلقين في الحديـد الممتـد والقريـب مـن سـقف القطـار ومـع جلوسـه قـال حتـمًا سـيعود.

وراح يتابـع باهتـمام نهـر النيـل المـوازي لشريـط السـكة الحديـد وأتـاح بـطء القطـار لعينيـه أن تـرى بوضـوح مـا حـدث للنهـر وحولـه مـن تغـيرات.

فالنهـر لا يوجـد بـه كثـير مـن المـاء رغم أنـه موسـم الفيضـان وكثير مـن الأراضي تصحـرت ونمـت عـلى ضفـاف النهـر بعـض النباتـات البريـة ولم يعـد يشـتم رائحة الزهـور التـي كان يشـتمها مـع بدايـة الرحلـة وكان يتخلـل الصحـراء المحيطـة بالنهـر بعـض قطـع الأراضي الصغـيرة التـي مـا زالـت تحتفـظ بلونهـا الأسـمر وبهـا بعـض الـزرَّاع الذيـن يسـتخدمون الآلات البدائيـة للزراعـة عـلى الرغـم مـن وجـود بعـض الآلات الميكانيكيـة متروكـة غـير مسـتخدمة فـأدرك حسـن أن عـدم اسـتخدام تلـك الآلات الزراعيـة والعـودة لـلآلات البدائيـة مرجعـه نقـص المـواد البترولية وربـما عـدم وصولهـا للصعيـد فحدثـت تلـك الـردة.

خطـف حسـن نفسـه مـن أفـكاره وقـام مـن عـلى كرسيه وراح يبحـث بنظـره عـن العجـوز في تلـك العربـات الممتـدة إلى الخلـف وأدهشـه جلـد ذلـك الرجـل وقـوة احتمالـه لأنـه اسـتطاع إلى الآن أن يمكـث في تلـك العربـات المكتظـة دون

تبرم رغم كبر سنه ورغم حمله تذكرة درجة أولى، ثم عاد إلى متابعة النهر وبعض الجبال التي يراها من بعيد وما لها من إيحاء وتأثير على النفس البشرية وخاصة على المسافر أول مرة إلى صعيد مصر، وأراد حسن أن يترك طابعًا في نفسه وقال مغمغمًا ومتحدثًا إلى نفسه، إن الصعيد هي أرض السحر.

فهي تحمل رغم ما هو باد عليها من وهن روح القوة والبطش، ورغم بطء القطار إلا أنه يزداد بطئًا كلما مر بمحطة ما في طريقه معطيًا الفرصة للبعض بالصعود أو الهبوط من القطار ومع كل محطة كان حسن يلاحظ جيدًا الرصيف ويطيل النظر إلى النازلين من القطار فلربما يعثر على ضالته ويرى الشيخ، ورغم أنه يحمل أسئلة كثيرة إلى هذا الشيخ الذي إن نزل لن يستطيع أن يستوقفه، إلا أنه منى نفسه أنه لربما إن نزل وراه فيودعه بطريقة جيدة، ولا يدري حسن ما الذي ربط بين قلبه وهذا الرجل إلا أنه قال لنفسه أنا رجل تحدث له الأعاجيب، هذا قدري. وضع نظارته الشمسية على عينيه محاولاً اتقاء وهج أشعة الشمس المنعكسة من الرمال المحيطة بضفتي النهر وبحث بنظرة خاطفة عن العجوز. وبعد وقت مالت الأشعة للغروب فشعر ببعض الراحة وخلع النظارة من على عينيه وكفّ عن متابعة النهر لكنه مارس عادته التي اكتسبها في القطار وهي النظر بدقة إلى رصيف المحطة عند مرور القطار بها أو توقفه فيها.

ومع توقف القطار في محطة جرجا، علم حسن أنه قد اقترب وأن عليه الاستعداد للنزول في المحطة القادمة محطة البلينا، ومنها سيتحرك إلى البر الشرقي حيث وجهته، تفقّد حسن مذكرة حبيبته واطمأن لوجودها في حقيبته ثم تحسس المكان السري في جيبه الذي يوجد به الخاتم فوجده واطمأن على وجوده، عندئذٍ قام من مكانه للبحث مرة أخرى قبل حلول الظلام عن هذا العجوز فلم يجده وفقد الأمل وخاصة مع اقتراب نزوله برؤية العجوز. وشعر حسن بتسارع في ضربات قلبه علم على الفور ما تعانيه نفسه من قلق، فقد غامر وقطع كل تلك المسافة على عنوان ربما توهمه عقله لكنه طمأن نفسه وقال أنا أثق في سيادة اللواء ولم يعطِ فرصة للقلق أن يتسلل إلى قلبه وحاصره في مهده بتلك الجملة. أصدر القطار نفيرًا معلنًا عن رؤيته للمحطة واستعداده دخولها، نظر حسن من شباك القطار لكن الظلام الحالك الممتد منعه من الرؤيا.

توقف القطار فنزل حسن مسرعًا، لم يكن يعرف أين يتجه ومع شعوره برهبة الصعيد وهواء سوهاج الحار الذي قابله وتوقف عن التفكير للحظات ثم نظر للرصيف باحثًا عن وجه العجوز فلما لم يجده ظل واقفًا متابعًا الوجوه من نوافذ القطار وانتهي أمله فأراد حسن أن يلقيه من الذاكرة.

وبعد مغادرة القطار وابتعاده عن المحطة وخروج كل من نزل معه من المحطة تحرك حسن للخروج من الباب الرئيس واتجه قبل خروجه إلى شباك التذاكر وسأل عن أقرب مكان من الممكن النوم فيه، فندق أو بنسيون أو شقة، أي شيء فأرشده إلى أحد الفنادق المطلة على النيل وكان الفندق على ما يبدو مقصد للسياح فيما مضى قبل تحريم سياحة القبور وأصنام الفراعنة فأصبح شبه مهجور.

- سأله العامل: حضرتك عايز تحجز كام ليلة؟

- ليله واحدة

- ممكن البطاقة؟

أعطى حسن البطاقة للعامل فقلبها ونظر باهتمام وقال بصوت متحشرج

- حضرتك ضابط؟

- ضابط سابق قالها وهو يبتسم.

شعر العامل ببعض الراحة ولم يعقب ثم أعطى البطاقة للرائد حسن بعد تدوين البيانات ثم تحرك الرائد حسن إلى الغرفة ٢٢ وهي الغرفة التي سيقضي فيها حسن ليلته وقال له العامل إنها أفضل غرفة في الفندق فبإمكانك أن ترى النيل وفي الصباح تستطيع أن ترى بوضوح معبد سيتي الأول بابيدوس، فنظر حسن إليه..

شعر العامل بارتباك وعلم بخطأه، فقال العامل آسف لم أقصد..

تقبل حسن أسفه فلم يكن أمامه كثير من الوقت كي يعقب لكنه راح يغمغم إلى نفسه وهو يسير في الطرقة المظلمة خلف العامل الذي يرشده بكشاف وقال لنفسه: الآن علمت سبب هذا الخراب على أهل الصعيد، هو حبهم لتلك الأصنام وتلك الحضارة الوثنية التي قال عنها مولانا الإمام

المرشد إنها حضارة عفنة ولولا وقوف أميركا وحلفاؤها لحطمها مولانا المرشد الإمام تحطيمًا وطهر تراب مصر من دنسها، عندئذٍ ستنزل بركات من السماء وتهبط الكنوز ويفتح لنا المولى باب رزق، وستغمر نيلنا الغائر المياه وتظهر آبار البترول مرة أخرى، ولأن الغرب يعلم أنها سبب الخراب علينا ومن أجل استمراره في حربه على الإسلام فقد عارض هدم تلك الأوثان تحت حجة أنها تراث إنساني، لكن لا أدري لماذا امتثل مولانا الإمام لرأيهم، لماذا يرضى الدنية في ديننا.

- اتفضل يا فندم تحب أصحيك الساعة كام؟

- لا شكرًا أنا هصحى لوحدي.

كان حسن في حاجة ماسة إلى أن يضع جسده على السرير، إلا أنه انتظر العامل حتى أضاء له الكشاف الصغير في الحجرة.

مرت ساعات الليل مسرعة واستيقظ حسن مع دخول أول ضوء إلى حجرته،

خرج حسن إلى الشرفة لكي ينظر إلى البلينا ليرى معالمها حتى يحدد اتجاه تحركه، وأي شارع سيسلك وصولاً إلى نهر النيل حتى يعبر إلى الناحية الأخرى من النهر وشاهد لأول مرة آثار الفراعنة، وقع نظره على مسلتين ومدخل وبناء ضخم لمعبد يأخذ شكل قوس، أيقن أنه المعبد الذي حدثه العامل عنه بالأمس، معبد سيتي الأول، لم يستطع أن يخفي انبهاره بعظمة العمارة المصرية القديمة وتقدمها لكن استغفر ربه مسرعًا وأشاح بنظره عن المعبد ورأى مطعمًا للفلافل فنزل مسرعًا بعد أن صلى الصبح واتجه مباشرة بعد رحيله عن الفندق واستفساره عن كيفية عبور النهر إلى الجهة الأخرى من البلينا إلى مدينة دار السلام فأخبره العامل أن مدينة دار السلام هي أكبر المدن في سوهاج فيجب عليه أن يحدد وجهته فيها بدقة، وكانت تلك نصيحة جيدة حتى لا يضيع حسن الكثير من الوقت، فقال حسن: أريد أن أذهب إلى وديان قصب..

فأخبره الرجل عن أقصر الطرق للوصول إليها عندئذٍ برقت عيناه بريقًا لم تخطئه عين ذلك الموظف فتبسم الموظف.

لم يكن حسن يعرف من الصعيد إلا محافظاتها وبعض المراكز المشهورة ولم يسمع أو يعلم بوجود مدينة دار السلام من قبل أو وديان قصب عندئذٍ اطمأن إلى أن ذلك العنوان الذي تذكره في منامه صحيح وأنه في الطريق الصحيح إلى سيادة اللواء.

(١٣)

وصـل حسـن إلى دوار شـيخ العـرب، الشـيخ همـام بعـد عنـاءٍ شـديد فلـم يكـن الوصـول إليـه سـهلاً وخاصـة بعـد اعـتراض قطـاع الطـرق لطريقـه وسرقـة كل مـا معـه ولم يأبهـوا بالكارنيـه الـذي يحمله واستهزأ أحدهـم بـه وطلـب منـه خلـع ملابسـه فقـال حسـن مسرعًـا إنـه ذاهـب إلى شـيخ العـرب همـام فلـم يسـأله أحـد عـن السـبب إلا أنهـم أعطـوه كل مـا أخـذوه منـه واسـتأذنه كبيرهـم بالاحتفـاظ بالشـنطة فوافـق حسـن ومـا كان مـن الرجـل أن بعـث معـه مـن يرافقـه، وكانـت تلـك أفضـل خدمـة حصـل عليهـا حسـن، فقـد وصـل إلى دوار شـيخ العـرب دون أن يتعـرض لمشـاكل أخـرى، وكان الطريـق طويـلاً ومرهقًـا وشـعر حسـن بجـوع شـديد ولم يكـن يحمـل معـه طعامًـا ولم يتنـاول أي شيء غـير طعـام الفطـور في الصبـاح.

ومـا إن وصـل الـدوار حتـى قدمـوا لـه مـاءً مثلجًـا ورحبـوا بـه وتصاعـد إلى أنفـه رائحـة الشـواء المتبلـة فسـال لعابـه ولم يسـتطع أن يـرد عـلى عبـارات الترحـاب مـن قبيـل شرفتنـا يـا فنـدم، فـكان يومـئ برأسـه فقـط وتعـالى صـوت معدتـه لاهتياجهـا الشـديد، فوضـع حسـن يـده عـلى معدتـه مطمئنًـا إياهـا، ولم يطُـل انتظـاره، فسرعـان مـا وضـع الطعـام أمامـه. وتنـاول حسـن الطعـام بنهـم الجـوع وأيضًـا بنهـم الطعـم المميـز لهـذا الشـواء الـذي اختـزن عقلـه هـذا الطعـم في خلايـاه الحسـية، ليظـل فـم حسـن يتذكـره لمـدة طويلـة بـل ويقـارن بـين طعـم أي طعـام يتناولـه وطعـم ذلـك الشـواء المميـز، وتباطـأت يـد حسـن رويـدًا رويـدا مـع شـعوره بالامتـلاء ولم يعـد قـادرًا عـلى تنـاول المزيـد، عندئـذٍ لاحـظ حركـةً في المـكان وهرجًـا ومرجًـا تـلاه دخـول الشـيخ همـام، وكان دخولـه مهيبًـا وبـدا الشـيخ في حاشـيته التـي تحيـط بـه كسـلطان مـن السـلاطين، وكان الشـيخ عـلى مـا يبـدو قـد غـادر الشـباب منـذ فـترة طويلـة إلا أنـه عندمـا صافـح حسـن، شـعر حسـن بقـوة مفرطـة تضغـط عـلى يديـه، وبعدمـا طلـب مـن حسـن الجلـوس سـأله:

- أنتا طلبت تقابلني يا أفندي؟

- أنا اسمي حسن يا شيخنا.

- أنا ما يهمنيش أنتا مين، أنتا جاي عايز إيه؟

- ممكن أكلمك لوحدك؟

- نظر الشيخ إلى حسن باستغراب وقال اتكلم يا أفندي ما تخافش، محدش من الرجالة بيطلّع كلمة اتقالت في المجلس بره المجلس.

وبعد تململ، قام حسن ثم وقف مواجها للشيخ وشمّر عن ساعديه وسط حذر وترقب من الجالسين الذين توقعوا جوابًا.

لكن حسن لم يتحدث مطلقًا بل قام بالضغط بيده اليسرى على راحة يده اليمنى لتتحرك عكس الاتجاه فانحنى رسغه بمرونة كبيرة لأعلى، ومست إطراف أصابعه ساعد يده وسط اندهاش الجالسين للمرونة التي يحظى بها حسن رغم القوة والصلابة الباديين عليه لكن لم يستطع أحد منهم أن يفسر ذلك الفعل، لكن شيخ العرب تبسم ثم رحب بحسن ترحيبًا كبيرًا وأمر حارسه الشخصي أن يجهز السيارة الجيب وأمر خادمه باصطحاب حسن إلى أحد غرف الدوار لتغيير ملابسه وحرق الملابس التي كان يرتديها وأدرك حسن أن ذلك الفعل ربما يعود لاحتياطات أمنية فاطمئن وقال الشيخ لحسن قبل أن يغادر:

- حمد الله على سلامتك يا حضرة الضابط.

- إحنا هنتحرك مع أول ضوء بعد الفجر هنسيبك ترتاح.

فنظر حسن إليه بابتسامة الظافر الذي وصل إلى ما يريد بعد طول عناء.

بعدما حظي حسن بحمام دافئ، كان جسده بحاجة إليه، ارتخت على إثره عضلات جسده تباعًا ولم يستطع أن يقاوم النوم ولم يستيقظ إلا عندما أيقظه الخادم لصلاة الفجر فصلى مع الرجال خلف الشيخ همام، وتلا ذلك انقسام الرجال لمجموعات كل مجموعه التفت حول واحد كان يقرأ القرآن وهم يقرأون خلفه ويسبح وهم يسبحون خلفه، ورغم السعادة التي انتابت

حسن لهذا السلوك المتدين إلا أن قلبه لم يشعر بالراحة خشية أن يكون هؤلاء الرجال صوفيين لأن مولانا المرشد الإمام قد أقر بكفر كل الجماعات الصوفية، وتحريم تلك الطرق القائمة على الاستعانة بأهل القبور من دون الله

ومع ظهور أول ضوء تحرك الخادم إلى حسن وقال إن الشيخ يستدعيك،

فقام حسن إلى الشيخ همام الذي قابله بابتسامة وقال له سنتحرك بعد تناول فطورنا.

دوى صوت محرك السيارة الجيب التي قام حارس الشيخ بتجهيزها بما يلزم من وقود وإصلاحات وبعض الماء وقليل من الطعام، وراحت السيارة تنهب الصحراء نهبًا، فوق مدقات جبلية بدت السيارة كنقطة متحركة في بحر ساكن.

نظر الشيخ همام إلى الشمس التي باحت له بسرها، فأمر السائق بالتوقف وأذن حارسه لصلاة الظهر وصلوا خلف الشيخ ثم استأنفوا رحلتهم ولم يستطع حسن أن يتبين الاتجاه الذي سلكوه فهم يسيرون في صحراء معزولة ثم يدخلون مدقات جبلية وهكذا فلم يستطع أن يحدد بدقة في أي اتجاه يسير وراودته بعض الهواجس، لو أن هؤلاء الرجال تركوه هنا لهلك بالتأكيد

فهو لم يعرف من أين بدأ ولا أين ينتهي في وسط صحراء لا تنتهي، لكن السائق يحفظها عن ظهر قلب وتعجب حسن فهو لم يرَ أي علامات يمكن الاهتداء بها إلا أن الرجل يسير ولا يتردد وكان صمت الشيخ المهيب دليلاً على صحة الطريق ومن طول الطريق وتشابهه لم يعد حسن ينظر إليه إلا على فترات متباعدة وراح عقل حسن يبحر بطريقته المعتادة ويسأل تلك الأسئلة التي لا تسبب الراحة..

- هل ما زال اللواء يذكرني؟
- هل ما زال يحمل نفس ملامحه القديمة؟
- هل ما زال يكنّ لي من الود والمحبة؟
- وهل وهل وهل..

وشعر حسن بيدٍ تربت على ظهره ورغم ثقلها إلا أنها تحمل الرحمة يرافقها صوت الشيخ همام..

استعد عشان هنمشي على رجلينا.

كانت السيارة تتحرك في اتجاه سلسلة جبال مختلفة الألوان، حمراء ممزوجة بالسواد، وصخور بركانية محروقة وأخرى رسوبية ذات أشكال تخطف العقول، وقفت السيارة أمام مدق جبلي لا يسع أكثر من شخصين فنزل السائق والحارس والشيخ وحسن وسار السائق في الأمام والشيخ همام وحسن خلفه وخلفهم الحارس ورغم طول المسار وضيقه إلا أن اختفاء أشعة الشمس الحارقة جعل الهواء الحامل لرائحة الزهور البرية رطبًا منعشًا ولذيذًا مما جعل حسن منتشيًا غير عابئ بطول الطريق بل تمنى ألا ينتهي الطريق لكن كعادة حسن تذهب أمنياته أدراج الرياح فقد بدأ يظهر انفراجة المدق وظهور بعض الرمال الصفراء الناعمة المعلنة عن قرب الخروج من المدق كالعادة إلى الصحراء، لكن كانت الرمال الصفراء خادعة تلك المرة فكانت امتداد سهل مملوء بالخضرة أوسع بين جبلين أقل ارتفاعًا وأكثر تباعدًا من الجبلين اللذين يحيطان بهما.

لم تكن تلك النباتات بفعل عشوائي كما أعتقد، لأنه اكتشف امتداد السهل ينتهي بحاجز ضيق لجبلين أكثر ارتفاعًا وكانا شامخين كأنهم بوابة وتم بناء سد على كل منهما لحجز الماء واستخدام ذلك الماء في الزراعة والإعاشة وانفرج الجبلان عن سهل أكثر انبساطًا وكان مزروعًا بنفس النباتات، فامتلأت نفس حسن بهجة وحيرة وقال مغمغمًا إلى نفسه: كم أنت عبقري سيادة اللواء، اختيارك للمكان، فلا توجد قوة مهما كانت تستطيع اقتحام تلك القلاع الجبلية، ووجود خزانات الماء تلك يجعلك قادرًا على مقاومة أي حصار، حتى اختيارك لكلمة السر تنطوي على عبقرية شديدة، كنت قلقًا من أن تكون خطأ فأنت زرعتها في عقلي ولو كنت أعرفها قبل ذهابي للشيخ ربما كنت تراجعت عن فكرة الذهاب لكن اعترف بعبقريتك فقليلون مَن يمتلكون موهبة ثني الأصابع لأعلى وحتى وإن وجد فلا يوجد من يصدق أن تلك هي كلمة السر.

انتبه حسن إلى صوت الشيخ همام وهو يقول بفخرٍ شديد:

- دي أغلى نباتات في العالم، دا نبات الفانيليا مولانا بيقول عنها فانيليا مدغشقر

ثم أشار بيده لمنطقة بها نبات مختلف وقال هذا نبات الزعفران أما الزهور الجميلة تلك وكانت ذات ألوان مختلفة فقال حسن:

- دا نوع واحد؟

أيوه تلك زهرة الأوركيد وليها أشكال كتير غريبة. إحنا بنبيع تلك النباتات للأجانب وبنقبض عملة صعبة، ثم أخذ نفسًا وزفر وقال قبل ما يجي مولانا هنا كانت المنطقة دي اسمها متاهة الهلاك لأنها كانت قاحلة ولا بتزرع ولما كانت الميه بتنزل من الجبل لما يبقى فيه سيول كانت بتروح هدر لكن ببركة مولانا كل شيء اتغير والآن النباتات دي بتجبلنا ملايين والمكان بقى روضة من رياض الجنة وحضرتك هتشوف بنفسك.

مر سؤال عابر بذهن حسن هل مولانا الذي يتحدث عنه الشيخ هو سيادة اللواء أم أن هناك مولانا وسيادة اللواء مساعد له؟

طافت عينا حسن بأرجاء المكان واستطاعت على اتساعه وامتداده أن تلتقط الكثير من تفاصيله فهو سهل محاط من جميع جوانبه بالجبال معزول تمامًا لكن تشعر روحك فيه بالهدوء والسكينة وكأنه مكان صوفي بامتياز، ومع مرور نسمة رقيقة حاملة معها عبق الزهور إلى رئتي حسن أفرغت رأسه من كل الأسئلة بل راح يتأمل تلك الريح وهي تنتقل كفراشة رقيقة من زهرة إلى أخرى فتهزها وكأنها تتمايل ذكرًا لله وشكلت الأزهار مع الريح شكل أمواج متتابعة فنظر الشيخ إلى حسن مغتبطًا بهذا الشكل البهي الذي على ما يبدو أسر عقل حسن.

تحرك رباعيتهم متجاوزين النباتات والزهور إلى أن بدت أمام أعينهم بيوت خشبية وكأن المكان الذي كان فارغًا استحال إلى قرية كبيرة منتظمة بيوتها من الأخشاب ثم بدأت عيناه في ملاحظة بعض هؤلاء الساكنين الزّراع، ويبدو أن مظهر قوتهم وانتظامهم يحملهم من الزراع إلى رتبة المحاربين ويبدو أنهم

قـد أبـصروا الشـيخ همـام فأقبلـوا مسرعـي الخطـى نحونـا وسـلموا علينـا وقبّلـوا يـد الشـيخ همـام وكانـت عيونهـم تنظـر إليـه بحـب وقدسـية ومهابـة كبـيرة، عندئذٍ وصـل مسرعًـا رجـل طويـل ممشـوق القـوام صـارم الوجـه فقبـل يـد الشـيخ.

- فتوجه إليه الشيخ بالسؤال مولانا فين يا ولدي؟

- في الساحة يا سيدي.

عندئـذٍ تنحـى الجميـع جانبًـا عندمـا تحـرك الشـيخ وأنـا خلفـه واتجـه الشـيخ إلى أحـد البيـوت الخشـبية وكان في مـكان متفـرد ولا يوجـد بجانبـه إلا بيتـين اثنـين وكانـت تلـك البيـوت أكثـر اتسـاعًا وفخامـة مـن البيـوت الأخـرى وقـال الشـيخ:

- سننتظر في استراحتي حتى يأذن لنا مولانا بمقابلته.

فقلـت لنفسي لقـد جئـت كـي أقابـل سـيادة اللـواء ولا حاجـة لي بمقابلـة مولانا لأني قـد تأكـدت مـن وجـود ثلاثـة بيـوت متفرديـن، يعنـي بيتًـا للشـيخ همـام وآخر لمولانـا والأخـير لسـيادة اللـواء، لكـن البيـت الـذي في الوسـط هـو أكثـر البيـوت حجـمًا عـلى الإطـلاق فـلا بـد أن يكـون لمولانـا وكانـت تلـك البيـوت الثلاثـة تحتضـن الزهـور، تـرى كل بيـت في القريـة وتـرى كل أرجـاء المـكان بوضـوح ولاحـظ حسـن أن الريـح تتحـرك في اتجاههـا بعـد مرورهـا عـلى حقـول النباتـات

فتدخـل البيـوت الثلاثـة محملـة بأريجهـا، نظـر الشـيخ إلى حسـن وقـد رأى أثـر سـحر المـكان عـلى وجهـه فاغتبـط..

دخـل الخـادم عـلى الشـيخ وحسـن، وقـدم لهـم مـاءً مثلجًـا بريـح الـورد، شرب حسـن ولسـان حالـه يقـول والله مـا ذقـت أطعـم منـه.

فقال الشيخ للخادم مداعبًا

- أين الطعام؟

فانـصرف الخـادم سريعًـا ولم يمـض وقـت طويـل حتـى دخـل الخـدم حاملـين خروفًـا مشـويًا وأرزًا، فأكلـت بنهـم شـديد فقـد كنـت جائعًـا وكذلـك مولانـا وبعـد أن أنهينـا طعامنـا دخـل علينـا الحـارس وقـال للشـيخ إن مولانـا ينتظـرك أنت

والضيـف في اسـتراحته وعندمـا خرجنـا لملاقـاة مولانـا في البيـت المجـاور رأيـت المـكان يحيطـه حـراس أشـداء وتحـرك الشـيخ بهمـة كبـيرة وأنـا خلفـه واجتـاز الحديقـة الفاصلـة بسرعـة كبـيرة متهلـل الوجـه وصعـد درجـات السـلم كحبيـب يتحـرك لملاقـاة محبوبـه فقـام مولانـا في بهائـه لملاقـاة الشـيخ..

- رباه....... إنه هو لم يتغير، إنه سيادة اللواء.

وبعـد أن سـلم عـلى الشـيخ وقـف أمامـي قليـلاً يتأملنـي، لم أشـعر أنـه لا يعرفني لكـن تأمـل المحـب الـذي انتظـر حبيبه.

حسن قال هامسًا ثم احتضنني وبحنو الأب أخذ بيدي وأجلسني جانبه.

فاطمئن الشيخ إلى صدق معرفتي بمولانا.

وبعدما فرغنا من تناول الشاي استأذن الشيخ همام بالرحيل.

لاحظ سيادة اللواء توتري.

وقال لِم تتخلى عن عاداتك القديمة، تقوم بهز رجلك عندما تكون متوترًا.

ابتسمت وقبل أن أنطق قال:

ما الذي يحدث في القاهرة، من قتل نائب المرشد؟

تعجبـت فكيـف تصـل المعلومـات إلى مـن يعيـش في تلـك المنطقـة المنعزلـة حتـى ولـو كان مهتـمًا، فـإن الأصـل في وصـول الشـائعة هـو اهتـمام الوسـط بهـا وقـد لاحظـت في رحلتـي مـن القاهـرة حتـى وصـولي للصعيـد عـدم اهتـمام أهـل الصعيـد لمـا يحـدث في القاهـرة.

هذا ما جئت من أجله.

لم تصدم تلك الإجابة سيادة اللواء لكن قال:

كنت أنتظرك وأعلم بمجيئك.

لكـن صدمتنـي أنـا إجابتـه وفتحـت البـاب لسـيل مـن الأسـئلة انهالـت عـلى عقـلي فجـأة، فقـال سـيادة اللـواء مبتسـمًا:

ما زلت أنت لم تتغير، فأنا أرى تلك الأسئلة التي طافت بعقلك.

لكـن سـأتركك لتسـتريح لكـن أنـت تعـرف ليـس لمثـلي أن ينعـزل عـن الأحداث مهـما كانـت طبيعـة الجغرافيـا التـي تحيـط به.

أنا أريد أن أنهي ما جئت من أجله، علي العودة بسرعة إلى القاهرة.

فقال:

الأحداث متصلة ولن يضرها غيابك يومًا آخر، استرح قليلاً ثم قم.

فقلـت هـل تعـرف شـيئًا عـن المبنـى ٦٦ ويبـدو أنـى قـد أثـرت انتباهـه إلى أقصى حـد وانتبـه إليّ بـكل حواسـه عندئـذٍ علمـت أن رحلتـي لم تكـن هباءً.

هل للمبنى علاقة بالأحداث التي وقعت في القاهرة؟

فقلت نعم أعتقد أنه كان بداية الأحداث.

شاهدت تغيرًا كبيرًا على وجه مولانا وقال بحزم:

تعالى معي.

أخـذني مـن يـدي وصعدنـا إلى الـدور الثـاني شـعرت عندئـذٍ أن بيـت الأسرار قـد انفتـح وربـما بعدمـا يمـدني بـما أحتاجـه مـن معرفـة عـن المبنـى، أسـأله أسـئلة قديمـة؛ لمـاذا هـرب؟ فقـد كان بإمكانـه أن يصـل إلى مـا يريـد مـن مناصـب فلـو أراد أن يكـون المرشـد لأصبـح المرشـد فكيـف لـه أن يـترك تلـك الحيـاة ليجـيء ليعيـش هنـا منعـزلاً بعيـدًا عـن الحضـارة.

دوى جـرس اللاسـلكي في يـد مولانـا ورغـم أني شـخصية غـير متشـائمة إلا أني شـعرت بـأن شـيئًا مـا سـيقطع فرحتـي بدخـول بيـت الأسرار.

بالفعل قد كان، فقد كان صوت اللاسلكي واضح.

مولانـا، هنـاك مصـدر للإرسـال تـم رصـده في اسـتراحتك، هـل تسـمح لنـا الآن بعمـل مسـح؟

أشـار إلى مولانـا بالجلـوس انتظـارًا لفريـق الأشـعة، لم تمـض غـير لحظـات حتـى رأيـت اثنـين أحدهمـا برتبـة ضابـط والآخـر برتبـة صـول، معهـما جهـاز لكشـف الأشـعة، وبـدءا العمـل بعدمـا أديـا التحيـة العسـكرية لمولانـا، ممـا أشـعرني بعـدم ارتيـاح، ثـم اسـتأذنني الضابـط للوقـوف لإجـراء مسـح عـليّ وقـام بإمرار المسـتقبل أمامـي ثـم مـن خلفـي، عندئـذٍ أصـدر الجهـاز أزيـزًا عنـد مـروره بمحـاذاة كتفـي وأظهـرت قـراءة الـتردد أنهـا نفس الإشـارة التـي تـم التقاطهـا مـن قبـل.

انتابتنـي حالـة مـن القلـق والخـوف لكـن مـا طمأننـي قليـلاً، ابتسـامة أبويـة مـن اللـواء وقـال سـنذهب إلى المركـز وقـد علمـت بعـد ذلـك أنـه المركـز التقنـي وهـو تجميـع لسـلاح الإشـارة والحـرب الإلكترونيـة.

تحركـت أنـا وسـيادة اللـواء إلى المركـز لاسـتخراج الجهـاز وتحديـد نوعـه، تحـرك اللـواء بحركـة عسـكرية سريعـة اسـترعت انتباهـي لكـن لم يعـرني أي اهتـمام ممـا زاد ارتباكـي وقـرأت في عينيـه أن قـراره سـيكون لاحـق عـلى مـا يبـدو بعـد تحديـد نـوع الجهـاز.

تحركـت بنـا السـيارة بعيـدًا عـن البيـوت الخشـبية في اتجـاه أحـد الجبـال البعيـدة الموجـودة في اتجـاه شروق الشـمس.

تخوفـت أن يفقـد اللـواء الثقـة فيّ، فلـم أعـرف مـا أقـول رغـم أنـي أجيـد التبرير، لكـن خـوفي كان أكـبر مـن أن أقـول شـيئًا، ولم يتحـدث اللـواء إليّ، بـل لم ينظـر إلي، لكـن عندمـا نزلنـا مـن السـيارة وضـع اللـواء يـده عـلى كتفـي ثـم أشـار إليّ بالحركـة بيـده إلى الاتجـاه الـذي ينبغـي أن نتحـرك فيـه، سرنـا مـا يقـرب مـن خمـس دقائـق ثـم تفـرق بنـا النفـق إلى نفقـين، تحـرك اللـواء في النفـق الأيسر وتبعتـه، وبعـد بضـع خطـوات ظهـرت بوابـة حديديـة مصمتـة، ضغـط اللـواء عـلى شاشـة بلازمـا وبعدمـا أضـاءت قـام بإدخـال بعـض الأرقـام لينـزاح البـاب كاشـفًا عـن واقـع آخـر وفـارق زمنـي بـين العصـور الوسـطى والمسـتقبل داخـل ذلـك المركـز.

تركني اللواء وجلس على كرسيه بعد تأدية الشباب العامل على تلك الأجهزة التحية العسكرية وكان هؤلاء الشباب يعملون على تلك الأجهزة بهمة ومهارة بالغة وتعجبت أين تعلموا وكيف تعلموا العمل على تلك الأجهزة التي لم أرى مثلها في أفلام الخيال العلمي، عندئذٍ اقترب مني أحد هؤلاء الشباب وكان يحمل رتبة عسكرية تساوي نقيب وقال لي بأدب جم: تفضل معي يا سيدي. ثم أدخلوني جهاز أشعة مشابه لجهاز الأشعة المقطعية لكن كان مختلفًا تمامًا من الداخل حيث وجدت جسدي يخف شيئًا فشيئًا ويرتفع لأعلى، وعلقت في المنتصف وبعد لحظات أخرجوني وسلموا سيادة اللواء تقريرًا مفصلاً. أعطاهم أمرًا لاستخرج ذلك الجهاز من أسفل كتفي الأيسر وحقيقةً لم أشعر

بيد هذا الجراح بعد وضعه لبعض الأعشاب المخدرة على ما يبدو، وكان شديد المهارة والسرعة أيضًا فما هي إلا لحظات حتى استخرج الجهاز، ثم قام بوضعه في قارورة تحتوي على محلول ما وأعطاه لسيادة اللواء.

ترك اللواء التقرير ووضعه على المنضدة التي أمامه ونظر مليًا إلى الجهاز ثم أعطاني القارورة وقمت بتأملها وكان جهازًا صغيرًا جدًا، لم أستطع أن أتبين أجزاؤه بدقة ولا أخفيكم القول، كانت أول مرة لي أن أرى مثل هذا الجهاز.

قال اللواء:

- هل تعرف هذا الجهاز؟

- هذه أول مرة لي أن أرى مثل هذا الجهاز.

وقمت بتقريب القارورة أكثر من عيني، تأملت الجهاز بدقة أكبر حتى أتأكد من إجابتي لكن سيادة اللواء قال:

لن تعرفه لأنه لم يدخل الخدمة في سلاح أمن النظام، لكن هو من أخطر أجهزة التجسس لدى أمن المرشد.

إن هـذا الجهـاز يدعـى (N٧٥) وكان يسـتخدم في العشرينيـات كجهـاز بديـل للإرسـال في حـال توقـف الجهـاز الأصـلي عن الإرسـال لأي سـبب واسـمه الدارج الطفيـلي، لأنـه متصـل بجهـاز الإرسـال الرئيـسي، فيتغـذى مـن طاقتـه الأساسـية ويحصـل عـلى المعلومـات التـي سـوف يرسـلها، وفي حـال فشـل الجهاز الأسـاسي في إرسـال تلـك المعلومـات يقـوم هـو بإرسـالها. ورغـم صغـر حجمـه البـادي إلا أنـه عـالي التكلفـة لإشـارته القويـة، ومعالـج البيانـات لديـه فائـق القـدرة ويسـتهلك الحـرارة الناتجـة عـن معالجتـه للبيانـات في توليـد مـا يلـزم مـن طاقـة كهربيـة وذلـك في غيـاب العائـل الأسـاسي.

- وما علاقة ذلك بوضعه في ظهري؟

لقـد تـم تطويـره بعـد ذلـك لاسـتخدامه في التجسـس، فهـو يوضـع في جسـد العائـل البـشري أو الحيـواني ثـم يقـوم بإرسـال المعلومـات التـي يتلقاهـا في صـورة شـفرات.

- لكـن سـيادة اللـواء أنـا لم أخضـع لأي جراحـة عندمـا كنـت محتجـزًا لـدى أمـن المرشـد، فكيـف تفـترض أنهـم مَـن وضعـوه؟

شـعرت ببعـض الحـرج لأني أحسسـت أنـي أقـدم اتهـام مبـاشر للـواء بافـتراء تلـك القصـة، وسـألت نفـسي دون أن أرفـع رأسي وأواجـه سـيادة اللـواء، لمـاذا ادعـى اللـواء ذلـك؟ هـل أراد منـي أن أثـق فيـه وأفقـد الثقـة في المجموعـة الأخـرى؟

- أنـا أثـق فيـه ولا أثـق في الجهـة المقابلـة، في أي منهـم إلا في مولانـا المرشـد الإمـام، لأن فقـدان الثقـة فيـه هـو مضيعـة للديـن، لأننـا يجـب أن نكـون جميعًـا بـين يديـه، يجـب أن نكـون مثـل وجودنـا بـين يـدي مغسـلنا وإلا مـا اكتمـل الإيـمان وإني لـن أسـمح أن ينهـار نظـام الخلافـة ولـو كان ثمنـه حيـاتي.

- لأنك لن تعرف.

قـال اللـواء تلـك المعلومـة بشـكلٍ قاطـع. كانـت كل تعبـيرات وجهـي علامـة تعجـب!

- هل شعرت يومًا بكره لي؟

- لا سيادة اللواء، فأنا أحبك وأحمل لك كل تقديرٍ.

- هـل هبـط عليـك يومًـا شـعورٌ مفاجـئ بالكـره لشـخصٍ مـا أو حبـه ويكـون طرفًـا في تلـك القضيـة التـي تعمـل عـلى حـل ألغازهـا؟

- أحسست أني كالمصعوق.

- ما الذي تريد أن تقوله سيدي اللواء؟

- أردت أن أقول أنك لا تعرف أي شيء عن إمكانات ذلك الجهاز.

- إن هـذا الجهـاز بإمكانـه أن يمحـو بعـض الأشـياء مـن الذاكـرة أو يضيـف إليهـا وأعتقـد أنـه قـد تـم محـو أي معلومـة عـن زرع الجهـاز في ظهـرك وبالمثـل ممكـن إضافـة معلومـة حـب أو كـره لشـخص مـا، وصمـت اللـواء قليـلاً ثـم اسـتطرد لقـد خضعـت لاسـتجوابات قويـة هنـاك وتـم محوهـا.

صمتت وقبل أن أبحر مع أفكاري أردت أن اطمئن.

- هل توصلوا إلى مكانك؟

ابتسم سيادة اللواء وقال

- على الرغم من أنك رجل دولة إلا أنك ما زلت تحتفظ بحبك لي.

لا يسـتطيعون الحصـول عـلى أي معلومـة عـن هـذا المـكان لأن تلـك الأجهـزة أكثـر حداثـة، اسـتطاعت فـك شـفرة إرسـال الجهـاز وسـيتم إرسـال المعلومـات التـي نريدهـا وسـينطلق أحـد العنـاصر حامـلاً الجهـاز إلى منطقـة مـا وسـنتركه هنـاك لبعـض الوقـت ثـم نحركـه إلى منطقـة أخـرى.

ابتسمت معلنًا تقديري لتلك الخطة، فاستطرد اللواء:

- لكنهـم اسـتطاعوا بالتأكيـد تحديـد هويـة الشـيخ همـام ومكانـه وتحديـد صلتـه بي.

أعطى اللواء الجهاز إلى الضابط المسؤول وأمره أن يعد خطة تمويه جيدة.

كانت تعبيرات وجهه جادة وعينيه تقول إنه يفكر بعمق، لذا لم أقطع تفكيره، لكنه هو الذي قطعه وقام من مكانه وقال تعالى معي.

أردت أن أسأله، فلم تكن معلومة بث الجهاز لموجة حب أو كره واضحة في ذهني وخاصة أني أعلم أن الحب والكره بيد الله، لا دخل لمخلوقٍ في هذا،

لكن الجد الظاهر عليه وكوني أنا الطعم الذي أتى بكل تلك المتاعب إليه منعني من الحديث معه بل اتباعه لكن،هل أنا طعم؟ربما تم وضع هذا الجهاز في ظهري منذ زمنٍ بعيد منذ استجوابي ولم يكن بمقدورهم معرفة سير الأحداث أو أني سأذهب إلى سيادة اللواء.

تحركت خلف سيادته بخطى مسرعة، وما أن وصلنا حتى نهاية النفق حتى استقبله الحرس بتحية عسكرية أربكتني لكن تقبلت الأمر فربما مولانا يود أن يكون كل شيء منظمًا، ركبنا السيارة وقد أدركت أننا لسنا ذاهبين إلى الاستراحة فقد تحركنا بعيدًا وقبل أن أنطق وأسأل سيادة اللواء إلى أين نحن ذاهبين، ابتسم سيادة اللواء لي ابتسامة تعني أنه سوف يذهلني فسكت لأنه يود أن يطلعني على سره الدفين.

بعد خروجنا من المنطقة الجبلية من مكان غير الذى دخلنا منه، سرنا في مدقات شبه ممهدة، لكن شديدة الوعورة وبعد أن سرنا بالسيارة لمده تصل إلى ثلثي الساعة، وصلنا إلى منطقة جبلية أكثر انعزالاً من التي كنا فيها وجبالها أكثر ارتفاعًا.

سرنا بعض الوقت ومعنا الحراس، إلى أن وصلنا إلى منطقة سهلية بين الجبال لكن كانت أكثر ضيقًا وأكثر استواءً، نظرت إلى الجبال المحيطة بالسهل فشعرت أنني أقف في قلعة حربية حصنتها الطبيعة بدروعها، وما أن وصلنا إلى بداية السهل حتى دوى صوت البروجي معلنا قدوم القائد.

انشقت الأرض عن ضابط يحمل رتبة عالية، وقف أمام اللواء معطيًا تحية عسكرية ورغم استغرابي للموقف ونفوري منه، إلا أني شعرت بتيبس في عضلاتي وانتصاب جسدي وكأني عسكري أيضًا، افسح الضابط ذو الرتبة العسكرية العالية الطريق أمام سيادة اللواء، إلى أن وصلنا إلى منصة حجرية منحوتة في الجبل، صعدت مع اللواء، ثم أعطى مولانا إلى الضابط إشارة بدء العرض فأعطى الضابط الأمر ببدء العرض وبدأ العرض مع دوى نفير البروجي، فبدأت الوحدات بالدخول واستعراض قدراتها القتالية وأسلحتها المتطورة وأعترف أني لم أر مثيلاً لها لدى جيش مولانا المرشد وأدهشني حماس الجنود وانضباطهم وكفاءة استخدامهم تلك الأسلحة، عندئذٍ أصبت بتوتر لاحظه سيادة اللواء فابتسم وقال:

- يبدو أن الجيش قد أثار إعجابك.

طافت في ذهني أسئلة تنم عن خوفٍ حقيقي على الدولة المصرية، لماذا هذا الجيش ولأي غرض؟ هل هو من أجل السلطة؟ هل سيادة اللواء طامح في السلطة؟

فلو أراد مولانا السلطة لحصل عليها وربما كان هو المرشد القادم، إذن لماذا هذا الجيش؟ ومن أين حصل على هذه الأسلحة المتطورة؟

ما أن انتهى العرض حتى أمر اللواء الجيش بوضع الاستراحة ثم خطب فيهم وحقيقةً لم أفهم من كلامه أي شيء لكن مع كل فاصل من كلامه أرى الحماس في ردود الجنود "هو هو هو هو" وكأنه كلامٌ صوفي.

هل مولانا صوفي؟

هل هذا جيش صوفي ؟

ختم مولانا خطبته وهو ينظر إليّ مما اختطفني من أفكاري وقال «ألا إن نصر الله قريب»

ثم اقترب مني وقال:

- ما رأيك في قدرات هذا الجيش؟

لم أستطع أن اخفي ملامح الغضب من على وجهي، فضحك سيادة اللواء ضحكه عالية وقال

- يبدو أن الجيش قد أثار إعجابك، ثم أكمل حديثه قائلاً إن هذا الجيش هو ضمان لاستمرار الدولة المصرية.

- كيف وفوهات بنادقه ستكون في اتجاه الدولة؟

ضحك مرة أخرى وقال:

- أعرف ما يعتريك من مشاعر لكن سأجيب على أسألتك كلها لكن بعد الخلوة.

حملتني السيارة وحيدًا عائدًا إلى استراحتي، و أخبروني أن تلك الاستراحة المغلقة كانت معدة لي، وقلت لنفسي إن عالم اللواء مليء بالأعاجيب.

دخلت استراحتي الموجودة بجانب استراحة سيادة اللواء، كانت بسيطة ومريحة وتتناسب مع ذوقي الخاص، أجلت التجول ومعرفة ما تحتويه غرفها إلى حين انتهائي من الحمام، أرشدني الخادم بكل أدبٍ ومودة إلى مكان الحمام وعرفت أنه يحتوي على بانيو، مما قلل من كآبتي، وقال لي الخادم الأسمر دقيق الملامح أنه قد أعد البانيو وخلط ماءه ببعض الأعشاب التي ستمتص برائحتها الذكية آثار التعب والعرق، فإن لم أرتاح إليها سيغيرها على الفور وأخبرني أنه يعرف فنون التدليك إن كنت أحتاج إلى جلسة مساج، فشكرته وأخبرته أنى بحاجة إلى الاستغراق والاستمتاع بالبانيو فقط.

رغم شوقي إلى الماء إلا أنني خلعت ملابسي على مهلٍ وتوجهت إلى المرآة، وقفت معطيًا ظهري لها ونظرت أسفل كتفي حتى أتبين موضع الجرح، وجدت بالفعل مكان الجرح لكن لم أشعر بأي ألم حتى الآن، ثم توجهت إلى البانيو مباشرة، فلم أستطع أن أقاوم تلك الرائحة الذكية المتصاعدة منه.

تحسست الماء بيدي قبل نزولي فوجدته باردًا منعشًا فدلفت إليه متسللاً كثعبان، حتى لا أثير حفيظة الماء تجاهي فيشاركني تناغم سكونه.

هجمت الأفكار على عقلي هجومًا لا مخلص منه، على الرغم من حاجتي إلى عدم التفكير ورغبتي الملحة في أن أنعم ببعض السكون، لذلك قررت الهرب من أفكاري مستعينًا بروعة وطراوة الماء المعطر الذي يحتويني الآن.

تركت جسدي ينساب داخل الماء فغطست وتركت الأفكار وحيدة على سطح الماء، منتظرة خروج رأسي حتى تعود إليها من جديد، ثم أغمضت عيني لأحظى بلحظات من متعة السكون.

لكن فكرة استطاعت أن تتسلل إليّ ووصلت إلى عقلي فأخرجتني من البانيو مسرعًا ثم ناديت على الخادم، أريد أن أقابل سيادة.... بالطبع هو يعرف سيادة اللواء بمولانا، عندئذٍ انتبهت إلى أن مولانا هو سيادة اللواء الآن ولا فرق فقلت أريد أن أقابل مولانا.

إن مولانا يستعد لدخول الخلوة ولن تستطيع أن تقابله الآن سيدي لكن ستقابله في الخلوة.

- هل أستطيع أن أتحدث إلى الشيخ همام؟

سيأتي إلى الخلوة أيضًا سيدي، إن مولانا قد أمر لك بشرابه المفضل، كأس من عصير الأناناس المثلج، هل أضعه لك في (الفراندة)؟

- نعم ضعه هناك.

كانت شمس الغروب قد زالت ولم يتبق إلا بعض الشفق معطيًا انعكاسات على الجبال المحيطة بالسهل فبدت الألوان غير الألوان، بما يشبه السحر فزفرت مخرجًا كل التعب وكنت محظوظًا بريح رقيقة حملت كل أنواع الروائح للزهور المحيطة فملأت رئتي بها وكان إحساسًا غريب، شعرت أن دماء القوة راحت تسري في جسدي، أغمضت عيني حتى أحظى بتتبع روح القوة تلك التي تسري في جسدي.

إن هـذا الجـو لا يبتغيـه إلا زاهـدًا عابـدًا متأمـلًا سـاكنًا، أو محـب غادرتـه حبيبتـه فانـزوى بعيـدًا عـن الحيـاة وأراد أن يلتمـس الراحـة مـن عذاباتـه ويسـتعين بهـذا الجـمال عـلى ضعفـه، أو صـوفي أراد الوصـول.

هـل سـيادة اللـواء أصبـح صوفيًـا؟ ألم يعلـم رأي الله فيهـم والـذي بينـه لنـا فضيلـة المرشـد أنهـم أهـل بدعـة وضـلال وأنهـم عبـدة الأضرحـة ويضلـون النـاس باسـم الديـن؟

- ألم يبصر قلبك بعد؟

نظرت يمينًا ويسارًا وقلت:

- من أين أتى ذلك الصوت؟

قمـت باتجـاه السـور الخشـبي ووقفـت عنـده لأرى صاحـب الصوت وأعـرف إن كان صاحـب الصـوت يحدثنـي أنـا، أم أن ذلـك الحديـث مـا هـو إلا حديثًـا داخليًـا واختلـط عـليّ الأمـر، لكـن إن كان صاحـب الصـوت موجـودًا فعـلاً، كيـف علـم مـا أفكـر فيـه؟

دارت تلـك الاسـتفهامات في ذهنـي قبـل وصـولي إلى السـور الخشـبي لكـن أصيـب عقـلي بذهـول ومـن هـول المفاجـأة قلـت:

- أهو أنت؟

- أنا عبد الله.

- لقد بحثت عنك طويلا، أين ذهبت؟

- رحلت.

- هل أنت دائم الترحال؟

طلبت المستقر بكل أرضٍ فلم أر لي بأرضٍ مستقرا

ونلت من الزمان ونال مني وكان مناله حلوًا ومرا

- هل أنت صوفي؟

- أنا الباحث بقلبه عن الحقيقة.

أردت أن أقـول لـه كذبـت بـل أنتـم مشركـون بـالله، تشركـون بأوليائكـم، فـرد الشـيخ عـلي و تعجبـت لأن تلـك الفكـرة لم أنطـق بهـا ومـا زالـت في عقـلي.

فقال الشيخ:

إن المحب إلى المحبوب يتجرد والميل إلى سواه إشراك.

بل مَن منكم من قال؟ أنا الحق.

وكيف لمثلك أن يفهم؟، اقترب مني.

اقتربت قدر استطاعتي، وضع يده على قلبي وقال:

إن القلـب عـين المحـب وفي بحـار العشـق يـذوب هـذا وفي متاهـات الشـوق يوجـد أقـوام. آه، أتمنـى أن تـذوق كـي تعلـم، فمـن ذاق علـم ومـن علـم أبـصر، عندمـا تصـير روحـك مـن روح الله، لأن الـروح ليسـت محـدودة بالجسـم لكنهـا موصولـة بـه تثـير الشـوق إلى الامتـزاج بالأصـل الـذي هـو كل شيء وليـس في عـالم الحقيقـة سـواه.

شـعرت ببعـض النفـور مـن كلام لا أفهمـه وتذكـرت كلام شـيخي عنهـم، أنهـم أهـل فتـن، فكلامهـم لا تسـتطيع القلـوب مقاومتـه؛ فقاومـوه بعقولكـم، لكـن شـعرت براحـة وسـكينة عندمـا لامسـت يـد هـذا الشـيخ قلبـي، لكـن الشـيخ هتـف وقـال:

إنك رجلٌ تحدث له الأعاجيب وسترى أحياء الموتى.

ماذا تقول؟

سترى عجبًا يا بني، فلا تصدق عقلك، لكن صدق قلبك.

هلا أوضحت فأنا لا أستطيع أن أفك تلك الرموز، هلا تفضلت في الداخل تشاركني الشراب؟

- إن مولانا لم يأذن.

فقلت هل أحضر لك هنا بعض الشراب؟ إنه جيد.

لم أمهله حتى يرد وناديت على الخادم كي يحضر كأسًا من عصير الأناناس المثلج للشيخ المسافر.

لكن عندما التفت لم أجده ولم أجد له أي أثر فقلت وتمنيت أن يسمعني:

إنك لغز أكثر من كلامك!

عدت إلى الكرسي الهزاز المصنوع من جريد النخل، لم أشغل بالي بما قاله الرجل.

إن كل ما يقوله جنونٌ، أشاهد العائدين من الموت أو أحيائهم، إن تلك تخاريف صوفية، فهم دائمًا ما يثيرونك بكلام لا تفهم منه شيئًا ويتحدثون عن المستقبل وكأنهم يقرأون كتاب الغيب ويشعرونك أنهم يمتلكون السر،

لكن لا أعرف لماذا أحدثهم ولا أرفضهم ولا أتحرج من الوقوف معهم؟ مع أن مولانا قد حذرنا منهم وقال عنهم أنهم تلك الفرقة التي أخبرنا الله عنها «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا».

بتلك الآية ختمت أفكاري وعدت إلى استمتاعي بذلك الجو الذي لا يوصف في جماله وسكونه.

لكن لم أستطع أن أقاوم سؤالاً طاف بذهني.

كيف علم ذلك الرجل بأني رجلٌ تحدث له الأعاجيب؟ ألاقي رجالاً مثله وأشاهد أحداثًا عجيبة، أحب فجأة.....اااااه.

ثـم أكتشـف أننـي أحببـت بفعـل فاعـل تحـت تأثـير ذلـك الجهـاز الـذي منـح قلبـي عاصفـة مـن العواطـف الزائفـة، ألغيـت عقـلي وصدقـت قصصًـا هزليـة عـن فتـاة أشـعر بحالـة حـب فـوق العـادة مـن صورتهـا وأجدهـا ميتـة ولا يوجـد لهـا جثـة، جثتهـا مختطفـة، أليـس هـذا عجيـب؟

لكـن الأعجـب هـو حبيبتـي، تقـف بجانـب مبنـى غريـب ثـم تدعـي أن رجـلاً خـرج مـن ذلـك المبنـى ثـم مـات وعندمـا يذهـب الضابـط للتحقيـق لم يجـد الجثـة، فتحـاول تلـك المـرأة إقناعـه وتقـول أنـه أعطاهـا خاتمًـا ولكـن عندمـا ذهبـت إلى سـيارتها كـي تحـضر ذلـك الخاتـم لم تجـده، ورجـال أمـن المرشـد لم يجـدوا الخاتـم أيضًـا وأجـده أنـا ويفشـل رجـال أمـن المرشـد بأجهزتهـم المتطـورة في العثـور عـلى ذلـك الخاتـم وأعثـر عليـه أنـا، خاتـم يبـدو مـن معـدنٍ مختلـف، نعـم لكـن ليـس مـبرر أن يكـون سـبب كل الحـوادث ولا يجـدوه وأجده أنـا، ولأني أحببتهـا وصدقت روايـة ذلـك الضابـط المدسـوس بالفعـل مـن أمـن المرشـد حتـى أدخـل ذلـك المبنى ويضعـون لي مـن الصعوبـات حتـى أطمئـن إلى صـدق روايتهـم والأغـرب أنهـم جعلـوني أكلـم الموتـى. ثـم لغـز الخـروج والدخـول واللغـز الأكـبر عندمـا أخـرج مـن ذلـك المبنـى الـذي أوشـكت عـلى الهـلاك فيـه، يخيـب بحثـي في العثـور عـلى أي معلومـة عـن ذلـك المبنـى، كل ذلـك حتـى لا يكـون أمامـي إلا بابًـا واحـدًا أطرقـه بحثًـا عـن المعلومـة، هـو سـيادة اللـواء، فأكـون المرشـد إليـه.

لكن لماذا لم يفعلوا تلك المؤامرة منذ رحيله عن الجهاز؟

الاحتـمال الوحيـد أنهـم يرتبـون البيـت مـن الداخـل الآن، وتخلصـوا مـن مولانـا نائـب المرشـد وأرادوا أن يتخلصـوا مـن رفيقـه وربـما يعلمـون بجيشـه الصغـير المتطـور، وربـما كان لمولانـا نائـب المرشـد صلـةً بـه، فـأرادوا معرفـة المـكان الـذي يعيـش فيـه ومـكان الجيـش ويتخلصـون منـه ومـن جيشـه قبـل أن يسـتفحل أمـره، كلهـا احتـمالات لكـن كنـت في هـذه الاحتـمالات كعـروس المسـرح يحركهـا أمـن المرشـد كـما يشـاء، ورغـم ثقتـي في عقـلي إلا أنـه قـد تـم التلاعـب بي.

كيف تم التلاعب بعقلي؟ كان مدخلهم هو القلب؟ ولأني أحببت، أحببت سرابًا! عندئذٍ أجهشت بالبكاء على لذة الحب الزائف، وكانت موجة بكاءٍ عاتية، لم يخرجني منها إلا دخول الخادم.

- سيدي ؟

- ماذا تريد؟

وبطرف ثيابي مسحت الدموع من على عيني.

- بإمكانك الانضمام إلى الخلوة سيدي.

- اعطني خمس دقائق.

- حاضر، سأجهز لك ثياب الخلوة.

لم أفهم ما يعنيه بثياب الخلوة لكن نظرت إلى السكون السرمدي حين يتم اختراقه من موجات الظلام وتشبع النهار بالظلام، فلم يعد له أثر،

- ألهذا الحد أحببتها؟

وقبل أن أبدأ في موجة بكاءٍ أخرى دخلت إلى داخل الاستراحة فوجدت الخادم ينتظرني حاملاً معه لبس الخلوة فارتديت الثياب وهو طاقية خضراء

وقميص أبيض طويل ممتد حتى الركبة وعليه صديري حريري أخضر وبنطال أبيض، كان نفس اللباس الذي يرتديه الخادم عندما خرجت من غرفتي ونظرت للخادم فأجريت مقارنة بين لباسنا فلم يكن هناك فرق فعلي فقلت:

- هل أنت ذاهب إلى الخلوة أيضًا؟

- نعم سيدي كلنا نذهب للخلوة فلسنا عمالاً بل عبادًا.

لم أنطق بعد كلاماته تلك، وسرت معه في صمت وكأن الطير على رأسي لكن قلت هامسًا لنفسي، أحسنت سيادة اللواء في تربيتك لرجالك،

تحركنا تلك المرة دون سيارة رغم بعد المكان لم أكن أرغب في الحديث حتى إلى نفسي وتركت نفسي للهواء الجاف الحامل لرائحة الزهور، شعرت رغم كل ما مررت به وما أمر به أنني في تلك المنطقة مثل طيف وأنني أعيش حالة روحية رغم معرفتي بأن الطقوس الصوفية حرام شرعًا، لكن هذا الصفاء يلقي السكينة على قلبي.

وصلنا إلى باب المغارة وكان مدخلها مرتفعًا، عريضًا جدًا، مخالف للمغارات التي دخلتها في تلك المنطقة ذات المداخل الضيقة، المتسعة من الداخل، وكانت شديدة الاتساع من الداخل يمر داخلها تيار من الهواء الرطب تفوح منه بخور العود، مشينا حتى انقضى الظلام وبدأ ظهور النور وازدادت ريح العنبر فملأت رئتي بطيب ريحها ولكن لم تشغلني تلك الريح الطيبة عن متابعة المريدين، ولم يخطر ببالي أن أرى تلك الأعداد من الصفوف المتراصة من البشر التابعين الذين يرتدون مثل ما أرتدي، مشيت متأملاً لهؤلاء القوم، إنهم مقاتلون ومزارعون بالنهار وعبادٌ بالليل، أي فكر أو أي روح بثها اللواء فيكم حتى أجدكم بتلك الطريقة؟، لم أستطع أن أتبين موقع سيادة اللواء لكن كان الجميع ينظرون في اتجاه واحد أو قبلة واحدة، من المؤكد أن سيادة اللواء هو القبلة فظللت على تحركي في نفس الاتجاه.

بدت من بعيد أريكة كانت قبلة العابدين الذين تفوح من أفواههم رائحة الذكر وطيب الدعاء، ورأيت الدموع المختلطة بالفرح تملأ العيون، إنهم في حالة حب، حاولت أن أمنع قلبي من التأثر بهم.

كان بجانب الأريكة على اليمين كرسي، تبينت أن من يجلس عليه هو الشيخ همام وعلى يسار الأريكة كرسي يجلس أحدهم عليه، لم أعرف حجم الرفعة التي يحظى بها الرجل حتى يجلس على يسار الأريكة، لكنني علمت بعد ذلك أنه المنشد.

أثناء سيري رأيت طيف يمر بين الصفوف وعرفته عندما نظر إلي قبل أن يختفي عن عيني، إنه طيف الشيخ المسافر، نظر إليّ بابتسامته ثم اختفي. رأيت مولانا سيادة اللواء قد حضر، علمت ذلك بعدما اشرأبت الأعناق وقالوا الله الله، ثم صمتت الألسنة وساد السكون.

كنت الوحيد الذي ما زال يتحرك، فرآني سيادة اللواء فأشار إلي بالاقتراب فاقتربت حتى وقفت أمامه، عندئذٍ طلب مني الجلوس فجلست.

كان سيادة اللواء أو مولانا يرتدي مثلما نرتدي لا فرق بيننا وبينه لكن قدره كان عظيمًا.

عندئذٍ قال اللواء لكل المريدين:

- السلام عليكم.

فرد الجميع بصوتٍ يملؤه الحماس والحب.

- وعليكم السلام يا مولانا.

ثم عادت الرهبة والإجلال إلى الجموع الناظرة والواقفة في حضرة مولانا ورأيت البعض مشدود الوجه، يحرك أطرافه بعصبية كأنما يقاوم شيئًا ما،

نظرت إلى الشيخ همام وأردت أن أسأله عن الأجندة والخاتم الذي يوجد بداخلها لكن هيبة وجلال الموقف دعاني للصمت.

وتذوقت طعم الحسرة وقلت لنفسي عن أي شيء أبحث؟ إنها وهم وإني طعم، تلك حقيقة الموقف التي عليّ إدراكها.

ثم بدأت الطقوس الصوفية بالإنشاد فقام الرجل الجالس بجانب مولانا ينشد بصوته الشجي وأجزم أنه صوتًا جميلاً لم أسمع مثله من قبل، وقام الشيخ همام بتنظيم الحضرة بمقاطع صوتية «الله الله» وبالتصفيق المنتظم مع حركة الجسد، ثم بدأ ظهور دخان صوفي النزعة، دخان الحشيش النقي، بحثت عن مصدره فوجدت كميات من الحشيش الموضوع عند مصادر الهواء الداخل إلى المغارة، قاومت بكل ما أملك الحشيش الصوفي الذي يبعث أحاسيس الجمال وكدت أسكر مثل هؤلاء الذاكرين الذين أسكرهم الصعود مع الحماس والجلال المصاحب لصوت الشيخ همام، ورغم خشونة صوته وقوته إلا أن التنظيم في الأداء الصوتي المصاحب للأداء الحركي جعله متناغم مع صوت المنشد العذب الذي شعرت مع امتزاجه بروعة الحشيش، أنه صوت منشد من أهل الجنة، لكنى قاومت بكل ما أستطيع أن أنجرف

إلى الوقـوع في معصيـة الصوفيـة وكنـت أقـرأ في تعاليمهـا لإثبـات خطأهـا تقربًـا إلى الله ، وعـلى الرغـم مـن أن المنشـد لم يقـل شركًا بـل كان الذكـر متضمنًـا حـب الله في ذاتـه والحـب لله والتقـرب منـه ليـس خوفًـا مـن نـاره، ولا طمعًـا في جنتـه، بـل كان الطلـب هـو حـب الله لأنـه هـو الحـب. ومـع سـماعي نشـيجًا صادقًـا لبـكاء أحـد الأحبـة المشـتاق لحبيبـه وإحسـاسي بصـدق دعـواه، كاد الحاجـز النفـسي بـين مـا يدعـون وبـين مـا أعتقـد أن ينهـار، إلا أني حافظـت عليـه.

كانـت الوجـوه التـي رأيتهـا وجـوه عاشـقة أضناهـا شـوق المحبـين ووجـد العاشـقين لكـن مـع نظـرة إلى العيـون، إلى عيونهـم، ومـع زيـادة واضحـة في حمـاس المنشـد، تبعتـه موجـة مـن الحـماس انتابتهـم، رأيـت أن عيونهـم كانـت في رحلـة المعرفـة . لم أعتقـد يومًـا أن مـا أراه الآن ممكـن الحـدوث.....

لم يسـتطع عقـلي أن يـدون كل مـا رأيتـه مـن ملاحظـات وضعتنـي في موضـع شـك في كل مـا قيـل لي. وجـدت مولانـا ينظـر إليّ فنظـرت إليـه ومـع تسـلل الحشـيش إلى روحـي رأيـت مولانـا يحملنـي بعيـدًا عـن كل شيء وكأنـه وكأني وحدنـا في الوجـود فقـال لي:

– لما لا تذكر مع الذاكرين؟

– إن هناك شيء في داخلي يرفض ذلك.

– لماذا؟

– لقد علمونا أن الذكر بتلك الطريقة حرام، وإن الطرق الصوفية كفر.

– ألا تعلم ذلك ؟

ضحك مولانا بصوت جهوري جعلني ارتبك وقال:

– من علمك؟

– مشايخنا، الذين علموك أيضًا.

– هل تعتقد أن ما علموك إياه صحيحًا؟

– نعم صحيح، إنه علمٌ محقق من أهل العلم.

– ومَن أدراك بصدق ما قالوا؟

بعد فترة من الصمت قلت:

أتريد أن تقول إنهم ربما كذبوا علينا وإن ما عشت طوال عمري أعتقد أنه صوابٌ أضحى في لحظة موضعَ شكٍ؟

هناك مئات من الفرق في الإسلام مثل كل ديانة، هناك الكثير من الفرق فيها، وكل فرقة تدعي أنها صاحبة المعرفة الحقيقية للدين وترتكب في سبيل ما تعتقد ما تشاء من المجازر.

أتريد أن تقول إنها من الممكن أن تزيف الدين لصالحها؟

أقول لك إنها تقتل الإنسان من أجل ما تعتقد، ألا تستطيع أن تزيف دون أن يخالجها ألم الكذب من أجل اعتقاد داخلي بصواب ما تعتقد وأنها تمتلك المعرفة الحقيقية للدين؟ أتدري إن ذلك الادعاء الذي يموت من أجله كل الحمقى يكون من أجل هدفٍ دنيوي؟

أتقول إن كل ما تعلمناه خطأ؟

أقول كل ما تعلمته، ربما يكون صواب، لكن انزع عن عقلك عباءة العنصرية، فكل الفرق من كل الأديان هي تبغي الوصول إلى الله، رضا الله وكلها صواب لكن عليك أن تختار منها ما يناسبك.

ما الذي تقوله؟ هل كل الصوفيين يفكرون بتلك الطريقة؟

إنك يجب أن تختار ولا تترك نفسك لما يفرض عليك، إن هؤلاء العارفين الذاكرين همهم هو المعرفة والوصول وكل منهم له حال مع الله، لا يهمه إن آمنت بما يؤمن أو أنكرت، لأنه يعرف أن الله هو مراده ويصل إلى معرفته بالذكر، فبالذكر تنجلي مرآة قلبك ويرتبط قلبك بالرسول.

شعرت مع حديثه بضعفٍ شديد نتيجة صراع محتدم بين المنطق فيما يقول وبين ما تربيت عليه منذ الصغر، حتى أن صار جزءًا من تكويني.

شعرت في أيام كثيرة وأنا أدافع عن اعتقادي عندما كنت أحقق مع الملحدين، أنني متهم أمام نفسي، عندما تمس أفكارهم شيئًا ما كنت أخاف، فأصب عليهم العذاب صبًا وعندما آوي إلى فراشي كان عقلي يلفق إجابة فأنام مطمئن، لكن يا مولانا أكبر دليل على خطأ ما تقول أنه يثير اضطراب داخلي مماثل لذلك الاضطراب الذي يثيره كلام الملحدين.

شعرت بوخزة في جنبي مصاحبًا لها صوتًا في أذني كان واضحًا مفهوم الكلمات، قال عندما تكون في حضرة مولانا لا تدع عقلك ينشغل بشيء آخر.

نظرت إلى مولانا فوجدته مبتسما لي وأكمل حديثه:

عندما تبحث عن المعرفة فستصل إلى حقيقة واحدة أنه ليس هناك موجود إلا هو، فهو هو، وما هذه الظواهر والمظاهر التي تراها إنما هي مظهر لحقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية.

لم أستطع مع كلماته أن أوقف عقلي عن التفكير، فانصرفت عنه متذكرًا حسن بدير، ذلك العالم الذي مات على يد الصول عبد العاطي عندما قال لي

- ما الكون؟ ما الإنسان؟

- الكون هو الكون والإنسان هو أنا.

ضحك ضحكة أزعجتني وأردت أن أفتك به لكن انتظرت حتى ينتهي من كلماته متصيدًا أخطائه حتى أنقض عليه فأنتصر لنفسي.

أتدري أيها المحقق؟ إن المشكلة تكمن في ما نحمله من وعي، فما نراه من سماء وأرض وأشكال وعوالم ما هو إلا تفسير وعينا لهذه الأشياء، وحقيقة الأمر إننا لا نرى إلا ما تسمح به حواسنا، ولأننا خضعنا لنفس عوامل التطور فنمتلك حواس متشابهة فصار لدينا حس مشترك تجاه ما تدركه حواسنا.

- لا أفهم ما تقول، هكذا دومًا أنتم تتحدثون بكلامٍ غير مفهوم، حتى نقف مشدوهين ونعتبر تخاريفكم صحيحة وحقيقة لا تقبَل جدال.

- إن هذا الإحساس المشترك أيها المحقق جعلنا نعتقد أن ما نراه حقيقي.

- ما الذي تود أن تقوله؟

- أود أن أقول يوجد احتمال أن نكون جزءًا من تجربة يجريها الواجد أو نحن جزءٌ من ذلك الواجد.

صرخت فيه أسكت (استغفر الله العظيم).

تذكرت أن هذا الكلام يشبه كلام مولانا، أن الكون مظهر من مظاهر الواجد

فتنبهت أني يجب ألا أنشغل عن مولانا وأنا في حضرة مولانا. نظرت إليه فوجدته ينتظرني مبتسمًا وقال:

ما يجب أن تعرفه........ فقاطعته قائلاً

ما يجب أن أعرفه هو المبنى ٦٦ وسر هذا المبنى، هذا ما جئت من أجله. صدمني نسياني فأفقت من غفوتي وقلت أين أخذني نبات الحشيش وكم استغرقت في شرودي هذا؟

نظرت إلى مولانا والذاكرين فوجدت موجات الذكر صارت أكثر حماسًا والأعين أكثر شخوصًا فظننت أنهم كما يقولون في حالة اتحاد الواجد والوجود، الكل صار واحدًا.

ازدادت رغبتي في مغادرة هذا المكان وشعرت أني ممزقٌ، رحت ألتمس

الراحة في النظر للذاكرين الذين يتحركون بمنظر مهيب كوحدة واحدة، يذكرون بكلمة «هو» ينطقونها بصوت واحد وكأنهم واحد، يفعل فعلًا واحدًا، وبعد قول "هو هو" مرتين يقول الشيخ همام "الله"، كان مولانا هو قبلة هؤلاء الذاكرين وطريق الوصول.

نظرت إلى مولانا فوجدته مغمض العينين، يتصبب عرقًا متقلص العضلات ويده مشدودة وانقلب سواد عينه إلى بياض ويبدو أن جسده يعاني ارتعاشة فظننت أنه يعاني نوبة صرع محدودة، انتبهت إلى نظرة الشيخ همام المعاتبة لتلك النظرة الطويلة إلى مولانا وهو في تلك الحالة، ومال عليّ قائلاً إنها المكاشفة، إن مولانا في المكاشفة يتلقى من حبيبه.

لم أعرف عما يتحدث لكن التفت إلى حالي فبين دافع الرحيل ودافع البقاء اضطربت حالي لكن كان لجسدي حال أخرى فمع الصوت الشجي وموجات الحشيش الصوفي الدافعة إلى التحرر من ثقل الجسد وأغلال النمط والعادة راح جسدي يتمايل مثل هؤلاء الذاكرين، لكن نبهني صوت الشيخ المسافر في أذني أني أذكر عكس الذاكرين غير العابئين بي أو المنتبهين إلى حالي..

وقال لي اغمض عينيك واترك روحك تهيم في الوجود حتى تصل إلى اللذة، لذة الوصول والمعرفة ودع جسدك سيتمايل ويتناغم مع خلاياك، افعل كما تفعل الأشجار فهي تذكر وتتمايل وتتخلى عن صلابتها مع الريح الرقيقة وتقاوم بكل عنف تلك الريح العتية فترفض أن تتمايل معها حتى وإن كان خلعها وموتها ثمنًا لذلك.

أغمضتُ عيني ورحت أتناغم مع خلاياي ولا أقاومها فذكرت معها في نفس الاتجاه مع صوت المنشد وتقطيعات الشيخ همام المميزة، كانت اللحظة الوحيدة في حياتي التي لم أفكر فيها في أي شيء ولم أستطع أن أختبر تلك الحالة مرة أخرى، كانت حالة لن أحكي عن ما شعرت به لأني لا أعرف كيف أصف ذلك الشعور ثم انقطع صوت المنشد وراح الجميع يقول «الله الله هو هو» بطريقة متقطعة حتى انتهوا ففتحت عيني وتوقفت عن الذكر لكن لم أقل مثلما يقولون رغم أن صوت ذكرهم كان له جلاله فكأنه صادر من أعمق أعماق النفس البشرية نظرت إلى مولانا فوجدت عضلات وجهه بدأت في الاسترخاء وانقطع العرق ورموشه أبطأت قليلاً من الرجفة مع عودة سمار العين، وبدأ تيار الحياة يدب في جسده وبعدها فتح عينيه، فصمت الجميع وبدأ مولانا في الحديث بصوت جهوري عكس حالة الضعف التي كان عليها وتلك المعاناة التي كان يعانيها فاعتقدت أنه شخص آخر أو أن شيئًا ما قد تبدل، وقال:

- أبشروا لقد كنتُ في حضرة الخضر وهو يُقرئكم السلام..

ارتفع صوت الحضور فرحًا مرددين في نفس الوقت:

- وعليكم السلام يا مولانا المعلم.

- لقد بشرني أنه اقترب ظهور أميركم وبه ستنتصرون على أهل البدعة والضلالة، الإخوان ومرشدهم.

ارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل «الله أكبر الله أكبر".

- أعدوا أنفسكم لاستقباله بكثرة الذكر وتهذيب النفس والتدريب الجيد.

- إن الحبيب «ص» سيأتيني ليعطني أماراته في اليوم الموعود و قد اقترب

- وهتف مولانا قوموا إلى الذكر «الله الله «

قام الجميع وقد التهبت حماستهم بالبشرى وازدادت أدخنة الحشيش،

نظرت إلى الوجوه الذاكرة فلم أستطع أن أتابع سرعتها وشككت أن الحشيش ربما يكون مسؤولاً عن عدم قدرتي على الاستمرار في الملاحظة أو القدرة على التفكير، لكن على ما يبدو أن ما تلقيته من مفاجئات أفقدني القدرة على فعل تلك الأشياء وشعرت بشيء في نفسي كان أقوى مني، رفض كل ما قاله مولانا وشعرت بضيق في التنفس والاختناق ورحت أتنفس بصعوبة ثم فقدت الوعي.

لم أعرف كم طالت مدة تلك الإغماءة لكنني علمت أنى أصبحت منعزلاً عن العالم، شاهدت روحي عارية منكمشة تجلس في وضع القرفصاء على شط بحيرة بيضاء متجمدة تنعكس عليها أشعة غروب الشمس الذهبية، أخرجت روحي رأسها من بين الأرجل ونظرت إليّ وقالت:

- من أنا ومن أنت؟

لم أعرف بماذا أجيب. وشعرت بتيار من الأفكار المتصلة عن من أكون.

فقبل اليوم كنت لا أشك لحظة في معرفتي بذاتي فما كنت وما أريد أن أكون كان جليا أما الآن.........!

وبعد الحذف والإضافة لوعيي لم أعد أعرف هل تلك الحياة حياتي هل أنا أنا، أم أن هناك من شكلني كما أراد، ومع زفرة حارة مصحوبة بغصة كبيرة تبعتها صرخة آه...

نظرت إلى الروح مرة أخرى وقلت:

- الآن لم يعد لدي ما أثق فيه غير المرشد هو طريقي إلى الوصول لرضى ربي.

نظرت الروح إلي بحنق وقالت:

- هل تعتقد أن ما تحمله من أفكار عن المرشد صحيحة؟

- بالطبع صحيحة.

- ألا يوجد احتمال أن هذا الاعتقاد قد تم زراعته بعقلك؟

- لا لا يوجد أي احتمال في ذلك.

- هل أحببت؟

- ومع دمعة من عيني تساقطت قلت: نعم أحببت حبًا صادقًا.

- حبا صادقًا!

- هل كان حقيقيًا.

رغم علمي بأن ذلك السؤال سوف يُسأل إلا أنني أجهشت بالبكاء ولم أستطع أن أتحمل وشعرت بالصقيع الذي يلف روحي وسمعت اصطكاك أسناني من البرد لكن روحي عندئذٍ تنبهت إلى صوت قادم من بعيد من أعمق أعماق البئر لأقدام تقترب أكثر فأكثر، ثم توقفت الخطوات وسمعت صوتًا ينادي مصحوبًا بهزة لطيفة في كتفي..

سيدي سيدي استيقظ فقد أعددت الحمام لك، إن مولانا ينتظرك لتصلي الفجر معه.

مع نهاية تلك الكلمات شاهدت روحي تتحرك باتجاهي وراحت تذوب في جسدي ومع اقتراب الصوت عند تكراره أكثر فأكثر استطعت أن أتغلب على رغبه داخلية لمواصلة النوم فانتزعت نفسي من لذة النوم وفتحت عيني فقال الخادم:

- سيدي قد أعددت لك الحمام.

- شكرًا.

قمت من سريري بتثاقل مصحوب بوهن في جسدي، تحركت إلى الحمام ومع دخولي الحمام شممت رائحة البانيو العطرة واختبرت الماء بأطراف أصابعي، بعد نظري لوجهي في المرآة فكان باردًا لذيذًا، فتركت جسدي ينساب داخل الماء بعد خلعي ملابسي التي كنت أرتديها مع دخولي الحضرة، شعرت بخدرٍ لذيذ في جسدي تمنيت أن أقضي ساعات الصباح في البانيو حتى تلتئم روحي، وتساءلت كم يا ترى غبت عن الوعي؟، فأنا أشعر أنني قد استغرقت بضع دقائق، عندئذٍ سمعت الخادم وهو ينقر على باب الحمام وقال سيدي إن مولانا ينتظرك لصلاة الفجر معه فلا تتأخر..

أردت أن أعتذر وأبقى في البانيو، لكن لم أستطع إلا أن أستجيب.

خرجت من البانيو بتثاقل كبير ولبست ثيابي على مهل رغم سماعي لصوت المؤذن، وبعد أن انتهيت من اللبس توجهت إلى المسجد. ومع دخولي تنبهت إلى عين مولانا التي تتابعني وشاهدت ابتسامة ترحيب لرؤيتي، لكن لم أستطع أن أبادله نفس الابتسامة.

وبعد أن انتهينا من الصلاة قال مولانا:

- يبدو أنك لست في حالة جيدة، سأتركك تستريح وأراك في الثامنة صباحًا.

انصرفت من المسجد وأردت أن أخبر مولانا أنني لم يعد لي شغف بأن أعرف أي شيء.

ودخلت غرفتي وانتابتني حالة من الحيرة وعدم القدرة على اتخاذ أي قرار أو القدرة على فعل أي شيء وتذكرت حديث الشيخ عندما وصف حالة مشابهة لحالتي الآن، وضحكاته عندما أخبرني أنه صك مبدأ جديدًا وأسماه الاستحمار فلم أفهم ماذا يعني بهذا المبدأ، فراح يشرح بحماس شديد حتى يُفهمني ولا يترك لي الفرصة لعدم الاقتناع فقال:

عندما يجد الحمار في مساره الذي اعتاد عليه حفرة كبيرة مفاجئة ويدرك أنه لن يستطيع أن يتخطاها ولا يستطيع العودة فيقف بجانب الحفرة غير مرتاح لأنه لم تعد لديه القدرة على الفعل أو القدرة على اتخاذ قرار فيتحرك بجانب الحفرة في اتجاهات متعددة لا يمكن في إحداها العودة إلى الخلف أو المغامرة في عبور الحفرة.

عندئذٍ أقررت أنني في حالة استحمار الآن، وخِفت من فكرة أن أظل على تلك الحالة حتى مقابلة مولانا، فاتجهت متثاقلاً إلى السرير ومع مرور الوقت وبعد محاولات استطعت أن أتخذ قرارًا بإغماض عيني ثم حاولت إقناع نفسي بالهدوء قليلاً.

وشيئا فشيئا بدأت حدة موجات الاكتئاب في التراجع، فأعطت بعض المساحة لعقلي كي يعمل وبدأ فيض الأفكار بطيئًا متعبًا لكنه سرعان ما استعاد عافيته، وقفزت إلى عقلي فكرة لم أكن منتبهًا لها، قفزت أنا على إثرها من سريري

«مولانا هو أكبر تهديد للأمن القومي»

وبعد أن هدأتُ قليلاً قلت من هنا تبدأ القصة كلها وقد تنتهي، كل ما حدث لي كان من أجل أن أذهب إليه حتى يعرفوا مكانه، هكذا أراد أمن المرشد أن أكون الطعم، ولأن التحدي كان كبيرًا استباحوني، وربما يكون مولانا نائب المرشد هو شريكه في تلك المؤامرة ولذلك قد تم التخلص منه.

هـذا كل مـا في الأمـر، ومـا دامـت خيانـة سـيادة اللـواء لمولانـا المرشـد فـإن التخلـص مـن سـيادة اللـواء أصبـح ضرورة دينيـة سـوف أثـاب عليهـا، في تلـك اللحظـة علمـت لمـا خلقنـي الله، فقـد كنـت دومًـا أشـعر أن لحيـاتي قيمـة وأكثـر أهميـة ممـا أعتقـد وأن الله يدّخـر لي شـيئًا أو عمـلاً خُلقـت كـي أؤديـه، شـعرت بتحـول حالتـي مـن التعـب والإرهـاق إلى همـة ونشـاط وتحركـت بعيـدًا عـن سريـري وكان عـلي إعـداد خطـة لقتـل مولانـا سـيادة اللـواء.

لا يهمنـي مـا سـيحدث لي بعـد قتـلي لـه، لأني أعلـم أني لـن أسـتطيع أن أخـرج مـن هنـا حيًّـا دون دليـل منهـم لذلـك حذفـت خطـة النجـاة والتفكـير فيهـا.

- عندما أختلي بمولانا عليَّ أن أقتله.

- لكن كيف؟

إنـه خبـير بفنـون القتـال ورغـم تقدمـه عنـي في العمـر لكـن مـا زال يحظـى بجاهزيـة بدنيـة وعقليـة، رحـت أفـرك بيـدي في ذقنـي محـاولاً اسـتجلاب الأفكار، لـن أسـتطيع الحصـول عـلى أي آلـة حـادة.

اتجهـت إلى سريـري كـي أجلـس عليـه وقلـت عـليّ أن أرتجـل لأننـي لن أسـتطيع الحصـول عـلى فرصـة مشـابهة فينبغـي ألا أخـرج مـن هنـا إلا وأنـا قاتلـه. وضعـت رأسي عـلى السريـر ولـدي رغبـة عارمـة ألا أبـدأ في محاولـة القتـل إلا عندمـا أحصل عـلى سر ذلـك المبنـى ٦٦ ولم أدرك أني قـد غصـت في نـوم عميـق إلا عندمـا شـعرت بيـد الخـادم تهـزّ كتفـي مصحوبـة بصـوت سـيدي إن مولانـا في انتظـارك..

قمت مسرعًا وغسلت وجهي وشعرت بزوال الاكتئاب أو أي أثر له.

ثـم تحركـت إلى اسـتراحة مولانـا بمرافقـة حارسـه وأنـا مضطـرب المشـاعر خائـف.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- أهلاً حسن، أراك أفضل حالاً، لعلك قد اهتديت لحلّ.

نظرت مذهولاً إلى مولانا وقلت.

- لحل؟

- فقال نعم حل.

- عن أي شيء تتحدث سيادة اللواء؟

- حسن لو كنت مكانك لاضطربت مثلما اضطربت أفكارك وما كان هناك إلا شيئًا واحدًا أفعله.

- نظرت إليه باهتمام

- فقال ببساطة أن تزيل مصدر الاضطراب.

- ماذا ؟

- نظر مولانا إلى عيني مباشرة.

- وقال أن تقتلني.

نظرت إليه مذهولا، فقد بدا كل شيء واضحًا وقد تعريت أمامه تمامًا. وللحظات اعتصر الألم قلبي عن يقين مولانا بخيانتي له، لم أكن أخشى من العواقب بقدر حزني من إحساسي بخيانة الثقة التي أولاني إياها وقد كنت أنوي عند قتله أن أقتله من الخلف ولا أنظر إلى عينيه حتى لا أعيش ولو ثوانٍ بعده وإحساس بخيانة الثقة التي منحني إياها يلازم روحي.

لم أعرف ماذا أقول أو كيف أدفع عن نفسي ذلك الاتهام، تفاديت نظرة مباشرة إلى عيني من مولانا وقلت:

- ما قصة هذا الجيش الصوفي؟

- تعال معي.

صعدت خلفه درجات السلم ودخلت معه غرفة مكتبه وكانت حجرة كبيرة في أحد أركانها ترابيزة اجتماعات كبيرة وشاشة عرض فاستنتجت أنه ربما يستخدمها في اجتماعاته وبها شاشة عرض متوسطة الحجم ومكتبة رصت الكتب فيها بعناية فهي مفهرسة نظيفة موضوعة بعناية، ومكتب عربي لا يضاهي جماله إلا مكتب مولانا المرشد، لكن هذا المكتب يطل مباشرة على تلة خضراء لم أكتشف وجودها من قبل، عليها نباتات لم أعرف ما هي تلك النباتات، لكن أريجها العطر لم أتذوقه أبدًا إلا هنا وقفت في وسط الحجرة مشدوهًا بما أرى، جلس مولانا على كرسي مكتبه ودعاني للجلوس أمامه فجلست ثم اعتدل ونظر إلى خزانة بجانب المكتب وفتحها بعدما أدخل الأرقام السرية ثم التقط شيئًا ملفوفًا مماثلاً للخرائط، كان ارتفاعه مساويًا تقريبًا لطوله البالغ مائة وتسعين سنتيمترًا وعندما ساعدته بفردها على مكتبه بلغ طولها ما يقارب ثلاثة أمتار أو يزيد، اكتشفت بعد ذلك أنها رسم كروكي للمبنى ٦٦ أردت أن أعترض على فعله لأني أنا أريد الآن جوابًا على سؤالي لماذا الجيش الصوفي هذا؟

لكن قلت لنفسي أنا الآن لا أريد أن أعرف إلا ما سألتك عنه لا أريد معرفة أي شيء آخر، لكن صوته كان حادًا وقاطعًا.

وقال إن جواب الجيش الصوفي يبدأ من هنا من المبنى ٦٦، ازداد اندهاشي من تلك المفاجأة التي لم يكن مصدرها قراءة مولانا لأفكاري والرد عليها فقد اعتدت منهم على ذلك، لكن مفاجأتي من هل تعرض مولانا لمثل ما تعرضت له في ذلك المبنى! لكن ذلك ليس دافعًا لبناء جيش، على كلٍ عليّ أن أنصت باهتمام وتنبهت بكل حواسي إلى ما سوف يخبرني به.

إن المبنى ٦٦ هو مبنى غير رسمي لجماعة الإخوان وأكثرها حماية وسرية لأنه يعتبر بيت الأسرار لها ولا يعرف الكثير من رجال الأمن عنه شيئا وأراك قد بحثت عن أي معلومة عن المبنى لكنك كما أعتقد لم تجد، حتى إن القطاعات ذوات الرتبة أقل من لواء في جهاز أمن المرشد لا يعلمون عنه شيئا ومعرفة من عرف تكون على أكثر تقدير سماعية.

- إذا كان ما تقول صحيحًا، فكيف يتم تأمينه؟

نظـر إليّ مولانـا نظـرة أخرسـت لسـاني فقـد تذكـرت مـا علمنـي إيـاه قديـمًا أن السـؤال هـو رأس المعرفـة فـلا معرفـة بـلا سـؤال لكـن علـيّ أن أُؤجـل كل سـؤال حتـى ينتهـي المعلـم مـن سرده.

عندئذٍ عاد إلى سرده بعدما انتهيت من أفكاري.

لكـن أفـراد مكتـب الإرشـاد كلـما زاد ارتقائهـم زادت معرفتهـم بـأسرار المبنـى وكانـت تمـارس فيـه طقـوس الترقـي والالتحـاق بمسـتويات أعـلى، لقـد بنـي هـذا المبنـى عـام ٢٠٢٠ بأمـر مـن المرشـد الثـاني وكان الهـدف الظاهـري عقـد اجتماعـات أعضـاء مكتـب الإرشـاد العالمـي في سريـة تامـة والحفـاظ عـلى سريـة أعضـاء المكتـب، لكـن سـتظهر أهـداف أخـرى مـن المبنـى مـع تفقدنـا للرسـم الهنـدسي المخصـص لبنائـه.

وأشار بيديه إلى المخطط الهندسي فنظرت إليه.

لكنـى صعقـت ووقفـت مشـدوهًا للحظـات ثـم قلـت لا يمكـن أن يكـون هـذا الرسـم صحيحًـا.

نظـر إليّ مولانـا وقـال: أعلـم هـول المفاجـأة عليـك، فأنـت كنـت تبحـث عـن مدخـل أو مخـرج عـلى الرسـم أو عـلى أقـل تقديـر مـن أيـن دخلـت وأيـن خرجـت لكـن لم تجـد وهـذا حقيقـي.

- حقيقي!

- نعم حقيقي فلا مدخل أو مخرج من هذا المكان.

- أيوجد مبنى بلا مدخل أو مخرج.

- نعم يوجد هذا المبنى.

- إذن كيف دخلت أنا وكيف خرجت؟

- ألا تعتقد أن الأمر بدا واضحًا بالنسبة إليك؟

- أنا لا أفهم.

إن الدخول والخروج يتم من خلال الحائط، كل حوائطه بإمكانها الحركة ودخول بعض الأجزاء في بعضها الآخر وإعطاء باب للدخول وآخر للخروج ويتم التحكم فيها عن طريق الكمبيوتر المركزي..

انتبهت جيدًا إليه عندما قال إن للحوائط استخدام آخر غير الحماية وقال انظر وأشار بيده إلى أكبر جزء في المبنى وقال:

إن تلك القاعة تسمى الصراط المستقيم وقد تم احتجازك فيها.

قلت متهكمًا: من الأجدر أن يسموها قاعة الظلمات.

تبسم مولانا وقال هي بالفعل كذلك لكن لاسم الصراط المستقيم مغزى،

أن كل عضو من أعضاء التنظيم عند خروجه يتلقى ورقه يحفظها عن ظهر قلب لأنها تعني له نجاته.

ماذا! أنا خرجت دون أن تكون معي ورقة مثل تلك.

إن كل ورقة يكتب عليها عدد الخطوات والاتجاه الذي عليه أن يسلكه مع مروره بتلك القاعة ومع ملامسته لمكان الخروج ينزاح جزء من الجدار على هيئة باب فيخرج العضو وقد نجا من الهلاك، أما الذين يشك المرشد في ولائهم فإن الخطوات التي حصل عليها والاتجاه يكون خاطئًا ويكون قد حُكم عليه بالهلاك جوعًا وخوفًا فكأنها صراط للمرور بين الحياة والموت،

هل فهمت الآن ما أعني أن المرشد الرابع قد سمح لك بالدخول والخروج.

فهمت أني كنت طُعمًا لاصطيادك.

إذن هم بريئون من قتل مولانا نائب المرشد أو أنه لا يعمل معك.

بالطبع صديقي نائب المرشد لم يكن يعمل معي رغم معرفته بجيشي الصوفي وربما يكونوا هم من قتلوه أو غيرهم.

لـو كانـوا هـم مـن أراد قتلـه لقتلـوه داخـل المبنـى بـكل بسـاطة ولـن يجـدوا مشـقة في تفسـير اختفائـه.

ربـما.. لكـن لـو علمـت أن إدخـال الأكـواد السريـة عـلى الكمبيوتـر المركـزي المتحكـم في المبنـى مسـؤولية المرشـد ونائبـه الأول وبهـذا لـن يسـتطيع المرشـد أن يتخـذ الأمـر منفـردًا، انظـر إلى تلـك الغرفـة التـي تبلـغ ٦٦ مـترًا طـول و٦٦ مـترًا عـرض، إنهـا غرفـة الأسرار أو قـدس الأقـداس بالنسـبة لهـذا المبنـى وبهـا الكمبيوتـر المركـزي ولا يدخلهـا غـير المرشـد ونائبيـه الأول والثـاني وأعتقـد أنهـا تحتـوي عـلى سرٍ مـا لا أعرفـه، لكـن تـم الترويـج لهـذا السـر ويقولـون إن إفشـاءه سيسـبب كـوارث عظيمـة لكـن صدقنـي فأنـا لا أعـرف هـذا السـر.

أمـا تلـك القاعـة فهـي قاعـة الترقـي وهـي قاعـة تجمـع بـين الظلمـة والنـور، يمـضي فيهـا المنضـم حديثـا بعـد حلفانـه القسـم بـأن يهـب روحـه وأموالـه وأولاده في خدمـة الديـن ومولانـا المرشـد ثلاثـة أيـام وفي آخرهـا يتـم اختبـار ولائـه حيـث أنـه في نهايـة العزلـة يعطـى أمـر مـن المرشـد ويكـون في طاعـة الأمـر هلاكـه ومخالفتـه نجاتـه كـما سيهيئ لـه، فـإن اختـار النجـاة فهو هالـك أو عـلى أكثـر تقدير يبعـد عـن الجماعـة أمـا مـن يختـار أن يطيـع المرشـد حتـى لـو كان فيـه هلاكـه فيصير عضـوًا في مكتـب الإرشـاد. أمـا للأعضـاء الذيـن سـيتم ترقيتهـم فـإن الخلـوة تمتـد لأسـابيع أو شـهور وهـي اعتـزال كامـل للعـالم واختبـارات في الطاعـة، ثـم يتبعـه قسـم لا أعرفـه يـدرك العضـو بعدهـا أن حياتـه هـي رهـن للمرشـد ولذلـك يكـون ولاءه الكامـل لـه.

هل يدخل مولانا المرشد ونائبه مثل دخول الأعضاء من تلك الأبواب؟

إن دخـول المرشـد ونائبيـه يعتـبر مـن الأسرار التـي يحصـل عليهـا العضـو عنـد ترقيتـه إلى مرتبـة نائـب مـع السـر الأعظـم للجماعـة الموجـود في تلـك الغرفـة ربـما يدخلـون مـن أنفـاق خاصـة.

- من بنى هذا المبنى؟

كان سـؤالًا مبـاشرًا مـن مولانـا لي وعلمـت أن هنـاك شيء مـا خلـف ذلـك السـؤال

ربما مهندسو سلاح المهندسين في الحرس الثوري.

إنهم مهندسين تابعين لوكالة المخابرات الأمريكية cia.

شعرت بشيء ما جعلني مرتاعًا من طريقة تفكيره كيف يفكر في ذلك وصرخت معترضًا «غير صحيح، ألا تعلم حجم العداء بيننا وبينهم وخطب مرشدنا وتأكيده الدائم على أنها دولة الشر وأنها دولة تحارب الإسلام؟ لذلك كنا نقوم بإعدام أي كتاب ونحرص على عدم وصول أي معرفة منهم حتى إن القوانين تجرم محاولة الحصول على أي شيء منهم فإن حجم القطيعة بيننا وبينهم لا يشكك فيه إلا مغرض"

كان هذا اتهام مباشر لسيادة اللواء.

لكنه رد ساخرًا وقال:

إذن قل لي، من أين حصلنا على التكنولوجيا المتطورة في هذا المبنى؟

ظللت للحظات في حالة صمت لشعوري بأن أحد الثوابت التي قد تربيت عليها وتربى عليها جيل كامل قد انهارت مع مفارقة منطقية بسيطة، طوال الوقت كانت الحقيقة أمام عيني لم أستطع أن أكتشفها بمفردي، هل حماس تجهيز أنفسنا للمعركة الفاصلة بيننا وبينهم وشواهد بسيطة من عدم السماح لنا بالسفر إلى أوطانهم إلا في أضيق الحدود توحي بأن هناك استعداد متبادل لكلينا للمعركة الفاصلة؟

اقترب مني مولانا وربت على كتفي وقال رغم إيماني بحتمية المعركة الفاصلة إلا أن ما رأيته يجعلني في حيرة..

نظرت إليه أنا وقد زادت حيرتي ولم أستطع أن أنطق ونظرت إليه بذهول كيف يستطيع قراءة أفكاري بسهولة وبشكل دائم، أخذت روحي قشعريرة مع مرور رائحة الأزهار الجبلية محمولة على نسمة هواء لطيفة باردة، وكانت القشعريرة ناتجة عن سؤال لنفسي:

هـل يمتلـك مولانـا القـدرة عـلى قـراءة الأفـكار إلى هـذا الحـد، نظـر إليّ مولانـا مبتسـمًا فـدق قلبـي بعنـف شـديد، فلـم أقـف يومًـا عاريًـا مثلـما أقـف الآن لكـن إن كان يقـرأ أفـكاري عـليّ ألا أحتجـز أي شيء في عقـلي، عـليّ أن أتحـدث، فقلـت

ألا يمكـن أن تكـون أنـت عميـلاً للمخابـرات؟، إن هـذا يتسـق مـع مـا نحـن فيـه الآن.

رد مولانا مبتسمًا وقال لا أنا لست كذلك.

هل يجب عليّ أن أصدقك؟

نعم يجب أن تصدقني لأن حربي القادمة ضد العملاء.

وقفت أمامه بتحدٍ وقلت:

سوف أثبت لك الآن أنك عميل للمخابرات الأمريكية.

لم أسـتطع أن أكمـل فقـد كانـت أول مـرة أرى ذلـك الغضـب عـلى وجـه مولانـا وقـال بصـوتٍ عـالٍ غضبـان:

لقــد نشــأت مثلــك في دولــة المرشــد ورأيــت المرشــد الإمــام الثــاني العظيــم بـاني مـصر الإسـلامية، وكنـت مـن أكثـر المتحمسـين بـين أقـراني الذيـن تربـوا في بيـوت إخوانيـة أسـعى إلى إعـلان مـصر دولـة إسـلامية وكنـت مـن أكثـر المدافعـين عنهــا وعــن عــودة دولــة الخلافــة ووضعــت كل مهــاراتي وإخــلاصي في خدمــة دولــة الخلافــة وفي رحلتــي معهــم كانــت تثــور بــين الحــين والحــين بعــض أســئلة اعتراضيـة كنـت أقتلهـا في مهدهـا ولا أسـمح لهـا بالنمـو لأن إيـماني بالإسـلام كان ممزوجًـا بدولـة الإسـلام تلـك وكنـت أظـن في ذلـك الوقـت أن لا ديـن بـلا دولـة الديـن، دولـة الخلافـة، «دولـة المرشـد»، حتـى اكتشـفت الخديعـة.

في عام ٢٠٣٩ كانت دولة الخلافة في مصر تواجه تحديًا أمنيًا من العلمانيين وتآمر الدول المحيطة بنا وما حدث في قطر قد دعا النظام الحاكم لإرسال بعثات لأمريكا منا لتعلم وسائل حديثة في الاستخبارات وكيفية الحصول على معلومة واستراتيجيات جديدة في الحفاظ على الأمن والسلم الداخلي وكنت أنا ونائب المرشد الذي قُتل أول من سافر.

سيادة اللواء هل هناك تفسير لما حدث في قطر غير الذي تعلمناه في الكتب؟، ألم يفسر مولانا المرشد الثالث الحدث وقال إنها إرادة الله وإن القطريين ارتكبوا من الآثام ولم يتوبوا عنها فاستحقوا عقاب الله فأفناهم جميعًا؟.

لقد حدث شيء جليل بالتزامن مع رحيل آخر إنسان قطري عن الدنيا، بدأ رحيل الإسرائيليين عن فلسطين ووصلت ذروة الرحيل مداها عام ٢٠٤٠ لكن بعد رحيلهم الكامل عام ٢٠٤٣ تحولت أرض فلسطين أرض صحراوية جرداء وأضحت امتداد لصحراء سيناء وقد سئل مولانا المرشد عن ذلك فقال: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم".

لكن الأغرب أنه رغم موت القطريين المجهول السبب، لم يمت أي من الجنود الأمريكان الموجودين في قواعدهم الموجودة في قطر.

نظرت إليه بضيق شديد وقلت هل تعترض على إرادة الله يا مولانا؟

إن هؤلاء القوم لابد أنهم ارتكبوا إثمًا عظيمًا وحتى لو حاولت أن تقنعني بعكس ذلك لن اقتنع.

أصيب مولانا بخيبة من ردّي لكنه خرج من هذا الحوار وقال:

ذهبت إلى أمريكا أنا ونائب المرشد (محمد عباس) وكنا ضابطين برتبة رائد، وكنا قد حظينا بترقية استثنائية تقديرًا لجهودنا وتفانينا ولأننا أبناء قيادات إخوانية بارزة فمضمون ولائنا، وعلى الرغم من أني لم أكن أعرفه جيدًا في ذلك الوقت، إلا أن حب وتقدير متبادل قد ربط بين قلبينا.

نظرت إليه وهو يتحدث عن مولانا محمد عباس وأدركت إما أن يكون محمد عباس شريك أو شيء آخر وأن سيادة اللواء لا دخل له بمقتله.

كنا أول مصريين يُسمح لهم بالسفر إلى الخارج في مهمة دراسية منذ عام ٢٠١٨. وقد عرفنا بعد ذلك أننا كنا تجربة علمية تجريها الولايات المتحدة علينا لاستئناف عودة البعثات.

أردت أن أسأله كيف تكون تجربة علمية وكيف علمت بذلك؟

لكني استشعرت بعض الحرج من كثرة أسئلتي فتركته يكمل ربما تأتي الإجابة.

وصلنا إلى أمريكا وكانت حركتنا مقيدة فلم يسمح لنا بدخول المدن الأمريكية وعلى الرغم من عدم دخولنا المدن الأمريكية ورؤية ما أصبحت عليه، إلا أن ما رآه كلانا قد سبب له صدمة حضارية كبيرة لأن ما رأيناه كان فارقًا تكنولوجيًا رهيبًا فكل ما نملكه الآن من تكنولوجيا صار تراثًا من الماضي هناك.

سيادة اللواء، أنا وغيري درسنا في أمريكا ولم نشهد ذلك.

نظر إليّ بتبرم وقال إن الدراسة التي تمت علينا كانت من علماء نفس واجتماع وإنسانيات وكانت لدراسة المتغيرات التي تطرأ على كائن شبه بدائي عندما ينتقل إلى عالم متقدم، وقدرة هذا الكائن على اكتساب معارف جديدة وتقبله لها، وبعد عام تم الفصل بيننا أنا ومحمد عباس وأمضيت عامين آخرين لم ألتق به إلا في مصر بعد عودتنا وكان من نتائج تلك التجربة هو بناء ما يعرف بمدن البرش وبنيت في أوربا أيضًا وتلك المدن تحمل أسماءً مشابهة لمدنهم الحديثة لكنها مدن أقل في الفوارق التكنولوجية بكثير عن المدن الأصلية وأكبر بكثير عنا، بعد فراقنا أنا ومحمد عباس قضيت نصف عام وحيدًا في مدينة أخرى غير التي كنا فيها، كنت أتلقى معارف شديدة التطور أو كنت أظن ذلك حتى قابلت مدربتي في البرمجة، سارة واشنطن،

صمت مولانا قليلاً وقد أصابه شرود وترقرقت في عينيه دمعة لم يستطع سيادة اللواء لها منعًا وكانت تلك أول مرة أرى على وجه مولانا هذا الضعف وقلت لنفسي هل يحب مولانا مثلنا؟، هل يمتلك قلبًا يعرف ذلك النوع من الحب؟!

عندئـذٍ تذكـرت حبيبتـي أو مـا يسـمى بحبيبتـي، تلـك العاطفـة تجـاه ذلـك الشـخص الوهمـي الـذي قـام رجـال أمـن المرشـد بزرعـه في عقـلي لكـن مـا زلـت أجـد لـذة في تذكـره رغـم أنهـم قـد أزالـوا ذلـك المؤثـر، لكـن عـلى مـا يبـدو أن إشـارةً مـا، مـا زالـت تعصـف بوجـداني. نظـرت إليـه مـرة أخـرى وهـو يجفـف دمعتـه وقلـت أيفتقـد حبيبتـه إلى هـذا الحـد؟

معذرة..

كان صوتـه يحمـل هـذا الضعـف الإنسـاني وهـو يقـول ذلـك وقطـع كلامـه أي حديـث داخـلي.

لم تكـن سـارة تشـبههم أو تشـبه النسـاء، إنهـا حالـة متفـردة، أحببتهـا مـن أول لحظـة وكأنـما هبـط حبهـا عـليّ مـن السـماء ولم أسـتطع لـه دفعًـا وهـي أحبتنـي أيضًـا رغـم كوننـا مـن عالمـين مختلفـين، أحبَّـتْ ذلـك الكائـن البدائـي وبدافـع مـن حبهـا لي أرادت أن تقـرّب الفـوارق بيننـا فعلمتنـي مـا ليـس مسـموحًا لهـا أن تعلمنـي إيـاه وشـجعها نهمـي إلى المعرفـة لدرجـة أنـي أتقنـت البرمجـة الكموميـة بسرعـة أكـبر منهـم واقتربـت كثـيرًا مـن علومهـم الحديثـة في التجسـس، وفقتهـم عـلى مـا يبـدو في قـدرتي عـلى اخـتراق الأنظمـة المعلوماتيـة المعقـدة وقـد أجـرت لي اختبـارًا كان مـن الممكـن أن يكلفنـا حياتنـا لكنهـا أصرت عـلى أن نفعلـه، إيمانًـا منهـا بقـدراتي وموهبتـي، وهـو اخـتراق أنظمـة الحمايـة لـدى CIA وهـي أكثـر الأنظمـة خطـورة وحمايـة، كان تدريبًـا وجـدت فيـه صعوبـة كبـيرة لكنـي نجحـت وشـيئا فشـيئا أصبـح الاخـتراق وحمايـة نفسـي شـيئًا روتينيًـا.

وذات يـوم قلـت عـليّ أن أكتشـف مـا المعلومـات التـي لديهـم عـن مـصر أي جواسيسـهم ومـا أمدوهـم بـه مـن معلومـات ومـا طبيعتهـا ؟

صمـت مولانـا بأسـلوب اسـتعراضي وعـلى الرغـم مـن أني أعـرف أنـه سـينطق في النهايـة إلا أن تعابـير وجهـي ترجّتـه أن يُكمـل مـاذا وجـدت.

إن مـا وجدتـه كان صادمًـا وظللـت لمـدة كبـيرة لا أسـتطيع النـوم ولا الأكل وامتنعـت لأيـام عـن رؤيـة سـارة، جلسـت حبيسًـا مكتئبًـا لا قـدرة لي عـلى الـكلام وقـد أشرفـت عـلى المـوت.

- ماذا وجدت؟

- إن المرشد الثاني كان عميلاً للمخابرات الأمريكية.

- كذب!

- هذا ما ظننت لكن ما وجدت من ملفات ومراسلات يثبت ذلك.

- قلت منفعلاً لا تصدقهم.

- إن كل مرشدينا يتم اختيارهم من واشنطن يا صديقي، إنهم قد ساعدوا في قيام دولة المرشد بل هم من أقاموا دولة المرشد.

- قلت وأنا ألوح بيدي رافضًا ما يقول، لا لا يمكن أن يكون ما تقول حقيقيًا.

- ضحك مولانا وقال: كنت أظنك أكثر إيمانًا مني بنزاهة الجماعة.

لم يعطني فرصة للحديث أو التعليق وقال:

- في مصر قامت ثورة.

- نعم ثورتنا المباركة عام ٢٠١٦.

بل كان هناك ثورة عام ٢٠١١ قادها مجموعة من الشباب المتهور ضدّ الفساد وضد الظلم ولأنها كانت ثورة مفاجئة لأمريكا، ساد الارتباك الإدارة الأمريكية في ذلك الوقت ولأن لمصر أهمية كبيرة بالنسبة للأمريكان فخافت إن عارضت تلك الثورة، ونجحت فسوف تضيع مصر من تبعيتها إلى الأبد فوقفت موقف متململ في البداية لكن بعد تأكدها من أنها من القوة والقدرة أن تزيل أرجلها من على سدة الحكم وخوفًا من أن تصير مصر دولة معادية، فوافقت عليها وأمرت رجلها أن يرحل عن الحكم. لكن بعد أن تأكدت أن نهر الثورة الذي لم تستطع أن تسيطر على فورانه عند المنبع ستستطيع أن تسيطر على مجراه عن طريق إيصال الأمور إلى البديل لحكم مبارك، وقد أعدتهم منذ زمن بعيد كاحتمال قائم، وهم الإخوان المسلمين فأوصلوهم إلى سدة الحكم ولم يخيب قادة الجماعة رجاء الإدارة الأمريكية فيهم، فقدموا من التنازلات والتعاون ما لم تكن تتوقع الإدارة الأمريكية كقربان للإدارة حتى

تثق فيهم، لكن الشعب لم يكن مستعدًا لقبول ذلك فثار الناس ثورة عظيمة مرة أخرى واقتلعوا الإخوان بمساعدة الجيش، ولأنها لم تتخيل أن يتم اقتلاع رجالها عن سدة الحكم بتلك السرعة فلم يكن الوقت كاف لإعداد بديل للإخوان ورغم ذلك لم تكن الإدارة الأمريكية مستعدة للتخلي عن حكم مصر فكانت الخطة واضحة بشكل جلي.

"عدم قيام ديمقراطية في مصر والدفع في اتجاه حكم ديكتاتوري حتى يتم إسقاطه بسهولة"

وإعادة تشكيل الجماعة مرة أخرى.

والبحث عن المخلّص الذي سيقود الجماعة تلك كانت الخطة.

غير صحيح كيف يمكن قيادة نظام في الاتجاه الذي لا يريده وخاصة إذا كان لديه غطاء شعبي.

بان تورطه في كثير من الدم لأنه ببساطة سيحاكم إن أصبح حكمه ديمقراطيًا "ولا أخفيك أن ذلك الحاكم كان لديه ميل كبير للديكتاتورية فأضحى الأمر سهلاً".

وبعدما أعادت الجماعة تشكيل نفسها في الخارج ثم تنظيم أنفسهم في الداخل عن طريق العمل السري الذي كانوا يجيدونه، ثم بحثت CIA عن رجلها المنشود عن طريق لورنس مصر «تيمنًا بلورنس العرب» وقد كان هناك من يبحث عنهم.

قام مولانا بتشغيل شاشة العرض وقام بعرض صور تجمع مولانا المرشد الثاني قبل أن يلتحي مع رجل أجنبي وهي صور من زوايا مختلفة توضح بشكل جلي اجتماع الرجل مع الرجل في لقاءات مختلفة كثيرة ثم عرض صورة تبين اسم مولانا المرشد وعمله قبل أن يصبح مرشدًا..

"السيد عباس ضابط برتبة عقيد في المخابرات العامة" ثم عرض صورة توضح مراسم تنصيب مولانا المرشد الثاني وقال انظر إلى من يقف بجانبه،

لم أستطع أن أتبين الشكل جيدًا فقام بتقريب الصورة فهتفت وقلت رباه ما هذا إنه نفس الرجل الذي سميته لورنس مصر بلباس عربي وكأنه أمير من أمراء العرب يحضر مراسم التنصيب.

تمالك نفسك حتى تتلقى المفاجأة الأكبر، سأعرض عليك صورة أعلم أنك قد رأيتها كثيرًا.

قام بعرض صورة للنائب الأول لمولانا المرشد «علي ندا»، أتعرف من هذا؟ نعم إنني أعرفه، إنه النائب الأول للمرشد الثاني، عندئذٍ قام بتقريب الصورة ووضعها بجانب صورة لورنس مصر.. هل ترى تشابهًا؟

- لا.

جيد، لأن عملية التجميل كانت بارعة لكنها لم تستطع أن تغير لون العين أو حجمها، انظر..

مستحيل أن يكون ذلك التطابق إنه هو، هو.

سمعت زفرة من صدر مولانا، تلك كانت حقيقة الخديعة يا صديقي التي ربما يعلمها نواب المرشد قبل حصولهم على ذلك المنصب ويقسمون على السمع والطاعة.

هل رفض أحدهم ذلك؟

إن رفض ذلك السر بعد علمه به سُيقتل في غرفة الصراط.

هل قتل مولانا نائب المرشد لأنه رفض ذلك؟

ربما..

دارت احتمالات كثيرة في ذهني لكن كلها تدور ولن تخرج عن قتل أعضاء مكتب الإرشاد لمولانا نائب المرشد.عندئذٍ قفز إلى ذهني استنتاج لم أستطع له دفعًا ووجدته مناسبًا ونظرت إلى مولانا بنظرة تحدٍ وواجهته.

ألا يمكن أن تكون أنت الجاسوس وأن حبيبتك تلك قد جندتك وأنك عشت طوال عمرك على هذا الزيف وأن ما حصلت عليه من معلومات ربما هم من سمحوا لك بالحصول عليه وربما يكون زائفًا؟!

ربما يكون كلامك صحيحًا لكنك مُطالَب بتفسير تكنولوجيا ذلك المبنى وعودة الإخوان إلى السلطة.

شعرت بحزنٍ شديد ومغص كاد يقطع أمعائي إربًا، فوضعت يدي على بطني وأمسكت بالكرسي، فأمر مولانا الخادم بإحضار مشروب ساخن، قد هدأ من ألمي، شعرت وكأنني أغرق أو أن عالمي الذي عشت عمري كله محاولاً الحفاظ عليه ومؤمنًا بحتمية وجوده يغرق، ويتهاوى مسرعًا، زادت حدة التقلصات مرة أخرى، فتجرعت من المشروب الذي أمامي مرة أخرى، كان هناك شيء بداخلي قلق لأول مرة، لا أصدق مولانا عندما يتحدث، نظرت إليه بعين يملؤها الشك في كل ما قال:

وقلت لماذا لم تتزوج سارة واشنطن؟

لأول مرة أرى تلعثم مولانا وصمت قليلاً وأجاب بعدما أعد العدة على فعل شيء ما، هكذا قد فهمت.

قال لماذا؟

لأن سارة واشنطن لو أحبتك لتزوجتك، ما الذي يمنعها من أن تتزوجك إلا أن تكون أنت عميلها في مصر، وقد تم استخدامك لضرب الإسلام.

كنت أعلم ردك، انتظرني خمس دقائق.

ثم خرج مسرعًا ووقفت أنا بين جدران المكتب، تدور كل الاحتمالات الممكنة في رأسي وشعور بالذنب على إساءتي للأدب والتجرؤ عليه، هل سيقتلني..... لا.. كان بإمكانه أن يفعل ذلك دون أن ينسحب من المكتب ولم تمضي غير لحظات حتى دخل الخادم عليّ وقال تفضل معي.

عندئـذٍ أيقنـت بالنهايـة وأن مولانـا قـد قـرر أن ينهـي حيـاتي لتجرئـي عليـه ولكـن ربـما لم يـرد أن يشـاهد مـوتي.

مشيت مع الحارث وأحسست أن ثقلاً معلق في قدمي.

لم أكـن أمتلـك أي قـوة داخلية تعينني عـلى الحركـة لشـعور باقـتراب المـوت ولا أمتلـك القـوة لدفعـه عـن نفسـي.

تحركـت خلـف الحـارس متبعًـا خطواتـه، ورغـم معرفتـي بأنـه يقـودني إلى المـوت إلا أني تبعتـه، طـاف بـرأسي مـا علـق مـن ذكريـات عمـري التـي مـا زالـت ذاكـرتي تحملهـا إلى أن انتهيـت إلى أمـانيّ التـي لم أحققهـا، وكنـت أريـد أن أحققهـا، هـي أمنيـة واحـدة كنـت أدخـر لهـا حيـاتي «كنـت أريـد أن أعـرف، هـل حبيبتـي كانـت شـخصية حقيقيـة بغـض النظـر عـن إن كانـت أم لم تكـن تعلـم أنه قـد تم اسـتخدام صورتهـا واختـلاق أحـداث وفاتهـا، لأنهـا ربـما إن كانـت شـخصية حقيقيـة، فربـما تكـون مـا زالـت حيـة"

- لا لا لا يمكن أن تكون حية لأنها..........

- ربما تكون حية.....

وترقرقت دمعة على خدي مسحتها بطرف ثيابي

- تفضل يا سيدي

- ماذا؟

- تفضل إن مولانا ينتظرك بداخل الخلوة، عليك أن تقرع الباب أولاً.

نظـرت إليـه ولسـان حـالي يطلـب تفسـيرًا لعـدم قرعـه البـاب فقـال أنـا لا أسـتطيع أن أتقـدم أكثـر مـن ذلـك، تلـك نهايـة منزلتـي. تقدمـت بتثاقـل ولا أملـك أي فكـرة عـما ينتظـرني خلـف ذلـك البـاب ومـاذا قـد أعـد مولانـا لي خلـف هـذا البـاب.

ظننــت أن الطريــق إلى الخلــوة قصــير، لكــن مــع حركتــي المتثاقلــة اكتشــفت عكــس ذلــك.

مـع اقـترابي أكثـر وأكثـر مـن البـاب صـارت ضربـات قلبـي مسـموعة بوضـوح متزايـد وشـعرت بتدفـق الدمـاء إلى وجهـي.

"ما الذي ينتظرني خلف الباب»

صار هذا السؤال الدائم لعقلي ولم يستطع عقلي أن يتخطاه ولو للحظات،

ومــع وصــولي للبــاب حملــت يــدي، خائــرة القــوى، عــلى أن تقــرع البــاب فأصــدر صــوت ارتطامهــا بالبــاب صوتًــا لم أســمعه ولم أســمع لــه جــواب مــن الناحيـة الأخـرى مـن البـاب، فوقفـت للحظـات محـاولاً أن أسـتجمع بعـض القـوة لتسـتعملها يـدي، وجـاءت طرقـاتي عـلى البـاب خافتـة، لكنهـا أكثـر قـوة ممـا سـبق ويبـدو أن مولانــا قــد ســمعها فوجــدت البــاب ينفتــح وخلفــه مولانــا.

نظرت إلى مولانا وقلت: مولانا يفتح الباب بنفسه.

لا يوجد خادم هنا.

«يبدو أنى في أكثر الأماكن قدسية في هذا المكان كله»

وانتبهت من غفلتي على صوت مولانا:

"أنت، مرحبا بك في الخلوة"

ثـم أشـار لي بيـده أن تفضـل بالدخـول واسـتطاعت ابتسـامته أن تخفـف بعـض ما أعانيـه مـن اضطـراب، فدخلـت وعينـاي تـدور في المـكان كلـه تحـاول استكشـافه ولبسـاطة المـكان لم تأخـذ عينـي وقتًـا كبـيرًا في استكشـافه.

كانــت الخلــوة مكانًــا فســيحًا جــدًا، متجــدد الهــواء، عــالي الســقف، قليــل الأثــاث، تملــؤه الزخــارف الإســلامية؛ أركانهــا أضافــت إلى الجــدران جمــالاً لم اعتـده، وكان الهـواء المتجـدد الـذي لم أعـرف مصـدر انبعاثـه يحمـل روائـح زهـور جبليـة منعشـة ثـم اكتشـفت أن تلـك الروائـح تتغـير بانتظـام وتتابـع سـهل وكانـت

الكميات الموجودة من تلك العطور محسوبة بدقه متناهية فلا تملها الروح أبدًا.

وقعت عيني على شيء مختلف، إنه الجدار الغربي للخلوة، جدار من الخشب المزين والمنحوت عليه أسماء الله الحسنى، وكان للجدار الخشبي بابٌ يوجد في أقصى الشمال من الجدار الخشبي، مزخرف بالأحجار الكريمة وماء الذهب واللؤلؤ، يبهرك بجماله، وتستطيع أن تستكشف بسهولة سلامة الذوق لدى صاحب الخلوة.

تفضل بالجلوس.

بتلك الجملة اختطفني مولانا من تأمل الخلوة.

جلست على أحد الكراسي القريبة منه وجلس بجانبي وقال مرة أخرى:

"أنت مرحب بك»

لم أفهم في البداية ما يعنيه مولانا بتلك العبارة، وظننت أنه يكررها حتى يبعث الطمأنينة إلى قلبي، لأني قد دخلت إلى أكثر الأماكن قدسية وعلى ما يبدو أنه لم يسمح لغيري بالدخول إلى الخلوة.

لكن سمعت طرقًا خفيفًا صادرًا من الباب الشمالي للركن الخشبي ثم انفتح الباب، كدت أن أقفز من مكاني، فضغط مولانا على يدي بيده ضغطة فهمت معناها أن اطمئن.

ومع انزياح الباب خرجت منه امرأة.

لم أتمالك نفسي فقفزت واقفًا ووقف معي مولانا احتراما لتلك المرأة

وقال مبتسما:

«زوجتي سارة واشنطن»

لم أستطع أن أبتلع ريقي ولا حتى أن أضم فكيّ المفتوحين.

جعل ذهولي هذا مولانا يبتسم ابتسامة عريضة، وقال ألم أقل لك إنك مرحبٌ بك.

اقتربت سارة واشنطن مننا وقالت بلكنة انجليزية: "السلام عليكم".

لم أستطع أن أتحكم في شفتي حتى أرد السلام، لكن مولانا رد عني وقال: "وعليكم السلام"، تفضلوا.

وأشارت علينا بالجلوس.

انتظرناها حتى جلست أولاً ثم جلسنا.

وظللت للحظات أتأمل وجهها.

كانت امرأة وصلت توها للعقد الخامس من العمر لكنها ما زالت تحمل الكثير من جمال الشباب ونضارته، تتهدل بعض الخصلات البيضاء ممزوجة بشعرها الذهبي اللامع، متآلفة مع عينيها الزرقاوين شديدة الصفاء وخدودها الحمراء الصافية، فأضاف ذلك الخليط إلى جاذبيتها جاذبية، كانت امرأة جميلة بمعنى الكلمة لكن كانت تحمل روحًا آسرة.

- إن مولانا يحبك ويقدرك كثيرًا.

قطعت عبارتها شرودي.

-نعم نعم وأنا أحبه وأقدره أيضًا.

نظرت إليّ بامتنان وقالت:

- أنا لم أنجب، فهل تكون أنت ابني؟فإن مولانا يعتبرك ابنا له.

نظرت إليها بامتنانٍ وتقدير بالغ وخفت من أن يكون مولانا قد أسر إليها من أني قد أردت قتله.

استمر الحديث معها لفترة غير قصيرة ولا طويلة.

كان الحديث معها ممتعًا دافئًا، شعرت منها بحنانٍ أمومي بالغ وترك لنا مولانا الفرصة لنتبادل أطراف الحديث في حرية تامة، وعلى ما يبدو أن مولانا قد أخبرها بكل ما يعرفه عني.

وقالت إن مولانا يقول عنك أنك ولد كثير الأسئلة، لكن لا أرى ذلك.

نعم أنا لا اسأل لأني أنعم بدفء أمومي افتقدته منذ زمن كبير "الطمأنينة".

أنعم في حضرتها ببعض الطمأنينة لكن الوقت انقضى واستأذنت وقامت واستأذن مولانا مني للحظات وقام خلف أمي الجديدة، شعرت ببعض السعادة الداخلية التي زالت مع ما شاهدته للتو!

لقد مر مولانا من الحائط الخشبي بعد عبور سارة واشنطن للباب مختفيًا خلف الجدار.

راودني شعور قوي أن أقوم وألمس ذلك الجدار أو أتبين إن كان فيه فتحات لا تستطيع عيني استبيانها، لكن إن كنت أستطيع رؤية مولانا وهو يدخل من الجدار دون أن يفتح باب أو شق فيدخل فيه بجنبه لكنه دخل بصدره ثم اختفي خلف الجدار، الذي عاد إلى وضعه الطبيعي، ودارت في عقلي علامات تعجب وأن أنقل عيني بين المكان الذي عبر منه و الباب منتظرًا خروجه من أيهما، ولم أستطع أن أجد تفسيرًا لعلامات التعجب تلك.

لماذا أراد مولانا أن يستعرض أمامي تلك الكرامة فقد كان بإمكانه أن يدخل خلف سارة واشنطن؟!

إن مولانا لا يفعل شيئًا أبدًا عن طريق الخطأ أو السهو.

هل كان يقصد من ذلك أنه مؤيَّد من قبل الله، وأن تلك المعجزة منّ الله بها عليه حتى أقتنع بصواب ما هو عليه؟!

ونظرت للباب ولسان حالي يقول «إن ما عشت أؤمن به منذ صغري أقوى من أي معجزة"

نظـرت إلى نفـسي متعجبًـا فلـم أكـن معهـا يومًـا صادقًـا مثـل هـذا اليوم فأنـا الآن لا أفعـل معهـا مثلـما كنـت أفعـل طـوال عمـري، أن أبـرر لـكل خطـأ، وأحـاول أن أشـكك في كل مـا يدعـي الآخـرون أو تحـاول نفـسي أن تؤمـن بـه.

(١٤)

دوى في تلك الغرفة صوت استغاثة وهرج ومرج كبيرين، رأته مع عودتها إليها، ورأت التفاف كل الموجودين من الملائكة حول الجسدين وهمهمات، استرقت هالة النظر من بين أحد الفواصل بين أحد الملكين المتحركين حول الجسدين. وجدتهم يحاولون تقديم إسعافات لجسد كبير السنافر.

وعادت إلى سؤالها هل يموت الميت؟

لقد صار جليًا أمامها أن الروح تموت.

ألا تشعر الروح بالضيق؟

ألا تشعر الروح بعذاب جهنم؟

ألن تشعر الروح بنعيم الجنة؟

إذن هي لم تنتقل من حالة إلى أخرى.

الروح سوف تموت.

لكن ما الحالة التي ستخرج من الروح عند موتها؟

لقد خرجت الروح من الجسد عند موته.

كانت الروح سر الحياة للجسد.

ما سر الحياة للروح التي إن غادرته ماتت الروح.

الروح لن تموت.........!

روح كبير السنافر تموت الآن.

وضعت يدها على رأسها محاولة إسكات ذلك الصراع الدائر فيها ونظرت إلى ما يفعلوه بكبير السنافر.

ورأت مصادفةً عضوه الذكري فشعرت ببعض الخجل، وبعد إلحاح من وعيها لرؤية ذلك الشيء، قالت مما أخجل، فأنا لا يراني أحد الآن، ولم تستطع أن تقاوم شعورًا باستراق النظر مرة أخرى.

وبدا الاشمئزاز واضحًا على وجهها.

وقالت بصوتٍ هامس إن الأعضاء التناسلية تلك غير جذابة على الإطلاق أو مثيرة جنسيًا حتى، هل تكون «الإثارة في عقولنا فقط»؟

أعتقد أنهم يخفون أعضائهم خلف أرتال من الثياب ليس خوفًا من الإثارة لكن لقبحه، فلا أعتقد أنه مثير جنسيًا.

لكن مَن ربط بين الجنس والجسد العاري وظن أن الجسد العاري هو مادة للإثارة الجنسية، كان مخطئًا.

إن العقل دومًا يبحث عن الأشياء المخفية وكل جزء من الجسد يتم إخفائه يصبح مثيرًا جنسيًا لكن لو أصبحنا عراه فلن يكون الجسد أبدًا مادة للإثارة، وتصبح الإثارة نابعة من العقل فقط عند الاحتياج والذي يترجم حاجة الجسد لممارسة الجنس.

ابتسمت ابتسامة رقيقة لنفسها وقالت لقد أصبحت محللة نفسية.

هل ما أنا عليه من حالة الروح أعطاني الجرأة و جعلني أقوم بتقييم كل الأمور التي كنت لا أستطيع أن أناقشها؟

لكن لماذا يكون معظم حديثي عن الجنس؟

هل لذلك علاقة بما عايشته من كبت؟

أضاءت شاشة بفلاش متوهج وكانت الشاشة القريبة من كبير السنافر، وحدث اضطراب كبير في الغرفة حول كبير السنافر.

ثم سمعت أحدهم يقول:

فقدناه!

(15)

لكــن هنــاك حالــة مــن الخــوف والرهبــة مــن أن مولانــا قــد يكــون موصــولاً بــالله،

خرج مولانا في تلك اللحظة من الباب، فانتبهت.

ثم جلست بين يديه.

لم أسأله تفسير ما حدث، فلا يسأل المريد شيخه.

إنه ليس شيخي!

لا أدري....

لا أعــرف لمــاذا لم أســأله. حاولــت أن أتخلــص مــن اضطــرابي بالصمــت منتبهًــا بــكل جوارحــي إلى مــا يقولــه مولانــا، ربــما أحظــى بتفســير لمــا رأيــت.

هل اطمأننت لصدق حديثي؟

مَن أنا حتى يهتم بي إلى هذه الدرجة ويثبت لي صدقه، لماذا أنا؟

فلديــه مــن الرجــال المؤمنــين بــه الكثــير ولديــه شــيخ العــرب، لمــاذا كل هــذا الاهتــمام بــي؟

لم تكــن لــدي إجابــة عــلى ســؤاله، لأن في الحقيقــة كان لــدي ســؤالٌ، فقلــت مسرعًــا قبــل أن يسترســل في حديثــه:

مولانا إنك قد مررت من الجدار.

ضحــك مولانــا بصــوتٍ مســموع ولمــدة طويلــة وكانــت تلــك أول مــرة أراه يضحــك

وقال:

- إن هذا الجدار ليس حقيقيًا ولا سارة واشنطن حقيقية أيضًا.

- نعم !!!!!!!!!

ليست حقيقية كما تعتقد أنت، لكنها حقيقية تمامًا بالنسبة لي.

نظرت إليه وكل تعابير وجهي تستنكر ما يقول أو ما يدعي، وفي النهاية عجزت عن إدراك ما يقول، أردت في تلك اللحظة أن أضع يدي على كتفه حتى أتأكد أنني سليم العقل وأن ما ألمسه حقيقة.

فليس للعقل طريق للمعرفة إلا من خلال حواسه، ورغم أن الصوفيين يقولون أن المعرفة عن طريق القلب، لكنني أرى أنها عن طريق الحواس، فكيف لي أن أعرف دون أن أتذوق، دون أن ألمس، دون أن أرى، دون أن أشم؟!

في تلك اللحظة سمعت صوت الشيخ الدرويش وهو يقول إن المعرفة الحقيقية بالقلب فقط، فكل ما تحدثت عنه هو خادع.

نظرت خلفي لأتبين مصدر الصوت فلم أجد الشيخ لكن عندما عدت بنظري إلى مولانا وجدته مبتسمًا وأشار إلى قلبي.

ثم استطرد قائلاً:

- هل رأيتني وأنا أمر من الجدار؟

لم أنطق لكن ظللت ناظرًا منصتًا إليه بكل جوارحي في سكونٍ حتى يكمل لكنه قال:

- هل صدقت عقلك فيما رأيت؟

- نعم، صدقت.

- أبدًا ما رأيت أبدًا، لم يكن حقيقة.

وضع يده على قلبي وقال:

إن القلب يرى عندما نسمح له بذلك، بدا وهو يتكلم كأحد أقطاب الصوفية الكبار.

- عندما يرى القلب فلا زيف، لأنه يرى جوهر كل موجود يا بني.

قلت متحرجًا:

- إذن ما تفسير ما رأيت؟

- كان السحرة قديمًا مع ثورة الليزر، يستخدمون اختراعًا اسمه الهولوجراف وهو يقوم بنقل صورة الإنسان أو الأشياء في شكل ثلاثي الأبعاد، أي أنك لن تستطيع أن تميز بين الشخص وصورته إلا إذا قمت بلمسه، فكانوا يستخدمونه لنقل صورتهم ويضعوها فوق الماء، فيعتقد مشاهديهم أن هؤلاء السحرة يمشون فعليًا فوق الماء أو ينقلون برج إيفل أو يخفون تمثال الحرية، أو يخترقون سور الصين العظيم، أو يضع أحد الأهرامات في مكان آخر غير مكانه.

- هل تريد أن تقول إن هذا الجدار هولوجراف؟

- نعم لكن الجهاز المستخدم مربوط ب «سوبر كمبيوتر» لا يوجد له مثيل حتى في مبنى الإخوان السري المبنى ٦٦.

من أين حصلت عليه؟

كانت تعابير وجهي تتهمه اتهامًا واضحًا فقال:

- لقد حصلت عليه من سارة واشنطن قبل موتها.

وقفت أمامه مشدوهًا

- ماذا تقول؟

- ومَن تكون تلك المرأة التي جلست أمامها وحدثتها؟

- إنها سارة واشنطن.

وضعت راحة يدي على وجهي وقلت هامسًا: ربي إن عقلي لن يستطيع أن يتحمل كل هذه الأحاجي.

- ألا تقول يا مولانا إن سارة واشنطن ماتت؟

- نعم ماتت.

- كيف تتحدث معنا وهي ميتة؟ لا تقل لي إنه الذكاء الصناعي!

- إنها هي.

- كيف تكون هي وهي ميتة؟

عندئذٍ تصاعد صوت لم أسمع له مثيلاً، ضعيفًا قويًا، جميلاً شجيًا هامسًا، صوت امرأة كدت أطرب له وأقع في معصية.

«يا حبيبي... الليل وسماه.. ونجومه وقمره..

وأنتا وأنا..

يا حبيبي أنا، كلنا كلنا.. في الحب سوا..

والهوى.. آه منه الهوى»..

- هل هذا غنائها؟

- لا إن هذا الصوت لامرأة تدعى أم كلثوم، كانت مطربة قديمة.

- ومن قام بتشغيل الصوت؟

- سارة، إنها تحبها جدًا يا صديقي.

- هل يحب الميت أو يكره؟ وإن كانت طيفًا كيف قامت بتشغيل جهاز الصوت؟ إن تشغيله يحتاج لشيء مادي.

- لأول مرة أرى مولانا مترددًا مرتبكًا في الحديث ويحاول أن يلجم الكلام، ويحاول أن يطلقه، كان مرتبكًا لا يعرف كيف يبدأ، لكنه في نهاية الأمر وجد طريقًا وقرر أن يتحدث.

- ما لم تره في الغرب يا صديقي، أن الحدود بين الحياة والموت أضحت غير واضحة المعالم، وكما أن الفيروس بإمكانه اختراق تلك الحدود، بات الإنسان قادرًا على تخطيها. لكن لا يفعلها كل الناس هناك.

- أنا لا أفهم يا مولانا ما تقول.

- سارة شعرت أن هناك من يلاحقها، ثم علمت أنها أضحت كارتًا محروقًا يجب التخلص منه، وقبل أن تسألني أنت هل تم قتلها من أجل حبها لي؟

بعد فترة من الصمت قال:

- لن أستطيع أن أدعي أن هذا الأمر صحيح، لأنها لم تصارحني، لأن الأمر يخص أمن بلادها، وصمت مرة أخرى. وقبل أن يتفرع منه الكلام ويدخل في أشياء تخص الأمن ويبتعد عن الحدود الفاصلة بين الموت والحياة سألته بإصرار:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

لا أدري سبب هذا الإلحاح.

انتبهت إلى من يحدثني بتلك النبرة الحادة فوجدت أن هذا الصوت صادر من عقلي ولم يرحم حالي فيتوقف، وعندما نظرت إليه خجلاً لكنه ظل مستمرًا في تأنيبه لي وقال:

ألم تدرك بعد أن حبيبتك هي وهم تم زراعته في وعيك؟ أما زلت أسير تلك الخدعة؟ تريد أن تعرف كيف يمكن إعادة الميت للحياة؟ ربما كان بإمكانك أن تفعل هذا مع هالة فتعيدها إلى الحياة، لم تدرك بعد أن هالة شخصية غير حقيقية، ربما هي نبت خيال عقل مضمحل، من قيادات أمن المرشد، ثم قام بزراعته في وعيك. أردت أن أخبره بكلمات لم أعتقد أنه سيفهمها لذلك آثرت الصمت.

لكن لم يصبني الفتور لسماع مولانا، فأنصتت له باهتمام بالغ عندما بدأ يتحدث بتثاقل وقال:

كانوا يستخدمون برنامجًا شديد التطور مع بعض المجرمين الخطرين، اسمه

(Real Person) أشخاص حقيقيون!

كانوا يبدءون عن طريق هذا البرنامج، الموجود على سوبر كمبيوتر، بنسخ وعي هذا الشخص، ثم يقوم البرنامج بعمل صورة طبق الأصل من هذا الشخص، أقوالاً وأفعالاً، ولن تستطيع ولن يستطيع الشخص الذي يراهم أن يفرق بينهم في الأفعال أو الشكل أو التغير العمري أو الأحداث التي سوف يصنعها في المستقبل إن تعرض لنفس الظروف، حتى الأمراض وأثرها ستظهر عليه، بإمكانك أن تقول تطابق تام.

فقلت مازحًا:

– هل إذا مات، يموت التطابق التام أيضًا؟

– نعم يموت.

– لماذا لم تمت سارة واشنطن مع سارة واشنطن؟

– أعرف ذكائك وما الذي تريده بسؤالك، لكن دعني أكمل، كانت سارة من مبرمجي ذلك البرنامج ومع شعورها بقرب النهاية، أمرتني بمغادرة أمريكا إن قتلت، لأنهم سيقومون بتصفيتي آجلاً أو عاجلاً. وبنفس الطريقة التي زرعت بها عنواني في عقلك عن طريق البرمجة العقلية ولم يستطع أحد غيرك استخراج المعلومات وأنت لن تستطيع حتى استخراجها، إن لم يكن لديك إرادة حقيقية، قامت بزرع معلومات في عقلي ثم علمتني أيضًا تلك الطريقة وعلمتني كيف أمحوها.

ثم نظر مبتسمًا وخفض صوته، كأنما يقول لي سرًا، وقال حاولت كثيرًا وأنا في أمريكا أن أستخرج تلك المعلومات من رأسي وأعرف طبيعتها لكنني لم أستطع.

وعاد مولانا إلى وضعية الجلوس العادية، بعدما أفضى إلى بسره وقال:

- قبل نهاية رحلتي، تم بالفعل قتل سارة واشنطن، ولم يكونوا بحاجة إلى إعادتها إلى الحياة، فتم دفنها.

- أتقول أن بإمكانهم إعادة الموتى إلى الحياة؟

- سمعت ذلك، لكنني لم أر أي من العائدين إلى الحياة.

شاهدت على وجهه تعجل في أن يحكي قصته، فلم أسأله مرة أخرى، وتركته يكمل لأني كنت متشوق إلى أن أعرف.

عدت إلى مصر على عجل وطلب مولانا المرشد مثولي بين يديه، وكانت جلسة غير ودودة، ورغم أن أبي كان من قيادات الإخوان البارزين، وعضو مكتب الإرشاد، إلا أنه تم استبعادي من مجموعة أمن المرشد إلى أمن النظام، وعلمت أن هناك شيء يحاك ضدي في الظلام، وبات النظام مكشوفًا لي بعلاقته الوطيدة بأمريكا، عكس ما يدعي وأكد لي ما توصلت إليه من معلومات، ومع مرور الوقت وهدوء مخاوفي، هاجت مشاعري بشكلٍ لا يصدق وكأنها كانت حبيسة الخوف والقلق، واشتقت بصدق إلى معرفةً ما تركت لي من معلومات، وكما حصلت أنت على ما أودعته أنا في عقلك، حصلت أنا على ما أودعت هي في عقلي.

تذكرت تلك اللحظة، كانت تساوي في متعتها متعة ممارسة العادة السرية أول مرة. أليس كذلك؟

تبسمت حياء ولم أرد لكن مولانا استطرد وقال:

- كان عنوانًا ذهبت إليه فوجدت سوبر كمبيوتر واسطوانة مكتوب عليها هذه أنا.

كانت عيناي مفتوحة بذهول واضح فمولانا لم يكذب أبدًا ولِما عساه أن يكذب لكنه قال:

تلك النظرة ليست شيئًا أمام ذهولي، فكيف استطاعت أن توصل تلك الأجهزة المتطورة إلى مصر، كيف خرجت بها من أمريكا، إنها لم تتركني يوم لأكثر من ١٦ ساعة، فتساءلت هل ما مررت به كان وهمًا زائفًا وأن سارة واشنطن لم تمت؟ وكل ما مرt بي كان محاولة لاستخدامي وتحويلي جاسوس؟

نظرت إليه منتظرًا أن يكمل توضيحه فقال:

أصدقك القول أنا لم أصدق ما قالته لي سارة واشنطن عند خروجها من الجهاز وتوضيحها لي الأمر وتحت ضغط الحب أقنعتها أني أصدق ما تقول، لكني لم أصدق.

- أعلم أنك تود معرفة أشياء كثيرة.
- كيف خرجت سارة واشنطن من الكمبيوتر؟
- ما الذي قالته لي وأقنعتها أني مصدق؟!
- وكيف نقلت تلك الأجهزة؟
- وهل تأكدت أنا من صحة كلامها أم ماذا وكيف؟
- إنك نسيت يا مولانا سؤالاً أهم، هل سارة واشنطن تعتبرها حقيقية؟
- لنبدأ بجواب أسئلتي ثم أجيب على سؤالك .

بعدما قمت بتشغيل الكمبيوتر ثم وضعت فيه الاسطوانة شعرت بيدين تربت على ظهري بحنان بالغ ثم همست في أذني وقالت:

"لم تركتني كل تلك المدة، اشتقت إليك كثيرًا وبدلال المحب أكملت أم تراك نسيتني؟"

رغم معرفتي لصوتها وذوبان قلبي وإحساسي بحنان يديها على كتفي، إلا أني فزعت أول الأمر ولم أستطع أن ألتفت، فطبيعة المكان كان كهفًا مهجورًا، كنت قد خبرتها يوما أني في مرحلة من حياتي أثناء رحلة لي في الصحراء

الشرقية، وجدت كهفًا قضيت فيه بضعة أيام، وقامت باستخدام برنامج يشبه «جوجل إرث» عندنا لكنه أكثر تقدمًا بشكل كبير، يجعلها ترى الأماكن وكأنها مشاهدة حقيقية وصمتت للحظات وقالت « أرى روحي تسكن هذا الكهف».

شعرت أن روحها هي من يربت على كتفي، شعرت بخوف شديد طغى على أحاسيس الحب لكنها قالت:

"أنا سارة"

وصمت مرة أخرى وكأنه يتذكر، لكني كنت في حالة لهفة لمعرفة ما الذي يحدث عندما وجد الحبيب حبيبه بعد انقضاء الأمل.

خرج مولانا عن صمته وقال:

في تلك اللحظة لم أستطع أن أقاوم، ولم أستجمع شجاعتي بل لم أجد عقلي، فكل أمرٍ صدر من قلبي فهو منبع الحب والخوف وكان الحب، بل كان العشق، بل أنه النور، نور الحب، الجزء في الكل، والكل في الجزء، والحب نور قمت تحسستها، ضممتها إلى قلبي، لا أدري.

ورأيت دموع مولانا مرة أخرى وتساءلت هل تبكي لحظة فراق أم فرحة قرب يا مولانا فقال بل لحظة حب شفتني جعلتني أصير جزءًا من العالم والعالم جزء مني.

مع كلماته تلك لم أشعر بإشفاق عليه بل حسد مقارنة بحالي.

وأكمل مولانا كلامه.

لا أدري كم قضينا على تلك الحال، إلى أن انتبهت أن دموعي تجلل وجهها فمسحته، وشعرت بأصابعي تخترق طبقات وجهها، ففزعت وشعرت هي بفزعي، فمررت يدها على قلبي محاولة تهدئتي، وقالت هذا أقصى ما

استطعت أن أفعله من تطوير للبرنامج والحاسوب أيضًا، فحولت الطيف إلى كيان شبه مادي، لكنني معها استطعنا إعادة البرمجة بصورة أفضل، فأضحت حقيقية أو ربما لن تستطيع أن تميز بينها وبين سارة حتى وإن اختبرتها بيولوجيًا فهي تمتلك نفس المؤثرات، مثل الملمس ودرجة الحرارة، وزدنا على الإنسان العادي واستطعنا أن نبطئ من عجلة الزمن ومروره لكن وعيها وعقلها أصبح أكثر تطورًا من ذي قبل وأضحت كيان فيزيقي حقيقي أو هكذا سيبدو إلينا.

- لكنك مررت من الحائط!

- نعم مررت من الحائط لأن الحائط هولوجراف فقط.

ثم صمت مولانا وكأنه يريد ان يخبرنى بشىء ما ولا يعرف كيف يقوله ، ثم تنهد و قال بحزن

- طالما بقى الجهازبقيت فهو ما تستمد منه حياتها.

وشعرت بالاسى وقلت

- إذن يومًا ما ستموت مثلنا.

- يومًا ما.

لم أترك الفرصة لخيالي أن يبحر فى تلك الجمله الحزينه التى قطعت خيط الاحداث . حتى لا يضيع حرف على عقلي مما سيقول مولانا، عندئذٍ أطرقت:

لم يهدأ فزعي رغم محاولتها الحسيسة بتهدئتي، ولا تحسبني قاسي القلب كما أبدو، لكن فزعي زاد عندما رأيت قطرات دموعي على الأرض وعلى وجهها في آن واحد، لم أعرف أنها مؤثرات بصرية يصنعها ذلك البرنامج العبقري، ولم أهدأ إلا عندما أخبرتني بذلك، ومع ولوج الهدوء إلى روحي والسكينة، وبعدها بدأت حديثها، تأكدت تمامًا أن سارة واشنطن لم تخدعني وأنني لست جاسوسًا يعمل لحساب منظمة ما ضد مصلحة بلاده، بل هي محبة أرادت أن تمضي كل حياتها مع من أحبت وظننت أني سوف أفاجئها بسؤالي:

- سارة كيف جئتِ إلى هنا؟

- «ضحكت ثم قالت عن طريق entanglement «

- ماذا تعنين؟

- «أعني التشاكل»

- أعرف الترجمة العربية!

"التشاكل هي ظاهرة فيزيائية حيرت علماء الفيزياء الكمية لأن عن طريقها نستطيع أن ننقل الأشياء في اللازمن، بمعنى إذا أوجدت حالة التشاكل فإنك تستطيع تنقل الأشياء بين مكانين، الجزيئات على سطحيهما في حالة التشاكل تلك ما أن تدخل البوابة الأولى حتى تخرج من الثانية مهما كانت المسافة، حتى لو كانت بين كوكبين تبلغ المسافة بينهم ملايين السنين الضوئية، فإن التشاكل ينقلك بينهم فما أن تدخل البوابة الأولى حتى تخرج من الثانية"

أتريدين أن تقولي إنك نقلت تلك الأشياء عن طريق تلك الظاهرة الفيزيائية؟

"نعم والأمر الجيد أن عملية النقل بتلك الطريقة لا يمكن تتبعها، لذلك تم تطويرها وأضحت وسيلة الاتصال بين جواسيس CIA وأعضائها بعد فهمها جيدًا من قبل علماء الفيزياء»

شردت قليلاً وقلت لنفسي أليس من الممكن أن تكون حوادث القتل تلك حدثت بتلك الطريقة، أليس من الممكن أن من قام بزرع قصة الحب الخيالية رجالاً يتنقلون بين الأماكن بتلك الطريقة، لكن انتزعت نفسي من شرودي وقلت:

أنا لم أسمع عن ذلك أبدًا يا مولانا، أليست الفيزياء دراستها حرام وتم منع تدريسها مع الفلسفة وعلوم أخرى تدعوا للانحلال الأخلاقي.

نظر مولانا إليّ بضجر مستنكرًا ما قلت وقال:

- انظر إلى حالنا الآن أيرضيك ما وصلنا إليه من أجل فهم توراتي لديننا؟

- ماذا تقول يا مولانا؟ واستغفرت الله خوفًا من أن يصب علينا عذابه.

- أقول إن التخلف يوجد في نظرتنا نحن إلى الدين وليس ما عليه الدين.

شعرت بضيق من كلامه وهو ضيق يظهر أثره دومًا في صدري كلما اقترب أحدهم من تلك المنطقة. وخوفًا من أن أدخل في عراك فكري ونترك الموضوع الأساسي، قلت:

- إذن لماذا لم تصدقها؟

ظللت متشككًا، وبين رغبة في تصديقها، وعقل غير مقتنع تمامًا بما تقول، لكن عملي معها على تطوير البرنامج الخاص بها ثم إطلاعي على أكثر الملفات سرية بعد ذلك، عن طريق اختراقي لها بمساعدة سارة، واستطعت أن أرى الكثير وتعلمت أن ما يحكى لنا من غرائب ربما تكون حكايات أكثر واقعية مما نعتقد وأستطيع أن أقول لك بثقة تامة أن العالم ليس كما يبدو لنا.

- هل رؤيتك للعالم بتلك الطريقة دفعك لتلك العزلة الصوفية؟

إن ما مررت به مع سارة كان على مدى عقود يا بني، لكن دعني أقول لك ما الذي دفعني لذلك.

كانت شكوكي في النظام مجرد شكوك، ربما يكون رأس النظام هو من يكون عليه شبهات، لكن ربما يظل النظام جيدًا وقادر على إصلاح أخطائه، ثم التقيت سارة، كما أخبرتك، وظللت أذهب إليها، وظللت جنديًا من النظام، لكن بذور الشك في كل شيء كانت تنبت في روحي، كل من كانت تحوطهم قدسية مع المعلومات تعروا، وكنت مثلك ومثل أي إخواني مؤمن بالجماعة، كنت ألتمس المعاذير وأبرر لهم حتى أنام أنا مرتاح الضمير، لا تؤرقني ثورة الندم ولكن كانت تثور موجات من الرفض داخلي كلما قرأت شيئا ما مغاير لاعتقادي، لكن لحظة صدق واحدة مع الذات بعد كل ما عرفته، قررت أن أقرأ عن الإخوان وللإخوان كتبٌ قديمة كنت قد صادرتها قديمًا

ولسـبب مـا لم أقـم بإعدامهـا وأخـرى جديـدة بعيـدًا عـن تلـك الهالـة القدسـية وأنهـم منزهـون عـن الخطـأ.

اكتشـفت بعـد قـراءة متأنيـة وعلميـة، أن المشـكلة في النظـام وليـس في الأفـراد فقـط، فإطـار النظـام لا يسـمح إلا بـما وصلنـا إليـه ولذلـك كنـت في حالـة بحـث عـن إطـار أوسـع.

وقام مولانا من مكانه وقمت أنا أيضًا، فوضع يده على كتفي وقال:

- أما آن الأوان أن تكون معنا؟

- سـيدي أنـا لم أصـل لمـا وصلـت أنـت إليـه، ورغـم شـكوك دبـت في قلبـي إلا أني مـا زلـت إخوانيًـا وأرى أن النظـام يمكـن إصلاحـه.

- هـل تـأذن لي يـا سـيدي بالرحيـل لأني قـد حصلـت عـلى مـا أريـد؟ وعرفـت مـا أردت معرفتـه فعـليّ أن أذهـب.

- ألم تدرك أن ما حدث هناك ربما لم يكن حقيقيًا؟

- ربما، لكن هناك نائب مولانا المرشد قد قُتل وعلي أن أمنع مقتلك.

- يـا صديقـي لقـد أصبحـت مـن المطلوبـين، ومـع خروجـك مـن هنـا سـتغامر بحياتـك.

- ربما، لكن هناك شيئا بداخلي يدفعني إلى الرحيل.

- لـك مـا تريـد، فلتذهـب كـي تسـتريح قليـلاً وحينـما تنتهـي قـوة الحمايـة التـي سـترافقك مـن إعـداد خطـة العـودة إلى القاهـرة، سـتذهب.

- شكرا لك سيدي.

ومـع اقـترابي مـن بـاب الخـروج مـن الخلـوة شـعرت بـأن مولانـا يريـد أن يخبرني بـشيء، وتسـاءلت، رجـل بحجـم مولانـا وقوتـه لا يسـتطيع أن يخـبرني بـما يريـد، وعندئـذٍ تهـادى صـوت مولانـا رقيقًـا إلى أذني:

- حسن.

التفت إليه.

- سأخبرك بشيء ما قبل رحيلك.

فخرجت من عند مولانا وأنا في شوق إلى أن أعرف ما الذي يريده مولانا وجعله متحرجًا بتلك الطريقة.

ذهبت إلى سريري مباشرة، لقد كنت محتاجًا إلى أن أضع جسدي عليه وأترك روحي طليقة وأخلد في نوم هادئ.

- لماذا أعود؟

إن رحيلي عن هنا لأني لن أكون متوافقًا مع أفكار الصوفيين، لأني لست صوفيًا وما زلت أراهم فئة ضالة، لكن ما الذي يجب عليّ فعله بعد عودتي للقاهرة، فسوف أعيش مطاردًا، وسوف يتم تصفيتي، هل علي أن أعود لأحصل على إجابات في قضية مقتل مولانا نائب المرشد؟

- لَمن أعطيها، إن كان رأس النظام هو الفاعل، وضعت يدي على عيني محاولاً الإبقاء على النوم قبل رحيله.

لقد فاجأني مولانا بحبه هذا، أي عاشق أنت يا مولانا، لماذا سمعته باهتمام مضاعف، هل لأني أردت أن أعيدها إلى الحياة، شعرت بخفقان قلبي لكني حاولت أن أكتم أحاسيسي حتى لا أتلقى اللوم من عقلي مرة أخرى.

- انتبهت إلى أني أصبحت أخاف.

- هل أنا بهذا الضعف، أم أن الحب مارس ألاعيبه علي؟

- هل أستطيع إعادتها وتكون حية مثل سارة واشنطن؟

- إن سارة كانت إنسانة حقيقية ولها قصة حياة وتفكير واضح.

بدأ حافز ما يتسلل ببطء إلى وعيي، عليّ أن أذهب إلى شقتها وأن أستعيد روحها وأبحث عن كل شيء يشي عنها، كل معلومة، كل أقصوصة، ثم أقوم بخلقها على الكمبيوتر، لكن هل تعرفني؟ وهل إن رأتني ستحبني مثلما أحبها أم أجبرها على حبي؟

علي أن أضع حبي على وعيها ويكون جزءًا من كيانها مثلما تم معي. أحسست أن قلبي لا يشعر بسعادة لهذا الأمر، وروحي ترفض.

لكن صرخت في روحي بعنف وقلت لها أنا من سيخلقها مرة أخرى، لذا يجب عليها أن تحبني، هذا حقي، وأغلقت هذا الصراع الداخلي.

نظرت إلى سقف الغرفة مبتسمًا سعيدًا بما توصلت إليه ومن حالة السكون التي حظيت بها.

شعرت بسعادة غامرة وفرح لم أستوعب مثيله، طاف بذهني مذكرتها وما خطت يدها وتلك الليلة التي قضيتها في شقتها وملابسها المرتبة بعناية ورائحة روحها.

ما زلت واهم وتريد أن تعيش في كذبة.

- قد تكون كذبة، لكن خلف كل كذبه ربما تكون هناك حقيقة.

- ربما كانت هالة شخصية حقيقية ربما، وتم اختلاق القصص حولها.

- إذن إن كنت ضابط في أمن المرشد ورأيت تلك المذكرة فهل تتركها؟

وإن كنت ضابط تسعى خلف شيء ما معها، ولم تكن قد تواجدت إلا في أماكن قليلة قبل وفاتها، وسيارتها هي الأهم على وجه التحديد، فهل يتم إهمال التفتيش فيها، والأغرب بكل أجهزة كشف المعادن التي يملكونها لم يعثروا على المعدن وعثرت عليه أنت، أليس هذا غريبًا؟

كانت تلك الكلمات كل ما أذكر من ذلك الحديث الذي دار بيني وبين عقلي قبل دخولي مرحلة النوم العميق، وكانت آخر كلماتي التي بعثت فيّ الأمل "ربما يكون كل ما تقوله صحيح، لكن لدي حدث يخبرني أن المصادفة قد لعبت دورًا، ولا أخفيك سرًا أني ما زلت أشعر أن روحها ما زالت حية"

استيقظت على نداء الخادم:

- سيدي، لقد تم تجهيز كل شيء ومولانا ينتظرك لتتناول الشاي معه.

- حسنًا، كم تبلغ الساعة الآن؟

- إنها السادسة.

- لقد نمت مدة طويلة.

- نعم سيدي.

- شكرا لك.

- كان شكري له على حسن تعامله معي في الأيام السابقة وأنى قد آلفته.

كان مولانا ينتظرني في الحديقة، فدعاني للجلوس على الكرسي المقابل له، وكنت في لهفة لمعرفة ما يريده مني، وقبل أن يبدأ الحديث، قام الخادم بصب الشاي الذي بدا متلألئًا مع أشعة شمس الغروب الذهبية، ومع هبوب ريح رقيقة عانقت وجه الزهور، فحملت الريح الرقيقة عبق الزهور إلى أنفي.

كان أبيضًا بطعم الريح فبدا كمشهد سحري رائع الجمال فنقلت نظري إلى زهور الحديقة وانتبهت رغم مروري عليها قبل ذلك إلا أنها أول مرة أراها.

- أما زلت مصممًا على السفر؟

- انتبهت إلى سؤال مولانا الودود.

- نعم سأسافر.

- أتعلم حجم المخاطر ولا توجد أي حماية لديك هناك.

- نعم أدرك ذلك.

تلك السيارات ومجموعة المقاتلين هؤلاء سيقومون بتوصيلك حتى أبواب القاهرة.

كانت سيارات دفع رباعي قادرة على السير فوق رمال الصحراء الشرقية ومدقاتها الوعرة بسهولة.

- إن سارة ترسل إليك تحيتها وحبها.

نظرت له بامتنان وتقدير وشعرت أنه يريد أن يقول شيء لكنه متحرج، حاولت أن أشجعه فمال عليّ وقال بصوت خفيض:

- هل أستطيع أن أطلب منك أن تعود ذات يوم؟

- لماذا؟

- مع عودتك سأعد العدة لرحيلي.

نظرت إليه باستغراب شديد وإلى ما يقول..

كنت أتمنى أن تبقى بالقرب مني وأن تحكم مصر بعدي إن مكن الله لنا ذلك، لكن كل ما أطلبه منك كأب أن تعود كي تفعل شيئًا واحدًا، أن تحررني أنا وسارة من هذا الواقع وأن تضعنا على شبكة المعلومات.

فنظرت إلى ما يقوله باستغراب كبير.

- فقال أفهم أنك تتصور أني سأصير إلى ما صارت إليه سارة وأعيش في مثل تلك الحالة، لكن راودتني فكرة أنه إن آجلاً أو عاجلاً سيتم إيقاف الجهاز وعندها لن نكون وسننتهي، لذلك طورنا برنامجًا لنكون أحياء على شبكة الإنترنت للأبد.

- فأريد منك أن تطلق البرنامج بشكل صحيح من على السوبر كمبيوتر هذا.

- ألن تستطيع أن تطلقه أنت؟

- لا لأني يجب أن أكون متصلاً بالجهاز حتى يتم نقل وعيي.

نظرتُ إليه باستغراب شديد، فأنا لا أفهم، لكنه أكمل.

- وإن أتيت أنت وأنا قد مت فإن سارة ستعلمك ما عليك فعله.

- هل ستأتي؟

صمت قليلاً، وكانت كل خلية من خلاياي تقول لا لن آتى لكن خجلي منه جعلني أعده أني سأعود؟

ركبت السيارة بعدما ودعت مولانا، وتحركت معي خمس سيارات محملة برجال القوات الخاصة لدى مولانا، وتحركت السيارات بطريقة منتظمة كتحرك رتل عسكري، كنت مضطرب الذهن فقد ألقى حديث مولانا في نفسي كثيرًا من الرهبة والاضطراب، هل يدرك حقيقة ما يقول؟

هل الواقع الصوفي الذي يعيشه جعله لا يدرك الحواجز الواضحة بين الحياة والموت؟

- هل يظن نفسه بعد موته أنه سيظل حيًا؟

حاولت أن أتفلسف «أستغفر الله العظيم» وقلت ربما تكون نومة الإنسان هي ميتة وكل استيقاظ هي حياة جديدة، وقلت كما تقول هالة في مذكراتها أن الذي يجعل حياة الإنسان مستمرة استمرار الوعي، حقيقةً لم أفهم ما خطت يدها إلى الآن فهي ربما تقصد أن الإنسان عندما يقوم من نومه لو فقد الذاكرة وانقطع وعيه فهو قد مات، لم يمت بالنسبة لي لكنه مات بالنسبة إلى نفسه.

- هل تقصدين ذلك يا هالة؟

إذن مولانا عندما يقوم بإطلاق وعيه على شبكة الإنترنت ثم يتجسد في أي مكان شاء وفي أي زمان شاء هو لم يعد حيًا بالنسبة لي، لكن بالنسبة لنفسه هل ما زال حيًا؟ لقد استطاع أن يتخلص من ثقل جسده لكن وعيه ما زال متصلاً لكن كيف سيحاسب يوم القيامة، هل سيرافقه الشيطان داخل الانترنت كي يضلله أم سيتركه «استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم».

حاولـت أنـا أن أطـرد الشـيطان مـن عقـلي ربـما هـو الـذي يُدخـل في رأسي تلـك الوسـاوس الآن حتـى يضللنـي عـن طريـق الحـق..

لكـن هـل يكـون هـذا مـا حدّثنـي عنـه الشـيخ الدرويـش مـن أني سـوف أشـاهد أحيـاء الموتـى، هـل كان يقصـد ذلـك؟ صمـت قليـلاً ثـم نظـرت إلى الجبـال التـي تحيـط بهـذا المـكان الـذي يقطنـه مولانـا وجيشـه، فبـدت كقلعـة أسـطورية عندمـا لفهـا الشـفق الأحمـر بسـكونه وجلالـه، لقـد أثـارت في نفـسي خـلال وقـت قصـير بحـارًا هائجـة مـن الأفـكار، ربـما يتطلـب أمـر إصـلاح نفـسي منهـا سـنوات، وعلى الرغـم مـن ذلـك وتلـك المـدة القصـيرة، إلا أن شـيئًا لم أسـتطع تفسـيره، وهـي موجـة الحـزن الجاثمـة فـوق صـدري ورغبـة قويـة قاومتهـا في البقـاء والحنـين إلى المـكان والألفـة معـه، وشـيئًا فشـيئًا تضائـل حجـم تلـك الجبـال وتاهـت في وسـط الصحـراء المتراميـة الأطـراف، ومـع غيـاب الشـمس راحـت درجـات الحـرارة تتناقـص فأعطـاني إحساسًـا بالانتعـاش امتـزج بـكل أحاسـيسي المضطربـة المحبـة الخائفـة المفارقـة، فأغلقـت عينـي قليـلاً محـاولًا أن أحتضـن تلـك الحالـة التـي شـعرت فيهـا باسـتمتاع غريـب.

اصطدمـت أصابعـي بالأجنـدة التـي تحمـل مذكـرات هالـة، فتحسسـتها دون أن أفتـح عينـي فشـعرت وكأني ألمس هالـة فـزادت متعتـي متعـة أخـرى.

أردت أن تطول تلك اللحظة التي قلما تحدث في حياتي.

لكـن قلقـي مـن ألا تسـتمر تلـك اللحظـات سرعـان مـا أخرجنـي منهـا بسرعـة وتنبهـت إلى موجـات الليـل قـد بـدأت بتبديـد آخـر مـا تبقـى للنهـار مـن أمـل في أن يظـل حيًـا. وكان صـوت محـركات السـيارات يبـدد الصمـت فأعطـى مشـهدًا غـير متناسـب مـع الصحـراء فأغلقـت زجـاج السـيارة فعـزل الصـوت تمامًـا، فبـدا المشـهد مختلفًـا وبـدأت الصحـراء تـشي بجمالهـا، شـيئا فشـيئا تحسسـت الأجنـدة مـرة أخـرى وكنـت في شـوق لكـي أكمـل قـراءة مـا كتبـت لكـن خفـت مـن حديثهـا، فقلبـي لا يحتمـل أشـياءً مثـل التـي تتحـدث عنهـا، ويتطلـب أمـر القـراءة كثـيرًا مـن الجهـد النفـسي وحالتـي النفسـية لا تسـمح لي الآن بذلـك فانكمشـت في مقعـدي بعدمـا أبعـدتُ أناملي عـن مذكراتهـا ونظـرت إلى السـماء الصافيـة ففتحـت الشـباك وأخرجـت يـدي اليمنـى مـن النافـذة محـاولًا أن أتحـد مـرة أخـرى مـع

الصحـراء، وأن أصـير جـزءًا مـن روحهـا لكنـي لا أعـرف كيـف، أو كيـف يصـير هـؤلاء الصوفيـين جـزءًا منهـا لكنـي لم أشـأ أن أشـغل بـالي بتلـك الأسـئلة فعـليّ أن أسـكن كسـكون الصحـراء، هـذا كل مـا أحتـاج إليـه، وأغلقـت عينـي ولكنـي لم أسـتطع أن أجعـل روحـي حـرة طليقـة فهـي لم تكـن يومًـا حـرة طليقـة ثـم فتحـت عينـي متذوقًـا ريحًـا حامضًـا بلـون ثـمار النارنـج، لم أسـتطع احتمالهـا فأغلقـت زجـاج سـيارتي واكتفيـت بالنظـر إلى السـماء الصافيـة فوقـي والنجـوم متجـاورة منـيرة كحبـات اللؤلـؤ وتذكـرت حلمـي الصغـير أن آخـذ سـلةً وأصعـد للسـماء وأقطـف تلـك النجـوم وأضعهـا في السـلة، العجيـب أنـى ظللـت عـلى حلمـي هـذا ومصدقًـا أن تلـك النجـوم مصابيـح كمصابيـح الإضـاءة حتـى علمـت أنهـا شـموس مثـل شمسـنا وربـما أكـبر منهـا أو أصغـر، لكـن مـا زلـت أحلـم بقطفهـا كلـما شـاهدت إشراقهـا في المسـاء.

أغمضـتُ عينـي رغـم تمتعـي بجـمال السـماء وفتحتهـا ونظـرت إلى الصحـراء ووضعـت يـدي عـلى مقبـض الزجـاج لفتحـه ثـم عدلـت عـن ذلـك، عندئـذٍ أيقنـت أني في حالـة اضطـراب كبـيرة، هـل أنـا خائـف؟، لم أسـتطع أن أحـدد مشـاعري، يبـدو أنهـا خليـط مـن خـوف وحنـين.

وضـع حسـن رأسـه عـلى مسـند المقعـد وأغمـض عينيـه، لم يسـتطع أن يُبقـي روحـه القلقـة يقظـة مراقبـة، لكنهـا دون قـدرة منـه عـلى منعهـا اسـتراحت فشـخصت عينـاه ولم تعـد إلا عندمـا اسـتراحت، فعـادت للعـين حياتهـا مـع توقـف صـوت المحـرك، كان ذلـك مـع أول ضـوء للصبـاح، كانـت تلـك أول مـرة يشـاهد فيهـا ضـوء الصبـاح وهـو يمتـزج بروحـه مـع الصحـراء ويحمـلان نفـس الملامـح، لكـن أكثـر مـا أدهـش حسـن هـي رقصـة الامتـزاج بينهـما وكانـت رقصـة صوفيـة بامتيـاز فالجـزء يتكامـل مـع الـكل وبعـد لحظـات أفـاق حسـن مـن ذلـك السـحر، لم يسـتطع حسـن أن يـدرك أن التعـب الـذي ألمّ بروحـه بالأمـس كان بسـبب أن الصحـراء حاولـت أن تطـوي روحـه في روحهـا لكـن روحـه قاومـت فبـدا القلـق واضحًـا ممـا أصابهـا بالتعـب.

اقـترب رئيـس الحـرس المرافـق لحسـن وقـال سنسـتريح هنـا حتـى أذان العـصر. ثـم دعـاه لصـلاة الصبـح وتنـاول طعـام الإفطـار.

كانت السيارات قد توقفت أمام مغارة ألقت بظلالها أمام مدخلها فافترش الرجال بعد الصلاة بابها، وبعد تناولنا الفطور أعدوا لحسن مجلسًا.

بعدما نام الرجال عدا أحدهم جلس في أعلى نقطه للحراسة. وجد حسن فرصة في أن يختلي بنفسه، لكنه لم يجد في نفسه جهدًا للتفكير أو مناقشة ما تعرض له أو استكمال بداية الخطة التي سوف يعمل عليها فأرجأ التفكير فيما بعد وراح يلاحظ الصحراء، فهي لم تكن ساكنة كما كان يعتقد، بل هي مفعمة بالحياة لكن دون ضجيج، فها هي الشمس ترسم مع حركة السحاب لوحات من الظلال التي بسبب حرارة الصيف ما إن تظهر حتى تختفي دون انتظار لمشاهد، وشعر بأن روح البرودة الصادرة من فوهة المغارة راحت تنكمش مع تمدد حرارة الشمس لكن صار إحساسه بامتزاج البرودة مع الحرارة أكثر إمتاعًا من طعم ريح الزنبق الأبيض، وضعت خنفس الصحراء حملها في جزع شجرة الشوك الوحيدة الموجودة في وسط حشائش الصحراء أمامه، ففرك حسن عينيه غير مصدق ما رأى، فقد رأى رفق الخنفس بجزع الشجرة وظل الشجرة يحمي الخنفس.

ففرك عينيه غير مصدق ما يرى لأن ما يراه شيء معجز، وبعد برهة انتبه إلى عينيه المثبتة على جزع الشجرة وعقله السارح في الفراغ، استغرب حسن من كل ما يعتريه ونظرته المختلفة للأشياء وكيف استطاع أن يلاحظ ذلك، واعترته سعادة لقدرته على إدراك المتغيرات التي تطرأ على نفسه، لكنه لم يستطع أن يدرك بعد أن روحه قد مست من روح الصحراء.

بدأت حرارة الصيف في الزيادة واختفت لوحات الشمس من على رمال الصحراء وبدأت مرحلة الثبات لا حياة الكل سكن حتى النبات ما عاد يهتز وكأنه يعاني الاختناق، لكن حرارة الشمس بالنسبة إلى حسن ما زالت محتملة ولذيذة وسلمته إلى غفوة رغم قصرها، إلا أنها منحته جرعة كبيرة من القوة والقدرة على التحمل، فقام وألقى نظرة على الحارس الذي اتخذ نقطة مخفية عن الأنظار وعالية، فوجده مستيقظًا متابعًا كصقر لأقل حركة. فعاد حسن إلى مجلسه ببطء وتأنّ خوفًا من أن يوقظ الحراس النائمين وكان ذلك غريبًا على حسن أيضًا فما كان يأبه لراحة العاملين معه..

بعدما جلس اعتراه شوق في قراءة ما كتبته هالة وسماع صوتها وكان شوقه أكثر من خوفه من قراءة ما تكتب. فأخرج الأجندة وتحسسها وشعر أنه يتحسس روحها ثم قلب في صفحاتها على غير هدى، ووقعت عيناه على ما كان يصبو إليه، إنها رسالة من رسائلها لكنها غير التي كانت ترسلها إلى أمها ففرك في عينيه غير مصدق أنها رسالة كتبتها إلى حبيبها، ومع دقات قلبه التي سمعها نابعة عن خوف إنها ربما قد أحبت ويقضي ذلك على آخر أمل لديه في أنها لم تحب، لكن عنوان الرسالة كان واضحًا ولا يدع مجالاً لأي تكهنات.

حبيبـي انتظرتـك بالأمـس كثيرًا، لمـاذا لم تـأت لقـد وضعـت لـك عطـر هـيرا الـذي أخبرتنـي أنـه يمتـزج بروحـي. كامتـزاج الأرض بنفـس الصبـاح مـع بـزوغ النـور، حبيبـي وجـدت قلبـي يغنـي لـك أغنيـة الحـب، ألم تسـمعها؟ كانـت ضرباتـه تـزداد مـع اقـتراب لقائـك يـا حبيبـي ألم تعلـم بأنـك كنـت حلمـي الـذي أحلمـه كل يـوم، فأنـت المخلـص لروحـي مـن بـين ذرات الجسـد الفـاني إلى فضـاء الدنيـا الرحـب، شـعر حسـن بـألم يعتـصر قلبـه لكـن مـع متابعـة القـراءة بـدأ الألم في التبـدل شـيئًا فشـيئا.

أخـبرت عنـك أمـي بالأمـس وسـألتها هـل حتـمًا سـتوجد في عالمـي ذات يـوم، انتظـرك مهـما طـال غيابـك وسـأظل انتظـرك مهـما طـال العمـر، كان شـعور حسـن بمشـاعر مضطربـة، فبـين فـرح عـارم وبـين ألم وغصـة تلاهـا حـيرة.

وتسـاءل هـل ذلـك كان جـزءًا مـن التلاعـب بعقـلي؟ لكـن أمنيـة مـن قلبـه جعلتـه يحـاول أن يتناسـى ذلـك السـؤال، لكنـه تذكـر قسـوته السـابقة وقـال أنـا الـذي لم انتظـرك يـوم، ولم يشـكل الحـب في حيـاتي ضرورة ملحـة واعتقـدت أني لـو أحببـت فلـن يشـكل الحـب يومًـا حدثًـا فارقًـا في حيـاتي بـل كنـت أهـزأ مـن كل المحبـين ويزعجنـي ضعفهـم، فأنـا لم أبحـث أو أنتظـر الحـب يومًـا أو أنتظـر مجيئـك رغـم أنـكِ كنـتِ تنتظريـن مجيئـي.

لكننـي أحبـك، أحبـك حبًـا تخطـى حـدود المنطـق، لم ألتقيـك يومًـا لكننـي أحببتـك، لم أرَك لكننـي لمسـت روحـك تحسسـتها شـممت عطرهـا أحببتهـا وعشـقتها، لكـن لم أبحـث عنـك يومًـا مـع أنـك ظللـتِ تنتظريـن مجيئـي طـوال العمـر، ومـن أجلـك عاقبنـي القـدر، فعندمـا هـزّ الحـب قلبـي ذهبـت أنـتِ، وزفـر هـواء يحمـل كل الوجـع ومـع دمعـة تحـدّرت مـن عينيـه لم يسـتطع لهـا منعًـا، ومسـحها مسرعًـا ونظـر بحركـة غريزيـة حولـه كـي يطمئـن إلى عـدم رؤيـة أحـد لتلـك الدمعـة..

وضع يده على الأرض وقلّب في الحصوات المجاورة ليديه، لكن شعر بقلق مفاجئ اعتراه، فرفع يده عن تلك الحصوات ونظر في الصحراء الممتدة بلا انتهاء وشعر بزوال حالة القلق المفاجئة التي اعترته فأخذ نفسًا عميقًا واستراح قليلاً، ومصادفة لامست يداه حصى الصحراء فشعر بهجوم من القلق، فنظر غير مصدق لما يحدث لأنه عندما رفع يديه مسرعًا شعر بزوال القلق وعندما لامست يداه الحصى مرة أخرى شعر بقلق مضاعف، عندئذٍ اعتدل ليقوم من مقامه، لكن تصاعد صوت مكتوم يشق طبقات الهواء المستقرة المتراصة التي تحاول أن تمنع مرور الصوت فبدا مكتومًا يحاول أن يشق طريقه، ورغم قوته واندفاعه ورقة الهواء، إلا أن الأمر بدا شديد الصعوبة، ولم يمض غير لحظات حتى بدا الصوت واضحًا.

مع اقتراب المصدر فقد كان صوت طائرتين هيلكوبتر تطيران على ارتفاع منخفض، ودارت الأحداث أمام عينيّ حسن بالعرض البطيء، فقد شاهد الحراس المرافقين يفتحون أعينهم وحاولوا القيام من أماكنهم لاتخاذ مواقع دفاعية لكن رئيسهم أشار عليهم بالسكينة فلم يحركوا ساكنًا، اقتربت الطائرتان منهم أكثر وأكثر، ظهر التوتر على الوجوه أكثر، ودار تساؤل في عقل حسن، من أين أتوا وكيف انشقت عنهم السماء وإلى أين يتجهون، هل هي محاولة للبحث عنهم أم أنها دورية روتينية للجيش لتأمين الصحراء، وحتى إن كان ذلك الاستنتاج صحيح فهم في خطر شديد وصار الصوت أكثر قوة واقترابًا، ويبدو أنها قادمة من الجانب الغربي أي أنها ستمر عليهم مباشرة إن كانت متجهة إلى الشرق وبدا التوتر واضحًا على الرجال بجانبه.

رغم أن التغيرات على الوجوه ما زالت سريعة بل في منتهى السرعة متفاعلة مع الموقف، لكن عين حسن ما زالت ترى الانفعالات تلك بطريقة العرض البطيء هذا، فتحولت عضلات الوجه من القلق إلى الهلع وتغير لون الوجه من الأحمر القاني نتيجة اندفاع الدم المفاجئ إلى الأحمر المختلط بلون الزرقة نتيجة الخوف الشديد الذي يمنع وصول الأوكسجين بصورة كافية إلى المخ، كانت أول مرة يرى حسن فيها ذلك العرض المبهر لتلك المؤثرات على وجوه البشر، فقد كان يرى الخوف على الوجوه، كان يرصده بل كان يتلذذ به عندما تنهار أكثر القلوب صلابة رعبًا أمام وسائل

تعذيبه، وتتحول وجوههم من بين تلك الحالتين وكانت عادته أن يتلاعب بتلك القلوب المرعوبة فينقلها من حال إلى حال ثم يعود بها إلى حالتها الأولى، لكن لم يستطع يومًا أن يرى تلك اللوحة التي ترسم على الوجوه باستخدام لونين لا أكثر، الأزرق والأحمر، لم يره طوال حياته لكن ما رآه في تلك اللحظات السريعة لم يشاهده طوال حياته ومرّ سؤالٌ على عقله كان سريعًا من كلمة واحدة، لماذا؟

ولم يكن لديه تفسير غير أنه ربما يمر بتلك الحالة معهم الآن.

لكن حسن والكل شخصت أبصارهم فجأة مع اقتراب خيال الطائرتين من خيال الحارس أعلى التبة الصغيرة ثم امتزاجهما فراح الرسام يرسم على الأرض بفرشاة الخوف صورة ولا أقسى لعذاب الروح الإنسانية عندما يطعنها رمح الخوف، وهل هناك شيء أقسى على الروح من سياط الخوف.

ثم مرت الطائرات موازية لهم.

كانت قريبة ومنخفضة وفي الجهة الأخرى من التبة، ربما رأتهم وربما لم تراهم لكن حجم الرعب الذي عانوا منه كان كبيرًا لدرجة أنهم ظلوا على حالة الذهول للحظات. استفاقوا بعدها على صوت القائد.

حمدا لله ثم تحولوا بعدها إلى خلية نحل تعرف ما يجب أن تفعل بعد أمر واحد من القائد بأنهم سيرحلون الآن، مما أثار إعجاب حسن وأيقن أنهم مدربين على مستوى عالٍ. ولم تمض غير لحظات قليلة حتى أعلم قائد الحرس، حسن بأنهم مستعدون للتحرك الآن وأخبره أيضًا أنهم سيقومون بخطة تمويه ستجعلهم يمضون وقتا أكثر في الصحراء وربما يصلون القاهرة مع طلوع الفجر. لم يعترض حسن أو يبدي أي امتعاض.

لكن حسن أصيب بالدهشة مع بداية خطة التمويه فلم يراهم يتدارسون خطة التمويه أو يتفقون على نقطة البدء لكن في نقطة ما انقسم الرتل المتحرك إلى رتلين وأخذوا طريقين مختلفين ولاحظ أن الانقسام حدث مع بداية المدق. وبعد لحظات قصيره اختفت السيارات الأخرى عن عين حسن.

ومضى كلٌ في طريقه، ورغم دقة تلك المجموعة التي معه إلا أن قلقًا واضحًا انتاب روحه خوفًا من مفاجآت الصحراء.

(١٦)

فقدناه

قالها بلغة عربية صحيحة.

وأصدر أحد الأجهزة أزيزًا، نظرت إليه فوجدت عبارة الموت التام مكتوبة على شاشته.

وقفت هالة مشدوهة للحظات أمام تلك العبارة "الموت التام".

هل هناك موت تام وموت غير تام؟

هل لدى هؤلاء الملائكة مفهوم للموت مختلف عما نفهم!

الذي أعرفه أن الموت هو الموت، فلا موت كامل أو موت غير كامل، ربما يقصدون أن الروح قد ماتت أيضًا، إذن إن ماتت الروح إلى شيء قد تحولت إن كانت الروح هي سر الحياة للجسد، إذن ما سر الحياة في الروح وقبل أن تخرج من شرودها قالت ما الموت وما الحياة؟

دارت تلك الأسئلة في رأسها بسرعة كبيرة ونظرت إلى جسد كبير السنافر الراقد وحوله الملائكة التي كانت تحاول إعادته إلى الحياة و إعداد الجسد كي يكون جاهزًا لاستقبال الروح مرة أخرى، ليعيش حياة أبدية بلا نهاية لكن الملائكة أعلنت الموت الكامل أي إعلان موت الروح.

وكانت الوجوه حول الجثة في حالة من الذهول الشديد والجزع، ورأت دمعات تخرج من عيني الملك الرئيس ونظرت إليه هالة وقالت أتعرفه؟ أكنت رفيقًا له؟ كان سؤالاً مباشرًا إلى الملك الرئيس. وهل تبكي الملائكة؟ ألديها قلب ومشاعر مثلنا؟، أنا لا أبكي ولا حتى أشعر بالأسى فليس لدى قلب ينبض، هل للملائكة قلب؟ فأنا طيف مثلهم وليس لي قلب.

وقالت ألا يفترض أن يكون هؤلاء الملائكة بشرًا؟

ربما يكونوا بشر و يحملون رغم اختلاف ألوانهم التي توحي أنهم ليسوا عرب، لمحة ملائكية.

تركت هالة تأملاتها ونظرت إلى جسد كبير السنافر الممزق، وقالت إن حالة الجسد لم تتغير منذ أن شاهدته، فلا معنى للحديث عن حالات الموت المختلفة، وتهلل وجه هالة كمن يكتشف اكتشافًا جديدًا وقالت لنفسها، إذن لابد أنهم ملائكة بالفعل وأنهم ربما كانوا يتحدثون عن الروح وإن الموت الكامل هو موت الروح، نظرت هالة إلى نفسها بإعجاب وإلى صدق استنتاجاتها وتحرقت شوقًا إلى سؤال الملائكة هؤلاء عن سر الحياة في الروح.

ثم نقلت نظرها إلى جسدها كمن أرادت أن تثبت شيئا، وقالت إن جسدي هذا ميت وكل مؤشراته الحيوية مماثلة لنفس مؤشرات جسد كبير السنافر، لكن لم يكتب هذا الجهاز عني تلك العبارة «الموت الكامل».

لماذا لم يكتب؟

لأني أنا الروح ما زلت حية.

وصمتت قليلاً هل سأموت أيضًا؟ ثم سألت نفسها مرة أخرى هل تلك الأجهزة لدى هؤلاء الملائكة تختبر موت الروح عن طريق الجسد؟

إذن ماذا يفعلون عندما يتحلل الجسد؟

وبعد لحظات من الصمت أدركت أن عليها شيئًا واحدًا يجب أن تفعله هو محاولة الهروب منهم ومن الجسد.

وعليها أن تكمل أحلامها المبتورة.

لكن كيف تهرب؟ فقد حاولت مرة وفشلت فهناك شيء ما منعها من الهروب بل جذبها ولم يتركها هل هو الجسد أم هم؟ عليها أن تكتشف ذلك.

وابتعدت عن الجسد وابتعدت عن الملائكة وأرادت أن تخرج من طرف الغرفة الآخر المواجه للشباك لكن في تلك اللحظة أصدر الجهاز المتصل بها أزيزًا تحذيريًا، فعلمت أن هذا الجهاز ربما يكون المسؤول عن ربطها بالجسد، وذلك عن طريق إصداره إنذارًا للملائكة في حالة رحيلها.

في تلك اللحظة عادت هالة إلى الجسد فقد علمت الأمر وعليها أن تصبر وتحل تلك المشكلة.

توجه كبير الملائكة في الغرفة إلى جسد هالة ونظر إلى الشاشة المتصلة بالدماغ ورأى ضعف الإشارة فقام بغرس حقنة بمنتهى السرعة في جسدها وقال هامسًا:

حتمًا لن تتبخري فأنت آخر أمل لدينا.

نظرت إليه هالة بتحدٍ، إلى من تتحدث ومن هذا الذي سيتبخر؟ ونظرت إلى الواقفين حوله فوجدتهم منتبهين إلى ما يقول رغم أنه لا يتوجه إليهم بالحديث الذي أصابهم بحماسة واهتمام بجسد هالة، فالتفوا حول الجسد يعملون كخلية نحل وما هي إلا لحظات حتى تغير كل شيء حول الجسد، فقاموا بوضعها في أنبوب زجاجي آخر وضعوا فيه سائل أكثر كثافة امتلأ تمامًا وقد علق الجسد في المنتصف ونظرت هالة إلى الجسد وقالت:

أترون لو كان فيه حياة لمات الجسد مختنقًا!

ولم يجبها أحد ربما لم يسمعها احد، بل ولم يلتفتوا إليها لأنهم كانوا منهمكين في إعداد الأنبوب ونظرت هالة باستغراب إلى ما يفعلون، فقد نزعوا عن جسدها كل المجسات التي تقوم بدراسة المؤشرات الحيوية للجسد وتأكدت أن الجسد قد مات، وظنت أن تلك فرصة جيدة للهروب، فلن يخبر الجسد أحدًا تلك المرة، واتجهت مسرعة إلى الباب، وقبل أن تخترق الباب صدر أزيزًا آخرًا فعلمت أنها ستعود إلى الجسد، فرجعت تجر قدميها متجهة إلى الأنبوب المحتوي على جسدها ونظرت إلى الأنبوب مطولاً محاولة استكشاف المجسات المتصلة بالجسد ثم فركت عينيها براحتيها ربما تقوم بتنشيطها لترى أكثر أو تكتشف أشياءً لم تكتشفها من قبل وقد تكون متصلة بالجسد

لكــن لم تجـد أي شيء يـدل عــلى اتصالهــا بالجســد. إذن ليــس أمامهــا إلا اســتنتاج واحــد فقــط، أن الأنبــوب المحتــوي عــلى الجســد يحتــوي عــلى أجهــزة استشــعار كهرومغناطيســية، وســمعت المــلاك الجالــس عــلى جهــاز اعتقــدت أنــه كمبيوتــر، يقــول لكبــير الملائكــة انتهيــت مــن برمجــة أنبــوب الرحــم.

حسنًا «أجاب كبير الملائكة»

ثــم ضغــط عــلى زر موجــود عــلى شاشــة هولوجرافيــة متكونــة أمامــه فتحــرك أنبــوب صغــير عــلى هيئــة زراع حامــلاً حقنــة ليحقــن بهــا الجســد داخــل أنبــوب الرحــم.

شــعرت هالــة بعــد غرس الــدواء في الجســد بخــدرٍ لذيــذ وحريــة أكثــر في الابتعاد عــن الجســد وأدركــت أن الفرصــة ســانحة كــي تتحرر مــن الجســد وتهرب.

لكــن حــب المعرفــة والتطلــع جعلهــا تقــف كــي تــرى مــا يفعلــون بالجســد، فبعــد لحظــات مــن إعطاءهــا لتلــك الحقنــة قامــوا بإخــراج الجســد مــن الأنبــوب، وكأنــه أصبــح صالحًــا لــشيء مــا ثــم وضعــوه عــلى سريــر يشــبه إلى حــد مــا سريــر العمليــات الجراحيــة، لكــن كان يتــم التحكــم فيه عــن طريــق الشاشــات الافتراضية أمامهــم التــي كانــت كميكروســكوب اليكتروني شــديد التطــور، وميكروســكوبات جراحيــة و مشــارط مــن الليــزر.

انتابهــا شــعور بالفــزع ممــا تــرى لأنهــم لم يعالجــوا الجســد ولم يســتأصلوا بعــض التشــوهات ويتركــوا بعضهــا، بــل راحــوا يبــترون كل مــا طالــه الحــرق مــن زراع إلى رجــل ثــم إلى الخلايــا التالفــة التــي طالهــا الحــرق عــن طريــق الميكروســكوبات الالكترونيــة، التــي يشــاهدون عــن طريقهــا أدق تفاصيــل الخلايــا ورغــم بشــاعة منظــر الإنســان وهــو يبــتر أجزائــه إلا أن رؤيــة الخلايــا وأجزائهــا بهــذا الوضــوح أدهشــها تمامًــا وقالــت لنفســها «بالفعــل هنــاك أشــياء كثــيرة لا يمكــن رؤيتهــا إلا في الآخــرة".

ظلـت تتابـع بشـغف مـا يفعلـه الملائكـة بجسـدها وكانـوا مهـرة إلى حـد لم تـراه مـن قبـل، فيسـتخلصون الخلايـا الميتـة والمحترقـة مـن بـين تلـك الخلايـا الحيـة وكانـوا فريـق متناغـم إلى أقـصى حـد ويعلمـون مـا يفعلـون وكالعـادة لم تشـعر بالوقـت وكـم أخـذوا مـن وقـت حتـى انتهـوا، ومـع إنهـاء مـا فعلـوا شـعرت بحـزنٍ رهيـب عـلى مـا تبقـى مـن جسـدها، فقـد أزاحـوا الكثـير مـن الجلـد ونظـرت إلى تلـك الأجـزاء العاريـة مـن الجلـد واسـتعجبت مـن مهارتهـم، فلـم تتـضرر تلـك العضـلات التـي تحـت ذلـك الجلـد، وتأكـدت مـن أنهـا سـلخت باحـتراف كبـير، ولم يتبقـى مـن الجسـد غـير الـزراع الأيـسر والرجـل اليـسرى ومنبـت الـزراع الأيمـن ومنبـت الرجـل اليمنـى، لقـد أزالـوا اللحـم والعظـم.

حمـدًا لله أننـي مت ولم أرى جسـدي هكـذا. كل تلـك الكلـمات دارت في عقلها ثم صمتـت للحظـات قبـل أن تقـرر الرحيـل، وقبـل أن تخـرج مـن حالتهـا، شـاهدت الملائكـة العلـماء يقومـون بإعـادة الجسـد مـرة أخـرى إلى أنبـوب الرحـم وشـاهدت سـائل آخـر أكثـر كثافـة وشـفافية مـن السـائل الأول.

- لماذا؟

- لماذا يفعلون ذلك ألم ينتهوا منه؟

- ما فائدة ما تم؟

ثـم نقلـت نظرهـا إلى الشاشـة الرئيسـة التـي يقـف رئيـس الملائكـة أمامهـا، وشـاهدت الجسـد عـلى الشاشـة والسـائل اللـزج هـذا يمـلأ الأنبـوب تمامًـا، والجسـد عالـق في المنتصـف. شـعرت هالـة بزيـادة الخـدر وأصبـح يؤثـر عليهـا، وشـعرت بثقـل رأسـها، وظنـت أن مـلاك النـوم يبحـث عنهـا أكثـر مـن بحثهـا الآن عـن الحريـة، وزاد شـعورها بالنـوم مـع رحيـل الملائكـة مـن الغرفـة، وأرادت أن ترحـل معهـم، ونظـرت إلى البـاب نظـرة طويلـة ثـم قالـت لنفسـها:

إن البـاب هـو سـبيل الخـروج فـإن أردت الرحيـل عـلى أن أرحـل عـن طريـق البـاب.

ولم تستطع أن تدفع النوم عن نفسها فأضحى الهاجس المسيطر عليها؛ أين تنام؟

أرادت أن تطير وتلتصق بالسقف ولم تستحسن تلك الفكرة، فقررت النوم بجانب الأنبوب.

وقبل أن تنام شعرت أنها تريد أن تسأل، هل تنام الروح؟ولم تستطع أن تجيب لأنها نامت بالفعل.

كانت خطوات الملاك المتابع لحالتها على الأرض لا تكاد تدركها الآذان المرهفة لكن أدركتها أذن هالة، فاستيقظت، وشعرت بحالة من النشاط الكبير وقوة بدنية كبيرة فابتسمت لنفسها ابتسامة رقيقه ثم تابعت بنظرها الملاك الواقف أمام أنبوب الرحم عاقدًا زراعيه، هادئًا، وعلى وجهه آثار طمأنينة، مما جعلها تتحرك بهدوء باتجاه الملاك ونظرت إلى ما ينظر إلى داخل الأنبوب، إلى ذلك الجسد العالق داخل السائل وقد حدث لها ما يشبه الانبهار ونظرت غير مصدقة ما تراه.

واتجهت للملاك سائلة، هل هذا حقيقي؟

ولم تمهل الملاك حتى يجيب وسألته سؤال ثان:

لماذا لم يتاح ذلك في الدنيا؟ وبكل حنق سألت الملاك مرة أخرى، لماذا لم تتيحوا ذلك العلم لنا؟ نظر إليها الملاك وابتسم ابتسامة رقيقة ثم عاد ونظر باهتمام إلى أنبوب الرحم ونظرت إليه وهو يقوم بفتح الشاشة الهولوجرافية أمامه، ويتابع عليها ما يحدث ميكروسكوبيًا، نظرت هالة هي الأخرى إلى الشاشة التقديرية التي ينظر فيها الملاك فأصابتها الدهشة لما ترى وراحت تنقل نظرها مرة تلو أخرى بين الأنبوب والشاشة الافتراضية أمام الملاك ثم قالت، رباه هل هذا حقيقي؟

هل هذا ممكن؟

توجهت إلى الملاك بالسؤال مباشرة لكنه لم يجب، بل لم يعرها أي اهتمام ولم تنتبه هي الأخرى إلى جوابه، أو عدم جوابه، بل كانت منتبهة بكل حواسها إلى ما يحدث، وتنقل نظرها بين الشاشة والأنبوب المحتوي على الجسد، فقد كانت ترى صورة بطيئة على الشاشة لعملية بناء خلايا جسدها الذي يوجد في الأنبوب، وكانت المادة اللزجة التي ظنت أنها نانوكمبيوتر هي بالفعل الموجودة على المناطق المبتورة من الجسد والمناطق التي تم إزالة الجلد من عليها.

تقوم تلك المادة بإعادة البناء للخلايا من جديد. وشعرت هالة أنها كتلميذ يعرف إجابة سؤالٍ كان صعبًا فأرادت أن تثبت لأستاذها أنها العبقرية الوحيدة الموجودة داخل الفصل، فهتفت بكل ما فيها أنها طريقة السمندل ولم تمهل الملاك حتى يؤكد أو ينفي صحة ما تقول لكنها استطردت:

إن ما يحدث في الأنبوب مثل ما يحدث مع السمندل عندما يقطع أحد أطرافه فإنه يستعيدها مرة أخرى بعملية بناء مشابهه تقوم بها الخلايا الجنينية في السمندل.

هل تقوم تلك الكمبيوترات النانومترية بإعادة تعريف الخلايا الجسدية وجعلها خلايا جنينية؟

وانتظرت جوابًا من الملاك المعلم يؤكد تفوقها، لكنه لم يجب، بل لم يلتفت إليها، فقد كان منهمكًا في المتابعة والعمل وبعد لحظات انصرف وأغلق الباب من خلفه، كانت فرصة ذهبية للرحيل، لكنها أجلت تلك الخطوة إلى ما بعد انتهاء تلك التجربة المثيرة، وقفت في نفس المكان الذي كان يقف فيه الملاك لتنظر من نفس المكان، ظنت أنه المكان المناسب للمشاهدة وحاولت أن تبحث عن مصدر الشاشة التقديرية التي كان يقف أمامها، فلم تجد، فدار في عقلها فكرة أن حركات يد الملاك في الفراغ ربما تكون هي من أوجد تلك الشاشة ثم قامت بنفس تلك الحركات علها توجد الشاشة، لكن الشاشة لم تظهر، ونظرت إلى نفسها بكسوفٍ بالغ وقالت معذرةً يا أمي أعلم أنك لو رأيتيني الآن لنهرتيني.

وتخيلت أمها وهي تقول لها بصوتها، ما الفارق بينك وبين الحكومة؟

فدائمًا ما كانت تنتقد الحكومة أنها لا تفكر بأسلوب علمي في حل مشاكلها وأنا الآن اتبع هوسي ولم أفكر بأسلوب علمي وظننت أن الشاشة تملأ الفراغ ويمكن توليدها متى شأت.

معذرةً يا أمي، وبحثت عن مصدر الشاشة مرة أخرى فلم تجد، لكنها وجدت ضالتها في الشاشة الافتراضية الكبيرة التي كان كبير الملائكة يتابع حالة الجسد منها، ثم راحت تنقل نظرها بين الشاشة والأنبوب كما فعل الملاك، لكن بتلقائية دون أن تدري، فهي تراقب بكل حواسها، ما يتم مع الجسد، لكن استرعاها ملحوظة مهمة فرغم أنها لا تعرف معنى الوقت وهي في تلك الحالة وأدركت أن الوقت الذي يمر بها ربما يكون غير مقدار الوقت الذي تقيسه الساعات فهي روح، والروح بالتأكيد لها وقت مختلف، لكن ملحوظتها أن معدل نمو الجسد سريعًا جدًا بالنسبة لما تعتقد وما رأته عند حيوان السمندل، فقد انتهت عملية بناء العظام في الزراع والقدم المبتورتين وكان النمو مشهد لا يصدق، فقد كانت القدم تنمو أمام عينيها كزهرة بيضاء خرجت لتوها من الأرض مسرعة، ثم تفتحت معلنة أنها مستعدة للحياة، ورغم فرحها لما ترى إلا أنها شعرت بحزن عميق لأن البشرية لا تملك مثل هذا العلم.

وبإحساس العالم قالت:

علي أن أعرف هذا السر العلمي ثم أقوم بنقله لأي معمل أو ربما ألهم عالم وآتيه في المنام وأخبره كي يقوم من نومه صارخًا فرحًا، وجدتها وجدتها وقبل أن اختار هذا العالم علي أن أقوم بالخطوة الأولى وأحاول أن أحصل على السر وهو ما يجب أن أفعله قبل مغادرة تلك الغرفة والرحيل عنها إلى الأبد. ثم لفّت المعمل مسرعة متحركة في أرجاء الغرفة سعيدة ثم اقتربت من الجسد وشاهدت كيف تحولت القطع المنزوعة من الجلد بفعل الانفجار أو التي أزالوها، إلى جلدٍ نضر وكأنه بشرة أطفال جميلة بل وبقية البشرة التي لم تتضرر شعرت أنها قد تجددت أيضًا وأخذت منظر شديد الجمال والقوة.

أحسـت بسـعادة، لا تـدرى مصدرهـا لأنهـا تعلـم أن هـذا الجسـد لم يعـد ينتمـي إليهـا أو تنتمـي إليـه، لكـن مـا يحـدث فيـه الآن هـو شيء مثـير، ثـم راحـت بنهـم طالـب العلـم الحقيقـي تبحـث عـن معلومـة، لم يكـن هنـاك ورق مـتروك مـن الملائكـة تسـتطيع قراءتـه، لم تعـرف مـن أيـن تبـدأ وإلى أيـن تنتهـي، وقالـت سـأتعرف عـلى الأجهـزة الموجـودة في هـذا المـكان.

كانت أجهزة لم ترى مثلها في مصر أو في ألمانيا.

مـا تلـك الأجهـزة وعـلى أي مبـدأ علمـي قـد بنيـت؟ وهـل سـيتاح للبشريـة أن تمتلـك تلـك الأجهـزة يومًـا؟، كانـت تلـك الخواطـر تـدور في ذهنهـا وهـي غارقـة في البحـث، حاولـت أن تختـبر الشاشـة الرئيسـة، ربـما تكـون كمبيوتـر مخـزن عليـه معلومـات وكانـت في تعاملهـا مـع الشاشـة كطفـل يـرى شيء غريـب، فمـدت يدهـا واقتربـت مـن الشاشـة، وقبـل أن تصـل يدهـا إلى الشاشـة أعادتهـا مسرعـة وحاولـت أن تقـوم مـرة أخـرى بتلـك الفعلـة واقتربـت أكثـر وارتعشـت يدهـا، وقـررت أن تكمـل مهـما تكـن العواقـب وقالـت لـو حـدث أي تغيـير ربـما سـتصدر تلـك الشاشـة إنـذارًا يتـم اسـتدعاء الفريـق الملائكـي عـلى إثـره،................ لا يهـم.

وواصلـت تمديدهـا ورغـم أنهـا كانـت ترتعـش إلا أنهـا واصلـت ولامسـت الشاشـة، العجيـب أنـه لم يحـدث أي تغـير، فقـد اخترقـت يدهـا الشاشـة بـكل سـهولة وبذلـت جهـدًا في محاولـة السـيطرة عـلى يدهـا حتـى تلامـس تلـك الأيقونة الواضحـة عـلى الشاشـة لكنهـا وبالفعـل أصابتهـا، لكنهـا لم تسـتجب، حاولـت مرة أخـرى ونظـرت إلى البـاب خائفـة مـن دخـول أحـد الملائكـة عليهـا وهـي تعبـث بأجهزتهـم ولا شـك أنهـم سـيتهمونها بالسرقـة.

لكن لماذا لا تستجيب تلك الشاشة؟

حاولـت مـرة تلـو أخـرى أن تقـوم بذلـك الأمـر، لكـن الشاشـة لم تبـد أي اسـتجابة، وبعـد شـعور بالإحبـاط استسـلمت لأحـد احتمالـين أن الشاشـة ربـما تكـون مغلقـة برمـز سرى أو أن تلـك الشاشـة مصممـة كـي تتعامـل مـع خلايـا اللمـس الملائكيـة فقـط ولا تسـتجيب لأيدينـا.

- وقالت لما لا أسألهم؟هل سيجيبونني؟لو كانوا علماءً حقيقيين ما منعوا علمهم.إذن إن كان عندهم هذا العلم فلما حجبوه عن البشر حتى الآن، أليس من حقنا أن نعالج بهذا العلم في الدنيا؟ أمن العدل أن يولد إنسان بلا زراع أو قدم ويعيش طوال عمره معذب وهناك من يمتلك علمًا يستطيع به أن يحمل عن الناس عذابهم؟أليس اسمهم ملائكة ويحملون الطيبة في قلوبهم، وإلا كانوا شياطين؟!ربما لم يجدوا طريقة لإيصال تلك العلوم إلى البشر.

إذن إن كانوا كذلك، عليهم أن يجيبوني بل ويعطوني أسرار تلك العلوم ثم أنقلها أنا للبشر.

هل سأستوعب كل تلك العلوم؟ وشردت قليلاً، سوف تكون مهمة ثقيلة علي، لكن علي تحملها، أو ربما هم يمتلكون علمًا يتمكنون من خلاله زرع تلك المعرفة في وعيي.

وظهر التصميم والجد على ملامح وجهها بعد هذا الحوار الداخلي، وأضحت متأهبة لمقابلة الملائكة والحديث معهم وراحت تعد خطة لطرح أفكارها عليهم وتضعهم في موقف منطقي لا يستطيعون معه رفض طلبها. ثم فركت جبهتها بيدها مع تساؤل تعجبت كيف لم يخطر ببالها من قبل.

- هل يراها الملائكة ؟

- بالطبع يرونني.

لم يبد منهم أي دليل على رؤيتي، لا لقد نظر لي الملاك الأخير لكنه لم يعقب، إن العلماء لا يتحدثون كثيرًا ولا يأبهون لما حولهم إلا إن أثرتهم بأسئلتك.

- لكن أيكون التجاهل إلى تلك الدرجة، سنرى؟

ووقفت أمام أنبوب الرحم لتتابع ما يحدث للجسد من تغيرات عن قرب، كانت سرعة البناء التي تقوم بها تلك المواد عالية جدًا لدرجة أن هالة استطاعت أن تلاحظ ذلك رغم افتقارها لحاسة الزمن، ولم يمض وقت كبير، وذلك بإحساسها هي الزمني لذلك فوجئت عندما أتمت تلك المواد بناء الجسد بالكامل، ووقفت هالة أمام الأنبوب والدهشة تملأ وجهها ورغم أنها كانت ترى عملية البناء رأي العين، إلا أنها ظلت غير مصدقة للحظات ما تراه الآن داخل الأنبوب، فقد عاد الجسد المبتورة بعض أعضائه، والمهلهل إلى اكتماله، واكتسب نضارة على نضارته وزاد بهاؤه وظهرت بشكل جلي محاسنه ومفاتنه، فلفت عينيها هذا الاكتمال وبهرها ذاك الجمال، التصقت بالأنبوب فرحة غير مدركة ما يحدث حولها إلا أن دخول الملائكة مسرعين ومعهم رئيسهم وقبل أن تستفيق كانوا قد التفوا حولها هي وأنبوب الرحم، لكن لم يعرها أي واحد منها أي اهتمام فقد كانوا يحملون في عقولهم مهمة لابد من إنجازها، لذا كانوا مشغولين عنها، وبعدما استحضروا كل شاشاتهم الافتراضية أمامهم، بدأ العمل، فقد بدأ السائل في الانزياح خارج الأنبوب، ثم انفتح الأنبوب وخرج الجسد كخروج طفل من الرحم، وما أن استقر الجسد على السرير حتى تم إزالة ما علق عليه من سوائل، ثم قاموا بإيصال أنبوب إلى الرأس.

تحركت هالة باتجاه رئيس المجموعة الملائكية ورغم أنها مصممة على سؤاله إلا أنها مضت متثاقلة تحت تأثير خوف من أن يعنفها أو يرد عليها بطريقة غير مريحة تسبب لها كثير من الإحراج، لكن الرغبة الملحة في التعلم كانت أقوى، وقفت هالة بجانبه ثم حاولت أن تلفت انتباهه، كانت الكلمات ما تكاد أن تخرج من شفتيها حتى تتبخر، فلا يسمعها أحد ولم تسمع حتى نفسها، كان تجهمه وكانت أول مرة تلاحظه على تلك الحالة فأضحى مصدر قلق لها مضاعف، لكنها في لحظة شجاعة كانت قد اتخذت قرارًا واحدًا أن تتحدث معه، لذا اقتربت منه لدرجة أنها وقفت أمام الشاشة وحاولت ان تتكلم لكنه كان قد غادر مكانه متجهًا إلى السرير الذي يرقد عليه الجسد، ولم يلتفت إليها حتى، لكنها لم تغضب منه لأنه كان مشغولاً بالجسد، ثم قام بحقن الجسد عن طريق الأنبوب.

كانـت فرصـة طيبـة لهـا أن تلاحـظ رئيـس الطاقـم الملائكـي وتتعلـم منـه، فاقتربـت لتشـاهد وتتعلـم واسـتكانت هالـة جانـب الجسـد، مبهـورة بهـذا التناغـم بـين الفريـق ورئيـس الطاقـم الملائكـي فهـم يتحركـون بـلا أخطـاء، ثـم عـاد مسرعًـا إلى الشاشـة الرئيسـية، أعطـى بعـض الأوامـر ثـم اختلـف لـون السـائل في الأنبـوب، ثـم عـاد إلى الجسـد وكان الآخـرون يعملـون عـلى كل جـزء في الجسـد ومنهـم مـن يقـف عـلى شاشـته ليعطـى الأوامـر للأجهـزة المتصلـة بالجسـد، وبعـد وقـت قصـير ظهـرت ابتسـامةعلى الوجـوه توحـي بالنجـاح ثـم قامـوا برفـع كل الأنابيب المتصلـة بالجسـد، ووقـف كبـير الطاقـم الملائكـي أمـام الجسـد مبتسـمًا وقـال لقـد اكتمـل جمـال الجسـد . شـعرت هالـة بـشيء مـن الانتهـاك، نتيجـة نظـرات هـذا المـلاك للجسـد.

أرادت أن تـصرخ فيـه حتـى تردعـه، لكنـه لم يـترك لهـا فرصـة، بـل مـال عـلى الجسـد ومـرر يـده عـلى وجههـا، شـعرت ببعـض الحنـو.

وقالت له هامسة شكرًا.

لكنهـا سرعـان مـا تغـيرت حالتهـا وأصابهـا ذهـول عندمـا رأتـه يمـرر يـده عـلى صدرهـا العـاري، ووركيهـا، ثـم مـرر يـده عـلى كل جـزء في جسـدها ومـا أن انتهى حتـى قـال للفريـق رائـع بعـد اسـتعمال الليـزر لـن تشـعر باختـلاف في البـشرة أو في الملمـس واللـون، علينـا أن نعطيهـا لونًـا واحـدًا فتوجـه المـلاك إلى شاشـته ثـم أعطـى أمـرًا تحـرك عـلى إثـره ذراع ليـزر، مـر عـلى الجسـد كلـه معطيـا إيـاه مسـحة مـن اللـون البرونـزي فـزاد مـن بهائـه وجمالـه حسـنًا وروعـة.

فهتـف أحدهـم رائـع، إن هـذا الجسـد يشـبه جسـد أسـاطير الجـمال ملـكات مـصر القديمـة.

نظـرت إليـه هالـة نظـرة امتنـان لأنهـا رأت أن نظرتـه للجسـد لم تكـن نظـرة تحمـل أي معنـى جنسي لكـن كانـت نظـرة فنـان يـرى لوحـة لفنـان آخـر فأدهشـه كل هـذا القـدر مـن الجـمال.

اقتربت هالة بفخر من جسدها العاري، لم تخجل منه، كانت تلك أول مرة تشعر بحب حقيقي لجسدها ولامت نفسها لأنها لم تكن تنظر إليه تلك النظرة قبل وفاتها.

وطاف سؤال بعقلها لماذا ترمم الملائكة الجسد وتعيده إلى نضارته وجماله؟

إن كان سيتحلل فلما تقوم بذلك، وقبل أن تسمع إجابة، شعرت بانجذاب كبير تجاه الجسد وبقوة تدفعها للاقتراب، نظرت إلى السائل الذي تم حقن الجسد به وأيقنت أنه تأثير هذا السائل. ازدادت قوة الانجذاب ونظرت إلى كبير الطاقم وقد تحولت نظرته إلى الجد والملاحظة وقالت راجيةً أرجوكم لا تربطوني به، إنه كان يكبتني، أنا أريد أن أطوف بالعالم، أريد أن ألهو، أرقص، أتعرى، أريد أن أفعل ما أريد، اقتربت من الجسد أكثر وأكثر. حاولت أن تدفعه عنها بيديها لكن يديها غاصت فيه وراحت تتلاشى شيئًا فشيئًا ولم يتبقى منها غير صرخة رفض.

- من أنتم؟

قالت بصوت واهن غاضب للوجوه التي تحدق فيها باسمة.

لكنهم لم يجيبوها وراحوا يلقون التهاني على بعضهم البعض.

انتبهت هالة إلى جسدها العاري فحاولت أن تميل جانبًا عن العيون وضمت وركيها ووضعت يدها على فرجها محاولة أن تداريه.

فتحدث إليها كبيرهم بلغة إنجليزية، لكنه أدرك أنها ليست في حالة للاستيعاب فحدثها بلغة عربية سليمة وقال لا تتحركي يا عزيزتي واهدئي وإلا ستصابين إصابات بالغة وتم حقنها بمادة مهدأة، استرخت بعدها هالة وراحت في نوم عميق.

وظلت أسئلة عالقة بذهنها.

- من أنتم؟

- أين أنا؟

(١٧)

وبرغم أن الأجواء كانت مستقرة إلا أن حسن والطاقم المرافق لم يتخلوا عن حذرهم، ورغم توترهم إلا أن ردود أفعالهم كانت هادئة ونظر سائق سيارة حسن إلى حسن نظرة ملؤها التقدير والاحترام وشيء من الحب، وأن فراقه سيترك وحشة في نفسه، فهم حسن كل تلك الرسائل فعلم أنه قد اقترب من القاهرة فقال حسن للسائق:

- هل وصلنا؟

- نصف ساعة وسنكون على أبواب القاهرة.

لم يكن هذا نوع من التخمين لكن يبدو أنها علامات على الطريق تعطيهم المسافة والوقت كانوا قد تدربوا عليها، فطن حسن لذلك.

لكنه لم يعقب أو يسأل، بل أنصت لمخاوفه وشعر بثقل كبير على قلبه وعدم قدرة على الإتيان بأي فعل وشعر بحالة من عدم القدرة على التفكير.

هموم وأمنيات وقلة حيلة.

كانت القاهرة تبدو من بعيد شاحبة كئيبة فلا تتنفس ولا حركة ولا ارتفاع وانخفاض في الصدر دال على الحياة. فظن حسن أن ما يراه لصورة القاهرة هو انعكاس نفسي لأنه ولأول مرة يراها على تلك الحالة فظن أنها انعكاس لنفسه، لكنها حقيقة القاهرة التي لم يكن يراها فقد أضحت مدينه بلا روح.

توقفت السيارات وترجل كل الحراس وتقدمهم القائد لوداع حسن، كانوا قد توقفوا عند الأبواب الشرقية لمدينة القاهرة ورغم أنهم لم يتبادلوا الأحاديث إلا أن حالة من المشقة الناتجة عن الفراق ظهرت على كل الرجال وظهرت على حسن حين الوداع، لم يجد حسن تفسير مناسب لتلك الظاهرة إلا أنها تحدث لكل الناس الذين يربطهم مصير مشترك وتتنابهم نفس المخاطر، يشعرون بحالة من الود، وعند الفراق يجدون مشقة نفسية.

وقال قائد الحرس سنعود مسرعين حتى لا ينكشف أمرك، هل تعلم أين أنت ؟

كان حسن يعلم جيدًا أين يكون ويعلم أن مكانه هذا بعيد عن قلب القاهرة وأن الحركة ستتطلب كثير من الجهد وهو غير مستعد له وخاصة بعد المعاناة التي لاقاها في تلك الرحلة، وقبل أن يفترقوا أخرج الحراس من إحدى السيارات دراجة بخارية وقال القائد:

ربما تحتاجها حتى تستطيع الوصول إلى المكان الذي تريد، لأننا بعيدين جدًا.

شكرهم حسن وتحركوا، كانت الصورة لمن يشاهد من بعيد لضوءين يتحركان في اتجاهين متعاكسين، أحدهما قوي والآخر ضعيف، لكنهما يشقان ظلام الصمت، كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحًا ولم يعد أمام حسن الكثير من الوقت لأن القاهرة ستفيق من ثباتها العميق وتدب فيها الحياة مع أذان الفجر، فالكل ملتزم أن يستيقظ حتى يصلي الفجر في جماعة وإلا لن ترحمهم سياط شرطة الأمر بالمعروف، لذا كان عليه أن يدخل القاهرة مسرعًا.

كان لدى حسن مكان آمن يستطيع أن يختبئ فيه لكنه قرر أن يذهب إلى مكان واحد ظن أنه سيجد فيه الراحة، إنه شقة هالة.

ورغم علمه أن هالة كانت من خيال رجال أمن المرشد وأن ذهابه إلى هناك ربما يكون نهاية لحياته إن تم القبض عليه، لكن شيئًا ما لم يستطع تفسيره ضغط عليه بشدة فلم يستطع الفكاك منه ويدعوه إلى الذهاب إلى بيتها حتى لو كلفه الأمر حياته.

انطلق حسن بأقصى سرعة مغلقًا ذلك الحديث الداخلي. كان يعلم أماكن الدوريات الشرطية ومواعيدها بدقة لذلك استطاع أن يصل إلى المكان الذي يريد بسهولة، ترك الدراجة بعيدًا عن المكان، في مكان لا يلفت أي انتباه، دار حول العمارة التي توجد بها شقة هالة، فلم يجد أي أثر لمتابع أو مراقب، وأدرك أنه لا يوجد كمين أمني، ربما لم يتوقعوا عودته أو أنه قد حقق ما أرادوا وعلموا مكان مولانا، لذلك لم يعد هناك حاجة إليه، هذا هو الأمر

ببساطة، فتح باب الشقة دون أن يحدث ضجيج وبسرعة كبيرة دلف إلى الشقة ثم أغلق الباب من خلفه وتسلل على أطراف أنامله وكانت كل عضلاته مستنفرة ومستعدة لدخول قتال لا ينتهي إلا بموته أو موت خصمه، لكن مر الأمر بسلام ولم يكن هناك أي أثر لما اعتقد، فهدأت نفسه وظهرت على وجهه آثار ابتسامة.

أضاء حسن النور الخافت وخلع ملابسه و تعرى تمامًا، شعر بحرية وجوده في مكان ينتمي إليه، ذهب إلى الحمام مباشرة وملأ البانيو، كانت آثار الصحراء مطبوعة على جسده فبين المسام الجلدية يوجد رمل ناعم مختلط بالعرق مسببًا لزوجة للجسد تجعل هم العقل الوحيد هو التخلص منها، وبأقصى سرعة، لذا نزل حسن البانيو عقب امتلاؤه.

أراح رأسه مستسلما لمتعة راحة الجسد عن طريق الاستحمام، لم يكن ينتوي أن يفكر أو أن يترك الفرصة لعقله أن يفكر، لأنه منهك وأراد أن يستريح، شاهد نفسه في المرآة وقال يجب أن أتركك ترتاح قليلاً فأنت في حاجة إلى الراحة، وقبل أن يتقوقع داخل ذاته لاحظت عيناه نقوش بخط أبيض رفيع لم تلاحظه عيناه من قبل عندما كان في تلك الشقة، هل هناك من يدرك أنى سأعود فكتب تلك النقوش كرسالة لي، أم أنها قديمة ولم ألاحظها، اقترب حسن فوجد مكتوبًا "فالرجل الشرقي لا يفهم الشعر والشعور لا يعرف المرأة إلا فوق السرير،........ " هي حتمًا كتابات لهالة لكن لماذا تلك الكلمات كتبتها على المرآة؟ هل تريد أن تكون تلك الكلمات دستورها فتركتها على المرآة؟، لأنها حتمًا ستقف أمام المرآة كل يوم أكثر من مرة ومع كل مرة ستقرؤها فلا تنسى، هل كانت تلك الكلمات من وحي خيالها؟، ثم دقق النظر لعله يجد إجابة ووجد بالفعل كلمة نزار ممهورة تحت الكلمات كأنها إمضاء، إذن هي كلمات هذا الرجل نزار، لماذا لم أشاهد تلك الأشياء مع بحثي الدقيق المرة السابقة، إذن لم يكن بحثي دقيقًا ومط شفتيه ولم يبدو عليه أي انفعال، و لم يكن لديه أي جهد للتفتيش الآن، كان متعبًا لكن عين الخبير الأمني لا تستجيب لأوامر عقله وتهدأ، لكنها راحت تبحث في المكان، وكان خلف باب الحمام ركن لم يلاحظه حسن من قبل، وكان هذا الركن مخصص لملابسها التي لم يصبها دور الغسيل.

كانت أشياء شديدة الوضوح، لماذا لم تراها من قبل يا حسن؟

قال لنفسه تلك العبارة ثم اتجه مباشرة وأخرج كل ما فيها من ملابس ويبدو أنها كانت هدية السماء له، فرائحة جسدها فيها، فحمل ملابسها ثم جلس على سريرها عاريًا ورغم نهمه لشم رائحتها كلها إلا أنه خشي أن تضيع التفاصيل أو يتأخر في المرور على كل القطع فاختار أن يمر مرورًا سريعًا على كل ملابسها التي كانت ترتديها وكان محقًا فكل قطعة لها رائحة خاصة وكان أكثرهم مزاجية وجمالاً هو القطعة السفلية للمناطق الداخلية والتي أخبرت عن تلك الرائحة الغجرية المتصاعدة عن أنثى تامة الأنوثة، عاد إلى كل جزء من ملابسها وشمه وترك تلك الرائحة تتسلل إلى روحه وتترك بصمتها عليها وكانت كل قطعه تتطبع بجزء من روحها إلى أن اكتملت مع اكتمال تحفتها الأخيرة على أنفه، شعر حسن أنها أمامه واقتربت منه ثم جلست بدلال الأنثى على طرف السرير القريب، رأى ابتسامتها على وجهها وشعر حسن أنها حقيقة أراد أن يقترب ويلمسها لكنه خاف أن يقترب فيدرك عقله عن طريق حاسة اللمس ضلال عينيه التي تراها، فاستكان وقال حتى وإن لم تكن حقيقة فوجودها الآن يسبب لي السعادة، ثم وضع يده على كتفه متلمسًا أثر الجرح الذي تم استخراج جهاز الإرسال منه وخشي أن يكون موجودًا، ومع الإدراك والخوف خرج حسن من حالة الوجود مع هالة، فتلاشت، شعر بحالة من الحزن فاستكان وتكور على نفسه، وقال مشجعًا حتمًا ستأتيني في منامي، وقال محدثًا نفسه حتمًا هي حقيقة ولم تكن من خيال الجهاز، لكن حبي لها رغم أنه ما زال مستمرًا إلا أنه كان من صنع الجهاز وأسلم نفسه للنوم على أمل أن يراها في منامه وكانت أمنية صادقة.

لكنه استيقظ من نومه ولم يراها، لكن جسده كان مرتاحًا جدًا نتيجة هذا القسط الكبير من النوم، وشعور داخلي أن روحها كانت ترعاه حتى استيقظ، نظر في ساعته فوجد أنه باستطاعته المكوث، فما زال هناك متسع من الوقت حتى ينتهي الناس من صلاة العشاء، وبعدها بقليل تدخل القاهرة في حالة من الثبات العميق انتظارًا لمجيء الفجر.

قـام حسـن مـن سريـره ببـطء، أراد أن يشـعر أنـه في بيتـه، وليـس هنـاك مـا يقلقـه ثـم ذهـب إلى البانيـو وانـزاح داخـل المـاء، شـعر براحـة تـسري مـن أطرافـه و يمتـد أثرهـا إلى رأسـه، فشـعر بانتعاشـه رغـم حالـة القلـق التـي تنتـاب عقلـه، فهـو لا يعـرف مـن أيـن يبـدأ ولم يكـن لديـه خطـة ولا حتـى معلومـة عـما حـدث في اليومـين الماضيـين ولـن يسـتطيع بالطبـع الذهـاب إلى مكتبـه أو الاتصـال برئيسـه، ألتقـط حسـن وهـو شـارد الذهـن الشـامبو الموجـود بجانبـه وأعـاده مـرة أخـرى إلى مكانـه ورغـم شروده هـذا إلا أن عينيـه اسـتطاعت أن تلاحـظ أن هنـاك شيء غـير اعتيـادي فقـام وبحـث في الشـقة كلهـا عندئـذٍ أدرك أن الشـقة قـد خضعـت للتفتيـش مـرة أخـرى، لكـن خبرتـه أخبرتـه أن طريقـة التفتيـش كانـت مختلفـة تلك المـرة وكانـت طريقـة البحـث تؤكـد أن البحـث هـذه المـرة كان عـن شيء دقيـق أيضًـا، كان هـذا لا يعـدو استنتاج ولم يكـن هنـاك حاجـة للاسترسـال في الأفـكار، لم يكـن يتوقـع أن يكـون الـشيء الدقيـق هـو الخاتـم، فليـس هنـاك احتـمال آخـر، فتهلـل وجهـه فرحًـا...

فـإن كان هـذا الاحتـمال صحيـح فسـتكون هالـة قصـة حقيقيـة، أو يكـون فيهـا مـن الحقيقـة الكثـير وهـو أنهـا شـخصية حقيقيـة وهـم جعلـوني أحبهـا؟

- لكن لماذا؟

وبعـد صمـت اسـتعادت ذاكرتـه كل مـا حـدث تلقائيًـا في الأيـام الماضيـة، وفـرك جبهتـه وقـال وهـو يغمغـم، لم يكـن مولانـا هـو المقصـود بعمليـة البحـث فقـط ، فـإن هـذا الجهـاز منـذ مـدة وهـو في جسـدي، إن الأمـر مرتبـط بهالـة وقـد تركـوا لي مذكراتهـا.

الآن فهمـت فـإن وجـود المذكـرة لم يكـن عبثًـا أو قصـورًا منهـم، قـد كان شـيئا ما يقلقنـي لكـن هجـوم العاطفـة كان أكـبر مـن أي منطـق أحتكـم إليـه، فقـد كانـت هـي المقصـودة لا مولانـا بالأسـاس، لكـن لمـاذا؟ مـا المميـز فيهـا حتـى يفعـل أمـن المرشـد ذلـك؟ لا شيء.لقـد قـرأت ملفهـا هـي امـرأة عاديـة لا تنتمـي إلى أي تنظيـم يهـدد دولتنـا رغـم أن أمهـا كانـت تنتمـي لتنظيـم علـماني ضـد الدولـة الإسـلامية لا شيء في ملفهـا غـير عـادي، لمـاذا هي ؟إنـه هـذا الخاتـم.

وأعتقد أن الجهة الأخرى غير أمن المرشد، هي من اختطفت الجثتين وهي من قامت بالبحث، في هذه المرة قام حسن من فوره واتجه إلى المرآة ثم ترك رقم الهاتف ورسم تحته الخاتم، واستعد للرحيل عن شقته لأن عليه أن يترك رقم الهاتف في مكان آخر، في سيارة الدكتورة هالة ورغم معرفته أن السيارة لن يتم رفعها كالعادة من إدارة السير (المرور) حتى لو ظلت عشر سنوات في مكانها هذا فلن يلتفتوا إليها، سأذهب إلى السيارة ثم أتوجه إلى المكان الآمن للحصول على الموبيل والانتظار، كان هذا المكان قد اتخذه حسن ليكون مكانا آمن يلجأ إليه إن حدث أمر ما يستدعي الاختباء ووضع به موبيل لم يستعمله من قبل، عليه أن يشتري مؤن تكفيه، لملم حسن نفسه وراح يشم شقتها ويشم ملابسها، ثم أغلق عينيه وراح يشم رائحتها وملأ رئتيه من رائحتها ثم انصرف مسرعًا.

كانت شوارع القاهرة خالية تمامًا من المارة على الرغم أن الساعة لم تبلغ الثامنة وكان هذا وقتًا مثاليًا بالنسبة لحسن وأي متحرك متخفي تحت ستار الليل وقبل أن تأخذ دوريات الشرطة مواقعها.

لم يكن وصول حسن إلى السيارة صعبًا ولم يتطلب منه الكثير من التخفي وقبل أن يقطع الشارع ويقترب من السيارة تفقد حسن المكان جيدًا وبعدما اطمئن لعدم وجود دوريات مراقبة قريبة أو أي فرد متخفي من أمن النظام، قطع الشارع واقترب لكن مع اقترابه تنامى إلى مسامعه أصوات همهمات مكتومة مصحوبة بحركة مستمرة واهتزاز داخل السيارة وأدرك حسن أن الصوت الصادر هو صوت بشري فجمدت أطرافه عن الحركة ثم حاول أن يختبئ، لكن صوت طقطقة باب السيارة جعلته يتراجع عن فكرة الاختباء، لأنه أدرك أنه لص، لذا لن يكلف نفسه عناء الاختباء وسيكون جميلاً أن يتركه ينصرف، لكن مع اقترابه أكثر سمع صوت أنثوي مصحوبًا بهمهمة رجل أيضًا فأدرك أنهما يرتكبان إثمًا وقرر أن يسلمهما لشرطة الأمر بالمعروف، ثم تراجع مسرعًا عن تلك الفكرة خوفًا من افتضاح أمره لكنه لم يطق صبر الانتظار فأراد أن يخيفهما حتى ينصرفا لأنهما حتما سيخافا من افتضاح أمرهما أو من العقاب وهو على يقين دون أن يراهم أنهما من أطفال الشوارع فمن غيرهم سيغامر ويمارس الجنس في الشارع؟ فلا يوجد عاقل يفعل ذلك غير

أطفـال الشـوارع حصيلـة الرزيلـة، وحـزن حسـن عـلى تألمـه النفـسي عندمـا قـرأ رسـالة سريـة كان مولانـا المرشـد الثـاني عـام ٢٠٢٠ فقـد أصـدر أمـرًا بالتخلـص مـن أطفـال الشـوارع وكان القـرار نابعًـا مـن خوفـه مـن أن يندسـوا في المجتمـع فيلوثـوا طهـره وبعـد حمـلات إعـدام تفتـق ذهـن أحـد رجـال النظـام بـأن يتـم الاسـتفادة منهـم كقطـع غيـار بشريـة ولأن عمليـات زراعـة الأعضـاء محرمـة في بلـد الخلافـة فقـد كانـت تبـاع إلى الـدول الغربيـة وأضحـت مصـدر دخـل جيـد وكادت أن تنتهـي ظاهـرة أطفـال الشـوارع وكان يتـم جمعهـم في أماكـن رعايـة خاصـة حتـى يتـم الاعتنـاء بهـم، وتصبـح أعضاؤهـم جيـدة أي يصبحـوا منتجًـا جيـدًا، لكـن بـدأت تلـك الظاهـرة في العـودة مـع ظهـور بدائـل في الغـرب عـن طريـق الاستنسـاخ وعـدم رضـا مولانـا المرشـد الثالـث بعـض الـشيء عـن عمليـات الإعـدام. اقـترب حسـن أكثـر مـن السيارة وراح يسـترق السـمع حتـى يتحقـق مـن الأمـر وألصـق أذنـه بجانـب السـيارة فسـمعها تهمـس: اعطنـي إيـاه في يـدي فأنـا لا أراه..

فقـال الرجـل: لا أسـتطيع، المـكان ضيـق سـأمرره لـكِ مـن الخلـف، حـاولي أن تلتقطيـه.

قـال حسـن لنفسـه «سـفلة» وبعـد لحظـات قـال مـا أعـذب صـوت تلـك الفتـاه، وبدافـع غـير محسـوب أراد أن يتلصـص لـيرى صاحبـة الصـوت، تفاجـأ أنهـم ليسـوا في الوضـع الـذي اعتقـد، فقـد كانـوا متباعديـن وكانـوا منهمكـين في فـكّ بعـض أجـزاء السـيارة، كانـا لصّـين للسـيارات مـن أطفـال الشـوارع لكـن محتويـات تلـك السـيارة لا تسـاوي الكثـير وأنصـت مـرة أخـرى عـلى همسـها وهـي تقـول: انتهيـت، هـلا تمـرر لي الكشـاف؟

وقـف حسـن مشـدوهًا لعذوبـة الصـوت وجمالـه وقـال كيـف لفتـاة شـارع أن تحمـل تلـك العذوبـة ولم تلوثهـا قـاذورات الشـارع ومـرارة الاحتيـاج، تلصـص حسـن مـرة أخـرى عـلى صاحبـة الصـوت وأعطـاه الضـوء الصـادر مـن الكشـاف القـدرة عـلى اسـتجلاء الأمـور ورؤيتهـم لكنهـم لم يـروه لأنهـم كانـوا منهمكـين فيما يفعلـون، وجدهـم يرتـدون ملابـس غاليـة الثمـن لا تتـلاءم مـع كونهـم لصـوص سـيارات.

إنهم ليسوا لصوص سيارات إنهم يبحثون عن شيء ما، إنهم يبحثون عن الخاتم وتهلل وجهه فرحًا، وتحرك مبتعدًا عنهم وراح يراقبهم من بعيد..

ولم يطُل انتظاره فقد خرجوا من السيارة ورغم أن خيبة الأمل كانت بادية على وجوههم إلا أنهم تحركوا بسرعة بعدما اطمئنوا من عدم وجود من يتبعهم.

حاول حسن أن يستبين ملامحهم لكن كانت الإضاءة ضعيفة وكانوا يتحركون مسرعين باتجاه السيارة وأداروا محركها بسرعة كبيرة، ولم يكن أمام حسن من خيار فإن ضاعوا منه لن يستطيع الوصول إليهم بسهولة وقبل أن ينطلقوا وقف حسن بجانب الشباك، وكان قد أخرج الخاتم وألصقه بزجاج نافذة السائق وأشار الرجل إلى حسن بالركوب فركب وأخرج الرجل بخاخة وتوجه بها إلى وجه حسن، والذي أدرك أنه لن يكون على ما يرام، وربما يتخلصون منه بعد حصولهم على الخاتم في أقرب شارع جانبي فما كان منه وقبل أن يصل رذاذ البخاخة إلى وجهه إن ابتلع الخاتم.

ابتسم الرجل وقال إن هذا الرجل واسع الحيلة.

مَن هذا الرجل ومن أين أتى وكيف حصل على الخاتم؟

كانت تلك أسئلة طرحتها السيدة على الرجل الذي كان معها؟

نظر إليها الرجل وقال حتمًا سنعرف؟

نظرت إليه وقالت لماذا يبدو هكذا؟ وما تلك المادة؟

نظر الرجل إلى حسن في مرآة السيارة وقال مبتسمًا: إنه تأثير الهوكس..

ماذا؟

إنها مادة غير ضارة للإنسان وليس لها أي تأثير، وتتركه في حالة الشلل تلك غير واعٍ بما يحيط به وتتركه في حالة طبيعية فلا يتم اكتشاف الأمر إذا ما تعرضنا لأي توقيف من قبل الشرطة، لكن هذا الرجل حالته غير طبيعية.

نظر الرجل بدقة في المرآة ثم ابتسم وقال هل يعرفك؟

نظرت إلى الرجل وقالت لا أعرف، لكن وجهه مألوف، لا أعرف أين رأيته.

إن نظرته تلك تدل أنه كان يبحث عنك، سنعرف، وأخرجَ موبايله والتقط صورة له وقال سأرسلها وأعقب ذلك باتصال.

نعم لقد حصلنا على الخاتم، إنه في أمعاء ذلك الرجل الذي أرسلت صورته، هل أحضره أم أتركه؟

على كل الأحوال ستحضره، هكذا رد محدثه.

متى سيفيق؟

إن مفعول تلك المادة يمتد ٢٠ ساعة أو تتم الإفاقة عن طريق مادة أنتي هوكس

أنا لم أسمع عن تلك المادة من قبل.

الهوكس والأنتي هوكس هما مادتان تم اختراعهما من قبل جماعتنا.

سألت نفسها لماذا ينظر لي هكذا، وحاولت أن تتذكر أين التقت به أو أين رأته. ودققت النظر في وجهه مرة أخرى محاولة أن تقرأ الرسالة البادية على وجهه وقالت كان يريد أن يقول شيئًا لي يبدو أنه يعرفني.

لكن من هو ومن أين أتى وأي صدفة ألقت به في طريقنا؟ وكيف عرف أننا نبحث عن الخاتم؟ وهل هو لا يتبع أي هيئة أم أننا مراقبين وكان وجوده طبيعيًا لأنه يراقبنا ونظرت يمينًا ويسارًا في الطريق المظلم الممتد بلا نهاية أمامها، ونظرت خلف زجاج السيارة علها تشاهد من يتابعهم، لكن لم تكتشف أي مراقب لهم وقالت:

ستيف؟

نظر إليها الرجل

- لا يوجد من يتبعنا؟

- صحيح.

- أليس هذا غريبا؟

- ربما.

- هل يحمل هذا الرجل جهاز تتبع؟

- لا.

- كيف عرفت؟

- عندما التقطت له صورة.

- ماذا؟

- إن هذا الموبيل به خاصية اكتشاف أي جهاز إرسال أو استقبال آخر.

وحتى لو كان يحمل جهاز تتبع إن هذه السيارة بها جهاز (يستطيع الشوشرة على أي إشارة وتشفر اتصالنا فلا يستطيع أي جهاز التقاط ترددنا غير تلك المنطقة التي نقصد اتصالنا بها فقط)

بدأت السيارة في مواجهة تحديات الأرض الوعرة بعدما انحرفت عن الطريق الرئيسي إلى مدق جبلي وعر، التفتت إلى حسن التفاتة سريعة ورغم نظرته المعبرة إليها إلا أنها عادت إلى وضعها الطبيعي لأن السيارة لم تخفف من سرعتها وخافت من ارتطام رأسها بأجزاء السيارة.

مضت السيارة في طريقها ولم يكن هناك من يتتبع خطاها، إلا أن قائدها لم يخفف من سرعته رغم وعورة الطريق، وظل محتفظًا بجديته رغم روحه المرحة لقد كان الأمر خطيرًا على ما يبدو.

- نظرت إليه وقالت هل سيأخذ ملين؟

- نحن نحتاج إلى ملين قوي.

ابتسم ابتسامة جادة وقال:

- استعمال الملينات لاستخراج الأشياء من المعدة أصبح من مخلفات الماضي، سنعطيه كبسولة عبارة عن كمبيوتر منزلق ستكشف الخاتم وتقوم بإخراجه دون أي أثر جانبي وسيتم ذلك وهو تحت تأثير المخدر.

مرت لحظات ورن جرس الموبيل فقطع حديثه ونظر في الرسالة التي وصلته، وبعد أن قرأها نظر إلى حسن في المرآة يتفحصه مما دعاها لسؤاله:

- ما الأمر؟

- فقال إن هذا الرجل ضابط في الأمن الوطني.

- كيف عرفتم؟

- لقد تلقى تدريبًا في أمريكا.

- فقالت إذن نحن ملاحقون الآن وهناك من يراقبنا.

- قال بكل ثقة، لا.

- ماذا؟ وعلى وجهها كان أكثر من علامة استفهام.

- إن هذا الرجل من أكثر المطلوبين لدى أمن المرشد.

- نظرت إليه متسائلة، ماذا؟

-مط شفتيه دون إجابة، حتمًا سنعرف عندما يفيق.

- عاد إليها هدوئها وقالت ربما.

- فقال إن هذا يفسر سر نظرته تلك لك، فهو غير مصدق أنه يراك مرة أخرى.

- نظرت إلى حسن نظرة فاحصة واعتقدت أن نظرته تحمل أكثر من ذلك، لكنها لم تشأ أن تتحدث في هذا الأمر أكثر من ذلك.

- لكنها قالت متسائلة، ضابط من الأمن الوطني يحمل شيئًا يريده النظام بشدة وربما يكون سبب انهيار هذا النظام فلا يعطيه له لكن يبحث عنا ويعطيه لنا؟

- ربما تكون هناك بعض الإجابات حالما نصل.

صمتت وراحت تراقب الظلام الممتد بلا انتهاء أمامها وكان الضوء الصادر من مصابيح السيارة هو ما استطاع أن يفك رموز الليل شيئًا فشيئًا.

وقبل أن تغوص في أعماقها للبحث عن أجوبة بعد رحلة صمت، كانت السيارة قد وصلت إلى المكان الذي يقيمون فيه.

كان بقية الفريق في حالة انتظار وكانت غرفة العمليات معدة لاستقبال حسن وبعد لحظات قليلة استطاعت الكبسولة أن تستخرج الخاتم فالتقطه استيف بملقاط خاص وتم وضعه في مطهر.

اتصل ستيف بالرئيس وقال لقد حصلنا على الخاتم هل نقوم بإيقاظ حسن الآن؟

- نعم أيقظوه.

كانت عملية الإيقاظ من السهولة التي جعلتها برغم خبرتها الطبية لا تصدق ما ترى لأنها اعتادت أن ترى الآثار الجانبية للمخدر بعد الجراحة وقد كانت عملية الإفاقة منه مرهقة ومعقدة مصحوبة بآثار جانبية تترك أثرها على الروح فتصيبها بوهن ربما يصيب الجسد بحالة موت كامل! أطرقت السمع في وعيها وانكفأت على الداخل في رحلة بحث عن أصل تلك الكلمة ومعناها وأين سمعت تلك العبارة؟ الموت الكامل.

وبعد لحظات من الصمت لم يقطعها إلا إشارة من يد حسن لها تدعوها للاقتراب فتحركت باتجاهه وكانت لحظة مهيبة تمر على حسن وراح يفرك في عينيه محاولاً استيعاب ما يراه، شاهد ستيف ورفاقه ذلك فابتسموا وراحوا يراقبون اندفاع دماء الخجل على صفحات وجهها الخمري المائل للبياض وكانت جميلة فلا تمل العين من النظر إليها ومع مسيرة من أربع أو خمس خطوات دارت في ذهنها وذهنه أحاديث وكلمات لكن هل كان الكلام على نفس الموجة ونفس التردد ربما لا فهي لا تعرف لماذا ينظر إليها بتلك الطريقة ولم تجد تفسير مع تحول نظراته من شخص مذهول وغير متأكد لما يرى إلى شوق عارم.

وما أن وصلت إليه حتى أطبق على يديها بقوة ثم اعتدل في جلسته وقال:

- هل هناك من يعبث بعقلي الآن؟

نظر الجميع إليه ولم تفارق الابتسامة وجوههم ولم ينتاب أحدهم أي قلق من رد فعل غير محسوب من قبل حسن الذي لم يمهلهم إجابة سؤاله فباغتها بسؤال آخر:

- هل أنت الدكتورة هالة؟

أومأت برأسها إيجابًا وقالت نعم.

لم يسمع حسن يومًا صوتًا أعذب مما سمع الآن ونظر إليها ثم أطبق عينيه مختزنًا موجات الشوق وقال لنفسه في حديث داخلي أيا ما يكون حتى لو لم تكوني حقيقة فسوف أستمتع بلحظة القرب منك الآن.

شعرت هي بضغطة من يده على يديها عندئذٍ سمع حسن صوت يأتي من خلفه يقول إنها هي وكما تقولون هي بشحمها ولحمها دون نقصان.

نظر حسن إلى مصدر الصوت فرأى رجل ذو وجه ملائكي باسم، وملامح غربية واضحة لكن متى دخل هذا الرجل الغرفة؟ سؤال جال في ذهن حسن، وخاصة أنه عندما استيقظ نظر في كل أنحاء الغرفة ليستكشفها جيدًا ولم يكن فيها غير هالة والرجل الذي كان معها وقد عرف أنه عالم ضمن الفريق ويدعى ستيف وشخصين آخرين. وتلك الأجهزة الموجودة حوله التي أدهشته فهي لا تشبه أي جهاز رآه من قبل ولا حتى في أفلام الخيال العلمي ولا حتى تلك الأجهزة الحديثة التي يملكها مولانا، ولم يستطع حسن رغم بعده عن النظام وربما غضب النظام عليه واعتباره مارق من أن يكتم غصة في حلقه وقال لنفسه هل الأمن القومي مخترق إلى هذا الحد كل هذه الأجهزة مع هؤلاء ومع مولانا أناس يتحركون بمنتهى الحرية يدخلون ويخرجون من القاهرة، فالقاهرة تختلف تمامًا عن الصعيد، لتركز كل الأجهزة الأمنية فيها، إن أجهزتنا الأمنية كنت أحسبها قوية، كنت أعتقد أن ما يحدث خلف الجدران نعرفه، لكن بعد يومين اكتشفت أننا ضعفاء للغاية، لكن كيف سيطر الجهاز الأمني على الناس وهو أضعف من أن يحمي حدوده

يبـدو أن كل الدكتاتوريـات لا تحمـي حدودهـا جيـدًا، قـال لنفسـه تلـك العبـارة حتـى يتخلـص مـن الألم النفـسي والنقـد تجـاه ذاتـه، وعـاد إلى سـؤاله الأول لماذا لم أنتبـه إليهـم عنـد دخولهـم أم أن هنـاك مدخـل آخـر غـير البـاب أم أنـا لا أعيـش الآن في العـالم الحقيقـي؟. أم أن هالـة أسـكرتني بسـحرها وببشرتهـا شـديدة الجمال تلـك، لم أكـن أتصـور أنهـا بهـذا الجمال وكأن الزمـن لم يكـن لـه أي أثـر عليهـا، بـشرة أطفـال ولـون مميـز سـبحان مـن أبـدع، حتـى وإن لم يكـن هـذا العـالم حقيقـي فأنـا الآن في حـضرة الجمال والحـب، لكـن قلبـه مـا زال يحمـل أمنيـة لم يسـتطع لهـا دفعًـا وهـي أن يكـون مـا يـراه حقيقًـا، تحـدث حسـن إلى محدثـه بلغـة عاميـة وقـال ازاي؟

رأى ابتسـامة عـلى وجوههـم فاعتـدل حسـن، ووجـد في نفسـه القـوة فجلـس ثـم قـام واتجـه إلى هالـة واقـترب منهـا كثـيرًا وكاد جسـده يلامـس جسـدها وتجاهـل دفقـات الـدم المُعـبِّر عـن الخجـل البـادي عـلى وجـه هالـة، ووضـع يـده عـلى يديهـا ثـم ضغـط عليهـا وقـال نعـم إنهـا هـي، أسـتطيع أن ألمـس روحهـا، واتجـه بنظـره إلى الرجـل الـذي حدثـه مـع اعتقـاد صائـب مـن حسـن أنـه رئيـس الفريـق الموجـود، وقـال ألم تمـت هالـة ؟

قـال الرئيـس لقـد ماتـت عـلى حسـب تعريفكـم للمـوت لكنهـا بالنسـبة لنـا لم تمـت ومـا زالـت حيـة.

صمـت حسـن مذهـولاً ممـا يسـمع وقـال في نفسـه وهـل للمـوت تعريـف غـير خـروج الـروح! لكنـه لم يعقـب وتـرك الرجـل الـذي اعتقـد أنـه الرئيـس كـي يكمـل..

فقـال الرئيـس والـذي يدعـي هولانـد لقـد أصبحـت الحـالات التـي تدعـون أنهـا ماتـت في بلادكـم فهـي حـالات سـهلة العـلاج في بلادنـا.

فقال حسن هل تدّعون أنكم من سكان الأرض؟

ضحـك هولانـد وقـال نحـن مـن أمريـكا وأوربـا ولدينـا مجموعـات مـن كل البـلاد.

تعجب حسن من قول هولاند، وسأله من أنتم؟

هولانـد: نحـن "أبنـاء غايـا»، أي أبنـاء الأرض في اللغـة العربيـة ولدينـا هـدف واحـد، وهـو إنقـاذ أمنـا الأرض والإبقـاء عليهـا كإرثٍ مشـترك بيننـا وبـين كل الكائنـات.

نظـر إليـه حسـن محـاولاً اسـتيعاب مـا يحـدث، فنظـر إليهـم حسـن وقـال جميعكـم مقبـوض عليكـم.

قهقه هولاند وقال لماذا أيها الرائد حسن؟

لأنكم السبب في كل ما حدث في القاهرة من قتل وتدمير.

هولانـد لم نكـن نحـن الفاعلـين يـا صديقـي لكنهـا الإدارة الحاكمـة للمخابـرات الأمريكيـة وهـم مـن قتلـوا أيضًـا نائـب المرشـد وكانـوا وراء تفجـير فـيلا الدكتـور عبـد الرحمـن، فقـال حسـن متلهفًـا أيـن الدكتـور عبـد الرحمـن؟

لقـد مـات، قـال هولانـد تلـك العبـارة متأثـرًا ورأى حسـن صـدق مشـاعره، لكـن حسـن قـال ألم تكـن حالتـه مماثلـة؟

لا لقد تضرر أكثر من هالة ووصل إلى مرحلة الموت الكامل.

نظر إلى هالة وقال هل تم دفنه؟

هولانـد: نعـم ولكننـا احتفظنـا منـه بعينـة مـن حمضـه النـووي داخـل هـذا، ورمـى بـه إلى الرائـد حسـن ونظـر حسـن إلى مـا التقطتـه يـداه بذهـول، فقـد كان خاتمًـا مماثـلاً للخاتـم الـذي كان معـه، علـم حسـن الآن أن الخاتـم الـذي تـدور الحـرب حولـه يحتـوي عـلى عينـه مـن حمض نـووي لشـخص مـا وقفـز سـؤالان إلى ذهنـه في لمـح البـصر، مـن صاحـب هـذا الحمـض النـووي والـذي عـلى مـا يبـدو أن لـه أهميـة تفـوق توقعـاتي، لكـن السـؤال الأهـم، لمـاذا بشـكل أوضـح، في أي شيء سـيتم اسـتخدامه؟

سمعت هالة عبارة الموت الكامل وشعرت أن تلك الكلمة تنبع من مكان ما بداخلها وشعرت رغم عدم معرفتها بمعناها أن تلك الكلمة مألوفة لديها وتمنت أن تسأل هولاند عنها.

وسمعت حسن يسأل، ما الذي يدعوني لتصديقكم وأنكم لم تقتلوا نائب المرشد؟ نظرت هالة إليه بضيق وقالت سيظل رجال الأمن مهما فعلوا لا يفكرون إلا في اتجاه واحد، ظننت أنك مختلف وربما ستسأل عن معنى الموت الكامل.

قال هولاند، لقد كان نائب المرشد شخصًا منفتح العقل. وكان لديه حلم في أن تتغير مصر والعالم وقد اطلع على ما اطلع عليه الآخرون لكنه لم يرضَ وقد شكل تهديدًا كبيرًا وخاصة مع ازدياد شعبية الرجل وحب الناس له، وعلى الرغم من أن المصريين أصبحوا لا يملكون عقلية نقدية فلا يرون إلا ما يرى مرشدهم إلا أن نائب المرشد كان يمتلك عقلية نقدية.

- فقال حسن بصوت حانق، وما الذي رآه بعيدًا عن مرشدنا؟

- فقال هولاند لقد درستَ في أمريكا لمدة عام أليس كذلك؟

- حسن: نعم.

- إذن صف لي أمريكا..

راح حسن يسرد ويصف المدن التي أقام فيها أو زارها بطريقة مذهلة جعلت هولاند يقاطعه بإعجاب شديد لذاكرته، وضغط على ريموت كونترول كان يحمله فظهرت شاشة افتراضية فضغط مرة أخرى وقال أليست تلك أمريكا؟ نظر حسن إلى صورة حية تعرض على الشاشة وقال نعم تلك هي أمريكا.

فقـال هولانـد لم تعـد هـذه أمريـكا، إن هـذه مـدن الترانزيـت للعـرب والأفارقـة والآسـيويين واللاتينيـين، لكـن أمريـكا هـي هـذه، وضغـط مـرة أخـرى عـلى الريمـوت فتـم نقـل صـورة حيـة ونظـر إلى حسـن وعـلى مـا يبـدو أن حسـن لم يكـن هـو المشـدوه فقـط، بـل هالـة هـي الأخـرى وفركـت في عينيهـا وقالـت، أليـس ذلـك مـا كنـا نـراه في أفـلام الخيـال العلمـي؟

لا إن الحقيقـة الآن تخطـت مـا كنتـم تشـاهدونه في أفـلام الخيـال العلمـي، كان ذلـك رد سـتيف.

هـذا غـير حقيقـي كان ذلـك رد فعـل حسـن رغـم أنـه لم ينطـق ولكـن كان هـذا باديًـا عـلى وجهـه فلـم يجتهـد أحدهـم في تفسـيره، فقـال لـه هولانـد، انظـر إلى تلـك الأجهـزة مـن حولـك هـل شـاهدت مثلهـا حتـى في أفـلام الخيـال العلمـي؟

نظـر حسـن مجـددًا إلى الأجهـزة وربـط مـا يـراه الآن بـما رآه عنـد مولانـا وتذكـر هالـة وتقريـر الوفـاة وحديـث عـن تمـزق الجسـد تمامًـا، وأنهـا الآن حيـة تـرزق

لم يجب حسن

وقـال لنفسـه إن كان مـا يقـال الآن صحيحًـا، إذن مـا الجـدوى أن تفعـل أمريـكا معنـا ذلـك؟

وانتبـه هولانـد لهالـة وهـي تسـأله لمـاذا ومتـى؟ لقـد كنـت في ألمانيـا ولم أشـاهد أي تغيـير، أم إن تلـك الثـورة العلميـة لم تدخـل حتـى ألمانيـا؟

فقـال هولانـد إن ثـورة السـوبر كوندكتـور والنانـو تكنولوجـي قـد غـيرت وجه الحيـاة في أمريـكا وأوربـا واسـتراليا وقـد بنـي في أمريـكا وأوربـا مـدن الترانزيـت تلـك لعـدم إيقـاظ العـالم.

- لماذا ومتى....؟

نظـر لهالـة وأكمـل حديثـه.. إن أردتـم أن تعرفـوا فيجـب أن تتحملـوا قصـة تبـدو مملـة لأني أنـا مـن سـيرويها لكـم، وقـال بـدلال هـل تتحملـون؟

ابتسم حسن ابتسامة باهتة تعني أنه لا وقت للتدلل هذا وأي شيء ستقوله سوف أسمعه.

نظر هولاند إلى تلهفهم وأعجبه ذلك فأراد أن يزيده أكثر، فقال إنه المستعمر الأبيض؟ ونظر إلى وجه هالة الذي أصيب على ما يبدو بخيبة أمل وأصيب بالفرح نتيجة ذلك لأنه علم أنها ضد نظرية المؤامرة ونظر إلى وجه حسن فوجد أنه متقبل ما يقول وعلم أن حسن رغم عمله كمحقق إلا أن نشأته الإخوانية وفرت البيئة الذهنية لتقبل نظرية المؤامرة وحتى يشعر بالنصر قرر أن يبهر هالة.

فقال مرة أخرى وأعاد نفس الجملة، إنه الرجل الأبيض الذي يريد الأرض الجديدة لنفسه وقام بحرب إبادة مستمرة وستستمر بعد رحيله لتلك الأرض الجديدة، يبدو أن هولاند قد أصاب مبتغاه فقد رأى نظرات الذهول والتساؤل على وجوههم وبتأنٍ راح يتفرس وجوههم ويقرأ سطورها.

وكانت ملامح حسن تقول، أي أرض جديدة يقصد، وعن أي حرب يتحدث فلا أمريكا أو الرجل الأبيض قام بشن أي حرب علينا بل على العكس لم يعد لها أي قاعدة عسكرية في الوطن العربي.

إنه العام ١٩٨٧ استيقظت الإدارة الأمريكية على خبر مرعب أن الأرض عام ٢٠٩١ لن تكون صالحة للحياة فقد اكتشف تلسكوب هبل نيزكًا كبيرًا يتحرك وبسرعة.

هالة أكملت الجملة مفجوعة: في اتجاه الأرض؟

لا في اتجاه القمر سيصطدم به اصطدامًا مباشرًا عام ٢٠٩٠ وسيمزق هذا الاصطدام القمر وبعدها ستبدأ معاناة الأرض لأن الصخور الناتجة عن الاصطدام ستملأ سماء الأرض بمليارات الشظايا المشتعلة ذات الأحجام المختلفة وستفنى مدن كاملة ويتبعها غبار الاصطدام الذي ربما سيخنق الحياة كاملة لكل الكائنات الحية ولغياب القمر سيحدث موجات من الزلازل العنيفة والمستمرة لغياب القمر تتلوها موجات مائية عملاقة متتابعة أيضًا، ولن يبقى أي كائن حي استطاع النجاة مما سبق أن ينجو بعد ذلك

وقال بأسى: قليلون هم من فهموا أهمية القمر بالنسبة للأرض فهو ضمانة لاستمرارية الحياة على هذا الكوكب، وعند علم الإدارة الأمريكية بذلك، وكان رئيس الدولة في ذلك الوقت رجل يتصف بالذكاء يدعى جورج بوش الأب وأمر لجنة مصغرة من العلماء بوضع تصور ووضع تقرير أمام الإدارة فكان التقرير يقول إن احتمالية بقاء حياة على الأرض تقترب من الصفر وصلاحية الكوكب للحياة بعد الاصطدام تقترب من الصفر، فشكل لجنة أخرى من العلماء أكبر ومتنوعة كي تضع استراتيجية للرحيل عن الأرض، وصمت قليلاً وابتلع ريقه فرأى لهفة حسن وهالة إلى أن يكمل، فقال إن أول نقطة في الاستراتيجية هي إبقاء الأمر سرًا قدر الإمكان وتولي قسم العمليات القذرة تنفيذ عملية الإعدام فيمن تشك في محاولته معرفة السر أو محاولة كشفه.

وكانت النقطة الثانية تدبير موارد الطاقة اللازمة للرحيل وكانت نقطة في منتهى الأهمية لأنها ستحدد العدد الذي سيستطيعون نقله وكانت النقطة الثالثة هي إيجاد كوكب بديل لأمنا الأرض. وبدأت في تحديد من سيتم نقله وقد تحدد أن يكونوا من أمريكا وأوربا، واجتمع كل المختصين من تلك الدول وتم التحديد أكثر، واتفقوا على أن من سيتم نقله عند إيجاد كوكب هم الجنس الأبيض فقط، أرأيتم أنانية الرجل الأبيض! وقف حسن مرتابًا في كل ما سمع وأصابته الحيرة لكن كيف يتحدث هولاند عن أنانية الرجل الأبيض وهو أبيض، لكن هولاند لم يمهله لأفكاره وأكمل.. وبدأت خطوات الاستيلاء على مصادر الطاقة، من حرب من غير داعٍ فشكلت لغزًا غير مفهوم وهي حرب العراق والكويت حيث استيقظ العالم على غزو عراقي للكويت وبعدها بدأت أمريكا وحلفاؤها بوضع أيديهم على خزان الطاقة العظيم في تلك المنطقة وما تلاها من ترتيبات كانت قاسية على الإنسان وأيضًا على أمنا الأرض في نفس الوقت، وامتدت رحى الحروب من أقصى الأرض إلى أقصاها وكان دور الأمريكي الأوربي فيها هو تأجيجها وإعطاء الطرفين كميات شبه متساوية من السلاح فلا تحسم الحروب ولا تنتهي، فوضى عارمة اجتاحت الأرض وأضحى البقاء على قيد الحياة لهذا الإنسان كل مبتغاه. ورغم ذلك كان هذا الدفع محسوبًا ومقدرًا من تلك القوى واستغلال نتائجه.

قال حسن لنفسه إن هذا الحديث يفتقد للمصداقية لأنه كلام معمم، إنه يتحدث عن الرجل الأبيض فماذا عن السود في أمريكا، أوليس في الإمكان أن ينقلب السحر على الساحر ويحاربون أمريكا وأوربا؟

فقال هولاند بالطبع كادت الأمور تخرج عن السيطرة كما حدث في ثورة يناير، القوة الصاعدة في بعض الدول مثل الصين وعودة روسيا كقوة، وكذلك السود في أمريكا وأمريكا الجنوبية. ولن أستطيع أن أخبرك كيف تم الانتهاء من كل الأمم لكن دعني أشرح لك ما تم مع مصر والعرب..

فقاطعه حسن وقال، كنا نسمع أن الأوربيين والأمريكان كشعوب لديهم ضمير إنساني رفيع، فكيف ارتضى ذلك الضمير تلك الأمور؟

أخذ هولاند نفسًا عميقًا وقال بصوت يملؤه الحزن: إنه الخوف أو إشاعة الخوف بين الناس.

نظر حسن إلى هولاند غير مصدق وقال: هل الخوف يفعل كل ذلك؟

فقال هولاند: نعم إشاعة الخوف تفعل كل ذلك وأكثر ثم واصل حديثه محتدًا وقال إن الحضارة العالمية منذ بدأت حتى الآن هي حضارة الخوف.

فقد خلق الإنسان القديم إلهًا ثم عبده كي يحميه من خوفه وأوجد السحر كي يتغلب على خوفه، إن كل طقوسه القديمة والحديثة هي طقوس خائف والخوف دفعه لتكوين مجموعات ثم طورها إلى قبائل ثم إلى شعوب ثم قسم الأرض إلى أوطان وأقام حواجز وهمية لا تراها إلا في الخرائط، ثم أقام حروبًا وأنفق وما زال ينفق على السلاح، إنه الخوف.. ثم نظر إلى وجه حسن الذي بدأ في الهدوء والتصديق، فأكمل هولاند قائلاً إنه الخوف الذي جعل الغرب يقتل هؤلاء البشر حتى لا يشاركوه الأرض الجديدة، وعندما تطلق موجات الخوف تصل للمتلقي بصور كثيرة.. الأمن الاستقرار، الجشع، الحسد، الكره، العبادة، الكذب، التضليل، السعادة الزائفة، القلق ثم قال بحماس وكأنها نظرية هو من أطلقها: الخوف نقيض الحرية وقبل أن يتحدث عن المجال المنبثق من إطلاق الحرية كما تحدث عن الانبثاق الذي حدث من الخوف.

قاطعه حسن وقال أنتم لم تستطيعوا السيطرة على مصر ونتعامل معكم منذ الثورة الإسلامية الند للند، وقد حققنا ضدكم انتصارات عديدة فليس هناك إسرائيل أو قواعد أمريكية في المنطقة العربية؟

فقال هولاند أين قطر؟

صمت حسن لأن هولاند يسأل عن معلوم.

فاستطرد هولاند وقال لم يكن في العالم أكثر من المنطقة العربية انبطاحًا وتجاوبًا مع المشروع الغربي وخاصة مصر.

فتذمر حسن مما يقول هولاند.

فقال هولاند: لا تغضب من الحقيقة.

فقال حسن إنها ليست الحقيقة لقد كنا الدولة الوحيدة التي قطعت علاقتها مع أوربا والدولة التي تناصب أمريكا العداء وكان مرشدنا يقول عنكم بكل صراحة إنكم دولة الشر، عندئذٍ تذكر حديث مولانا عن موالاه المرشد لأمريكا فتلعثم، ولم يكمل وتاهت منه الأفكار مثل أن المسلمين دائمًا في حالة حرب وعداء للصليبية وعداء دائم لليهودية ولأن المرشد يمثل للإسلام والمسلمين فإن العداء بين المرشد والغرب هو عداء قائم والبديهي الذي لا يسمح أن ندعي أن المرشد في حالة موالاة لهم لكنه أفاق على صوت هولاند وهو يقول إنها المصلحة.

ونظر إلى عيني حسن مباشرة وقال إنها المصلحة هي القادرة على جمع كل المتناقضات التي لا يستطيع العقل الطبيعي أن يتقبل حدوثها، لذلك أنت غاضب لأن عقلك لن يتقبل تلك المتناقضات دون الأخذ في الاعتبار مفهوم المصلحة.

وأكمل هولاند الذي على ما يبدو أنه قد خمن ما دار في عقل حسن أثناء شروده فجاوب عليه ثم عاد إلى ما كان يتحدث عنه، وقال: عام ٢٠٠٩ قاموا بالخطوة الثانية وهي إرسال مسبار لاكتشاف الكواكب الشبيهة بالأرض والتي توجد عليها حياة أو تكون صالحة للحياة فيها وفي تلك الأثناء عمل

علماء الفيزياء النظرية على حل مشكلة السفر عبر الزمن عن طريق الأنفاق الزمنية، لأن تلك الكواكب ستكون على بعد سنوات ضوئية كبيرة حتى لو امتلكنا مركبة تسير بسرعة قريبة من سرعة الضوء فلن تتحمل أجسادنا تلك السرعة أو أعمارنا تلك المسافة، لأن تلك الرحلة ربما تأخذ ألف عام أو يزيد بمركبة تتحرك بسرعة الضوء.

وكان هذان التحديان الكبيران هما إيجاد كوكب، ثم تطويع الفيزياء لكي نستطيع السفر.

ومع اندلاع الثورة المصرية الثانية التي لم يكن مسموحًا بها، تم اكتشاف الكوكب كبلر ٢٢ بي الذي من الممكن أن تسميه توأم الأرض فيحيط به غلاف جوي مناسب وعامه٢٩٠ يومًا وبه يابسة وماء ودرجة حرارته تبلغ ٢٢ درجة مئوية أي أنه كوكب مثالي لكنه يبعد ٦٠٠ سنة ضوئية فردد حسن بصوت خفيض مذهولا ٦٠٠ سنة بسرعة الضوء ومع عام ٢٠٢٠ توصل العلماء إلى حلول لمشكلة الانتقال الزمني عبر الأنفاق الزمنية بل واستطاعوا أن يختبروا أجهزة النقل المكاني القائمة على مبدأ التشاكل والتي تستطيع نقل الأشياء مع ثبات الزمن، لكن تلك الأجهزة حتى الآن لا تستطيع نقل الأشياء الكبيرة لذلك يتم تفكيكها وبناء مصانع للتجميع هناك على كوكب كبلر ٢٢ بي، ولأن عملية نقل الأشياء وجمع المعلومات ودراسة الكوكب دراسة دقيقة وسبل تكييف الإعاشة وبحسابات بسيطة فإن نقل ما يحتاجون إليه بتلك الأجهزة سوف يستغرق وقتًا أطول مما هو متاح أمامهم، وأضحى الوقت حرج أمام السياسيين وخاصة أن دراسات العلماء أكدت خلو هذا الكوكب من الوقود الأحفوري فأصيبوا بانفعال شديد واضطروا إلى إشراك الروسيين في الأمر، ومع انفعالهم ووجود مبرر أخلاقي مناسب لضمائرهم تجاه تدمير الكوكب وما عليه، فكان في عام ٢٠٢٢ أن اعترض أحد أمراء قطر على استمرار وجود القاعدة الأمريكية في الأراضي القطرية، وخافت الإدارة الحاكمة من تنامي تلك النزعة الاستقلالية داخل الأسرة الحاكمة. فاتخذت الإدارة القرار دون رادع أخلاقي وكان مشهدًا محيرًا ومأساويًا فقد تساقط القطريون رجلاً تلو الآخر دون حرب.

دون سبب انتبه حسن بكل جوارحه إلى ما سيقوله هولاند وتذكر نقاشًا دار حول ذلك الأمر بينه وبين مولانا في الصعيد.

- أكمل هولاند: لقد استخدموا فيروس هيكس المعدل.

- فقالت هالة: أتقول إن الفيروس كان يقتل القطريين دون الأمريكان أو الجنسيات الأخرى؟

- فقال هولاند بصوت الواثق: نعم لقد حدث ذلك.

- فقالت هالة كيف؟

- فقال هولاند إن هذا الفيروس مخلق وتم إضافة معلومات عليه ليهاجم ال (دي إن إيه) القطري فقط، وكأنه نانو كمبيوتر.

وسأل حسن نفسه لما برر مولانا المرشد وفاة القطريين بأنه غضب من الله؟

وشعر بغصة في حلقه وألم مكتوم في قلبه عندما بدأ يشعر أن المرشد ربما يكون مواليًا للغرب على عكس ما هو معلن وعلى الرغم أن سيادة اللواء قدم أدلة لكن حسن لم يأخذها على محمل الجد. وصارح نفسه أنه لم يستطع أن يأخذها على محمل الجد وربما تكون الحقيقة ماثلة أمام أعيننا لكننا لا نستطيع أن نتقبلها أو نلتفت إليها، وشعر بضيق شديد وعدم قدرة على التنفس، ولكن كان عليه أن يصغي فقال هولاند: ثم بدأ الصراع العنيف في كل بقاع الأرض فقد تم وضع أسباب الصراع بين الشعوب والطوائف بين المالك وتم تغذية تلك النار بكل أدواتها فارتدت البلاد المتحضرة عن حضارتها، وكان الرجل الأبيض يعد العدة للرحيل.

- فقالت هالة الرجل الأبيض؟

- هل تقصد الأوربيين والأمريكان البيض؟

- هولاند: بل الرجال البيض في روسيا أيضًا الجنس الأبيض في كل مكان.

- ماذا فعلوا مع السود في أمريكا؟

- تنهد هولاند وقال بمرارة لقد استعمل سلاح الخوف وتم بذر البذرة في إنجلترا ثم أمريكا وهي قتل السود على يد أحد الضباط.

أعقبها مظاهرات مع إهمال القانون وإشاعة بذور التعصب وترك مساحة للفكر اليميني المتطرف، بدأت مراحل الخوف تلاها الكره والاصطفاف ضد الآخر وتم حصر السود في أماكن الجيتو ثم التهجير الممنهج لهم في اتجاه المكسيك وأمريكا اللاتينية، وقال بصوت متهدج، ولك أن تعلم كم الفظائع التي ارتكبت، فقالت هالة إن ما تقوله ضد الليبرالية وكنا نقرأ أن تلك المجتمعات لديها قيم ليبرالية أصيلة. فقال هولاند: كل ذلك ينهار مع الخوف وزفر زفرة توحي أنه أراد أن ينتهي من الحديث في ذلك الأمر، وأكمل على مضض وقال بعد التقدم الذي أحرزوه في بوابات النقل المكاني ودراسة هذا الكوكب جيدًا وتحديد ما ينقصهم من معادن وثروات ليقوموا بتخزينها وخاصة الطاقة وساعدتهم ثورة النانو تكنولوجي في طرق تخزين الطاقة، وهم الآن يستنزفون طاقة الأرض بلا رادع أخلاقي حتى الغابات يحولون أشجارها إلى طاقة، كل شيء يستنزفونه ويتصاعد في المقابل غاز ثاني أكسيد الكربون وزادت حمضية المحيطات بشكل لا يصدق وربما يا صديقي لن تبلغ الحياة على الأرض ميعاد الاصطدام ربما ستفنى الحياة قبل الاصطدام.

فقال حسن بكل ضيق إن كان فنائنا حتميًا كما فهمت، فما الذي تريدونه منا ؟

نريدكم أن تستيقظوا كعرب من غفوتكم وتلحقوا بركب الرجل الأبيض الذي يريد أن يؤسس عالمًا جديدًا بلا عرق غير عرقه.

إذن لماذا تقومون بتنبيهنا نحن دون الأمم الأخرى،، بل نحن نقوم الآن بما هو أكبر من التنبيه سيدي وإن ظللت معنا لبعض الوقت ستتعرف على بعض أنشطتنا ربما نستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه؟

– فقال حسن أليس من الممكن أن يكون هذا اليوم هو يوم القيامة؟ إذن لا مفر منه.

– ضحك هولاند وقال إن العالم كله سيبقى حتى إن الكوكب سيبقى، لكن الحياة ربما تنتهي من عليه ولن تنتهي الحياة كليًا ربما تستطيع بعض الكائنات النجاة مثل الكائنات الدقيقة، وقال متسائلاً: يقال إن هناك معركة ستقوم في آخر الزمان بين اليهود وأتباع المسيح وتدعي هرمجدون.

– فقال حسن مصححًا بل بين المسلمين واليهود.

– فقال هولاند لقد رحل اليهود إلى أمريكا وسيغادرون الكوكب أيضًا مع المغادرين، شعر حسن أن هناك وخزة في صدره وضيق في التنفس.

– فقال بصوت اتركونا في ضلالنا، ارحلوا لا نريدكم وسنموت أيا ما تكون الميتة سنرضى.

– فقال: هولاند محتدًا إن مصر قدرها أنها أول قطعة في الدومينو إذا أضاءت فستضيء بعدها بعض الأقطار حتى في إفريقيا هناك من سيتأثر.

– فقال حسن: وبعد أن نتعلم هل سنستطيع أن نبني أجهزة النقل المكاني تلك؟

– فقال هولاند: إننا لدينا المعرفة لذلك ونستطيع أن ننقلكم غدًا.

– فقال حسن: لِمَ كل هذا العناء إن كان النقل جاهز؟

– فقال هولاند: إنك لم تفهم بعد، هل تريدون أن تكونوا عبيدًا لدى الرجل الأبيض بعد انتقالكم؟ أو يتم وضعكم في متحف للتاريخ الطبيعي؟

– ماذا؟

– ألم تسمع عن القبائل البدائية في إفريقيا أو تلك المكتشفة في غابات الأمازون،

– فقال حسن نعم وكنت أتمنى زيارتها.

– لماذا تراها بدائية؟

– اااااااااااه

لتلك الأسباب هم ينظرون إليكم على أنكم كائنات بدائية ويتم التعامل معكم على هذا الأساس في مدن الترانزيت، فالفروق بينكم وبين الإنسان البدائي أقل من الفروق بينكم وبين الإنسان الأبيض.

شعر حسن ببعض المرارة لكنه لم يستطع أن يتخيل تلك الفروق التيكنولوجية. فحاول هولاند أن يسوق أدلة أخرى فقال:

هل تعلم ما المكان الذي يجب أن تهبط به؟ وهل تعلم ما هي ثروات هذا الكوكب؟ ما الذي تحتاجه وكيف ستوفر مواردك واحتياجاتك الأساسية؟ هل تعرف كيف تستنبت النباتات هناك؟، وليس هناك حيوانات فكيف ستدبر البروتين والغذاء؟ وكيف ستحصل على الماء؟ وكيف ستؤمن موردا من المياه العذبة؟، وهل سيتركك الرجل الأبيض إن تقاطعت الأرض التي أنتم عليها مع الأرض التي يملكها الرجل الأبيض؟

هل تعرف النظم الاجتماعية الجديدة لهذا الكوكب التي سيفرضها الرجل الأبيض وهل تلك النظم ستتلاءم معكم؟

شعر حسن بعدم الفهم للعبارة الأخيرة؛ مقصدها ومغزاها.

- فقال حسن هل لديكم خطة لإيقاظ المصريين كما تدّعون؟

- فقال هولاند نعم وأخرج الخاتم من جيبه وقال هذه أول الخطوات.

- وضع حسن يده على بطنه متحسسًا وقال هل أخرجتموه؟

- فابتسم ستيف وقال نعم إنه هو.

- فقال حسن ساخرًا، هل هذا مصباح علاء الدين؟

- فقال هولاند إنه حسن البنا.

- فقال حسن لا تسخر من مرشدنا.

وسكت الجميع وتحفز حسن.

فقال هولاند مرة أخرى إن حسن البنا داخل هذا الخاتم.

- فقال حسن بسخرية هل تقول إن حسن البنا داخل هذا الخاتم محبوس فيه؟

- فقال هولاند بجدية وصرامة نعم.

نظر حسن إلى هالة نظرة طويلة كانت لها معانٍ كبيرة.

- فقال هولاند إن داخل هذا الخاتم (دي إن إيه) حسن البنا وسنقوم باستنباته مرة أخرى، نظر حسن إلى هالة مرة أخرى ولسان حاله يقول هل تصدقين هذا؟ ففهمت هالة وابتسمت له ابتسامة رقيقة كي تخفف من توتره.

- فقال حسن هل قمتم باستنبات هالة؟

- فقال هولاند استنبتنا بعض أجزائها المدمرة.

- فاقترب حسن منها وراح يشتمها ليرى هل ما زالت تحظى بروحها؟

- فقال هولاند إن وعيها كما هو لم يمس؟

لكن وعي حسن البنا غير ذلك، لكن بما لدينا من معلومات عنه ومحفزات الوعي سنضيف إليه أجزاء أخرى ليصبح لدينا ربما أكثر من ثلاثة أرباع وعيه الحقيقي الذي كان يحمله.

- فقال حسن وكيف تعرفون أن هذا الـ (دي إن إيه) هو لمولانا المرشد؟

- فقال هولاند لأن أبناء غايا هم من حفظوا (دي إن إيه) في هذا الخاتم.

- فقال حسن متبرمًا يبدو أنك لم تفهم ما أقصده يا سيدي، أليس من الممكن أن يكون ما احتفظتم به (دي إن إيه) لشخص آخر؟

- فقال هولاند ربما يكون كلامك مضبوطًا لكننا تحرينا أقصى قدر من الدقة لأننا في عام ٢٠١٨ استطعنا الوصول إلى مقبرة حسن البنا ومما تبقى من رفاته استطعنا استخلاص عدد اثنين (دي إن إيه) كاملين بدون نقص، ثم وضعناه في تلك المادة التي هي اختراع لأبناء غايا والتي لا يمكن اختراقها بالأشعة السينية لتصوير ما بها أو إتلافه وهي الخاتم الذي تحمله، لكن

حدث أن استطاعت وكالة المخابرات الأمريكية الحصول على الخاتمين وتم الاحتفاظ بأحدهما في مصر في المبنى ٦٦ والآخر لديها ولأنه لا يمكن إتلافه فما من طريقة لعدم وصولنا إليه إلا الاحتفاظ به في أماكن شديدة السرية والأمان وكان من الطبيعي ألا يتم وضع الخاتمين في مكان واحد.

وبعد معرفتنا بمكان الخاتمين أصابنا بعض الإحباط لأن الوصول إليهما مستحيلا مع كل إجراءات الأمان الموجودة بالمبنيين لكن مع وجود شخص مثل نائب المرشد؟

- قال حسن مفزوعًا هل مولانا محمد عباس كان عميلا لديكم؟

قال هولاند محتدًا ليس لدينا عملاء، إننا مجموعة من العلماء في مختلف التخصصات وكان فضيلة الشيخ رجل متفتح قارئ وذكي عكس الإخوان. شعر حسن بإهانة لكنه لم يعقب وقرأها هولاند في عينيه فأراد أن يخفف عنه فقال أقصد أن الإخوان يصابون بفيروسات العقل منذ الصغر، عن طريق الآباء.

- فقال حسن ماذا؟ ونظر إلى هالة محاولاً الاستعانة بها.

وفطن هولاند إلي تلك النظرة.

وشعر حسن بنظرة هولاند تخترق أعماقه وتنفذ إلى داخله وتكتشف ضعفه ومحاولته الاستعانة ببني جلدته في الرد على ما يقوله هولاند، ووصول حسن إلى مرحلة الضيق في التنفس وهي حالة ترافق ذلك الذي لا يجد ما يدافع به عما يعتقد ووقوفه موقع المدافع دون أسلحة، ونظر حسن إلى هولاند وأراد أن ينقل دفة الحديث،

- وقال بصوت متحشرج كيف ساعدكم مولانا نائب المرشد ومن قتله؟

- ومن أطلق الصاروخ على الدكتورة هالة والدكتور عبد الرحمن أم أن لا علاقة لهذا بذاك وأن هناك أمر آخر؟

فقال هولاند إن الكمبيوتر المركزي متصل اتصالًا مباشرًا مع الكمبيوتر المركزي في الوكالة، وعندما قام السيد محمد عباس بتعطيل الجهاز انتشر فيروس سيرون ليملأ الغرفة وهو نانو كمبيوتر يهاجم كل من هو في حدود الغرفة أما التأمينات الخارجية للمبنى فهي معقده كثيرًا، أبسطها أن كل من هو حول المبنى سيتم مراقبة بصمته الحرارية.

أراد حسن سؤال هولاند عن معنى البصمة الحرارية لكنه خاف من أن يفقد تسلسل الأفكار لدى هولاند، ثم انتبه إلى ما يقول،

وكان نائب المرشد يعرف الزمن بدقة فعطل الجهاز وانصرف ودخل نوير غرفة الأسرار وكان الخاتم هو سرها الأعظم وحصل على الخاتم لكن لأن هذا الفيروس يتم تغيير بياناته والمعلومات التي يملكها دوريًا فقد كان من الصعوبة إيقافه لكن إن لم نستطع إيقافه فقد نستطيع أن نبطئ مفعوله بعض الوقت وهذا ما حدث مع نوير فقد أوصل الخاتم إلى هالة.

- أين ذهب؟

- مات.

- أين جثته؟

فقال هولاند بأسى إن هذا الفيروس يقوم بتحليل الجسد إلى مكوناته الأولية ويستهلك تلك الطاقة.

- مكوناته الأولية!

نعم مكوناته الأولية فهو يقوم بتفكيك الروابط بين الجزيئات المكونة للخلية فتفكك الخلية إلى جزيئات وذرات.

- فقال حسن لهالة هل هذا ممكن الحدوث؟

فمطت هالة شفتيها وقالت ربما، وهذا التفسير الوحيد لدي لاختفاء جثة برفيسور نوير، وقبل أن يعقب هولاند عاجله حسن بسؤال:

- إن كان هذا ما تتوقعون حدوثه لهذا العالم فلما لم ينتظره أحد منكم؟

كان هـذا سيكشـف المجموعـة الموجـودة في مـصر بالكامـل، لكننـا كنـا نراقـب الموقـف نحـن أيضًـا، وكان هـذا جـزءًا مـن الفـوضى المحسـوبة وكان هنـاك مـن سـيلقي الدكتـورة هالـة وسـيحصل منهـا عـلى الخاتـم فـور خروجهـا مـن عنـد الدكتـور عبـد الرحمـن، لكنـه قتـل أيضًـا في الهجـوم عـلى الدكتـورة هالـة.

- فقال حسن مستنكرًا لم يكن هناك إلا جثتان!

بـل ثـلاث، لكننـا حصلنـا عـلى جثـة زميلنـا قبـل وصـول أي أحـد إلى المـكان وكانـت الفـوضى الحراريـة غطـاء لنـا، واطمئنـا عـلى أن الدكتـورة هالـة لم تغـادر الحيـاة.

- ما تلك البصمة الحرارية فأنا لم أسمع عنها؟

إن كل جسـد يقـوم بإنتـاج الطاقـة واسـتهلاكها وينتـج كـمًا مميـزًا مـن الطاقـة يتـم تسـجيلها عـلى القمـر الصناعـي ككـود حـراري يتـم مراقبـة الإنسـان وتتبعـه عـن طريقهـا ومـن الممكـن اسـترجاع الأحـداث التـي قـام بهـا في المـاضي عـن طريـق التتبـع الحـراري لـك مـن خـلال هـذا الكـود.

فقـال حسـن مازحًـا وفي النهايـة مـا أنـا إلا كـود، فقـال هولانـد بجديـة نعـم إننـا أكـواد ولكـن كان هنـاك فـارق كبـير في المعرفـة بـين المزحـة والحقيقـة.

- لكن هالة خرجت عن صمتها وقالت اختفى، أهذا كل شيء؟

أدرك هولانـد أنهـا لا تتحـدث عـن برفسـور نويـر فقـط لكـن أيضًـا عـن هـذا الـذي مـات وكان مكلـف بلقائهـا، فقـال لا تنزعجـي هالـة إن كل أبنـاء غايـا تـم نسـخ وعيهـم والاحتفـاظ بـه وكذلـك نسـخة مـن الحامـض النـووي لهـم لذلـك مـن مـات سـيعود وكأنـه اسـتيقظ مـن نومـه.

- أومأت هالة برأسها موافقة وسعيدة بما يقول.

لم يسـتوعب حسـن مـا يسـمع لكنـه شـعر بعـدم الارتيـاح لكنـه لم يعقـب خشـية أن يظهـر بمظهـر الأحمـق أو يضـع الـكلام في غـير محلـه، لكـن عقـل حسـن الأمنـي كان يعمـل في تحليـل كل مـا يقـال حتـى وإن كان تركيـزه في اتجـاه آخـر وفوجـئ

بسـؤال ينتقـل مـن تلافيـف عقلـه إلى هو لانـد فقـال:

- هل تعقبوا الكود الحراري لهالة؟

- فقال هو لاند نعم، فقال حسن:

- هل تغير هذا الكود بعد إجراء العملية لها؟

فطـن هو لانـد إلى مـا يرمـى إليـه حسـن، وقـال باسـمًا لا لم يتغـير، لكـن قـد تحكمنـا فيـه وهـي في طريقهـا إلى فيـلا الدكتـور عبـد الرحمـن لاسـتعادة الخاتـم.

فقـال حسـن أليـس مـن الممكـن أنهـم يتعقبـوني أنـا وخاصـة أنـى لم أواجـه مشـاكل أمنيـة في دخـولي أو خروجـي مـن القاهـرة وأنـا المكلـف بفـك رمـوز تلـك القضيـة؟، ولم يكمـل حسـن فقـد شـاهد الذعـر عـلى وجـه هو لانـد ورفاقـه وإحساسـهم أنهـم الآن في المصيـدة وأن هنـاك مـن تلاعـب بهـم، فقـال هو لانـد سـننطلق الآن إلى الموقـع التبـادلي ولم ينهـي هو لانـد عبارتـه حتـى دوى انفجـار اهتـزت لـه الأرض مـن تحـت أقدامهـم فانطلقـوا مسرعـين خلـف هو لانـد الـذي عـلى مـا يبـدو أنـه كان يعـي مـا يفعـل، فقـال حسـن هـل سـنترك تلـك الأجهـزة خلفنـا؟، لكـن لم يسـمع أي تعقيـب لأن صـوت حسـن قـد تـاه في دوى الانفجارات واهتـزاز الأرض مـن تحـت أقدامهـم، ورغـم ذلـك لم يكـف عقـل حسـن عـن التسـاؤل فقـال:

لمـاذا لم تقتحـم المـكان مجموعـات قتاليـة؟ هـل لأنهـم لا يريـدون أن يصـل الخاتم إلى يـد أي أحـد؟ وصمـت قليـلاً وحـاول أن يسـتجمع أنفاسـه واكتشـف أنه يسـبق هالـة فـترك تسـاؤله وراح يتلفـت عليهـا لمسـاعدتها، لأنهـا وقفـت هـي الأخـرى لتلتقـط أنفاسـها فحـاول أن يبتسـم لهـا مشـجعًا، والآن أدرك لمـاذا لم تقـم القـوات بالاقتحـام فقـد شـاهد هو لانـد وهـو يختفـي مـن أمامـه في لحظـة وأدرك حسـن بنظـرة الخبـير أن العثـور عليهـم مـن قبـل القـوات مسـتحيل لذلـك لـن يسـتخدموا قـوات لمداهمـة المـكان، لم يكـن لديـه الكثـير مـن الوقـت للإبحـار في تسـاؤلاته التي لا تنتهـي، فالتقـط يـد هالـة وجـرى كـي يلحـق بهـم.

لـولا ذاكرتـه الجيـدة لتـاه هـو وهـي فقـد كان الموقـع التبـادلي جـزء مـن مغـارة متشـعبة وكان الموقـع الرئيـس بـه فتحـات كثـيرة لم يسـتطع حسـن أن يعدهـا لكنهـا

كثيرة جدًا جدًا ودخل حسن وهالة الباب الصحيح لكنه شاهد مرة أخرى اختفاء جسد آخر عالم، فلم يدع لهالة أو لنفسه الفرصة كي يستريح أو يتباطئ لأنه يعلم خطورة الموقف فزاد من سرعته وسرعة هالة التي لم يفلت يديها خوفًا من أن تضيع ودخل في مكان أكثر اتساعا وأكثر طولاً وانتهي بعديد من الأبواب وأبطأ هولاند من سرعته معطيا الفرصة للجميع بالتقاط أنفاسهم والتقاط المتأخر منهم وكان حسن وهالة آخر الواصلين فاستقبلهم بابتسامة، وقال الآن زال بعض الخطر وكانت أصوات الانفجارات قد بعدت كثيرًا وصارت أصوات الانفجارات وهنة مكتومة فأدرك حسن أنهم يختبؤن الآن في مكان يكاد يكون مفصولاً عن المكان الأول أو يكاد يكون معزولاً عنه فقال حسن لقد تركنا الأجهزة، فقال هولاند لا يهم لأن الموقع التبادلي يحتوي على نسخة من تلك الأجهزة، فقال حسن كيف تحفظ تلك الممرات فأشار هولاند إلى الساعة التي يرتديها أنها تحتوي على خريطة للمكان وقال حسن لما لا تبدو مثل ساعات المستقبل؟ إنها تبدو قديمة الطراز.

فقال هولاند ملاحظة جيدة، إنها كذلك حتى لا يتم الدخول إليها أو اختراقها. أومأ حسن برأسه موافقًا فقال هولاند لنكمل سيرنا، كانت الآذان تلتقط تلك الانفجارات المكتومة، ولكن من اتجاهات متعددة ففطن حسن أنهم يغلقون مداخل ومخارج ذلك المكان حتى يضمنوا عدم خروج أي كائن حي واختناقه تمامًا وأدرك أن هذا العمل قد يستغرق بعض الوقت فقال هل للموقع التبادلي هذا أي مخارج غير معروفة ولا يمكن اكتشافها فقال هولاند نعم إن لهذا الموقع التبادلي مخرج غير معروف قد طوره المهربين وبعدهم الإرهابيين قديمًا ونحن قد طورناه أيضًا، لكن لا أستطيع أن أجزم انهم لن يكتشفوه. فتوقف حسن عن متابعة الحركة وقال لا تستطيع أن تجزم؟

فقال هولاند علينا أن نتابع السير واستطرد نعم، لا أستطيع أن أجزم فعلى حسب معرفتي ومعرفة أبناء غايا، لا يوجد جهاز يستطيع رصد هذا المخرج الآن لكن العلم يتطور يوميًا تطورًا مذهلاً ربما يدعك حيرانًا، لذا فلست متأكدًا، وجذب حسن من يده وقال علينا أن نكمل سيرنا لا وقت لدينا وانطلقوا مرة أخرى. مضى كثير من الوقت مصحوبًا بحركة مستمرة وجريان لا يتوقف من أعضاء الفريق ورغم شعورهم بالإرهاق إلا أنهم لم

يخففوا من سرعتهم، ورغم توقع حسن المصحوب بأفكار عن العلماء من أنهم لا يمارسون الرياضة، لذا فقدرتهم على التحمل على هذا الأداء الرياضي ستنهار، لكن لم يشتكي أي منهم ولم يخففوا حتى من سرعتهم، وأصابه هو فقط كثير من التعب، عندئذٍ لاحظ حركة يد هولاند الموحية بتخفيف السرعة، وتلاشت أو كادت أصوات الانفجارات أن تتلاشى وتلاشت معها الاهتزازات الأرضية، فكان أمام حسن افتراضين أساسيين؛ أن تلك القوات أنهت عملها أو أنهم ابتعدوا بقدرٍ كاف عن مراكز تلك الانفجارات.

انعطف الفريق مع نهاية الممر إلى اليسار وتوقف الفريق أمام كتلة صخرية انزاحت مع ضغطة من يد هولاند على زر في ساعته، نظر حسن باهتمام إلى تلك الصخرة إنها طبيعية إلى حد لا يصدق ولا يستطيع أحد -حتى وإن كان مدربًا- أن يجد الفارق بين تلك الصخرة والصخور المحيطة، لهذا باب هذه المغارة مخفي، وانتابه شعور بالراحة، وما إن دخل حتى شك أنه يوجد داخل جبل أو في بطن الجبل، وشعر أنه يمثل في أحد أفلام الخيال العلمي وهذا ما ألقته تلك الأجهزة المعدة والمجهز بها المكان في روعه، فهي أجهزة لم ير مثلها من قبل لكنها، ربما لا تكون أجهزة فهي لا تشبه تلك الأجهزة في المغارة السابقة لكن محدثه يخبره أنها أجهزة، وراح يتلمسها واجتاحه شعور شبيه لنفسه بشعور" أليس عند دخولها أول مرة بلاد العجائب".

وتذكر ملابسات حصوله على هذا الشريط، شريط أليس في بلاد العجائب، فقد كان هذا الشريط هو أحد المضبوطات التي ضبطها عند أحد العلمانيين كبار السن. وتذكر حالة الألم التي اعتلت وجه هذا العجوز،عند وصولنا إليه وضبطنا له وتذكر حالة الانتشاء التي راودته مع حزن الشيخ عندما قام بإتلاف الشريط وتألم الشيخ بشدة، ولم يستطع حسن أن يدرك سر تألم الشيخ الهرِم إلى الآن، عندما شاهد نفسه في موقف أليس هذا،، عاد مسرعًا من أفكاره فقد كان كل ما يشاهده ممتع ومدهش، لكنه انتبه على سؤال مفاجئ وجهته هالة إلى هولاند وقالت:

ما الذي يملكه مولانا فضيلة المرشد الأول وسيغير هذا العالم من حولنا؟

فقال هولاند بكل ثقة سيهدم الفكرة.

نظر حسن مشدوها ولم يعقب، لكن وعيه يرفض كل ما يسمع، حقيقة الأمر أن ما يراه من أجهزة وما مر به شيء مفارق. لكن هل بوسعهم إعادة الموتى، ورن صوت الدرويش في أذنه وهو يقول له ستشاهد أحياء الموتى.

فقالت هالة محتده أي فكرة سيهدمها رجل رحل عن عالمنا منذ زمن بعيد لا يعي عن عالمنا شيء.

فقال ستيف ساخرًا:

لا يوجد فارق كبير بين عالمكم وعالمه، فلم يتطور المجتمع كثيرًا لا ثقافيًا ولا اجتماعيًا ولا اقتصاديًا، بل أقول بصدق المقارنة لقد حدث ردة و مشكلتنا الرئيسية كيف نقنعه أنه العام ٢٠٦٥.

فركت في رأسها وقالت لهولاند الذي أفهمه أنه سيتم استنساخ مولانا حسن البنا.

لكن الشخص الناتج سيكون شبيه مولانا فقط وليس هو، فقال هولاند سأريكم شيء وفتح خزانة وأخرج منها كتب تصفح حسن عناوينها «مذكرات الدعوة والداعية، المرأة المسلمة، تحديد النسل، المأثورات، مباحث في علوم الحديث، السلام في الإسلام، ومجموعة رسائل بعنوان رسالة في الانتخابات، رسالة في التعاليم، مقاصد القرآن الكريم» وتعجب حسن وقال مستحيل فأنا لم أدرس تلك الكتب وقال بحزم هي غير صحيحة.

فقال هولاند إن ما يتم تدريسه فقط هو الرسالة، وهي عبارة عن مأثورات ثم المنهج والتعاليم ثم المقاصد.

فقال حسن نعم.

فقال هولاند هي عناوين لما ألفه حسن البنا، لكن ما كتب كان مختلفًا عما درست إن ما كتبه مولانا بين يديك.

فقال حسن مستحيل، فقال هولاند أعلم ما الذي جعلها مستحيل، انظر إلى الرسالة التي تدرسها عنه، تدرسون الرسالة وشروحاتها وفقهها وأعتقد

أن كل علوم الدين عندكم قامت على تلك الرسالة وصارت من المقدسات ومادام النص، أي نص حظي بالتقديس فأضحى له مجال لا يمكن اختراقه لأن اختراقه يتطلب الكثير من الشجاعة التي لا يمتلكها الكثيرون ويتبادر إلى الذهن أن ذلك النص محفوظ لا يمسه عيب.

فقال حسن محتدًا ربما أتفهم كل ما تقول وكل ما سيحدث، لكن أحذرك من الاقتراب من الرسالة لأنها منّة، من الله، منّ بها على مولانا حسن البنا واصطفاه بها ثم نظر إلى هالة مذكرًا إياها ومستعينًا بها على صدق كلامه من أنها منّه وأن مولانا كان يعد لها وقال:

ألا تذكرين كيف وقاه الله شر المس حتى لا يدّعي أحد أنها من عمل الشيطان، أو أن الشيطان شارك فيها؟ ألا تذكرين عندما كان طفلاً صغيرًا وهو ذاهب إلى المسجد لصلاة الفجر فحاول الشيطان أن يقطع طريقه ويمسه فأرسل الله إليه من يحميه من الشيطان؟، ثم توجه معاتبًا إلى هالة وقال أليس كذلك؟، ألم ندرس ذلك؟ ألم نؤمن بذلك؟ التقط هولاند طرف الكلام من حسن وقال:

لذلك صار من المستحيل يا صديقي أن يصدق الناس بعد أن صار للرسالة كل هذه العلوم المصاحبة وهذه القدسية، مستحيل أن يصدق أي إنسان في مصر أنها ليست من عمل حسن البنا، بل من المستحيل أن يصدق أي شخص أنها ليست منّة من الله ، وتلك واحدة من أسباب عودة حسن البنا في نقض الفكرة.

فقال حسن مستوضحًا من هالة وكأنه أراد أن يتأكد، لكن هولاند أدرك أن له هدف آخر من سؤاله، هل ما سيتم إنتاجه سيكون مولانا حسن البنا بالضبط؟ هل سيحمل نفس الروح؟

فقالت هالة سيحمل نفس الشكل ونفس الملامح لكن ربما ليس نفس الوعي.

لكن هولاند علق مسرعًا فقال:

أعلم ما ترمي إليه من سؤالك سيدي، إن ما لدينا عن حسن البنا هو حقيقي، انظر إلى تواريخ الكتب التي بين يديك، انظر إلى توقيع نائب المرشد عليها لاعتماده صدقها، لأنه أوضح لنا أن لديه نفس النسخ، وصدقني يا صديقي إننا لم نعتمد ولا يجوز اعتمادنا على تلك المصادر فقط لأن عملية تكوين الوعي شديدة التعقيد ووظيفتنا هي إدخال المعلومة فقط وتقوم أجهزة الوعي بإعداد الوعي، ولو نظرت إلى وعيك هل تذكر كل شيء مر بك منذ صغرك؟ هل تذكر كل شيء مر بك منذ عام؟ هناك نقاط في وعينا شديدة الوضوح وأشياء خافتة وأخرى غير مرئية وتلك هي الفراغات في الذاكرة عن قصة حياتنا فكل المعرفة عن الدين لدى حسن البنا وحفظه للقرآن أضفناها وتلك المعرفة السياسية أضفناها وحواراته ومناقشاته والحوادث صغيرها وكبيرها في حياته وكل ما قيل عنه أضفناه كل من هو قريب منه أو من كان له معرفة به أضفناه دون حذف أو إضافة وحفزنا عقله للعودة إلى طريقة التفكير التي كان ينتهجها ثم أضفنا بعض الأشياء عن عصرنا ونظام الحكم في مصر الآن والأنظمة في العالم الآن وما يحيط بالناس من مخاطر، كل هذا أضفناه في جهاز الوعي وهو جهاز شديد الذكاء سيستخلص وعي البنا الحقيقي كقصة متصلة، حتى الفراغات غير المرئية هو سيكملها بما يتوافق مع شخصية مولانا وصدقني لو كان مولانا حيًا وجلس مع مولانا الجديد وكان هناك متابع لردود أفعالهم وطريقة تفكيرهم فلن يستطيع ذلك المتابع أن يتبين الفارق بينهم فلهما نفس الطابع، نفس ردود الأفعال، نفس المهارة، نفس المزاج، نفس المعرفة، حتى إن أحدهما لن يشك أن الآخر صورة حقيقية منه عندئذٍ يمكنك القول إنهما يحملان نفس الروح، وابتسم هولاند وهو ينهي عبارته.

لكن حسن لم يبتسم وقال من أين حصلتم على تلك المصادر فقال انظر وأخرج كتب «التربية الحضارية عند الإمام البنا تأليف سيد دسوقي، معالم المشروع الحضاري للدكتور محمد عمارة، التربية الإسلامية عند حسن البنا ليوسف القرضاوي، حسن البنا الرجل القرآني ل "روبير جاكسون» هذا ما قالوه عنه وهناك الكثير حتى الكتابات التي ضده، ثم حصلنا على

مطبوعـات عنـه مـن المخابـرات البريطانيـة والأمريكيـة والفرنسـية حتـى الألمانيـة كل مـن كان لـه اتصـال بمـصر في ذلـك الوقـت.

فقـال حسـن لم يكـن للمخابـرات الأمريكيـة نشـاط في مـصر في ذلـك الوقـت؟ ابتسـم هولانـد وقـال لقـد نقلـت المخابـرات البريطانيـة ملفـات الجماعـة إلى المخابـرات الأمريكيـة هـذا مـا كنـت أقصـده.

هز حسن رأسه.

وقـال لقـد قـام جهـاز الوعـي بإعـداد الوعـي لمولانـا المرشـد بطريقـة حيـة ومـع اكتـمال جسـده وبلوغـه المرحلـة العمريـة التـي كان عليهـا قبـل مقتلـه سـنقوم بحقـن الوعـي في عقلـه.

بـدا أن حسـن لم يسـتطع أن يتخيـل مـا يقصـده هولانـد لكنـه لم يعقـب، ومـا أن لاذ الجميـع بالصمـت حتـى تصاعـدت موجـات مـن الشـك في الناتـج، فهـو لـن يكـون مولانـا حسـن البنـا، لأنهـم سـيصنعونه كـما يريـدون فـإن الخـير لم يـأت يومًـا مـن الغـرب، قـرأ سـتيف ذلـك في عينـي حسـن، فوضـع يديـه عـلى كتفـي حسـن وقـال صديقـي سـأثبت لـك أن مـا نقولـه عـن مولانـا الإمـام صـواب وأن مـا تدرسـونه عنـه ليـس حقيقيًـا وقـال أليـس في اعتقـادك أن الإنجيـل قـد حـرف؟

- قال حسن بحماس نعم.

قـال إن تعاليـم المسـيح كانـت واحـدة، لكـن كل واحـد مـن أتباعـه أخذهـا وفسرهـا بطريقتـه ثـم جعلهـا في كتـاب وادعـى أنهـا الحقيقـة وأنهـا التعاليـم الصحيحـة مـن المسـيح فألقـى عـلى كلامـه قدسـية بربطهـا بالمسـيح وصـاروا هـم بالـضرورة مقدسـين وربـما رسـل.

فقـال هولانـد وربـما لم يقـل المسـيح شيء ممـا حملـه تلامذتـه وربـما قـال وربـما تـم الحـذف والإضافة.

- وقال ستيف ربما.

شعر حسن بإحباط.

- فقال هولاند إن الحقيقة تبرز مع عثورنا لمخطوطات قبل المسيح وبعد المسيح وزمن المسيح والعقل.

- فقال حسن وهل هناك مخطوطات تؤرخ لذلك الزمن؟

- فقال ستيف نعم مخطوطات البحر الميت، ألم تسمع بها أو تقرأ عنها؟

مط حسن شفتيه وقال إن الحديث مع العلماء رغم ثراءه إلا أنه لا يروى ظمأ. وظل على حالة القلق والشك ولكنه خرج بقرار وهو، دعنا نرى، إن لم يعجبني فسأنهي الوضع، وسمع هولاند يقول للفريق لا وقت لدينا يجب أن نبدأ، واصطحب ستيف وهالة حسن إلى غرفته وقال ستيف لابد أنك متعب، هذه حجرة نومك وبإمكانك أن تتجول في كل مكان وأن تحصل على أي معلومة تريد، إننا أبناء المصادر المفتوحة " أبناء غايا، أبناء الأرض".

كان حسن في حاجة ماسة إلى الجلوس مع ذاته أكثر من الراحة، ثم ابتسم ابتسامة باهته لهالة وستيف وهو يفارقهما ثم زفر وهو يغلق الباب خلفه.

ونظر إلى سقف الغرفة متخطيًا سقفها وسقف الجبل الذي يعلوه وقال مناجيًا ربه:

لماذا يا رب؟ إن قلبي لا يحتمل، أظل طوال عمري جاهلاً ثم تكشف لي كل ذلك، كل ذلك في يومين اثنين رأيت ما لم أره طوال عمري، يا رب رأيت ما لم أعتقد بوجوده يومًا، آه...... كنت أتمنى أن أستمر في جهلي يا رب إن الجهل حلو،

يا رب لم أفكر أبدًا أن يكون العالم هكذا، يا رب لم أفكر يومًا ولم أعلم يوما أن مصر هكذا، هل رأى مولانا نائب المرشد كل ذلك فتغير؟

أم أني من خلقك العصاة، فعذبتني بمعرفتي قبل أن ألقاك، ربي أعلم أنك خلقتني متقلب، متطرف الأفكار؛ شديدها.

ثم وضع يده على رأسه وجلس على سريره وقال باكيًا:

- هل تراك تعاقبني على اقتدائي بالشيخ؟

يا رب أنت تعلم بما حل بي وأنا أعلم أنك من تختبرني، يا رب إنك تعلم أنهم يروني التقي الورع، وأنت تعلم ما أعلم، أني لست التقي الورع، عكس ما يبدو، فكم زنيت وكم قتلت لكني قتلت لك هم كانوا أعدائك وأعلم يا رب أنك قد جازيتني خيرًا من أجل ذلك لكن غضبك مني من أجل استماعي لهم وتأثري بهم حتى ما كانوا يروونه ما زلت أذكره، لا أدري لم احتفظت ذاكرتي بترهاتهم، يا رب هم من بدلوا ديني فقد كان كلامهم يمس العقل، وربما يا رب هم من أهّلوني كي اتبع ذلك الشيخ أيا رب يا رب أنا الضعيف فلا تشمتهم بي.

شعر حسن أنه في تلك اللحظة ضعيف وهش وقال أعلم يا رب إن كل الذين ماتوا من التعذيب، كانوا قد أساءوا إليك وعذبتهم حتى الموت من أجل ديني حتى يظل عاليًا، نعم كنت أشعر بلذة التعذيب، وأحيانا كنت أعذبهم خوفًا مما يقولون، ولقد قرأ خوفي أحدهم وقال إنك ضعيف تحاول بإمعانك في تعذيبي أن تسكتني وتتغلب على مخاوفك، إنني أقوى منك.

- بل أنت أضعف، أنا من يملك أن يتركك تتكلم وأنا من يملك قتلك الآن.

- إنك تتشبث بسوطك، انظر بداخلك أنت عبد يريد أن يتمرد لكنك تخاف.

- مما أخاف؟ أنا السيد قلت لك، أنا من يملك روحك وسأجعلك تندم.

- انصت إلى ذاتك ربما تسمعها جيدًا، إنك تخشى أن يمر كلامي على عقلك أقول لك انظر إلى القلقلة داخلك وموجات الاختناق المتصاعدة من داخلك في اتجاه قلبك كي تخنقه، إنك تتغلب على ضعفك في كتم صوتي.

- ههههه أنا أتلذذ الآن بتعذيبك كل ما تقول ترهات.

ونظـرت إليـه وهـو يـصرخ ويقـول أنـت عبـد لهـؤلاء الجنـرالات، أنـت عبـد لهـؤلاء الأباطـرة الذيـن يريـدون أن يكونـوا أسـياد جـزء صغـير في الكـون يسـمى الأرض، كبيرٌ هـو حقدهـم المتبـادل، ونحـن أيهـا العبـد مـن يدفـع الثمـن بدمائـه.

لمـاذا أتذكـر تلـك الكلـمات الآن ومـا علاقتهـا بهـذا الشـيخ، ربـما تكـون تلـك الكلـمات دون أن أدري هـي مـا قادتنـي إلى الاندفـاع خلـف الشـيخ، فهـو حدثنـي بنفـس اللسـان، نعـم بنفـس اللسـان لكنـه يرتـدي نفـس مـا أرتـدي، هـل كانـت لحظـة هـروب مـن ضعفـي أم أنهـا لحظـة يقـين؟، لا يـا ربي سـامحني أنـا لا أقصـد مـا أقـول، شـعر حسـن بضعفـه الشـديد وخوفـه الأشـد فارتمـى عـلى سريره محـاولاً أن يكتـم أي صـوت يصـدر مـن عقلـه، لكنـه لم يسـتطع، فـصرف ذهنـه إلى شيء آخـر وقـال كيـف تكـون حدودنـا مسـتباحة إلى هـذه الدرجـة؟ كيـف يدخـل هـؤلاء بـكل تلـك الأجهـزة؟ بـل يجهـزون المغـارة مغارتـين بـكل تلـك المعـدات شـديدة التطـور. أيـن كنـا ولمـاذا لم نكتشـفهم؟ مـا الـذي يحـدث في الجنـوب؟ كيف اسـتطاع مولانـا أن يقتطـع تلـك الأرض؟ إننـا لا نسـيطر عـلى شيء. هـل يـا تـرى هنـاك مـن يعلـم؟ هـل مولانـا المرشـد يعلـم أم أن التقريـر يقـول لـه دومًـا كل شيء مسـتتب؟ مـط حسـن شـفتيه وكأنهـا إشـارة توحـي بعـدم الاهتـمام.

ثـم تذكـر شيء في منتهـى الأهميـة وقـام واقفًـا ولام نفسـه وقـال كيـف لم أتذكـر أن أسـأله ذلـك السـؤال كيـف؟

لقـد تفرعـت بنـا موجـات الحديـث، ولم أفهـم خطتهـم الكاملـة، فكيـف لمولانـا حسـن البنـا أن يهـدم الفكـرة؟ هـل سـيقول وفقـط أن تلـك الكتـب ليسـت كتبـي وقـد حرفتـم فيهـا؟ أعتقـد أن هـذا غـير كاف ربـما مـا زال في جعبتهـم مـا لم يوضحـوه، أراد مغـادرة الحجـرة والتوجـه إلى هولانـد لسـؤاله لكـن هولانـد ربـما يكـون مشـغولاً الآن لـذا سأسـأله غـدًا، هـذا مـا أسره لنفسـه.

وقبـل أن ينـام قـال سـاخرًا كنـت أظـن أننـا نعلـم كيـف يتنفـس النـاس خلـف الجـدران

الجميـع يعمـل كخليـة نحـل الـكل يعـرف دوره في المعمـل حتـى هالـة، كان العمـل رغـم بسـاطته وهو زرع بـذرة الحيـاة في تربتهـا الخصبـة، إلا أن أعـداد البذرة والتربـة كان يحتـاج إلى المزيـد مـن العمـل والجهـد، ومـع قـرب انتهـاء العمـل وزرع جينـوم حسـن البنـا في وسـطه كـي ينبـت حسـن البنـا، وقفـت هالـة متأملـة معنـى الحيـاة، ونظـرت إلى فريـق العلـماء الذيـن يعملـون في سـعادة بالغـة. مـن أيـن تنبـع تلـك السـعادة والاسـتمتاع بالعمـل؟، وقالـت يـا لروعـة المعرفـة ومتعتهـا.

- لكن من أين حصلت أنا على المعرفة؟

استوقفها هذا السؤال.

فهـي بالفعـل تعـرف مـا تقـوم بـه مـن عمـل لم تطلـع عليـه مـن قبـل فمـن أيـن أتتهـا تلـك المعرفـة العلميـة الدقيقـة والمهـارة.

- اقترب منها ستيف وقال برفق ما بك يا بلقيس؟

- التفتت إليه وقالت بلقيس؟

فقال

- بلقيس.....

- كانت أجمل الملكات في تاريخ بابل

بلقيس.......

- كانت أطول النخلات في أرض العراق

- كانت إذا تمشي.....

- ترافقها طواويس.....

- وتتبعها أيائل.....

- فقالت بابتسامة ما أجمل هذا الشعر أأنت تكتب شعرًا بالعربية؟

- ابتسـم وقـال لسـت أنـا يـا بلقيـس، إنـه شـعر لشـاعر عظيـم اسـمه نـزار قبـاني.

حاولـت أن تفتـش عنـه في ذاكرتهـا لكنهـا لم تجـد لـه أي أثـر، وقالـت أنـا لم أقـرأ لـه ولم أسـمع بـه يومًـا..... بـل قـرأت لـه وتذكـرت مـا كتبتـه أمهـا عـلى المـرآة.

فقــال بالطبــع في نظــام مثــل نظــام المرشــد لــن تجــدي أي ذكــر لشــاعر ينشــد الحريــة وينتقــد المــوروث الــذي تــم تغليفــه بســياج مقــدس.

هل تحفظ قصائد أخرى له؟

الكثـير بعـد أن ننتهـي ونسـتريح سـوف أقـرأ لـك مـن أشـعاره، نظـرت إليـه باسـمة وقالـت سـأنتظر تكملـة الحـوار.

حـاول حسـن أن يتغلـب عـلى كل مـا يعتريـه مـن أفـكار وينـام، إلا أنـه لم يسـتطع أن يخلـد للنـوم وشـعر بالجـوع فقـام مـن مقامـه كـي يبحـث عـن طعـام وإجابـة لسـؤاله، فخـرج مـن غرفتـه فوجـد أحـد أفـراد المجموعـة يخـرج مـن المعمـل.

فقال حسن له هل انتهيتم؟

فقال نعم لماذا لم تنام؟

أراد حسـن أن يخـبره أنـه جائـع لكنـه في تلـك اللحظـة انزاح بـاب المعمـل وخرج الفريـق كامـلاً وكانـوا مسـتبشرين ورحبـوا بحسـن ودعـوه إلى تنـاول الطعـام فلـم يعـترض حسـن عـلى الدعـوى وتحـرك معهـم، وظـن حسـن أنـه ربـما يسـتطيع سـؤال هولانـد.

فقـال لهولانـد هـل تعتقـد أن مولانـا حـين يـأتي ويقـول أننـي لم أكتـب تلـك الأشـياء سـتهدم الفكـرة؟

ربما لم تستوعبوا ما نحن فيه.

ابتسم هولاند وهم بالكلام.

هنـا اسـتعد حسـن لاسـتطراد هولانـد الطويـل وغـير الممـل لأن حسـن اكتشـف أن هولانـد بإجابتـه الطويلـة يفسر دون أن يـدري أسـئلة أخـرى في وجـدان حسـن لذلـك انتبـه لـه بـكل جوارحـه عـلى الرغـم مـن تعبـه.

لاحظ هولاند اهتمام حسن فشعر بسعادة وقال قبل أن أبدأ، انظر، وانبثق من ساعته شاشة ثلاثية الأبعاد انفصلت عن الساعة لتكون أمامهم مباشرة وقال اقرأ تلك البرقية، إنها من المخابرات البريطانية ويبدو عليها أنها شديدة القدم وكان مكتوب عليها «لقد تم التخلص منه» بتاريخ الثاني عشر من فبراير ١٩٤٩ وعلق هولاند قائلاً خرجت تلك البرقية من مكتب المندوب السامي معلنةً مقتل حسن البنا.

فقال حسن هل تقصد أن المخابرات البريطانية كان لها دور في ذلك الأمر؟

فقال هولاند بصوت قاطع نعم.

ثم استطرد: هذا دأب أجهزة المخابرات كلها تصنع العميل ثم بعد فترة يقدمونه إلى المذبح ثم يسكرون من دمه، فالأجهزة الأمنية بلا أخلاق لأنها صناعة الخوف، فباسم الأمن القومي تنتهك كل الحرمات ولا قدسية لأي شيء ونظر إلى حسن بتحدٍ وقال كل رجال الأمن بلا أخلاق.

شعر حسن بالحرج من كلام هولاند ولم يستنكر ما قاله هولاند وبرغم قسوة الكلمات رأى حسن أنها تمس كبد الحقيقة التي كان يراها منذ يومين مهنة مقدسة، فلولاها ما وجد الوطن وكان خروجه منها على طريقة الشيخ تمرد

على ذاته فقط، لا تمرد على الأمن ودون إرادة منه، تذكر ما ارتكبه من جرائم متنوعة باسم الأمن القومي من حرق للكتب وتدمير حيوات كثيرة عن طريق القتل والتعذيب أو تلفيق التهم وقبل أن يقول شيء سمع هالة تسأل لماذا جندته ولماذا قتلته؟

بعد زوال الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ أصبح الوضع في مصر والعالم الإسلامي شديد الخطورة بالنسبة لإنجلترا فبعد زوال الرأس لن تستطيع أن تأمن التصرفات العشوائية للجسد، ومع تنامي التقارب بين حزب الوفد والبلشيفيين رغم الاختلاف الأيدولوجي وفي ظل تراجع الأفكار الدينية وانتشار الأفكار الشيوعية في مصر مما زاد الوضع إرباكا، فكان حريًا بإنجلترا أن تخلق تيارًا عامًا يحمل أيدولوجيا مغايرة وكان الظرف التاريخي في صالح

بريطانيا فزوال الخلافة أوجد خواء في النفوس جعل من وجود الخليفة أمرًا متممًا بالنسبة لتيار عريض يظن أن إيمانه يتم مع تمام الخليفة، حتى وإن كان فاسقًا، وكانت ظاهرة مرصودة لعلماء الحرب النفسية وأشارت إلى أن أكثر القطاعات قلقًا بسبب هذا الأمر هم الشباب، وكان البحث عن شخص له همة محمد ابن عبد الوهاب صنيعتهم في الجزيرة العربية، ولا أخفيك أن مصر كانت حبلى بشباب يرون في أنفسهم أن الله قد اختارهم لهذا الظرف التاريخي،رغم نبل الفكرة إلا أن الاندفاع قد يوقعهم في مأزق نفسي رهيب ويخلق فيهم حالة فصام ما بين نبل تلك الفكرة وتحالفهم مع الشيطان في سبيل تحقيقها.

انزعج حسن من ذلك الوصف وبدا على وجهه علامات الانزعاج فقال هولاند، لا تنزعج إن لديهم المبرر النفسي لفعل ذلك، وربما يظل هذا المأزق غير ظاهر للنفس لكنه موجود وجود اللهيب تحت الرماد، لكن سيظهر ذات يوم بعد أن تتعرى النفس مع توقف الدافع أو هدوء جريانه، فتشكل ألم نفسي كبير، كما حدث مع حسن البنا في آخر حياته، وكان على الإنجليز البحث عن هذا الشاب وتبلور لديهم رؤيا للرسالة التي سيحملها وبدأ بحثهم في الأزهر ودار العلوم وفي عام ١٩٢٧ وجدوا ضالتهم في حسن البنا وكان عن طريق أمنية له كتبها عن مشروعه بعد التخرج، قال فيها أتمنى أن أكون مرشدًا أقضي النهار في تعليم الشباب والليل في تعليم الآباء تارة وبالخطب والمحاورة وأخرى بالتأليف والكتابة وثالثة بالتجول والسياحة بعد الدراسة ورغم أن كثيرًا من الشباب كان له ذات الميول إلا أن حسن البنا فاقهم في بعض المواصفات، أهمها أنه شرع في إنشاء جماعات وفشل، وكان يمتلك مقومات الزعامة وكذلك عظم الإرادة وضحالة العلم وكان هذا هو المنشود في رجلهم، وبدلاً من أن يتم تعينه في القاهرة تم تعيينه في الإسماعلية ليكون بعيدًا عن الأمن السياسي.

وكانت الفكرة جذابة وهي قائمة على دعامتين، هما الخلافة والحكم بما أنزل الله ثم تم تدريبه على إنشاء الجماعة وعمل هيكل تنظيمي وإدارته وأعطوه المال اللازم لذلك وهو مبلغ خمسمائة جنيهًا مصريًا وكان مبلغًا كبيرًا جدًا في ذلك الوقت وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية في الترويج له والتبشير

بـه في كل الأماكـن عـن طريـق عملائهـم حتـى وصلـوا إلى البـلاط الملكـي أيضًـا وكانـت الفكـرة جذابـة جـدًا جـدًا وكانـت الدعايـة لهـا عـلى مستوى مـن الدقـة مما جعـل للجماعـة في وقـت وجيـز فـروع وأتبـاع في كل ربـوع مـصر وفي خـارج مـصر أيضًـا وحرصـوا ألا يتداخـل عمـل جماعـة الإخـوان مـع أتبـاع محمـد بـن عبـد الوهـاب، ثـم مـع نمـو الجماعـة شـعر حسـن البنـا بقوتـه فاصطـدم مـع الدولة المصريـة تـارة وانتظـر عـون الإنجليـز فلـم يجدهـم وكانـت تلـك نقطـة فاصلـة في حياتـه، لأنـه أدرك أنهـم يريدونـه بطـلاً شـعبيًا فقـط لا حاكـمًا. ومـع تـسرب الحلـم الـذي آمـن هـو بـه، رغـم علمـه أنهـم مـن صنعـوه. فتغـير و أصبـح عنيفًـا ومـال إلى المخابـرات الألمانيـة التـي سـاعدته في إنشـاء التنظيـم الـسري لمحاربـة الإنجليـز، لكـن حسـن البنـا كان لـه هـدف آخـر هـو تصفيـة حسـاباته مـع القـادة السياسيين ثـم السـيطرة عـلى الحكـم ثـم طـرد الإنجليز وإعـلان نفسـه خليفـة لمـصر والعـالم الإسـلامي، لكـن الحلـم يتبخـر مـرة أخـرى لا لضعفـه ولكن لإدراكـه زيـف أفـكاره، وكان هنـاك شيء يرفـض في داخلـه كل مـا يحـدث، ومـع صراع داخـلي كاد أن ينتزعـه انتزاعًـا مـن نفسـه قـرر حسـن البنـا قـرارًا صعبًـا ألا وهـو فـك الجماعـة واعتـذاره للنـاس عـن كل الأخطـاء التـي ارتكبهـا وسـيعلن ذلـك للنـاس عامـة، وبـدأ بالفعـل أولى خطـوات الاعـتراف وأبلـغ الأقربـين منـه مـن قـادة الجماعـة الذيـن أبلغـو أجهـزة المخابـرات التـي يعملـون معهـا وأبلغـوا حتـى السرايـا التـي كانـت تسـتخدم للحـد مـن نفـوز حـزب الوفـد في السـلطة والشـيوعيين في الشـارع.

لا أخفيـك سرًا لقـد كان الإخـوان هـم البديـل الآمـن لـكل مـن هـو في السـلطة، وكل مـن هـو يريـد تغيـير السـلطة في ذلـك الزمـن وفي الأزمنـة اللاحقـة، فحاولـوا مراجعتـه وإقناعـه بالعـدول عـن ذلـك لكنـه عـلى مـا يبـدو لم يسـتطع أن يتحمـل الـصراع النفـسي الـذي يعيـش فيـه، فرفـض الإنصـات إليهـم وعلمـوا مـن طـول ملازمتـه أنـه سـيهدم الجماعـة مـن الأسـاس ثـم علمـوا أنـه قـد حـدد ميعـاد مـع الإذاعـة ليلقـى عليهـم بيانًـا هامًـا وسـاعده الوفديـين عـلى بلـوغ غايتـه بعدمـا تنامـى إلى مسـامعهم ذلـك العـراك الدائـر داخـل الجماعـة وخارجهـا، وتـم قتلـه رميًـا بالرصـاص وهـو متوجـه إلى الإذاعـة وفـرت السـيارة التـي كانـت تحمـل رقم ٤٩٧٩ والتابعـة للبوليـس السـياسي وكان عـلى متنهـا عضـوان مـن التنظيـم الخـاص الـذي أنشـأه حسـن البنـا بنفسـه ليكـون العصـا الغليظـة التـي يعاقـب بهـا أعدائـه

ونـواه لجيش الخلافـة، لكـن حسـن البنـا لم يمـت نتيجـة تلـك الإصابـة، وتـم نقلـه إلى القـصر العينـي، وشـعر حسـن البنـا بدنـو أجلـه وأنـه راحـل، وطافـت في ذهنـه فكـرة عبقريـة بـأن يخـبر مصطفـي النحـاس ويطلـب منـه أن يسـجل لـه ويقـوم هـو بإذاعتـه ويخـبر النـاس بهـذا الأمـر، لكـن البوليـس السـياسي لم يسـمح بوصـول تلـك الرسـالة إلى مصطفـى النحـاس ومـات حسـن البنـا ولديـه الإرادة لحـل تلـك الجماعـة والاعتـذار إلى النـاس عـما قامـت بـه الجماعـة مـن أعـمال، عندئـذٍ نظـر هولانـد إلى حسـن وقـال هـل علمـت الآن لمـاذا حسـن البنـا؟ صمـت حسـن ولم يعلـق.

فقـذف هولانـد بالخاتـم إلى حسـن وقـال إنـه لـك، هديـة مـن أبنـاء غايـا لـك يـا حسـن،

نظر حسن إلى الخاتم وقلب فيه.

فقـال هولانـد مبتسـمًا مـا زال حسـن البنـا بداخلـه ولـن تسـتطيع ولـن يسـتطيع أي أحـد إخراجـه أو تدمـيره.

فقال حسن وماذا عنكم؟

لقد حصلنا عليه.

كيف؟ وكانت البديهة تقول إن الخاتم لم يفتح أو ربما له أكواد سرية

فقـال هولانـد لقـد تـم مسـح الخاتـم بالأشـعة الرقميـة وهـي أكـواد من الأشـعة السـينية خاصـة بنـا، وهـي الوحيـدة القـادرة عـلى مسـح هـذا الخاتـم واخـتراق مادتـه وأراد أن يثبـت لحسـن أنهـا مـادة ذات طبيعـة مختلفـة فقـال لـه تعـالى هـات الخاتـم ثـم ادخلـه مـع ملعقـة في فـرن رومكـورف وقـال هـذا الفـرن تصل الحـرارة بداخلـه لأكثـر مـن عشريـن ألـف درجـه انظـر ووضـع الخاتـم والملعقـة بداخلـه انصهـرت الملعقـة تمامًـا لكنـه التقـط الخاتـم ووضعـه في يـده دون أن يتأثـر بحرارتـه ثـم رمـاه إلى حسـن الـذي التقطـه ولم يكـن هنـاك أي أثـر حـراري عليـه فقـال انظـر لم تتغـير درجـة حرارتـه، ثـم اسـتطرد لا يوجـد هنـاك مـن يسـتطيع أن يتلفـه أو الحصـول عـلى مـا بـه مـن معلومـة إلا أبنـاء غايـا.

ولقد تم نسخه عندنا على جهاز الكمبيوتر وتم إرسال الشفرة الوراثية إلى الجهاز المركزي، أي لو فشلت تلك العملية هنا سننتجه في أي مكان في العالم هل هذا ممكن؟ توجه حسن بسؤاله هذا إلى هالة التي أجابت بسرعة وثقه نعم.

وقال هولاند بفخر إن نجحت التجربة سيكون لدينا بعد عشرة أيام حسن البنا وقال مبتهجًا استعدوا لاستقبال مولانا.

قال استيف إنني أشعر بجوع شديد تذكر حسن جوعه وقال أنا أيضًا جوعان فقال هولاند هيا لنأكل. التف الجميع حول المائدة بعد تحضير الطعام ورغم بساطته إلا أنه كان شهيًا وجلس حسن قبالة هالة وما أن وقعت عينيه عليها حتى اهتاجت عواطفه بشكل جعله يزفر وحاول أن ينقل عينيه بعيدًا عنها لكنها فاجأته بابتسامة فبدت أسنانها الناصعة كاللؤلؤ مصدر للنور في عينيه وبدا وجهها كملاك يشع نور، ربت ستيف على كتفه وقال يبدو أنك ستحب الإقامة معنا في الأيام القادمة، وبعيدًا عن تلميحات استيف شعر حسن أن هناك شيء ما سيربطه بهذا المكان وبهذه المجموعة من أبناء غايا على الرغم من أنهم مجموعة من العلماء، و أراد حسن أن يخرج من حالته تلك فتوجه إلى هولاند بسؤال هل سنخرج بعد عشرة أيام؟

قال هولاند ربما بعدها بيوم أو يومين.

هل تعتقد أن من هاجمنا اطمئن إلى أننا لن نستطيع أن نخرج أحياءً من هنا؟ فقال ستيف لا.

فقال حسن هل قاموا بتطويق الجبل من الخارج وسينتظرون خروجنا. ضحك هولاند وقال إن تطويق الجبل فكرة قديمة جدًا للمراقبة، يا صديقي من أين جاءت الطائرات التي دكت الجبل أو الطائرة التي حاولت قتل هالة؟ هل كان هناك من يراقب هالة؟ فقال حسن لا.

فقال هولاند بل كان هناك من يراقبها ويراقبك عن طريق البصمة الحرارية لذلك سيتم مراقبة الجبل عن طريق الأقمار الصناعية، فأي تغير حراري في المنطقة سيتم رصده وما هي إلا لحظات ستجد الطائرات فوق رؤوسنا.

- فقال حسن هل هي قريبة إلى هذا الحد؟

- فقال هولاند نعم هناك حاملة طائرات معلقة على ارتفاع عشرين ألف قدم فوق مصر مباشرة.

شعر حسن بالاندهاش لأن حدود علمه أن حاملة الطائرات هي سفن عملاقة في البحر.

فقال هولاند هي حاملة طائرات من الألياف الكربونية والسوبر كوندكتور المعدل للتفاعل مع المجال الجاذب للأرض فيساعده في الارتفاع والحركة دون استخدام لأي محركات دفع، والطائرات التي على متنها تصل سرعتها إلى السرعة النسبية ويقودها طيارين آليين لديهم دقة في الإصابة تصل إلى العلامة الكاملة لذلك نحن هدف سهل، شعر حسن بإرهاقهم وإرهاق بدا على هالة فأشفق أن يستمر في الأسئلة فترهق هالة أكثر من ذلك فشكرهم وعلى ما يبدو كان الجميع في حاجة إلى النوم فقاموا مسرعين حتى هالة كل إلى غرفة نومه، لكن حسن لم يستطع أن يمنع عقله من التساؤل.

هل لديهم خطة للرحيل؟ ما هي نسبة نجاحها؟ إن لم يكن لديهم خطة للهرب والموت مصيرهم، فما الجدوى مما يفعلون؟، دخل الغرفة وضع رأسه على المخدة وأغلق عينيه ثم فتحهما مرة أخرى.

وقال هل نامت هالة؟ هل فكرت في قبل نومها؟ هل تذكرت وجهي وابتسمت؟

هل من الممكن أن تحبني؟ هل من الممكن أن تتجاوز تاريخي الأمني؟ على كلٍ أنا أحبها. هل ستتساءل عن سر نظراتي الغريبة لها؟ هل من الممكن أن تعتبر ما أنا فيه حبًا أم لا؟

ثم أغلق عينيه وبكى بكاءً خفيفًا أو دمعة خرجت من عينيه فمسحها وقال: كنت عزيز البكاء ما الذي قد حدث لي، هذا غير طبيعي يبدو أنني في عالم غير حقيقي وأنا غارق في الأحلام لا أكثر، ربما ما زال جسدي مستلقي على مكتبي غارق في غيبوبته أو نمت غصبًا عني أم تراني في غيبوبة وتم نقلي إلى المستشفى وأنا غارق في داخل عقلي، فلا يمكن لبشر أن تقع له كل تلك

الأحـداث في بضـع أيـام فقـط، ومـا هـذا التغـير الـذي طـرأ عـليّ، هـل أنـا الـذي يتبـع هـذا الشـيخ ويخـرج ممـا هـو فيـه؟ وأي أسـطورة دعتنـي للرحيـل إلى مولانـا ومـا الـذي شـاهدته هنـاك مـن أدوات المسـتحيل؟ ثـم أقابـل درويشًـا يقـرأ الزمـن ثـم أنـا هنـا متحديًـا كل العـالم لأرى حبيبتـي التـي افترضـت في بدايـة حلمـي أنهـا ماتـت ثـم أجـد مـن يعيدهـا إلى الحيـاة بعـد رحيلهـا والأعجـب أن أحـب دون أن أرى حبيبتـي أحبهـا مـن صـورة، مجـرد صـورة، هـل هـذا حقيقـي؟.

أبـدًا أظننـي غـارق داخـل ذاتي وكل مـا يفترضـه عقـلي، هـو محاولـة للخـروج ممـا أنـا فيـه ربـما يكـون داخـلي عـدم اقتنـاع بعـالم المرشـد رغـم إخـلاصي وهـذا العلـم الـذي نسـجه عقـلي هـو صـوت التمـرد، لكننـي لا أريـد ذلـك أنـا لا أريـد أن أخـرج مـن حظـيرة الإيـمان، يـا مـن أنتـم حـولي لا تدعـوني أشرك وأخـرج مـن حظـيرة الإيـمان.

وبعـد لحظـات مـن الصمـت صـاح أرجوكـم إن كنتـم تسـمعوني انزعـوا عنـي خراطيـم الحيـاة دعـوني أمـوت عـلى دعـوة الإخـوان، أنـا لا أريـد أن أعيـش في هـذا الكابـوس الـذي تختفـي فيـه الفواصـل بـين الحيـاة والمـوت، وصمـت مـرة أخـرى وقـال هـل أصبـت بسـكتة دماغيـة فـلا أسـتطيع أن أتخطـى حواجـز عقـلي الـذي سـقطت بداخلـه ولـن أسـتطيع العـودة.

آه كـم هـذا مـؤلم أرجـوك يـا الله لا تطيـل بقائـي في تلـك الحالـة أرجـوك يـا رب اقبـض روحـي وهـي طيبـة لا تـترك عقـلي يفسـدها.

لا يـدري مـا الـذي أيقظـه لكنـه استيقظ، ونظـر إلى سريـره بعجـب شـديد فهـو حظـي براحـة ونـوم جيـد وتعجـب فكيـف نـام في الأسـاس مـع كل تلـك الأفكار،

وخـرج مـن غرفتـه فوجدهـم مسـتيقظين لكنـه رآهـم يرتـدون زيًـا موحـدًا خلافـا لمـا رآهـم عليـه بالأمـس واقـترب منـه سـتيف وقـال لـه اسـتعد كـي نلحـق بالصبـاح.

فقـال حسـن هـل سـنخرج؟ لكـن سـتيف كان مسرعًـا فلـم يجبـه، لكـن فليـب أتـاه بلبـاس مشـابه للـذي يرتدونـه وقـال عليـك أن ترتـدي هـذا ومـا هـي إلا لحظـات حتـى ارتـداه واتجـه مـع فليـب إلى غرفـة ومـا أن دخلهـا حتـى اندهـش

لأنـه دخـل غرفـة بهـا مركبـة فضائيـة جاهـزة للانطـلاق، فقـال الجميـع بصـوت يملـؤه البهجـة والأمـل اسرع حتـى لا يفوتنـا الـشروق كان الجميـع يجلسـون في مقاعدهـم خلـف هولانـد الـذي عـلى مـا يبـدو سـيتولى بالقيـادة وجلـس حسـن خلـف هالـة ونظـرت إليـه بابتسـامة وقالـت لـه صبـاح مـشرق سـيادة الرائـد ونظـر حسـن إليهـا ببلاهـة وشرود لكنهـا لم تسـتطع أن تطيـل النظـر إلى وجهـه مـع تعـالي صـوت هولانـد الـذي صـاح قائـلا هـل الجميـع مسـتعد؟

فهتفـوا في صـوت واحـد نعـم نحـن مسـتعدون وتشـبثوا بمقاعدهـم اسـتعدادًا للانطـلاق وبـدأت الحركـة بسرعـة كبـيرة ودخلـوا نفـق مظلـم ينتهي بضوء سـاطع ومـا هـي إلا ثـوان حتـى بلغـوه لكنـه لم يكـن ضـوءًا سـاطعًا لكنـه نـور سـاكن، سـكون يبعـث عـلى الـدفء في القلـب، سـكون راهـب في محرابـه متلـذذًا بطعـم السـكينة، التـي سرعـان مـا تنقـضي بإيقـاع بطـيء يميـل إلى التسـارع مـع دخـول الزمـن وراحـت النباتـات تتحـرر مـن سـكونها شـيئًا فشـيئًا مـع دخـول الشـمس ومعهـا إكسـير الحيـاة فبـدأت الحيـاة تـدب في الأرض بعدمـا نـشرت عليهـم مـن إكسـيرها، وكانـت تلـك أول مـرة يلاحـظ حسـن فيهـا تلـك الأشـياء فبـدا وكأنـه زائـر يتعـرف عـلى كوكـب جديـد وكانـت المركبـة تعلـو بهـم وتهبـط بـين الهضـاب والجبـال والسـفوح في رحلتهـا التـي تطـارد فيهـا شـعاع الشـمس، فاجتـاح أعضـاء الفريـق شـعور بالمتعـة وراحـت الطبيعـة تلقـي عليهـم مـن فيـض جمالهـا فبثـت الزهـور عطرهـا داخـل المركبـة وفي تلـك الأثنـاء أراد حسـن أن يضيـف إلى متعتـه متعـة فربـت عـلى كتـف هالـة التـي التفتـت إليـه وكانـت مـن الحسـن أن ظنهـا أنهـا ليسـت مـن الإنـس لكنهـا مـن حـور الجنـة التـي تمنـى يومـا أن يمـوت في سـبيل الله حتـى يـرى جمالهـم.

نزلـت المركبـة في سـهل غنـي بالنباتـات المزهـرة وخـرج الجميـع يركـض في السـهل وتفرقـوا، فاقـترب حسـن مـن هالـة لكـن روح الخجـل جعلـت الدمـاء تندفـع بشـكل ملاحـظ، فنظـرت إليـه هالـة وقالـت بـود، هـل كنـت تعرفنـي قبـل أن تبحـث في تلـك القضيـة؟ فقـال حسـن لا، وأراد أن يقـول أنـا أنتظرك منـذ الأزل وإن حبـك نـزل في قلبـي ولم أسـتطع أن تخلـص منـه أو أصـده، وإني عشـت طـوال عمـري أبحـث عنـك.

لكن نظراتك لي تقول إنك تعرفني منذ زمن طويل.

- ربما لأنك كنت لغز واختفائك كان لغز وكنت أبحث عن حل.

- وهل حللت اللغز الآن؟

- أتصدقين أن كل شيء ازداد تعقيدًا أكثر من ذي قبل؟، وأستطيع أن أقول لك الآن أنك كنت بداية اللغز.

- ابتسمت هالة وقالت أنتا متزوج؟

- لا

- عندك كام سنة؟

- ٣٣سنة

- عارفة بسبب قضيتك انتي، تحولت من صياد طوال عمري إلى طريد

انزعجت هالة من ذلك التوصيف، لذا لم يكمل حسن لكنه نقل الكلام في اتجاه آخر وقال ممكن سؤال؟

- اتفضل

- هو احنا موجودين حقًا؟ هل ما أمر به الآن حقيقي؟ هل أنا معك الآن أم إنك فرضية عقلية؟

- أمسكت هالة يده ووضعتها في يديها وقالت بدلال أنتا حاسس بإيدي؟

- ثم مررت يده على وجه الأزهار وقالت هل تشعر بملمسها؟

- فقال نعم.

ويتصرف مباغت حملت يده من على وجه الزهر ووضعته على خدها.

- وقالت لا تخجل، تحسس وجهي.

- فراح يحرك أنامله وهو غير مصدق ما يحدث، إنها هي بملمسها برائحتها يا الله ما هذا الذي أنا فيه؟

- فقالت هل تشعر بدفء خدي؟

فأومأ برأسه إيجابا.

- فقالت إن كل ما تراه حقيقي على الرغم من أننا لسنا فيه بأجسادنا.

انتفـض حســن ممـا تقـول وبـدأت علامـات عـدم الفهـم عـلى وجهـه تظهـر فقرأتهـا هالــة بمنتهــى الســهولة.

- قالت بحماس واضح أنتا بتحس بالألم عن طريق جسدك ولا عقلك؟

- جسدي طبعًا.

- فقالت خطأ طبعًا.

- فقال خطأ.

- نعـم خطـأ لأن الجسـد مسـتقبل أمـا مفسـر الألم هـو العقـل وقالـت كيـف نـرى؟

- فقال نرى بالعين.

فقالــت لا لأن العينــين تنقــل المؤثــرات البصريــة إلى العقــل وهــو مــن يبــصر وكذلــك الســمع والشــم تنقلهــا الأعضــاء إلى العقــل الــذي يعيهــا ويفسرهــا.

ويبـدو أن حسـن قـد اسـتوعب مـا تقولـه فقـال إذن الجسـد هـو ناقـل للمؤثرات إلى العقل.

فقالــت نعــم هــو كذلــك فــما رأيــك إن اســتطعنا أن نوصــل تلــك المؤثــرات إلى العقــل دون المــرور بالجســد، هــل تســتطيع أن تقــول إن تلــك الأشــياء غــير حقيقيــة؟، صمــت حســن وقبــل أن يبــدأ رحلــة السرحــان في داخــل ذاتــه، قالــت إنــك تشــعر أن كل شيء حقيقــي رغــم أننــا لســنا بأجســادنا، لكــن هــل يمكــن أن تدعــي أنــه حقيقــي أو غــير حقيقــي؟

شعر حسن بضيق شديد.

فقالت إن شعورك بالضيق هو أمر طبيعي.

عندئـذٍ سـمعوا صـوت هولانـد ينـادي عـلى الجميـع استعدادا للعـودة وبعـد أن تجمعـوا ركبـوا المركبـة التـي تحركـت في عكـس اتجـاه الطريـق وتحركـوا مـن النـور إلى نفـق مظلـم ومـا هـي إلا لحظـات حتـى وصلـوا إلى الغرفـة التـي انطلقـوا منهـا، وقبـل أن يخرجـوا مـن المركبـة قـال هولانـد بـأداء مسرحـي:

سـأدعوكم غـدا إلى شروق في غابـات اسـتراليا ونيوزيلنـدا التـي لم يطلهـا يـد التخريـب حتـى الآن عـلى يـد العـالم الحديـث.

نظـرت هالـة إلى حسـن بابتسـامة وقالـت سأسـبقك إلى الغابـة غـدًا ونكمـل حديثـك الفلسـفي.

- لكن حسن لم يجبها وظل شاردًا إلى أن هزته.

فقـال أنـا أعـرف أنـك لم تتزوجـي لكـن جمالـك شيء مـن خيـال لمـاذا ظللـتِ كل تلـك المـدة دون زواج؟ أكنـت تنتظريـن فـارس أحلامك؟

- فقالت لا ببساطة لم يأت أحد إلى خاطبًا.

نظر بذهول إليها فقالت:

ببسـاطة السـيرة الذاتيـة لأهـلي كانـت تخيـف النـاس مـن الاقـتراب منـا، وقبـل أن يسـأل فتذكـر أنهـا مـن أسرة ضـد الدولـة، أسرة علمانيـة والعيـاذ بـالله فمـن يريـد أن ينشـئ أولاده بعيـدًا عـن تعاليـم الديـن متشربـين مبـادئ الكفـر، مـط حسـن شـفته مبديًـا تفهمـه لمـا قالـت.

فيه مشكلة كنت أريد أن أقول لك عنها وأرجو أن تسامحيني.

لم تنطق بإيجاب أو موافقة لكنه أكمل وقال:

لقد قرأت أجندتك التي تحتوي على مذكراتك.

شعرت هالة باشمئزاز ونظرت إليه بتجهم.

فقال حسن لا تغضبي مني كنت أبحث عن أي خيط يرشدني إليك تلك طبيعة عملي، قامت هالة من أمامه وقالت معذرة سألحق بالفريق لدي الكثير الذي أتعلمه منهم.

ظل حسن متابعًا لها إلى أن اختفت من أمامه، وقام هو إلى غرفته وشعر أنه كسحابة صيف خفيفة لكنها لا تطال السماء ولا ماؤها يروي الأرض.

شعرت هالة دون أن تلتفت بعيني حسن تراقبها. لا تدري هل كانت سعيدة أم غير ذلك لكن وجود حسن باعث لأسئلة كثيرة، ورغم أنه رجل أمن إلا أنه مضطرب النفس استنتجت أنه ربما تعرض لأحداث غريبة وعميقة على ما يحمله من معتقدات أو أن بداخله شيء ما يرفض ما هو عليه من حال، وقفت قبل أن تدخل من باب المعمل، وقفت لتمتص ابتسامة كان لها مذاقًا حلوًا، ربما كانت ابتسامتها وليدة إحساسها كأنثى بالاهتمام، اهتمام رجل بها غير طامح في جسدها، إن نظراته لها لا تصحبها عاطفة جنسية كان بإمكانها أن تفسر ذلك كأي أنثى تقرأ النظرات بمنتهى السهولة، وتلك فراسة وضعها الله فيها، وهي لم تقف لتتساءل إن كان يحبها أم لا لكنها وقفت للانتشاء بتلك النظرات ثم دخلت من باب المعمل.

كان حسن أيضًا قد وصل إلى غرفته، وكان يشعر بقوة في بدنه، ربما لأنه نام نومًا جيدًا بالأمس، لكن ما هي إلا لحظة من جلوسه على السرير حتى بدا ألم الذنب يظهر على وجهه. لماذا انتابه ذلك الألم؟، إن كل ما حوله كفر وربما هو اختبار من الله لقوة إيمانه وقام لسبب غير معلوم ليتفقد الحيطان، حيطان غرفته كانت ذات لون سماوي وضوء لا يدري ما مصدره وتيار هواء لطيف يحمل على فترات متباعدة طعم الفانيليا المختلط بالحليب المثلج فكان منعشًا ولا يرى له مصدرًا وطافت في رأسه العديد من الأسئلة حول الرحلة العجيبة التي عاد منها الآن.

ركب مركبة ثم أخبرته هالة أن جسده لم يفارق المركبة لكن روحه هي من تتحرك رغم أنه شعر شعورًا حقيقيًا بكل شيء حتى لمستها، والله هذا ليس من صنع بشر فمن يستطيع أن ينحت في الجبل بتلك الدقة؟ ليس هناك تفسير لكل ما حولنا حتى رجوع هالة من الموت إلا تفسير واحد أنهم يستخدمون

الجن وشعر بغصة في حلقه، ولم تكن تلك الغصة ناتجة من استنتاج لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه، لكن لأن حبيبته بدأت في اتباع طريقهم، هل هي تعلم وباعت دينها، هو يعلم علم اليقين أن شروط التعلم عند السحرة أن تخرج عن دينها وتكفر والعياذ بالله برب العزة وبكل ألم الدنيا من خوفه عليها قال هل كفرت هالة؟ هل أمنت عذاب الله؟، أم أنهم أقنعوها أنه نوع متقدم من العلم فصدقتهم حتى تنغمس، عندئذٍ سيعلمونها الحقيقة وعندها تكون قد انغمست في الكفر ولن تستطيع العودة إلى الله أم أنهم سحروها، عندئذٍ كان عليه أن يختبر ذلك فاستجمع إيمانه وتضرعه إلى الله وراح يتلو آيات فك السحر، وكانت المفاجأة أنه ما إن قرأ حتى رأي الحوائط تهتز، وتضرع إلى الله بمنتهى القوة من قلبه وهو يواصل القراءة أن يعطيه القدرة على إنقاذ حبيبته فهو لن يهدأ حتى يطرد الجن من هذا المكان وشعر مع الاهتزازات العنيفة أنه يمتلك القوة لفعل ذلك وجرى وهو يقرأ «ما جئتم به السحر إن الله سيبطله"

إلى الباب وكاد الباب أن يتحطم من حركة الحوائط يبدو أن بيوت السحر ضعيفة كبيت العنكبوت، فتهاوت مسرعة وكاد حسن أن يموت محتجزًا وضغطت الحوائط على الباب مغلقة إياه، لكنه استطاع أن يفتحه قبل أن يتحطم وخرج ومع خروجه جرى في اتجاه المعمل كان لا ينوي إلا على شيء واحد هو خطف حبيبته، والخروج بها، وإنه يعلم أنها لن تكون سعيدة لأنها تحت تأثير السحر وربما ستحضر قراءته العفريت الذي يلبس جسدها فيقاومه لكنه شعر الآن بمقاومة من قوى خفية تحاول أن تمنعه من الحركة والقراءة فراح يردد بكل ما يستطيع وبأقصى علو للصوت المصحوب باليقين من نصر الله "ا جئتم به السحر إن الله سيبطله» وراح يقاوم مخاوفه ويطرد وسوسات الشيطان من داخله وقلبه ضارع إلى الله كي يعطيه القوة.

يا الله يا الله نطق لسانه بها، و شعر أن هناك قوة جبارة تحاول أن تسكته تحاول أن تمنعه، وشعر أنه سيفقد الوعي، فقال يا الله يا الله اعطني القوة يا الله، كاد أن يصل إلى المعمل لكن قدرته على التنفس أصبحت صعبة والحوائط بعضها قد انهار خلفه لكنه قد قارب المعمل، إنه قد وصل يا الله يا الله شعر أن باب المعمل سيتحطم، استطاع في تلك اللحظات أن يرى ما بداخل

المعمل، إنه يراهم، شعر برغم القوة التي تعتصره أن الله معه فالحوائط التي صنعها السحر بينه وبين المعمل تختفي من تلقاء نفسها وشاهدهم في حالة فزع شديد فهو يراهم ورأي هالة وهي تتهاوى وتسقط مغشيًا عليها ففرح لأنه سيحملها لا أكثر ويرحل مبتعدًا عن هؤلاء السحرة، كاد أن يصل، وشعر مع اقترابه من معقل السحر أن قلبه يكاد يتحطم وقدرته على التنفس أصبحت منعدمة لكنه يقاوم من أجلها، يقاوم تلك الستارة وحائط الظلام الذي بدأ يغشي عقله وحاول أن ينطق وينادي يا الله لكن لسانه قد توقف وسقط أرضًا.........

كان الجميع يشاهد حسن منذ أن خرج من غرفته في كاميرات المراقبة وهو يجري فانتاب هالة شيء من الجزع والقلق عليه.

لكن بقية العلماء الموجدين في الغرفة لم يبد عليهم أي شيء وكأن الأمر عادي جدًا، وعندما سقط حسن قبالة الباب شعرت هالة بحالة من الخوف عليه فربت ستيف على كتفها كي يطمئنها وما إن وصل إليه هولاند حتى فحصه وبابتسامة قال لها لا تقلقي إن هذا ما يحدث عادة مع استقبال عقله لمؤثرات ليس مصدرها حواس الجسد فتنتابه هلاوس رافضة أو تقاوم المستقبلات الجديدة مثلما يفعل الجسد عندما يتم زراعة عضو فإنه عن طريق المناعة سيرفضه.

لماذا لم تحدث لي تلك الحالة؟

لأننا أعددناك لاستقبال تلك الأشياء وزودناك بمعرفة كثيرة وعلوم كثيرة،

وبعد أن أعطى حسن حقنة نقلوه إلى غرفته وقال هولاند سيصحو غدًا مستعدًا للخروج معنا في رحلة الغد.

اطمأنت هالة عليه وتركته مع دانتي الذي سيعد عقله لتقبل مستقبلات خارجة عن الجسد.

كان قطار الشروق يوشك أن ينطلق، كان الجميع في انتظار قدوم حسن مع ستيف لكن ولسبب لم تعلمه هالة كان التوتر باديًا عليها فحاول هولاند بابتسامته الرقيقة أن يطمئنها على الرغم أنها مرت عليه قبل نومها كي تطمئن عليه، عندئذٍ ظهر ستيف ومعه حسن في حالة من القوة لم تشي بما حدث معه بالأمس.

وصاح حسن هل ستنطلقون من دوني؟، شعرت هالة بحالة من الاستغراب لكنها اطمأنت أنه بخير وقابلته بابتسامة جعلت قلبه يتراقص فرحًا ولم يشأ أن يتحدث فيما حدث له بالأمس ولم يكن هناك وقت لذلك لأن هولاند صاح هل الجميع جاهزون؟ فردد الجميع بكل حيوية نعم جاهزون.

وقبل أن تنطلق المركبة مصحوبة بلحظات الصمت وأخر ما تبقى من صيحات هولاند، و كما هو الحال دائمًا الكلام المحتجز قبل الصمت والذي تريد أن تقوله في اللحظة النهائية، قالت هالة بسرعة كبيرة بصوت هامس متلاحق أقلقتني عليك واندفعت الدماء مع اندفاع المركبة واندفعت معها موجات الفرح في قلبه ولم يدر هل خروجه المختلف هذه المرة كان مصدرًا لأحاسيس الجمال التي تنتابه أم لأنه خروج مختلف فعلا، وكأنه صار ومضة مألوفة بين الظلام والنور.

حطت المركبة في قلب الغابة، وكان الوقت السابق مباشرة لاستعداد الشمس للخروج والجلوس على عرشها باعثة الحياة وكانت الغابة في حالة من السكون في انتظارٍ للحياة التي فقدتها مع الغروب، كان الجميع في حالة ترقب حتى أعضاء الفريق الهابط في الغابة، ولم تطل الشمس من تدللها لأنها تعرف أنها الوحيدة وتعرف أنها واهبة الحياة وبدونها فلا حياة على هذا الكوكب ونظرت هالة إلى قرص الشمس المتصاعد وكان حسن يتتبع نظراتها إلى قرص الشمس الذي بدا أنه شروق مختلف عما رآه من قبل فالشمس أكبر حجمًا، وبعد لحظات من الصمت بدأت النباتات تهتز سعادة بعد عودة الروح إليها ونشرت عطرها.

فقال حسن هامسًا لأول مرة أعرف مصدر نفس الصباح.كان الجميع في حالة انتشاء من السعادة.

وقال هولاند الآن سنفترق، أنتم أبناء الأرض وهي تدعوكم للمرح. أنا سأذهب إلى نيوزيلندا، أنتم أحرار من أراد البقاء هنا ومن يريد أن يكون معي له ذلك، نظرت هالة إلى حسن باسمة وقالت هل تريد الذهاب؟

فقال حسن هل ستبقين هنا؟ فقالت نعم، فقال سأبقى معكِ.

فقالت تعالى معي سنتنزه في نهر موراي عند التقائه بنهر دارلنج أعتقد أنه سيثير الجمال بداخلك.

دهش حسن من معلوماتها فهو لم يسمع عن تلك الأنهار يومًا ولا يعتقد أنها سافرت إليها ذات يوم، وملفها لا يحمل تلك المعلومات،على كل أنا معك.

أومأ حسن موافقًا لكن كيف سنذهب قالت إننا لسنا بعيدين عن النهر وسنكمل طريقنا سباحة فقال أنا لا أجيد السباحة،اِستغربت من قوله رجل أمن ولا يعرف السباحة كان لسان حالها يقول ذلك، فقال أمضيت سنوات عمري كلها وكانت السباحة أكبر مخاوفي، ولا أقترب من الماء إلا بما تقتضيه الضرورة ونحن لسنا صيادين حتى نختلط بالماء، أما أمر التنزه على الشواطئ في الصيف فقد كانت عادة أبطلها مولانا الأمام، لكن أين تعلمت السباحة؟

أنا لم أتعلم السباحة، وما هي إلا لحظات حتى وصلوا إلى الشاطئ، شاطئ نهر موراي ومع تبدي الشاطئ ظهر أيضًا زورق وكان بداخله مايوه لكل منهم فقالت سأرتدي المايوه الخاص بي خلف الشجرة، وأنت ارتدى مايوهك في الزورق وما أن انتهت حتى عادت إلى الزورق وكانت أشعة الشمس تنعكس على جسد حسن البرونزي اللون فاختلطت الأشعة بعضلاته المفتولة فبدا كواحد من محاربين مصر القديمة وكانت تبدو هي كأنثى تامة الأنوثة بجسد ممشوق مرسومة مفاتنه بريشة فنان فما تراها وإلا تقول سبحان من أبدع بيديه هذا الجمال اللامتناهي. وقف حسن للحظات أمامها مفتونًا وانتبه إلى ابتسامتها الرقيقة وقال متسائلاً:

- من أين أحضرتم تلك الأشياء هل أحضرتموها مسبقًا؟

- فقالت لا إنها هنا منذ أن تحركنا في اتجاه النهر.

- لم يفهم أو لم يستوعب ما قالت.

- فقالت إننا من يصنع هذا العالم.

- فقال هل تلك الغابات ليست موجودة أو وجودنا فيها غير حقيقي الآن؟

- فقالت إطلاقا إننا بالفعل في غابات استراليا حقيقة لكن بإمكاننا أن نضيف إليها بعض الأشياء.

- ركبا الزورق وتحرك حاملاً إياهم.

- قال لها حسن هل هذا الماء حقيقي؟

اغترفت بيديها بعض الماء ونثرته عليه وحاول أن يداري وجهه لكن رزاز الماء قد وصل إلى وجهه وجسده فشعر بقشعريرة وقبل أن تصل يداه للماء لكي ينثر بعضه عليها كما فعلت، كانت قد انسلت داخل الماء دون أن تحدث صوتًا من الجهة الأخرى، وعاد حاملاً الماء لينثره عليها، لكنه لم يجدها. بحث عنها في الماء لكنه لم يجدها، راح يراقب النهر متنقلاً بعينيه بين أمواجه وضفافه لعل جسدها يظهر فيلتقطه، ومع تلك الأفكار شعر بالرعب عليها وصار تجوال عينيه أسرع وأكثر اضطرابًا فقد كان يدرك أنها حتمًا لا تعوم ولا توجد امرأة في مصر تستطيع السباحة، واقشعر جسده مرة أخرى نتيجة رزاز الماء المتناثر عليه الآتي من خلفه فالتفت فوجد عروس النهر مبتسمة وتسبح برشاقة جميلة.

- فقال أنا لم أرَ امرأة في مصر تجيد السباحة أين تعلمت ذلك؟

- فقالت إنه أول يوم لي في السباحة.

نظر إليها غير مصدق، لكن قسمات وجهها لا تبوح إلا بصدق حديثها وأنها لا تدعي، وكان عمله كرجل أمن يوفر له الخبرة اللازمة في معرفة إن كان من أمامه يكذب أو أنه صادق، كان يعرف دون استخدام جهاز كشف الكذب وهو يعلم صدقها الآن لكن سباحتها مبهرة كمن تعلمت السباحة منذ زمن بعيد.

- وقال هذا غير حقيقي.

- فقالت له انزل.

- هغرق.

- انزل هتعوم.

- تردد حسن فقالت أنتا خايف من الموت؟

صمت حسن للحظات وكرجل شرقي لا يريد أن يهزم أمام امرأته حتى لو كلفه ذلك حياته فرمى بنفسه في النهر.

لكنه بالفعل لم يستطع السباحة فغرق وتتابعت ضربات يده ورجله في الماء بكل عنف وبشكل غير منتظم ومع شعور بالاختناق تزداد عشوائيته أكثر وراح يتجرع جرعات من الماء على غير إرادة منه وغاص بسرعة للقاع وغاصت هالة خلفه ونجحت في التقاطه ثم جذبته وبمنتهى السهولة وأخرجت رأسه من الماء فزفر زفيرًا شديدًا وبدأ يسعل محاولاً إخراج بعض الماء الذي نجح في الدخول إلى الرئة، ثم وضعت يديه على الزورق فتشبث به وحاول أن يخرج لكنها بحركة رقيقة منعته فوضع رأسه على الزورق وكانت تلك أول مرة في حياته يختبر ماء النهر أو البحر وشعر بخفة جسده على الماء فسكن قليلاً وهدأت أنفاسه ومع هدوءه حمله الماء أكثر وأكثر فقالت له نظم حركات ساقيك ومع تنفيذ ما قالت شعر أن الماء بدأ يستجيب له أكثر وأكثر.

- فقالت عليك أن تؤمن أنك تستطيع العوم.

نظـر إليهـا وقـال تطلبـين مـن رجـل في يومـين وجـد كل مـا يؤمـن بـه عـلى المحـك وصـار متشـككًا وشـاكًا في كل شيء حتـى وجـوده!

فقالـت عليـك أن تؤمـن أنـك تسـتطيع، ونظـم حركـة يـدك مـع قدمـك وستسـتطيع هـذا كل مـا فعلـت أنـا.

بـدت عـلى وجهـه علامـات التصديـق فاقتربـت منـه برفـق وحـررت يـده فلـم يقـاوم ثـم تركتهـا فغـاص مبـاشرة لكـن الغريـب أنـه لم يحـرك يديـه أو رجليـه فأدركـت أنـه لم يؤمـن إيمانًـا مطلقًـا بـما تقـول فالتقطتـه، لكـن الـزورق كان قـد ابتعـد بفعـل سرعـة الأمـواج المتزايـدة فاحتضنتـه واقـترب مـن جسـدها وشـم أنفاسـها في تلـك الأثنـاء لم يحـرك لا قدمًـا ولا ذراعًـا، إنـه كان في حالـة سـكر، لم يعـد خائـف مـن المـوت.

وشـعر بلـذة الحـب، وإن أكـن منصفًـا فقـد تذوقهـا بفمـه الآن، لـذة لا تنبـع أبـدًا مـن أحاسـيس جنسـية فهـو راهـب في محـراب الحـب تتلـذذ كل خليـة مـن خلايـاه المتحـدة مـع الوجـود اتحـادًا مشـوبًا بالأمـل، بالقلـق، بالخـوف، بالرجـاء، بالسـكينة، أنـه الآن يشـارك ذرات الأرض روحهـا أنـه في وحـدة مـع الوجـود وصـار جسـده أكثـر خفـة فقالـت فأنصـت فخـرج مما هـو فيـه والتفـت إليهـا وشـعر هـو أن المـاء قـد حملـه أكثـر وأكثـر فقـال هامسًـا أشـعر أن المـاء يحملنـي أكثـر مـن ذي قبـل.

فقالـت حـرّك زراعيـك بانتظـام مـع قدميـك وبرفـق ولا تجعـل الأرض تَشـعر أنـك نشـاز فيهـا فتتخلـص منـك.

- تَشعر الأرض! هل تشعر الأرض؟ هل هي حية؟
- فقالت بحماس طبعًا أمنا الأرض حية وتشعر بنا.
- قال حسن كيف تكون حية؟
- فقالت هالة هذا يعتمد على تعريفك للحياة.
- فقال حسن هل هناك تعريف غير الذي نعرفه عن الحياة؟
- فقالت قل إذن ما الذي تعرفه..

- فقال حسن ال...............

وصمت وشعر أنه في ورطة لأنه اكتشف أنه لا يعرف معنى الحياة ولأول مرة يفكر في شيء كهذا.

فقالت إن هذا السؤال شديد الصعوبة، وكثير من الفلاسفة قد حار في معنى له لكنني أقتنع بتعريف أبناء غايا للحياة.

- فقال بتلهف قولي لي..

- فقالت التنظيم.

- فنظر غير مقتنع وقال بتعجب، التنظيم!

نعم التنظيم وقالتها بشكل قاطع فالجزيئات العشوائية عندما تنتظم يصبح لها معنى آخر وهذا نصف الحياة، النصف الآخر أن هذا الجزء المنتظم إن استطاع تأمين مورد دائم للطاقة فسوف يستهلكه وذلك للتغلب على القصور الحراري.

فقال كدتُ أن أفهم، لكن مع قولك القصور الحراري طار من ذهني كل ما تقولين فأنا لا أفهم ما معنى القصور الحراري للكون.

فقالت ربما يكون شرحه صعبًا وخاصة أنه يرتبط بالفيزياء.

فقال لقد كنت أحب الفيزياء والرياضيات في الثانوية، فنظرت إليه باستغراب وكأنها تستنكر ما تسمع ولسان حالها يقول فما الداعي لسلوكك طريق الأمن هذا وترك طريق العلوم!

فقال بأسى، أحلام قديمة، تفهمت هالة ما يقول وراحت تكمل.. انظر إلى الفيروس، فهو المتنقل بسهولة بين الحياة والموت هو تنظيم من الأحماض الأمينية. هذا التنظيم عندما يستطيع تدبر مصدر الطاقة وهو العائل يصير حيًا وتُبدد منه الطاقة في عمليات عديدة مثل الانقسام والأيض لكن وجود مصدر الطاقة يعطيه استمرارية الحياة، أما عندما لا يكون هناك عائل له فإنه يتحول إلى تنظيم ليس لديه طاقة وذلك منتصف الطريق للحالة الحية.

استعجبَ حسن من حديثها وقال إذن السيارة هي كائن حيّ، بمعنى عميق ربما، لكن السيارة ليس لديها إرادة الحصول على الطاقة.

شعر حسن بحيرتها فأراد أن يزيد من ارتباكها وكأنّ شيئًا داخليًا يجعله سعيدًا بارتباكها، فقال من هذا المنطلق بإمكاننا القول إن الأرض هي الأخرى حية.

لكنها جاوبت هذه المرة بحماس كبير، نعم إنها حية، ونحن أبناؤها، كل المخلوقات أبناؤها، فمن رحمها خرجنا وإلى جوفها نعود لكنها لسببٍ ما، تكره الخائفين، لذا يجب أن تعرف كيف تكون شجاعًا.

أثارت انتباهه تلك الكلمات.

فقالت إن الأرض تشعر بخوفنا عندما تشعر بعدم تناغمنا معها، فالخوف يولد حركات غير منتظمة، تلك الحركات تعني الخوف، فتخاف علينا فتستعيدنا في جوفها وهذا ما نطلق عليه الموت، هو بالنسبة لنا الموت لكن بالنسبة لها هو الاستعادة أما عندما نتناغم فتصبح حركاتنا منتظمة متناغمة، فلا تموت حتى ولو كنت بين فكي قاتل، وقالت انظر إلى الماء، اشعر معه بالتناغم، لا تخف، حرر يديك، حرر عقلك، اشعر بالتناغم مع الماء ستجد يديك ورجليك يتحركان بهدوء وانتظام، ستجد الماء يحملك، رغم أنك تستهلك طاقة أقل، إلا أنه سيحملك، أما عندما تخاف ستفقد التناغم مع الماء وستجد أن حركاتك صارت عشوائية غير منتظمة ورغم أنك تبذل جهدًا أكبر إلا أنك لن تحيا، فلن يحملك الماء.

فقال تقولين لي أن أقف أمام أسد غير خائف ولن يأكلني؟

فقالت بكل حزم نعم وبكل حزم قالت لا تخف.

حاول حسن أن يقنع نفسه أنه لا يخاف من الماء، شعرت هي بطمأنينة فحررته شيئًا فشيئا وقالت دع جسدك يتحرك فهو يعرف ما يجب أن يفعل، لا تفكر.. وبهدوء تركته بعدما اطمأنت إليه.

فعـلاً سـبح، حملـه المـاء وكلتـا يديـه ورجليـه تحركتـا بانتظـام دون أمـر منـه، إنهـما يعرفـان مـا يجـب فعلـه، سـاعده تيـار المـاء عـلى تقليـل الجهـد المبـذول فشـعر بشـعور طائـر يتعلـم الطـير أول مـرة ويعانـق جناحـاه الهـواء الطلـق، إنـه يسـبح مثلـه في الفضـاء ومـع زيـادة سرعـة التيـار وتطايـر الـرزاز واختلاطـه بالهـواء، راح حسـن يستنشـق الهـواء الرطـب الـذي كان بطعـم ريـح زهـر الليمـون ومـلأ رئتيـه واستنشـق، فشـعر أنـه يتنـاول إكسـير السـعادة، فـراح يـصرخ سـعادة وفرحًـا فسـبحت هالـة عـلى ظهرهـا كـي تشـاهد مظاهـر الفـرح، فقلّدهـا وسـبح عـلى ظهـره فوجـد أنـه صـار أخـف وجهـده صـار أقـل وزاد اسـتمتاعه أكثـر وأكثـر. شـاهد الشـمس وشـعر أنهـا تبتسـم وتشـاركه الفـرح.. انقلـب عـلى بطنـه، حمـل بعـض المـاء فـوق راحتـه ونثرهـا عـلى هالـة التـي بادلتـه فعـلاً بفعـل، فشـعرا بسـعادة وجمـال ثـم أراد أن يأخـذ المبـادرة فاسـتخدم سـاعديه حتـى يسـبقها، وبعـد لحظـات تجاوزهـا لكنهـا لم تلحـق بـه بـل ناغشـته في السـباق حتـى يتـذوق انتصـاره، وراحـت تتأمـل ضفـاف النهـر وبـين الحـين والحـين تنقـل نظرهـا إليـه حتـى تطمئـن عليـه وتعـود لضفـاف النهـر مـرة أخـرى ثـم تعـود إليـه، ووجدتـه بعـد لحظـات يسـبح وهـو غـارق في أفـكاره، إنـه اعتـاد الأمـر وعـاد ليفتـش داخـل ذاتـه وإلى أسـئلته، ووجـدت أن المـاء قـد زاد مـن سرعتـه بشـكل كبـير فعلمـت أن هنـاك أمـرًا فأسرعـت للحـاق بـه وقالـت، حسـن اسـتعد للمغامـرة.

نظـر إليهـا بابتسـامة عريضـة وتسـاءل عـن المغامـرة، وقالـت إننـا نقـترب مـن الشـلال وأمسـكت بيديـه وأمسـك بيدهـا وصرخـا بصـوت مختلـط، بصـوت الشـلال الهـادر وطـارا في الهـواء، فاختـبر شـيئًا آخـر وقـال لنفسـه إن لم يكـن هنـاك متعـة في الحيـاة غـير هـذه اللحظـة، سأشـكر الله عليهـا، إنهـا قمـة النشـوة الحِسّـية التـي عاشـاها وقليـل في الحيـاة مـن يتذوقهـا، إنهـا لحظـات تعنـي الحيـاة، عندئـذٍ اصطدمـت أقدامهـم بسـطح المـاء فـتركا جسـديهما ليتناغـما مـع الطبيعـة فانسـلّا داخـل المـاء بسلاسـة كبـيرة، فذاقـا متعـة تُضـاف إلى لـذة المتعـة التـي كان يشـعر بهـا.

ومـا أن أخرجـا رأسـيهما مـن المـاء حتـى ابتسـما ابتسـامة مختلطـة بالصيـاح وشـعرا دون اتفـاق بحنـين إلى الأرض، فاتجهـا إلى الشـاطئ ولامسـا بقدميهـما الشـاطئ في نفـس الوقـت، ثـم رميـا بجسـديهما تحـت أشـعة الشـمس.

ووضعت ذراعها على جبينها وأطرق هو لصوت الغابة وسمعها وشعر أن حديثها مألوف ولا تستطيع أذنه أن تنكره، ما كل هذا الجمال في الحياة، ونظر إليها بعينين يملؤهما الحب والامتنان والشكر لها فتبسمت وقالت هيا لكي نرتدي ملابسنا، وأشارت إلى الزورق الخاص بهما وقد قذفه الموج إلى الشاطئ، وقبل أن تقوم قال لها..

"إن الحديث مع المختلفين عني رغم أنه يحطم أشياءً بداخلي، إلا أنه يشعرني بلذة لا أعرف مصدرها" تدفعني دومًا دون إرادة لاستثارة المختلف حتى أشعر بمزيد من اللذة، فهل أنا مازوخي؟»

تبسمت وصمتت قليلاً ثم قالت هيا، سأريك جنة عدن علينا أن نرتدي ملابسنا أولاً، واتجها إلى الزورق، فقال مازحًا هل هناك جنة أخرى غير التي نعرفها ؟

فقالت أمنا الأرض هي الجنة، ونيوزيلاند هي تحفتها.

هل بإمكاننا؟ فقالت نعم سأستدعي هولاند وما هي إلا لحظات حتى ظهرت المركبة وقابلهما هولاند بابتسامة تدل على الاستمتاع، ركبا وانطلقا وما هي إلا لحظات حتى أسقطهما هولاند وسط الغابات، انزلا في الجنة، كانت كلماته قبل أن يسقطا، كانت الغابات والأشجار في حالة من الجمال فبدت وكأنها تتغنى بألوانها المختلفة والزاهية وملاحظة حيواناتها الجرابية المختلفة عن حيوانات القارات الأخرى، ثم ذهبا إلى المحيط لملاحظة الغروب، غروب الشمس واختفائها داخل المحيط مع وعد منها بالعودة ومعها إكسير الحياة، وكانت الغابة توشي بأنها ستستريح الآن استعدادًا للحياة غدًا مع أول ضوء للشمس، فلا تحتاج إلى من يزعجها الآن، نظر حسن إلى الشمس وهي تنزل مبتسمة داخل الماء مودعة له، فقال حسن طوال عمري، لم أشعر بتلك السعادة وأشعر الآن أن ما كنت أشعر به طوال عمري من سعادة كان شعورًا زائفًا ثم أكمل متفلسفًا بابتسامة.. يبدو أن السعادة شعور جماعي ولن تحدث إلا بالتناغم بيننا وبين كل ما حولنا من أبناء الأرض والأرض نفسها وابتسم وقال أليس كذلك؟

ضحكت ثم قامت ووقفت بملابسها الواسعة الفضفاضة فاتحة ذراعيها محاولة احتضان آخر نفس للشمس قبل اختفائها.

ووقف حسن خلفها يلتمس ما تلتمس، فبدا كعاشقين يؤديان صلاتهما في محراب اللذة، ولم يقطع صلاتهما الممتدة مع الأرض غير صوت هولاند مؤذِننا بالرحيل ومع جلوس الجميع نظر هولاند إلى العاشقين وقال غامزًا بعينيه سنكون في الأمازون غدًا.

كان الجميع في حالة من التعب والإعياء فقال هولاند سنستريح قليلاً ونعود لتناول العشاء، رأت هالة أن في ذلك فرصة للراحة والاستحمام لكنها قضت معظم وقتها في التفكير في حسن. وسألت لماذا يشغل بالي وأهتم به «لا لا لا أنا لا أحبه" لكن هو شخص ينقلب بسرعة من النقيض إلى النقيض بسرعة كبيرة، هناك أشياء داخلية تسبب له صراعًا دائمًا، وخوفًا لا يستطيع أن يصارح نفسه به، هو غير مقتنع بكل ما يحمله وعيه من قيم، لكنه خائف من أن يفتش داخل نفسه يريد أن يستمر في إيمانه بها، وما أن يقترب هو من تلك النقطة ربما يصبح وحشًا مسعورًا ينكل بمن استثاره خوفًا من أن يوقظ تلك القلاقل عنده أو إنه يتحول إلى النقيض في محاولة للهروب، لا أعتقد أن هذا سبب اهتمامي به، هل لأنه يشبهني! فهو الشرقي الوحيد هنا أم تراني أشفق على بؤسٍ مسّه وكان يمسني من الجهل وعدم المعرفة قبل التحاقي بهؤلاء! فما وضع في رأسي من معرفة بطريقتهم فاق ما تعلمته طيلة حياتي حتى دراستي في الخارج، أشعر وأن عقلي انتقل إلى مستوى من الإدراك والمعرفة لا أعي كيف وصل إليها في مدة قصيرة جدًا، أتمنى أن يشاركنا حسن لأن العلم لديهم متاح لكل البشر حتى وإن كانت خلفيته أمنية، فإن فلسفتهم هي "العلم والمعرفة حق الإنسان، والحياة حق كل أبناء الأرض"، فلا علم تختص به الدول الكبرى دون غيرها أو أبحاث خاصة بالدول الكبرى دون غيرها، العلم حق للجميع فلا أسرار فيه، المصادر المفتوحة والقنوات المفتوحة، ما أعظم الغاية! إنها ليست الاهتمام بالإنسان فقط إنها الأرض وكل ما على الأرض، إنها إرث مشترك لكل الكائنات، ليت حسن يدرك ذلك.

أنهى حسن استحمامه ثم أوى إلى سريره لينال قسطًا من الراحة، لم يستطع أن يكبح ابتسامة المتعة التي يشعر بها وراح يفكر في اللحظة التي مسّ جسده فيه جسدها. وسأل نفسه لماذا لم ينتصب ذكري كما كان ينتصب عندما أقترب من النساء، وعلى الرغم من أني كنت أعرفهم كان ينتصب من مجرد الحديث معهم بصوت خافت أو أشعر بنعومة تلك المرأة، كنت أشعر باهتياج شديد، أما الآن أشعر بلذة فاقت بكثير جدًا لذة الجنس، لذة الملائكة، أستغفر الله العظيم.. شعر بغضب من نفسه لأنه ذكر اسم الملائكة في شيء كهذا، لكن هؤلاء القوم هم ملائكة،....... أم أنهم.. وصمت لحظة.. هناك شيء مقلق من هؤلاء، هل يتم خداعنا أنا وهالة، ربما يكون العالم قد تقدم فعلاً تقدمًا مذهلاً وتكون تلك طرق خداع حديثة، لكن ما الذي يريدونه منّا إن كانوا يخدعونا؟ سؤال ذكي فقد حصلوا على الخاتم، هل يريدون أن نكون في محيط مولانا عندما يعود إلى الحياة؟، ربما تكون تلك هي الفائدة الوحيدة، مطّ شفتيه، لا يهم، لكن ألا يمكن أن يكون هؤلاء جزءًا من الاستعمار الغربي المُعادي للإسلام وأنهم ليسوا في عداء مع الغرب وأن ما يُحدّثونا عنه في أنهم يريدون خيرًا للعالم وأنهم ضد تلك الحكومات الغربية التي تخدع شعوبها أيضًا، إنما هم عملاء لها وأننا دون أن ندري سنكون سببًا في هدم الدين.

شعر بانقباض شديد في صدره وشعر بحيرة شديدة فقام من مقامه ثم اتخذ قرارًا واتجه إلى غرفة الطعام في انتظار مجيء هالة، كان قلقًا، هكذا رأته هالة من بعيد، لاحظته دون أن ينتبه لها، اقتربت منه مبتسمة وقالت هل أنت جائع؟

- قال لا.

- قالت إذن لماذا جئت مبكرًا؟

- قال هل أنتِ جائعة؟ قالت لا.

- قال لماذا جئتِ مبكرة، لماذا لم تأخذي قسطًا من الراحة؟

- لم تستطع أن تبوح لماذا جاءت مبكرًا، فصمتت.

- فقال حسن ألا تعتقدين أن ما يقوم به أبناء غايا هنا في مصر على درجة عالية من الخطورة على مصالح العالم المتقدم؟

قالت صحيح لأن الحكومات الحالية لا تريد ذلك.

- قال إذن لماذا نحن في أمان شديد؟ ألا يوجد أجهزة استخبارات تبحث عنا؟

- ضحكت هالة وقالت ألم يدمروا المغارة من قبل؟

- فقال حسن أي جهاز أمني ليس لديه تأكيد مطلق.

قالت إنه تم تجهيز المغارات واستخدام أجهزة تمويه حديثة لخداع للأجهزة الأمنية منذ أعوام مضت، لذلك أنت تشعر بأمان الآن.

فقال هناك احتمال يجب أن تضعيه في حسبانك، واقترب منها هامسًا وقال ألا يمكن أن يكون ذلك مؤامرة ويكون هؤلاء جزءًا من أجهزة استخباراتية عالمية وتابعين للصهيونية العالمية والماسونية؟

فقالت بضجر وضيق، مؤامرة! طوال سنوات عمري لم أسمع غير تلك الكلمة وطوال عمري وعمر أمي لم نسمعها إلا عندما يكون هناك شرٌّ يريد الحاكم أن يفعله أو أمر خطير يريد الحاكم أن يخفيه، سيدي لو كانت هناك مؤامرة لكنتم أنتم المؤامرة، لقد أجهضتم حراك وطن نحو المستقبل.

أراد حسن أن يقول شيئًا وأضحت نظراته أكثر قلقًا فعقله يكتشف زيف الحقيقة التي عاش طوال عمره يدافع عنها ويعتبرها الحقيقة المطلقة، هو الآن يقاوم.

وشعرت ببعض القلق لأن بعض العقول وحتى التي تعتبر نفسها ذكية، عندما تكتشف زيف القضية التي عاش طوال عمره يعتنقها ويعتبر نفسه خط دفاع أول لها ويكتشف أن الواقع مخالف تمامًا لما كان يعيشه في الماضي، ولا تستطيع القفز إلى المستقبل عندئذٍ تميل إلى التخلص من الحاضر، وتصبح في عداء شديد معه، حتى لا يبقى أمامها إلا أن تعيش فيما اعتادت عليه.

فقالت عليك أن تهدأ قليلاً دع الأيام تثبت لك أن ما نفعله ربما يكون صوابًا فلا تستعجل الأمور إنها ليست مؤامرة، ثم ابتسمت وأكملت، ألا

تريـد أن نتعشـى سـويا؟

- فقال لست جائعًا، سأذهب إلى الغرفة كي أستريح قليلاً.

- فقالت وأنا سأذهب إلى المعمل.

شـعر حسـن وهـو يتركهـا بعنـف ضربـات قلبـه فالتفـت إليهـا، كانـت تراقـب خطواتـه وابتسـمت فشـعر بفـرح وسـعادة بالغـة.

دخـل غرفتـه فجلـس ثـم اتـكأ عـلى سريـره منتظـرًا العشـاء، شـعر أن الدقائـق تمـر بتثاقـل شـديد عـلى قلبـه، نظـر في الغرفـة وكأنـما يراهـا لأول مـرة فقـد اكتشـف مكتبـة عـلى هيئـة أرفـف زجاجيـة أو مـادة شـفافة شـبيهة بالزجـاج تحمـل فوقهـا كتبًـا، متـى وضُعـت! لم أشـاهدها بالأمـس، اقـترب حسـن مـن رف الكتـب، بعضهـا يعرفـه فقـد قـام بإحراقـه، حـاول أن يلتقـط كتابًـا وتراجـع عـن تلـك الفكـرة، حـاول أن يجلـس وجلـس لكنـه قـام مـرة أخـرى إلى المكتبـة عندئـذٍ التقطـت يـده كتـاب يسـمى أسـطورة الإطـار لفيلسـوف العلـم كارل بوبـر، تذكـر ذلـك التذييـل لاسـم الفيلسـوف عندمـا كان يحـرق أحـد كتبـه ونـادى الرجـل، أرجـوك لا تحـرق ذلـك الكتـاب إنـه لفيلسـوف العلـم كارل بوبـر، لكننـي حرقتـه، هرطقـات كلهـا، قـرأ أول صفحـة وأسـلمه للـذي بعدهـا وشـعر أنـه بـدأ يتحسـس طريقًـا آخـر غـير الـذي اعتـاد عليـه فهـو يواصـل القـراءة دون تأفـف.. لمـاذا؟

فهـو لم يكـن يسـتطيع أن يديـر دفتـي الكتـاب حتـى أنـه كان يكرههـا ويشـعر بشـعور منفـر وهـو يحملهـا، لكنـه الآن يبحـر فيهـا.

سـمع حسـن دوي انفجـار عنيـف، شـعر بارتجـاج الجبـل مـن حولـه، فخـرج مسرعًـا مـن غرفتـه ليستكشـف الأمـر ويـرى هالـة، فوجدهـم يهرولـون مـن المعمـل في اتجـاه غرفـة الطعـام.

مـرت لحظـات مـن الصمـت ثـم دوى انفجـار آخـر كان أقـرب وأشـد فاقتربـت هالـة غريزيًـا مـن حسـن الـذي وضـع يـده عـلى كتفهـا غريزيًـا ونظـر حسـن إلى هولانـد الـذي بـدا عليـه قلـق كبـير.

- فقال حسن هل اكتشفوا أمرنا؟

- فقــال هو لانــد لا أعتقــد ذلــك لأنهــم لــو اكتشــفوا أمرنــا لــكان هنــاك إصابــة مبــاشرة

- لكنهم قريبون.

- فقال حسن هل سيتحمل الجبل؟

- فقــال هو لانــد إذا أصابتنــا تلــك الصواريــخ إصابــةً مبــاشرة فقــد نمــوت لأنهــا خارقــة للصخــور.

- فقالت هالة قلقة، أليس لدينا أي خيار إلا انتظار الموت؟

- فقال حسن هل من الممكن أن نستعلم الأمر؟

- فقال هو لاند كيف؟

فقــال حســن أن تتصلــوا مــع مجموعتكــم في الخــارج، ربــما يكــون لديهــم أيــة إجابــة، ابتســم هو لانــد، ســيكون صاروخًــا محمــلاً بالإجابــة لأن أي تغيــير في المجــال الكهرومغناطيــسي أو الحــراري هنــا سيكتشــفونه. وربــما كانــت رســالتنا القصــيرة لمجموعتنــا الأم عــن الحامــض النــووي لمولانــا هــو مــا كشــف أننــا ربــما نكــون أحيــاء، فتــم التعامــل معنــا الآن.

دوي انفجــار أكــبر وأقــرب جــدًا، وكان أقــرب للمعمــل مــن غرفتهــم تلــك فجــرى هو لانــد مسرعًــا لكــن لم يتبعــه أحــد وبعــد لحظــات مــن الترقــب والانتظــار وابتعــاد دوي القنابــل عــاد هو لانــد مبتســمًا وقــال مــا زال مولانــا بخــير ولم يتــضرر المعمــل.

فرح الجميع لكن فرحة هالة كانت أكبر بكثير وقالت حمدًا لله.

ومــع ابتعــاد أصــوات الانفجــارات ظهــر الاطمئنــان عــلى الجميــع فدعاهــم هو لانــد لتنــاول العشــاء.

بدأوا في تناول طعامهم لكن الصمت كان يلف الجميع على غير العادة فلا أسئلة مثارة أو أشياء يتحدثون عنها وكأنهم في انتظار سقوط صاروخ فوق رؤوسهم، لكن ستيف قطع الصمت قائلاً.. هناك خطب ما في القاهرة، فنظر الجميع إليه باهتمام وكأنهم في حالة انتظار لمن سيتكلم، فقال متداركًا، يبدو أن ما قاموا به عملية تنظيف لا استهداف، وإشارتنا إلى أبناء غايا لم يكتشفوها، وأنهم يقومون بإغلاق مخارج ومداخل الجبل.

- هل هناك احتمالية أنهم أغلقوا المنافذ جميعها؟

- قال ستيف ربما.

- فقال حسن أليس لديكم مخرجًا سريًا؟

- فقال ستيف لدينا بالطبع لكن ربما يكون قد تضرر مصادفة.

- فقالت هالة أليس لديكم طريقة لاكتشاف ذلك؟

- فقال هولاند أي حركة خارج المحيط حتى وإن استخدمنا تكنولوجيا التخفي يعرضنا لخطر كبير قبل أن ننتهي.

- فقالت يجب أن نتحرى كي لا نضيف للمعذبين معذبًا جديدًا.

- فقال هولاند لن نغامر الآن، لدينا ثمانية أيام لا أكثر ونرحل وحتمًا سنجد طريقًا للخروج وتكون مغامرة واحدة لتقليل المخاطر، اطمأن حسن لهذا الرأي لكن هالة لم تطمأن.

- قال حسن ما الحدث الذي ترجح حدوثه في القاهرة؟

فقال إن مصر على شفى حرب أهلية، ربما بدأت ويبدو أن الأسطول الأمريكي سيتابعها باهتمام، لأنهم يريدون تغيير النظام القائم، بنظام آخر وفي أثناء وصول النظام الآخر حتى تضمن ولائه أو على أقل تقدير يكون ضعيفًا، لذا ستحدث فوضى تستهلك الكثير من الوقت ونظرتكم إلى المستقبل وهي تعلم ما نفعل ولديها احتمال بالطبع أن نصل إلى ما نريد وخاصة بعد حصولنا على الحامض النووي لمولانا فهي لا تريد أن يلتفت أحد إلى حسن البنا وأفضل طريقة هي الفوضى.

فقالت هالة لم نسمع عن أي قلاقل في مصر فكلها لون واحد.

فقال هولاند هذا صحيح ولكن كانت الإدارة العامة في أمريكا في غاية الذكاء في التخطيط، لذلك فهي قد دعمت جنرالاً منشقًا في أقصى صعيد مصر يحمل منهجًا صوفيًا، دعمته بعتاد قوي، حتى يستطيع أن يغير بالقوة نظام الحكم الحالي، وكان الذكاء أن يتم ترتيب ذلك في الصعيد حتى يكون بعيدًا عن أذرع الدولة الأمنية حتى لا يتم وأد التجربة ليبني جيش الخلاص.

- قال حسن مستنكرًا لقد قابلته وهو ليس عميلًا.

- فقال ستيف إنه ليس عميلاً لكنه يفعل ما يريدونه في مخططهم.

- فقال حسن محتدًا إنه يريد التقدم ويرفض ما نحن فيه.

- فقال ستيف يا صديقي كثير من المصائب تتم بحسن نية وغياب العقل.

- غضب حسن وقال مولانا الجنرال من أعقل الناس.

فقال ستيف سيدخل حربًا وهو لا يمتلك أدواتها وهي السلاح فكل ما لديه جيد ليبدأ حربًا، ويستولي على عدد من المدن لكن هل سيستطيع أن ينهي الحرب، إنه لا يمتلك القوة لفعل ذلك، وخاصة أن أمريكا ستعطي السلاح للجانبين حتى تطيل وقت الحرب والفوضى في وقت أنتم في حاجة لكل ثانية وكذلك استنزاف لثرواتكم ودماء كثيرة سوف تراق وأراوح تزهق.

- فقال حسن ربما ليس هناك طريق آخر.

ضحك ستيف، أليس ما نفعله طريق مختلف، لكن أبسط الأفكار لدى الإنسان هي إعلان الحرب لتغيير الواقع.

- وهل تتوقع أن ما تفعلونه سينجح وسيغير الواقع.

قال هولاند هناك تجربة مهمة فعلها المصريون قديمًا في عام ٢٠١١ ثاروا وأنهوا حكم ديكتاتور دون أن يحملوا سلاحًا وكذلك عام ٢٠١٣ ثاروا وأنهوا حكم الإخوان، إن الشعوب إذا تحركت فإن الحاكم مهما كانت عدته وأدواته لا يستطيع أن يوقفها أبدًا.

قـال سـتيف بصـوت مـشرق هـل انتهيتـم مـن طعامكـم؟، بالفعـل انتهـى الجميـع، فقـال هولانـد إذن هيـا بنـا إلى المعمـل، كانـت الدعـوة موجهـة إلى حسـن أيضًـا فرحـب بالدعـوة وقـام معهـم، كان المعمـل يشـغل مسـاحة عرضيـة كبـيرة ويحتـوي عـلى أجهـزة كثـيرة بالطبـع حسـن لا يعرفهـا، فضـلاً عـن أنهـا بالنسـبة لغـيره هـي أجهـزة مـن المسـتقبل وكانـت حوائـط المعمـل كالعـادة منحوتـة بعنايـة، جيـدة التهويـة، ينتهـي المعمـل بغرفـة مظلمـة ويبـدو أنهـا عـلى قـدر مـا مـن الأهمية لأن هالـة مالـت عليـه وقالـت غرفـة الرحـم، لم يفهـم حسـن مـا معنـى ذلـك لكنـه ظـل صامتًـا للحظـات مشـدوهًا بـما يـرى لكـن حتـمًا سيسـألها حيـث أن هـذا الاسـم لـه مغـزى، بـدأوا في النقـاش في العلـم وحاولـوا أن يتحدثـوا بالعربيـة وكانـت الصعوبـة باديـة مـن الجهـد المبـذول خاصـة في ترجمـة المصطلـح، لكـن لمـاذا يفعلـون ذلـك، لمـاذا لم يتحدثـوا بالإنجليزيـة، كانـوا يتحدثـون في النظريـة الموحـدة حلـم القـدم.

ومـا زالـت ورغـم كل مـا حققـوه مـن تقـدم إلا أن تلـك النظريـة لم يسـتطيعوا أن يبدعوهـا وهـل سـتكون بدايـة جديـدة للفيزيـاء أم نهايتهـا!

وكان تيفيـز هـو أكثرهـم تفـاؤلاً بذلـك، ويبـدو أن الفيزيـاء هـي تخصصـه الأسـاسي لكـن لمـاذا قـرر حسـن ذلـك ربـما يكـون مجـرد حـدث، فهـم يمتلكـون ذات المعرفـة لكـن يختلفـون فيـما يقترحـون مـن أفـكار حولهـا وكانـت هالـة تميـل عليـه لتبسـيط المصطلحـات ووجـد حسـن ذلـك جميـلاً وممتعًـا لكـن مـن أيـن أتـت هـي الأخـرى بتلـك المعرفـة المتقدمـة؟

ومـع الاسـتطراد وكثافـة النقـاش، اسـتعمل حسـن عقلـه لتخيـل أو تقريـب تلك الأفـكار بالخيـال، عندئـذٍ غـيروا دفـة الموضـوع، وتحدثـوا في تاريـخ العلـم وقامـوا بتعريـف الفـترة السـابقة للعـام ١٩٠٠ ومـا كانـت عليـه المعرفـة في تلـك الفـترة في علـم الفيزيـاء والطـب والهندسـة والرياضيـات والكيميـاء والتطـور، وكيـف كان الحديـث بـين العلـماء في ذلـك الوقـت عـن أنهـم وصلـوا لنهايـة العلـم فـلا شيء يسـتنتجونه لكـن تجربتـين اثنتـين طورتـا العـالم وأنتجتـا العقـول النابهـة، الفيزيـاء الكمّيـة رافقهـا صـدور النظريـة النسـبية عـن طريـق أينشـتين الـذي مـا زال يُعـرف أنـه أعظـم عقليـة علميـة في التاريـخ، وانطلقـت الفيزيـاء وانطلقـت كل العلـوم خلفهـا وتطـورت الحيـاة، وكانـت مـن أفضـل مـا قالـوا، وشـعر حسـن بشـغف

شـديد، وانتبـه بـكل جوارحـه عندمـا بـدأوا في تقمـص دور العلـماء السـابقين وهـم يسـتنتجون نظرياتهـم تلـك الصعوبـات التـي تقابلهـم ومحاولتهـم القفـز إلى الحـل وهـي لحظـة الإبـداع، شـعر حسـن أن هنـاك آفاقًـا تفتـح في عقلـه وأضـاف ذلـك لـه متعـة جديـدة وقربتـه مـن أبنـاء غايـا أكثـر، وأثـارت في ذهنـه أسـئلة كثـيرة ومحـاولات للاسـتنتاج وتخيـل نفسـه في موقـف العـالم هـذا أو ذاك وهـو يواجـه المشـكلة العلميـة ومهارتـه في حلهـا وهـي لحظـة الإبـداع. ومـا أن انتهـوا وذهـب كل منهـم إلى غرفتـه للنـوم اسـتعدادًا لرحلـة الأمـازون التـي أكـد عليهـا هولانـد مـرارًا وبأسـلوب مشـوّق جعـل حسـن يتمنـى أن يخـرج النهـار حتـى يلحـق بتلـك الرحلـة، لكنـه جلـس مـع هالـة فقـال لهـا لأول مـرة أعـرف لمـاذا طالـب العلـم لا يشـبع، ابتسـمت هالـة، ونظـرت لـه بنظـره غـير الـذي عهدهـا وشـعر بفـرح شـديد وصـارت ضربـات قلبـه مسـموعة لأذنـه بوضـوح، ورأت دمـاء الخجـل تتدفـق إلى وجهـه وكان منظرهـا ممتعًـا فـلا أجمـل مـن أن تـرى نافـورة الدمـاء تلـك وهـي تندفـع إلى الوجـه فتمسـحه بلمسـة ملائكيـة، وشـعرت هـي بخجـل فودعتـه وقامـت، وقالـت مودعـة، سـنلتقي غـدًا في غابـات الأمـازون أجمـل غابـات الدنيـا فهـي تحـوي ٤٠٠٠٠٠ نـوعٍ مـن النباتـات.

فقال لدي سؤال هل من الممكن، فعادت وقالت بدلال اسأل..

- فقال على ماذا تحتوي غرفة الرحم؟

- فقالـت بسـعادة هـي غرفـة اسـتنبات مولانـا، عندمـا نعـود غـدًا مـن الأمـازون، سـأجعلك تشـاهدها.

استيقظ حسـن مبكـرًا قبـل موعـد الرحيـل وقبـل اسـتيقاظ الفريـق ذهـب إلى غرفـة الانتظـار، فوجـد سـتيف جالسًـا، وقابلـه سـتيف بابتسـامة، وقـال هـل تتنـاول معـي القهـوة الفرنسـية؟

- فقال حسن أنا لم أتناول القهوة الفرنسية من قبل.

- فقـال سـتيف إنهـا خليـط مـن القهـوة والنسـكافيه والحليـب والـكاكاو والفانيليـا.

- فقال حسن ضاحكًا هل تحتوي على كل ذلك؟

- فقال ستيف باسمًا، ثقافة شعب!

وأومـأ حسـن موافقًـا عـلى تناولهـا فأعدهـا سـتيف بمنتهـى التلـذذ وكأنـه فنـان يقـوم برسـم لوحـة مـا، فانهمـك فيهـا وذاب وعيـه فيهـا، وبعـد أن أعدهـا قـال باسـمًا هنـاك طـرق كثـيرة لإعدادهـا لكـن هـذا هـو المتـاح، ارتشـف حسـن رشـفة فقـال سـتيف بتلهـف، مـا رأيـك؟

- فقال حسن لقد أحببتُ مذاقها.

- فضحك ستيف وقال إنك رجل منفتح على العالم.

- فقال حسن وهل بقى هناك عالم!

فقـال سـتيف لا تكـن سـوداويًا، سـترى جمـال الأرض اليـوم، وأكمـل بشـكل مسرحـي، سـنبدأ مـن البرازيـل وفـوق الجبـل سـنقف بمحـاذاة الشـمس يـا حسـن ثـم ارتشـف رشـفة مـن قهوتـه ومـدّ حسـن يـده ليلتقط كـوب القهـوة، كي يرشـف رشـفة هـو الآخـر، لكـن يـده لم تلتقـط غـير الهـواء، فضحـك سـتيف وكانـت عيناه تنظـر خلـف حسـن فنظـر حسـن إلى مـا ينظـر لـه سـتيف فوجـد هالـة وعـلى شـفتيها أثـر القهـوة وترتشـف رشـفةً أخـرى، وضحـك حسـن وضحكـت هالـة وضحـك سـتيف ممـا بعـث بموجـة مـن التفـاؤل.

فقالـت هالـة، إنـه لذيـذ سنتقاسـمه معًـا يـا حسـن، ونظـر حسـن إليهـا وقـد خطفـه جمـال شـفتيها وإشراقـة عينيهـا، وقـال سنتقاسـمه بحـق الله فقالـت بـأداء تمثيـلي بحـق الله، ونظـر إليهـم سـتيف غـير مـدركٍ مدلـول تلـك العبـارة رغـم أنـه يعـرف العربيـة، توافـد الجميـع حتـى هولانـد، الـذي قـال مبتسـمًا، هيـا نـدرك الـشروق مـن فـوق جبـل «رورايـما.»

فقـال سـتيف لحسـن أقـدم جبـل في التاريـخ، سـنحلق مـن فوقـه مبـاشرة إلى الأمـازون، جلـس الجميـع في المركبـة وقـال هولانـد، مسـتعدون للانطـلاق؟ وهتـف الجميـع نعـاااااام.

وكالعادة كان السكون يلف الجبل وبدا الجبل كشيخ عجوز متوحد حكيم وشعر حسن بجلاله، عندئذٍ اقترب من الحافة فشعر بالرهبة عندما رأى السحاب يسري من تحته، عندئذٍ شقّت الشمس ستر السحاب وخرجت كجنين شق برأسه فرْج أمه معلنًا خروجه للحياة.

وما إن خرجت حتى توقفت أمامهم، وقفت بقرصها الذهبي وشم حسن بل تذوق حسن طعم ريحها الدافئ والمختلط برذاذ بارد فأصابته انتعاشة انسابت إلى روحه، وما أن علت قليلاً حتى أنارت أحد الشلالات الذي رد تحيتها فعكس الضوء على وجوههم في مشهد بديع وتصاعد هدير الماء بعدما استعاد الشلال روح الحياة من الشمس.

اتجه الفريق إلى الشلال فقال هولاند، من أراد أن يتذوق ماءً لم تطله يد التلوث، انتشر الجميع حول الشلال وملأ حسن يديه بالماء وشرب، وكان طعم الماء طيبًا جدًا وشربت هالة من يديه.

قال هولاند بعد أن شربوا، الآن سنركب الخفاش وننطلق وبعدما أعدوا المحرك وبعد أن ربطوا الأحزمة واقتربوا من الحافة وانطلقوا مع الصياح فرحًا، وخالط الخفاش السحاب ولامس الهواء أجسادهم مباشرة ووجوههم.

فقالت هالة فرحة، الطيران دون طيارة كان حلمي الذي لم أتوقع أن يتحقق

فقال ستيف ذلك من أحلام الإنسان الحر، قام حسن بفرد زراعيه محاولاً أن يحتوي بذراعيه ذلك الهواء.

كان الهواء محملاً بكميات كبيرة من الأكسجين فانتابتهم السعادة، فقال تيفيز سعادة الأكسجين، فقال ستيف إن معدلات الأكسجين هنا كبيرة فالأمازون رئة العالم، كنت أتمنى أن أكون موجودًا في الغابات من ٢٠٠ عام قبل أن تمتد إليها يد التدمير، بدت تظهر من بعيد أجزاء قاحلة على تخوم الغابة الكثيفة وعند الوصول إلى تلك المنطقة، المنطقة القاحلة، قال هولاند استعدوا للهبوط.

اتجهـوا بعـد ذلـك إلى الغابـة الكثيفـة ومـع دخولهـم الغابـة الكثيفـة شـعروا باختنـاق ناتـج عـن الرطوبـة، ظهـر بعـض التوتـر عـلى وجـه حسـن عندمـا شـاهد بعـض الأشـكال الغريبـة للحيـاة التـي لم يعرفهـا مـن قبـل، عندئـذٍ أوحـى إليـه هولانـد بالهـدوء هامسًـا في أذنـه، اهـدأ لأنـك في أخطـر غابـة عـلى وجـه الأرض، إمـا أن تصـير جـزءًا منهـا ويصـير لديـك تـردد مشـابه لترددهـا أو تلفظـك فتبتلعك أمعـاء أحـد حيواناتهـا، ضغطـت هالـة بيدهـا عـلى يديـه في محاولـة منهـا لتهدئتـه.

– فقال هولاند بهمس، راقب بهدوء.

– فقال حسن لقد جئت لأستمتع بالحياة لا كي أراقب في هدوء.

أشـار هولانـد لحسـن بيـده في اتجـاه شيء مـا فنظـر حسـن، وكان المكان الـذي يشـير إليه حسـن قريبًـا مـن حسـن، وجـد حسـن بجانبـه ضفـدع أخـضر اللـون يقـف عـلى ورقـة خـضراء جعلـت العـين لا تلتقطـه بسـهولة ولـولا إشـارة هولانـد لمـا شـاهدها حسـن، كان الضفـدع جميـل ولامـع، أشـار هولانـد إلى حسـن أن يلتقطـه فاقـترب حسـن بهـدوء مـن الضفـدع وهـو يركـز نظـره عليـه حتـى لا يقفـز بعيـدًا، لكـن عندمـا اقـترب أكثـر اندهـش مـن هيئـة الضفـدع فقـد كان شـفافًا لدرجـة أن حسـن رأى أعضـاء الضفـدع الداخليـة، فحـاول حسـن قبـل أن يلتقـط الضفـدع أن ينقـل دهشـته إلى هولانـد فنظـر إليـه فوجـد هولانـد مبتسـمًا، وقـال هولانـد بصـوت هامـس إنـه الضفـدع الزجاجـي وهـو لا يوجـد في أي مـكان في العـالم إلا هنـا في الأمـازون إنـه مـن خصوصيـات تلـك الغابـة.

واصـل أبنـاء الأرض حركتهـم حتـى وصلـوا إلى غديـر مـاء ينتهـي ببركـة حولهـا نباتـات نمـت حـول البركـة وفيهـا لكـن المنظـر كان جميـلاً بـل رائـع الجـمال، وتمـددت عينـا حسـن حـول المـكان وفي المكان محاولـة أن تخـزن صـورة عامـة للمـكان، فوجـد مجموعـة مـن الفئـران تتنـاول بعـض الثـمار السـاقطة مـن الأشـجار العاليـة المحيطـة بالمـكان وكان ككل النـاس يشـعر بنفـور داخـلي مـن تلـك القـوارض القـذرة خاصـة فئـران المجـاري، إلا أنـه راح يراقـب تلـك الفئـران فقـد كانـت منسـجمة مـع البيئـة، ورغـم طبيعتهـا الحـذرة إلا أنهـا لم تكـن تعبـأ بالفريـق، واصطدمـت رِجـل هالـة بأحـد الجـذوع وكادت أن تسـقط إلا أن سـتيف التقطهـا، وأحـدث صـوت الاصطـدام اضطرابًـا التقطتـه إذن الفئـران فاضطربـت

هي الأخرى وفزعت، عندئذٍ ظهر عنكبوت عملاق كأن الغابة انشقت عنه فجأة وانقض على أكثر الفئران فزعًا وغرس سمه فيه والتقطه ومضى مبتعدًا وابتلعته الغابة مرة أخرى، لم يكن أعضاء الفريق قد التفتوا إلى ما رآه حسن، فلم يستطع أن يشاركهم الدهشة، هل كان كلام هولاند صحيحًا فعندما فقد الفأر تناغمه نتيجة خوفه ابتلعته الأرض.

وتحرك ذهنه مستعيدًا مشاهد كانت مخزنة في الذاكرة عندما كان يشاهد برامج عالم الحيوان، التي كان مغرمًا بها في صغره، ومشاهد محددة إن أردنا الدقة فقد حاولت الأسود اصطياد جاموس فقامت بتكتيك الهجوم وكان التكتيك واضحًا هو إخافة الجاموس حتى تخرج عن تناغمها مع أمنا الأرض وبعدئذ تنقض على أكثرها خوفًا وهو أكثرها بعدًا عن التناغم، وبالفعل استطاعت الأسود افتراس أحدهم ومن شدة خوفه استسلم منهزمًا وفي تلك اللحظات هدأ قطيع الجاموس للحظة فعاد له التناغم وعاد إلى الأسود وأنقذ ذلك الجاموس من بين أنيابهم،عندئذٍ فلسف حسن الأمور ووضع نظرية جديدة.

وقال لنفسه بثقة "أعرف كيف تتناغم مع أمنا الأرض وستفعل أي شيء".

وراح يتذكر أحد المضبوطات التي كان أحد الليبراليين يحتفظ بها ضمن كتبه إنها لمجموعة من كهنة شاولين وهم يفعلون أفعالاً غريبة ورغم شدة خطورتها إلا أنها بهدوء شديد وكأنهم لا ينظرون إلى ما ننظر أو يرون إلى ما لا نرى، شعر حسن بفرح شديد إلى ما توصل إليه، وأعجب بنفسه، عندئذٍ حاول أن يصل إلى هالة ويخبرها بما توصل إليه، لكن هالة وأعضاء الفريق كانوا منصتين إلى شرح هولاند وخططه وخطط أبناء غايا لإعادة تلك الغابة التي تضررت بشدة من المستعمر الأبيض الذي يحول أشجارها إلى طاقة سيستخدمها في الكوكب الجديد وهم سيقومون بتخزين ما يرونه من نباتات وكثافة تلك النباتات في الغابة والمخلوقات التي بها، لإعادتها بنفس الكثافة والحيوانات في المناطق التي خلت من الغابة وهي مساحات شاسعة، وراحوا يتنقلون وبسرعة وبأدوات لم يرها حسن من قبل لكنه استنتج أنها كاميرات للتسجيل، ونظر في شاشة الكاميرا التي تحملها هالة فرأى أنها تسجل أشياءً وحيوانات مختبئة لا تدركها العين ربما هذه الكائنات تحت الأرض وفوقها

وخلـف الأشـجار وفوقهـا، كل مـا لا نشـاهده موجـود عـلى الشاشـة.

شـعر بمتعـة النظـر والتنقـل بـين مـا يـراه عـلى الشاشـة وبـين الغابـة وراحـوا ينتقلـون مـن مـكان لآخـر، كانـت مناظـر الغابـة خلابـة جميلـة سـحرت حسـن فهـو لم يشـهد هـذا الجـمال مـن قبـل، وحـاول أن ينقـل إحساسـه لهالـة التـي كانـت منشـغلة تمامًـا بـما تفعـل ومصغيـة تمامًـا لصـوت واحـد، للمعرفـة التـي تصـدر مـن أي عضـو مـن أعضـاء الفريـق، وبـدأت الشـمس في إرسـال رسـائل الغـروب فظهـر شـعاع ذهبـي تسـلل مـن بـين الأوراق مـن الناحيـة الغربيـة، وفطـن هولانـد للرسـالة وقـال علينـا أن نسـتعد للرحيـل عـن الغابـة لكـن حسـن لسـبب مـا شـعر بضيـق في قلبـه، وهـو يعـرف سـبب ذلـك، لأنـه لم يحـظَ بحديـث خـاص أو اقتراب مـن حبيبتـه كـما حـدث بالأمـس.

بـدأت المركبـة في التحـرك، كان الجميـع في حالـة مـن الفـرح والسـعادة لكـن حسـن لم يسـتطع أن يقـاوم ذلـك الضيـق، ومـا أن وصلـوا حتـى ذهبـوا إلى غرفهـم اسـتعدادًا للعشـاء والعمـل في المختـبر.

بعدمـا اغتسـل حسـن جلـس عـلى سريـره مضطـرب النفـس وكانـت مشـاعره هائجـة عنيفـة كموجـة بحـر في شـتاء عنيـف الريـح لم يسـتطع كبحهـا، فوضـع رأسـه تحـت المخـدة ثـم تكـوم عـلي نفسـه وبعـد لحظـات راح في نـوم عميـق.

لم يوقظـه إلا هـزة رقيقـة عـلى كتفـه أفـاق عـلى إثرهـا، فوجـد وجهًـا باسـمًا، ففـرك عينيـه حتـى يسـتطيع أن يـدرك الحقيقـة التـي يراهـا، وحـاول أن يختـبر عـدم وجـوده في عـالم الأحـلام، فقـام معتـدلاً ثـم أمسـك يـد هالـة حتـى يتبـين الحقيقـة لكنـه أمسـكها برفـق، وقالـت لقـد تأخـرت عـلى العشـاء.

– فقال كيف نمت !

– مطت هالة شفتيها، وقالت هل نسيت موعدنا بعد العشاء؟

– نظر إلى هالة مستغربًا أي ميعاد؟

– فقالت ألم نتفق أن أصحبك لغرفة الرحم؟

– فتهلـل وجهـه وقـال بـلى صحيـح، وقـام مـن سريـره مسرعًـا وقـال سأغسـل وجهـي والتحـق بكـم، فقالـت لا تتأخـر.

وما أن تناولوا العشاء حتى جلسوا في حلقة شبه مستديرة، تفهم حسن أنها حلقة سمر وغناء وتمثيل بالعربية وباللغات المحلية لبلدانهم ورووا شعرًا لعنترة وامرئ القيس وأحمد شوقي، وقام ستيف بقراءة قصائد، نزار قباني، وانتقلوا إلى الأحاجي وكان حسن مستعدًا لإبهارهم لأنه كان يعشق فك الأحاجي لكنه لم يستطع أن يفك أي أحجية وشعر باليأس مما دفع ستيف إلى أن يشجعه فقال له بشكل مباشر، ما هو مجموع الأرقام من "١- ٩٩"؟ لكن حسن لم يستطع أن يصل إلى جواب في الوقت المحدد، فقال هولاند هيا نرقص، عندئذٍ انبعثت موسيقى إفريقية فقاموا جميعًا حتى هالة، لكن حسن ظل على حالته مقاومًا رغبة جسده في أن يرقص، لأنه لم يستطع أن يتخطى حاجزًا ما داخليًا، منع روحه من الانطلاق.

عندئذٍ شاهد ماركو يقترب من هالة ويهمس في أذنها، أنصت حسن حتى يسمع ما يقول أو ربما ركز متخطيًا صوت الموسيقى واستطاع أن يسمع ماركو وهو يقول لها لا تقيدي جسدك اتركي روحك تنتشي بالموسيقى وعندما يهتز جسدك لا تمنعيه هو يعرف كيف يتناغم، أراد حسن أن يقوم ويغمض عينيه حتى تمسّ الموسيقى روحه ويترك جسده كي يرقص، لكن شيئًا ما منعه، ونظر إلى هالة فوجدها أغمضت عينيها ويبدو أن الموسيقى قد اختلطت بروحها فتغيرت اهتزازة الجسد، لقد صار متناغمًا إلى أقصى حد وعادت إلى ذاكرته ذكرى انتشائه عند مولانا، وكان الحشيش هو الذي حرر ذلك القيد الذي يمنعه الآن من النهوض، حاول حسن أن يتحرر من قيده وحاول مرارًا ولكن على ما يبدو كان القيد أكبر من أن تتخطاه روحه المقيدة، ومع امتلاء الجميع بقبس الموسيقى وشعور أرواحهم بالطمأنينة وميلها إلى الهدوء فجلسوا للراحة ونظرت هالة إلى حسن بود متسائلة عما منعه فشعر بحرج، فهدهدته بنظرة أخرى فابتسم لها فاقتربت منه وراحت تحادثه ويحدثها، عندئذٍ استأذن الجميع منهما للذهاب إلى غرفهم لتلمس الراحة استعدادا للغد.

كانت ملائكية الوجه ساحرة العينين ذات شفاه لم يعرف كيف يشبهها لكن كانت أروع ما رأى هي مثل شفتي أنجلينا جولي لكنه لم يكن يعرف سيدة الجمال أنجلينا جولي، أراد حسن أن يقوم ويراقصها، ذاب فيها واقترب على

صوت الموسيقى الكلاسيكية وترك روحه تنتشي بالجمال والموسيقى، فتمايل جسداهما، لم يدر كم استغرق في حلمه لكنه استيقظ منه على تلك الابتسامة من شفتيها الساحرتين، فانتبه على سؤال، هل أعيش في حلم هو حقًا حلم الرقص أم في حلم الابتسامة! لم يعرف عقله أين يوجد الخط الفاصل ما بين الحقيقة والحلم، ويبدو أن السؤال هو عنوان الحقيقة لدى العقل، فاستيقظ من حالته إلى سؤال يحمل معنى الخوف، هل تفرقنا كما جمعتنا يد الأقدار؟ إنه الخوف مرة أخرى، عندئذٍ فقد التناغم فابتعدت هالة بعد أن اكتشفت حالتها وقامت مستأذنه وقالت أشعر بحاجتي إلى النوم وبعض الراحة فتفهم طلبها لكنه لم يكن يشعر بحاجته إلى النوم، وقبل أن تمضي، قال أين سنذهب غدًا؟ فقالت لن نشاهد الشروق في الخارج غدًا لأن لدينا أعمالاً كثيرة في غرفة الرحم، كان لحسن رغبة في أن يدخل غرفة الرحم الآن كما وعدته لكنه لم يرد أن يشق عليها وسينتظر للغد.

استيقظ حسن مبكرًا راجيًا أن يسبقهم كي يعد القهوة الفرنسية له ولها، وقام بخلط المقادير وأعدها بمهارة ولم ينتظر مجيئها طويلاً لأنها كانت أول الواصلين فأعطاها فنجان القهوة وقالت ألا تريد أن تشاركني فنجانك مرة أخرى؟

ابتسم حسن..

توالى أعضاء الفريق بالحضور لتناول فطورهم وما هي إلا لحظات حتى حضروا جميعًا وبعدما تناولوا فطورهم، قاموا إلى المعمل، وكان هناك أعمال كثيرة ونقاشات كثيرة، وبدا لحسن أنهم أصحاب تخصصات مختلفة، واستطاع أن يستنتج أن هالة ربما تحمل تخصصًا قريبًا من تخصص هولاند وبدت العلاقة بينهما كعلاقة التلميذ من الأستاذ، كان استنتاج حسن ناتجًا من تلك النقاشات التي كانت تدور بينهما وكان هولاند يطلعها على أبحاث نقل المعرفة إلى العقل، ودار بينهم نقاش لم يستطع حسن أن يتفهم أي شيء وكان المعمل يعج بحركة من الفعل والتعلم وكان يشاهد شاشات افتراضية تفتح ثم تطوى مع تحرك أصحابها، وبعد وقت ليس طويل دعاه هولاند للاقتراب فاقترب حسن ودعاه هولاند للنظر إلى الشاشة وقال هولاند شارحًا أن تلك الشاشة ترصد غرفة الرحم من الداخل وترصد أنبوب

الرحـم أو الرحـم إن أردت أن تسـميه بدقـه وجـال حسـن بنظـره في كل أرجـاء الغرفـة فأشـار هولانـد إلى جـزء مـا مـن الغرفـة يظهـر عـلى الشاشـة، وقـال انظـر إلى ذلـك الأنبـوب، مـاذا بداخلـه، فنظـر حسـن إلى الجسـد الـذي بداخلـه لقـد كان جسـدًا يافعًـا، فقـال هولانـد انظـر إليـه ألا تعتقـد أنـه يشـبه شـخصًا تعرفـه؟

- فقال حسن إنه يشبه مولانا.

- فقال هولاند نعم إنه مولانا وهو الآن في طور الشباب.

ثـم أعطـى بعـض الأوامـر للأجهـزة عـلى شاشـة الكمبيوتـر فتحركـت محاقـن مجهريـه بحقـن جسـد مولانـا.

- وقال هولاند ابتداء من الغد سيكون بإمكاننا زيارة مولانا.

- لكن حسن لم يفهم ماذا يقصد هولاند.

فقالـت هالـة بإمكاننـا الاقـتراب مـن الأنبـوب ابتـداء مـن الغـد، وبإمكاننـا رؤيـة مولانـا عِيانـا وليـس عـلى الشاشـات. ويبـدو أن كليهـما في شـوق لرؤيـة مولانـا وانتظـرا أن تمـر سـاعات يومهـم بسرعـة حتـى تصـل للغـد، ويبـدو أن رغبـة هالـة الشـديدة لرؤيـة مولانـا أفقدتهـا الرغبـة، في الطعـام والحديـث، وذهبت إلى غرفتهـا، ولم تخـرج ومضـت السـاعات، عـلى حسـن ثقيلـة عـلى نفسـه وتحملهـا بشـوق محـترق، وكان النـوم هـو دواء الزمـن الناجـز، وعـلى مـا يبـدو أن حسـن وهالـة لم يكونـا في انتظـار رؤيـة مولانـا بـل كل أعضـاء الفريـق، وتحركـوا جميعًـا ومعهـم هالـة وحسـن إلى المعمـل والشـوق بـادٍ عليهـم وكان لـكل واحـد منهـم سـببًا لهـذا الشـوق، وكان شـوق هالـة وحسـن مختلفًـا عنهـم وكان مختلـف عندهمـا أيضًـا.

دخـل الجميـع إلى غرفـة الرحـم، والتفـوا حـول أنبـوب الرحـم الـذي يحتـوي عـلى جسـد مولانـا ونظـر حسـن بتمعـن، وكان مولانـا قـد غـادر العشرينيـات واسـتطاع حسـن أن يلاحـظ ذلـك، ونظـر إلى هولانـد لينقـل لـه اسـتنتاجه فوجـده يقـول إن معـدل تغـير عمـر مولانـا سـيبدأ في الانكـماش ولـن يقفـز قفـزات كبـيرة ابتـداء مـن الغـد، وعندمـا يكمـل الأربعـين مـن عمـره سـيخرج مـن الأنبـوب، نقـل حسـن نظـره إلى هالـة لـيرى ردة فعلهـا، فوجدهـا تقـف ناظـره إلى وجـه

مولانـا الصـوفي كعاشـقة في محـراب الحـب، وشـعر ببعـض الغـيرة فكتمهـا، عندئـذٍ مالـت هالـة عـلى الأنبـوب وطبعـت قبلـه عـلي الموضـع الموجـود فيـه رأس مولانـا، وانتـاب حسـنٍ بـركان مـن الغـيرة وأصبـح صـدره مرجـلًا لم يحتمـل الجمـر فغـلى مـا بداخلـه قاذفًـا الغطـاء معلننـا الانفجـار، فقـال أنـا سـأذهب إلى غرفتـي وخـرج مسرعًـا دون أن ينظـر إلى عينـي أي أحـد منهـم، عندئـذٍ شـعر بضعـف شـديد انتاب كل عضلاتـه وتكـوم عـلى سريـره ونـام.

شـعر حسـن بيـد تحـاول أن توقظـه ويبـدو أنهـا فشـلت مـن قبـل في إيقاظـه فهزتـه بعنـف، فتـح حسـن عينيـه فوجـد سـتيف الـذي قـال هـل أنـت متعـب، فقـال حسـن نعـم كنـت أشـعر ببعـض التعـب.

- فقال ستيف ألن تستطيع أن تخرج معنا وتلحق بالشروق؟
- فقال هل نمت طويلاً جدًا إلى تلك الدرجة؟
- فقال ستيف صحيح لقد نمت طويلاً.
- فقال أين ستذهبون؟
- فقال هولاند، الهند.

شـعر حسـن بتعـب وعـدم الرغبـة في الخـروج وحـاول الاسـتئذان لكـن هالـة دخلـت الغرفـة وقابلـت حسـن مبتسـمة وقالـت هيـا أيهـا الكسـول.

فقـام حسـن لكنـه لم يتخـلَّ عـن كآبتـه التـي زادت عندمـا وصـل إلى الهنـد لأن مـا رآه عكـس مـا كان يتوقعـه فـالأرض جـرداء متصحـرة قاحلـة وكانـت هنـاك آثـار لمجـرى الأنهـار والأغاديـر والشـلالات، وكانـت الرائحـة المنتشرة رائحـة الكبريـت المختلـط بريـح الرمـاد المتخلـف عـن الحـرق، في تلـك الأثنـاء صعـدت الشـمس مـن مرقدهـا لكنهـا هـذه المـرة لم تكـن تحمـل روح الحيـاة بـل غضـب عـلى تلـك الأرض التـي لم يحـترم الإنسـان ابنهـا الحيـاة فيهـا، فلـم تسـمع إلا فحيـح المـوت الصـادر مـن ريـاح السـموم، وشـعروا بهجـوم الشـمس فهربـوا إلى المركبـة احتـماء مـن غضبهـا، كان الجميـع في حالـه مـن الحـزن، لم يخرجهـم منهـا إلا صـوت هولانـد.. ومـاذا كنتـم تعتقـدون.

- فقال ستيف لم نكن نتخيل أن الوضع بتلك البشاعة.

- فقال هولاند هل يجب علينا أن نيأس، شعر حسن بحزنهم واستنتج أن تلك الغابة تم اجتثاثها منذ وقت قريب لكن أين الحيوانات، فقال لـ ستيف، أين الحيوانات؟

- فقال ستيف تحولوا مثل الأخشاب إلى طاقة.

فقال هل لدى الغرب القدرة على تحويل تلك المساحات الشاسعة إلى طاقة؟ فقال هولاند إنك لن تستطيع أن تتخيل ما وصلت إليه التكنولوجيا الآن.

نظر هولاند للجميع وقال بالتأكيد أبناء غايا في كل مكان يعملون على معالجة ذلك ويبدو أنهم لم يتصلوا بنا لسرية ما نحن فيه، لكن علينا أن نقوم بدورنا ونفعل مثل ما يفعلون الآن ونستغل وقتنا وننتج بذور الحياة، فقالت هالة لحسن، سينتجون الجين الجرثومة الذي سينتج الحياة.

شعر بحيرة أكثر.. فقالت سيقومون بإنتاج الجينة لكل نبات ثم وضعها في غطاء يجعل منها جرثومة صالحة للحياة ما إن تجد الأرض حتى تنبت، وإن لم يكن هناك ماء عند الزرع فإن غطاء الجرثومة سيمتص الماء من الهواء وبذلك يكون لدى النبتة ما يكفي من الماء، وبعد ذلك يقومون بتوجيه السحاب إلى تلك المنطقة حتى تمطر في ذلك المكان، تحركت المركبة، وبسرعة تحركوا في اتجاه المعمل وتركتهم هالة للحظات حتى ترى مولانا، وقبل أن تدخل غرفة الرحم قال حسن لنفسه إنه ما زال جنينا حتى وإن كان كبيرًا فهو ما زال جنينًا، هي حتما لا تحب مولانا، ربما تكون روحها معلقه به، أو ربما يكون اهتمامها اهتمام عالم بتجربته، لكن شيطان الوسوسة أخبره أن العلماء الآخرين لا يحملون نفس اهتمامها رغم أنها تجربتهم بالأساس، لكن حسن لم يمهل شيطان الوسوسة كثيرًا، وكعادة الإخوان أوجد مبررًا لها، وقال ربما لأنها تجربتها الأولى وهي تجربة مذهلة على أية حال، لكن عليّ أن انتظر، بالقطع شعورها تجاه مولانا هو ليس شعور بالحب أبدًا فأنا لا أستطيع أن أتخيل ذلك.

ذهب حسن إلى طعام العشاء مبكرًا منتظرًا عودتهم من المعمل فهو لم يشهد أي فرد من الفريق منذ عودتهم من الهند، فكان أمامهم عملاً كبيرًا وكثيرًا لذا لم يغادروا المعمل، كانوا ملتزمين بمواعيد الطعام، لذا لم يطل انتظار حسن لهم طويلا فقد وصل هولاند وحوله جوقة العلماء يتناقشون، وتهللت وجوههم عند رؤية حسن لكنه لم يرَ هالة، أين هي، هل ما زالت في المعمل تؤدي عملها أم تراها ما زالت في حجرة الرحم، لكن هالة ظهرت الآن آتية من غرفتها مشرقة كالقمر استقبلها حسن بابتسامة فأحضرت طعامها وجلست بجانبه، وقالت بصوت خافت، وحشتني يا حسن.

لم ينطق حسن، بل صعدت الدماء إلى وجهه دفقة واحدة، نظر إليها بعينين يملؤهما العشق، قرأتها لكنها لم تعلق بل انتقلت إلى سؤال مباشر لحسن، هل تعتقد أن مولانا يحمل روحًا صوفية؟

فقال بضيق، لِما تقولين ذلك؟

فقالت أنا أشعر بها، شعر أن هناك حجرًا موضوعًا على قلبه، لكنه لن يقوم ويتحرك إلى غرفته حتى يفرغ فيها طاقة الحزن التي تعتريه فهو بجانبها مهما تكون، لكنها لم تتوقف طوال الليل عن الحديث عن مولانا، ومع اقتراب موعد الانصراف إلى غرفهم قالت وهي تقوم سأذهب قبل أن أنام إلى غرفة الرحم، لو أردت أن تصطحبني سأكون سعيدة.

لم يستطع أن يرفض لها هذا الطلب، وذهبا سويًا لكنها جلست بين يدي مولانا وانصرفت عن حسن وانصرفت عن الدنيا كلها، وشعر حسن كأن حديثًا هامسًا يدور بينها وبين مولانا، ربما هو يشعر بها وتشعر به، لكنها لم تشعر بانصراف حسن من المعمل، ومرت الأيام ولم يكن حسن يشاهدها إلا على فترات متباعدة وكان عندما يشتد به الشوق يذهب إلى المعمل كي يراها، ثم يعود إلى حجرته.

كان يومًا عصيبًا، الكل في غرفة الرّحم يعملون كخلية نحل، وكان حسن موجودًا أيضًا لأنه يومًا عظيمًا.

كان فريق العلماء يعمل كخلية نحل، الكل يعرف دوره ويؤديه بمهارة وكانوا مقسمين كمجموعات كل مجموعة لها قائد، مما أبهر حسن الذي كان ينتظر أهم حدث، ورغم قلقه واختلاط مشاعره إلا انه كان يسترق النظر لهالة، ويتجول بنظره في كل أنحاء الغرفة لمتابعة كل الفرق عندئذٍ بدأ عمل فريق الوعي، ونظر حسن باهتمام إلى جسد مولانا في الأنبوب الذي تم التعامل معه بأشياء كثيرة والخاصة بإعداده للخروج من الرحم، تأكد حسن أنهم فريق الوعي عندما بدأت هالة ضوئية تقترب من رأسه ولبستها كطاقية، بل هالة ضوئية حول رأس ملاك، هكذا بدا أمام حسن لكن ملاك بلا حياة، لم يكن جسد مولانا يأتي بأي حركة وكان الفاصل بينه وبين الجسد الميت هو إيمان هؤلاء الأشخاص أنه حي، وكانت الشاشة أمام هولاند عليها كل شيء وكانت هي الشاشة الرئيسة، ولم يكن مع هولاند سوى هالة فاقترب حسن منهم ونظر خلال الشاشة وشاهد كيف يتم تنزيل الوعي في رأس مولانا، ونقل حسن نظرة بين الشاشة والأنبوب وطاف بذهنه سؤال ولو كان الوقت يسمح لسأل هولاند لماذا يحدث هذا الذي يراه فقد كان يرى شيئًا عجبًا فمع تحميل الوعي المتدرج لرأس مولانا شاهد الجسد وكأن الحياة تدب فيه تدريجيًا وكأن الروح تدخل الجسد، وما إن أنزلوا الوعي إلى الجسد حتى أخرجوه من الأنبوب وكانت إجراءات النقل تتم ميكانيكيًا فتم تفريغ الأنبوب من السائل وتحرك مكبس ونقل الجسد الذي خرج من الأنبوب جافًا إلى سريره واتصل أنبوب يحمل الأكسجين بفمه وتم حقن مولانا بمادة محفزة للذهن حتى يكون جاهزًا للإفاقة، واستخدموا صواعق كهربية للإفاقة، واسيقظ مولانا، وانتظر حسن سؤال مولانا الذي يتوقعه..
من أنتم؟

عندئـذٍ سـأله هولانـد كيـف حالـك يـا مولانا؟فقـال بصـوت خافـت حمـدًا لله، عندئـذٍ تـم إيصـال خرطـوم التغذيـة إلى ذراعـه، بعـد ذلـك أعطـوه مهدئًـا فنـام، وخـرج الفريـق مـن المعمـل حتـى هالـة، تاركـين

مولانـا في استجمامه غاطًّـا في نومـه، انفصـل حسـن عـن الجميـع وذهـب إلى غرفتـه ولم يجلـس كـي يسـتمع إلى تقييمهـم لحالـة مولانـا، لكـن هالـة جلسـت حتـى تتعلـم.

دخـل حسـن مشـدوهًا إلى غرفتـه، فقـد كان وقْـع تلـك التجربة عـلى قلبه شـديدًا جـدًا، ومـرة أخـرى يقـع في تلـك المعضلـة، الفواصـل بـين الحيـاة والمـوت وقـدرة الإنسـان عـلى تخطـي تلـك الحواجـز، هاهـم دون أب وأم أوجـدوا الحيـاة، هاهـم يسـتعيدون مـن مـات إن أرادوا وكأنهـم سـحرة، فقـد كان أقـصى حلـم للسـحرة قديـمًا أن يعيـدوا الحيـاة للموتـى، ولأنهـم يعلمـون أنهم لـن يسـتطيعوا أن يتحـدّوا المـوت فكانـوا يتحايلـون باسـتدعاء الأرواح، الآن يجعلهـا هـؤلاء القـوم باسـتخدام العلـم شـيئًا عاديًـا في تحـدٍ لكهنـوت المـوت. وتذكـر كلـمات الشـيخ الدرويـش بأنـه سيشـاهد أحيـاء الموتـى. هـل كان يقصـد مـا يـراه الآن أم أن مـا مـرَّ بـه سـابقًا لا أعتقـد أن هنـاك نبـوءة تسـتطيع أن تتوقـع مـا حـدث.

جلس حسن برهة لم يدر إن كانت كبيرة أو صغيرة بغير تفكير.

لكنـه عـاد مـرة أخـرى وسـأل نفسـه، هنـاك شيء مـا أسرني عنـد اقـترابي مـن مولانـا «إنهـا الهالـة الصوفيـة التـي تمـلأ المـكان حـول مولانـا» لمـاذا لم أشـعر بهـا إلا عندمـا تـم زرع الوعـي في عقلـه. وتذكـر حديـث هالـة عـن تلـك الهالـة لكنـه لم يصدقهـا ومـط شـفتيه وقـال لنفسـه مسـتغربًا كيـف شـعرت بهـا قبـلي، ومـا سرّ هـذا الصفـاء في مولانـا حسـن البنـا، نـام حسـن لكـن قبـل أن ينام كان لديـه رغبـة كبـيرة في رؤيـة مولانـا، فنـام عـلى أمـل أن يسـمحوا لـه برؤيـة مولانـا غـدًا.

حـاول النـوم لكـن السـؤال كان ملحًـا، فخـرج مـن غرفتـه ربـما يجد أحـد أعضاء الفريـق ليسـأله هـل بإمكانـه أن يـرى مولانـا غـدًا؟ أو بالأحـرى متـى يسـتطيع أن يـرى مولانـا ويتحـدث إليـه؟

كان يتمنى أن يقابل هالة، حتى يتحدث معها عن مولانا فربما ما زالت تحمل نفس الشوق للحديث عنه.

خرج حسن فوجدهم جميعًا يتناقشون في العلم، شعر حسن بحسد شديد لهم، إنه العلم لو ظلوا يتحدثون فيه طوال عمرهم ما انتهوا، كان هذا انطباعه عن العلم فمن أدمنه لا يشبع منه، تبسموا حينما أبصروه وتهلل وجه هالة فجلس بجانبها..

- فنظر إلى هولاند سائلاً، متى نستطيع رؤية مولانا،

- فقال هولاند غدًا.

- فقال حسن هل سنستطيع أن نتحدث معه؟

- فقال هولاند نعم بإمكاننا ذلك، وقال مستطردًا وبعد غد ربما نستطيع الرحيل، انتهت أسئلة حسن لهولاند، وقاموا إلى أسرتهم لينالوا قسطًا من الراحة لكن هالة ظلت جالسة ولم ترحل،

- فقال حسن كيف يكون لروح مولانا كل هذا الصفاء؟

- فقالت بل تملك روحه كثير من القلق.

أفزعه ردها.

- فقال أنا لم أشعر بذلك.

- فقالت لأنك رأيته كما تريد أن تراه.

شعر حسن ببعض الإحراج لأنه لم يفهم ما تقول وأراد أن يغير دفة الحوار

- فقال أليس من الممكن ألا يكون لدى مولانا رغبة في العودة إلى الحياة،

- مطت هالة شفتيها وقالت ممكن آه وممكن لا.

أليس هذا اعتداء على اختيار مولانا، ألسنا أنانيين بأن نعيد إنسانًا للحياة دون اختيار منه وربما يكون هو رافض لذلك وارتاح بالموت؟

شعرت هالة بتغير كبير عند حسن فهو يفلسف الأمور.فقالت ما احنا جينا للحياة من غير ما نتسأل،

راح في صمت عميق ورأى الإرهاق في عينيها فأشفق عليها وتركها تعود إلى غرفتها وغادر إلى غرفته في انتظار الغد، لكنها ذهبت إليه لم تتركه يستيقظ منفردًا وهزت كتفه برفق ففتح عينيه فوجدها مائلة عليه متهدلة الشعور كعروس بحر أثقلها الشوق إلى الماء، هكذا رآها فقام من سريره معتدلاً ونظر إليها غير مصدق.

فقالت صباح الخير يا حسن، بصوت لم يسمع حسن أعذب منه وخرجت مسرعة، فارتدى حسن ملابسه مسرعًا بعدما اغتسل حتى يدرك هالة، فوجد الجميع في انتظاره لتناول الإفطار معهم، ويتبع الفطار استقبال اللحظة الفريدة، عند إيقاظ مولانا، فشكر لهم حسن أنهم لم يحرموه من تلك اللحظة،

التف الجميع حول مولانا وبهدوء شديد وضع هولاند يده على كتف حسن البنا وقال بصوت خفيض مصحوب بهزة رقيقه.. مولانا.....

استيقظ مولانا ليجد تلك العيون الباسمة وقال له هولاند السلام عليكم يا مولانا وقال حسن البنا عليكم السلام بروفسور هولاند، ضغط حسن على يد هالة مستفسرًا، فأومأت له برأسها، نعم، فهي تعلم ما أراد أن يستفسر عنه، أراد مولانا أن يعتدل من مرقده فساعده هولاند وبعدما اعتدل قام وأرشده ستيف إلى الحمام وقال هولاند سننتظرك حالما تنتهي، وما أن انتهى حتى أعدوا له طعام الفطور، تناوله مولانا على مهلٍ وشعر بفيض من القوة يجتاح جسده وراح يعتمد على نفسه، وحالما انتهى من فطوره حتى نظر إليهم وقال لهم مداعبا: أين موضع الرصاص في جسدي؟

فقال هولاند كان بإمكاننا أن نترك لك ندبات على جسدك تدل على أماكن الرصاص لكننا تركناك تستمتع بجسدك، ابتسم مولانا شاكرًا لهم، لم ينطق حسن بل ظل مراقبًا لمولانا مسحورًا بروحه العذبة وهالته التي تملأ المكان،

وتم نقل مولانا إلى غرفته ثم أعطوه مهدئًا ومغذيات عن طريق محاقن مجهرية وتركوه ليرتاح مع دعوة له على الغداء مع كل الموجدين احتفالاً به، ثم اتجهوا إلى المعمل واتجه هو إلى غرفته وقبل أن يغادر هالة، قال: هل قرأت كتبًا لكارل بوبر؟ نظرت لحسن فرحِة.. وقالت: هل استطعت أن تقرأ له؟

كان سؤالها رغم قسوته إلا أن حسن تفهمه فقال لها: نعم قرأت له كتابين. افترقا على اتفاق بمناقشة أفكار فيلسوف العلم.

جلس الجميع حول مولانا حسن البنّا وهم يتناولون طعام الغداء معه احتفالاً به.

وكان لدى مولانا رغبة في الحديث فترك ليتحدث، وراح يحكي عن جمال مصر في فترة العشرينيات وكيف كانت تلك الحقبة الليبرالية تسير حِنقه وروى كيف كان ينظر إلى تلك الفترة وشعوره بحاجة المجتمع له فقد كان يظن أن المجتمع قد وصل إلى مرحلة من الانحلال وخاصة في مدينتي القاهرة والإسكندرية يستدعي غضب الله، وظن أنه مكلف من قِبل الله بهداية هؤلاء الناس وأنه ليجد أن هدايتهم واجب وأن الله سيعاقبه في الآخرة لتركه كل هذا الفساد دون تغييره أو إنكاره، وقال بعد صمت إنه أخطأ وأدرك في نهاية حياته أنه أخطأ وراح يروي عن طفولته كيف كانت وعن عدم قدرته على حفظ القرآن الكريم كاملاً.

نظر حسن إلى مولانا باندهاش شديد فالرجل يحكي عن حياته بحلوها ومرها ويحكي عن كل شيء ولم يتحرج أن يتحدث عن أخطاءه التي لم يتحرج منها، ولم يحاول أن يخفيها ولم ينكرها ولم يبررها وكانت حكاياته عن أخطائه نابعة من ثقة في أنه سيأتي يوم ما وسيصلحها، وكان يعلم دوره جيدًا في التأثير على مصر في سنين حياته، فدعوته انتشرت كانتشار النار في الهشيم، وروى كيف ارتد المجتمع من الحضارة والتفكير في المستقبل إلى التفكير في الماضي، وروى أنه خاض صدامًا ومهادنة مع قوى المستقبل التي كان لها أسئلة عن المستقبل، وهادن السلطة التي استعملته واستعملها وذلك لإجبار المجتمع على العيش في الماضي، واستطرد بأسى ما حدث..

فبعد ظهور دعوته انحدر المجتمع انحدارًا كبيرًا وكادت عجلة المستقبل أن تتوقف أو هي في طريقها إلى التوقف وقال: علمت بعد وفاتي وعلمت الآن أين نحن، وأين العالم بفضل دعوتي. وبعدما انتهي من حديثه أخبروه أنهم يستعدون للخروج من هذا المكان غدًا لمقابلة العالم، وأن عليهم تجهيزه صحيًا، لذا سيذهب إلى غرفته ويكملون العلاج اللازم، حتى يصير جسده قادرًا غدًا على تحمل الأعباء، فأعطوه مهدأ ونام، فبدأوا العمل على جسده وما أن انتهوا، خرجوا وأخبروا حسن أن بإمكانه أن يدخل غرفة مولانا والإقامة فيها إن أراد، لأن مولانا سيستيقظ غدًا عفيًا قويًا متعافيًا، وهم سيذهبون إلى المعمل لتجهيز جرثومات الحياة ووضعها في المركبة التي ستتحرك للهند بعد رحيلهم، وستنثرها هناك يعقبها رسالة من نفس المكان بتقرير وافٍ عن كل ما حدث خلال فترة إقامتهم في المغارة، هم يعلمون أن أجهزة المخابرات ستلتقط الرسالة ولن يستطيعوا أن يفكوا شفرتها وسيتعاملون مع المغارة وهذا سيعطيهم وقتًا كبيرًا للهروب لأنهم سيضبطون الرسائل تلك كي تصدر بعد رحيلهم ب ٢٤ ساعة.

كان الجميع مستعدين نفسيًا وذهنيًا وبدنيًا للرحيل، حتى مولانا الذي استيقظ بحالة صحية جيدة جدًا لم يتوقعها حسن، و لم يحزّموا حقائبهم لأنهم لن يصحبوا أي شيء معهم وكل ما في المغارة سيتركوه، وكان الليل في خارج المغارة قد حلّ، عندئذٍ قاموا بارتداء لباسٍ يخفي جسدهم كله من أعلى رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم فبدوا ككائنات فضائية، عندئذٍ ارتدوا فوقها ملابس عادية فاستفسر حسن عن ذلك اللباس فقالوا إن له وظيفتان، هي إخفاء الأثر الحراري للجسد أو تغيير البصمة الحرارية له، فقال كيف ستتنفس؟ فقال هولاند عندما ترتديه ستعرف.

أخذ حسن لباسه ولباس مولانا وساعد مولانا في ارتداء ملبسه بعدما وضع حسن الغطاء على رأسه الذي لم يكن به منفذ ولا حتى للعينين لكن أمام العينين جزء شفاف لا يحجب الرؤيا، وعندما ارتدى حسن ذلك الجزء لم يختنق كما كان يعتقد بل تنفس بطريقة طبيعية.. من أين يدخل الهواء؟، ولم يشعر بأي احتباس حراري داخل ذلك اللباس لذا لم يشعر بضيق كما

كان يعتقد، وبعد أن ساعد حسن مولانا في ارتداء ذلك اللباس شعر حسن أن لديه وظيفة جديدة هي حماية مولانا و أن يكون حارسا شخصيا له، واطمئن حسن على هالة، وبعد أن اطمئن هولاند على الجميع لم يكن أمامهم إلا الرحيل الآن.

تحركوا خلف ستيف الذي سيقود الفريق للخروج، خرجوا من المغارة إلى النفق الذي تضرر بالفعل، وكان تجاوز الصخور وتجاوز بعض المناطق الضيقة، أمرًا مجهدًا وكان النفق طويلاً لكن الضربات لم تنجح في إغلاقه حمدًا لله هكذا قالها هولاند بعفوية لنفسه، ولم يتخيل حسن أن يكون هناك أنفاق تمتد بهذا الطول، وأصابه الإجهاد ونظر إلى مولانا فوجده يسير دون أن تشتكي عينيه أي إجهاد، وتمنى أن ينتهي النفق قبل أن يصاب مولانا بإجهاد، وكان في سيره ينقل عينيه بين مولانا والطريق، واقترب من هولاند وسأله هل بقي الكثير؟

فقال هولاند عشر دقائق ونصل إلى نهاية النفق، فرجع حسن وسار بجانب مولانا. وأراد أن يطمئنه أن النفق كاد أن ينتهي، لكن مولانا لم يشتكِ،

فسار حسن بجانبه صامتًا. وكان هولاند دقيقًا جدًا فقد وصلوا إلى نهاية النفق في الوقت المحدد، وقف الفريق بعدما أصدر ستيف إشارة بالتوقف لكن حسن اكتشف أن النفق لم ينتهِ كما توقع، فما زال ممتدًا في نفس الاتجاه لكن ستيف ضغط على ذر في ساعته فظهرت شاشة افتراضية صغيرة أدخل عليها أرقامًا سرية لم يستطع حسن أن يتبينها. عندئذٍ انزاح سقف في أعلى النفق، وظهرت السماء فشعر الجميع بالراحة، ومع خروج آخر فرد من أعضاء الفريق، تحرك السقف مرة أخرى. وعادت الأوضاع إلى ما كانت عليه وكأن شيئًا لم يكن و كان الغطاء متلائمًا مع الطبيعة فلا فروق تستطيع العين أن تدركها واختبرها حسن فبعد رجوع الغطاء إلى وضعه الأساسي راح حسن يطرق عليه بحذائه لكنه لم يسمع صوتًا مختلفًا كما توقع وتجول بعينيه وكانت أرضًا صحراوية ممتدة لا صخور حولها ولا أي غطاء، فابتسم حسن وقال ربما أفضل اختفاء هو الاختفاء الظاهر، ومضوا لم يزيدوا من سرعتهم

ولم يخففوا وما زال ستيف يقود المسيرة، كانت السماء سوداء مليئة بالنجوم وكان الليل حالك السواد لكن أعينهم قد تكيفت وكان باستطاعتهم رؤية أحدهم الآخر، وزاد تعب حسن وبدأ التعب يحل على مولانا أيضًا و ظهر هذا في مشيته، لكنه لم يشتكِ، عندئذٍ شعر حسن بتغير الأرض التي يمشون عليها، فسمع صوت اصطدام حذائه بالحصى، فخفف من اصطدام رجله بالحصى ليس خوفا من أن يتهادى الصوت إلى أذن أي متربص، لكن لم يشأ أن يتصاعد أي صوت حتى لا يكون نشازًا مع صوت الليل والصحراء وروحها الصوفية، والتي صار بوسعه أن يلمسها ويشم رائحتها.

لم يدر حسن أن هناك من يمشي تحت وطأت هذا الليل في الصحراء الممتدة المظلمة غير متناغم فلا يصبح متاحًا له إلا أن يحتمي بالذات العليا أو يترك فريسة ينهشه الخوف.

قال ستيف أمامنا خمسة عشر كيلومتر، ونصل إلى مكان السيارة، فيجب أن نسرع الخطى قليلاً، لم تكن كلمات ستيف المشجعة بقرب الوصول كافية لحسن كي يتغلب على حاجته للماء فشعوره بالظمأ ومعرفته بعدم وجود ماء جعل الأمر ملحًا على عقله، وحاول أن ينقل ذهنه إلى مكان آخر فحاول أن يفكر في هالة وعن حالهما بعد انتهاء تلك المهمة.

هل بإمكانهما أن يظلا معًا؟ هل سيستطيع أن يخبرها بحبه؟ هل هي تحبه من الأساس؟ ما زال شاكًا.

لم يستطع حسن أن يكمل خط التفكير فقد ألح عليه العطش ولم يستطع أن يمنع نفسه، فاقترب من هولاند مرة أخرى وقال باسمًا هامسًا هل في السيارة ماء؟

فقال هولاند في البدلة التي ترتديها ماء، وضغط هولاند على زر في تلك البدلة التي يرتديها حسن وشعر حسن أن هناك أنبوب صغير امتد إلى فمه وسكب فيه بعض الماء، شعر حسن بالراحة فاقترب من مولانا وضغط على الزر في بدلة مولانا المشابه لبدلته، فشرب مولانا ونظر إليه باسمًا، استطاع

حسن أن يرى تلك الابتسامة في عين مولانا.

استطاعوا الوصول إلى النقطة التي حددها ستيف عندئذٍ كشفت الصحراء عن حافلتين بقرب طريق، فقال هولاند الآن سننقسم لفريقين أحدهما معي والآخر مع ستيف، ومضوا دون إضاعة الوقت، تحركت السيارتين خلف بعضهما لبضعة كيلومترات سرعان ما افترقتا.

ونجح كلا الفريقين في الوصول إلى البيت الآمن عندئذٍ، قاموا بخلع ما يرتدونه من ثياب لكن هولاند طلب من حسن عدم خلع ردائه لأن بصمته الحرارية مسجلة ثم أخرج شيئًا مشابهًا للحقنة واقترب من ذراعه وقال يجب أن أعطيك هذه أولا وقام بحقنه في ذراعه.

فاستفسرت هالة وقالت ما هذا؟

فقال هولاند إنه لتغيير البصمة الحرارية، لأن معرفة البصمة الحرارية له ستعني هلاكه فورًا ومن بجانبه أيضًا.

فقالت هالة ألا تستطيع أجهزة التجسس أن تحلل البصمة ومعرفة أنها زائفة؟

فقال ستيف ربما وربما لا، لكن لدينا عامل جيد أن حسن معنا وهنا مجال مشوش لن يستطيعوا تفكيكه بسهولة، ثانيًا هم لن يتوقعوا أننا ما زلنا على قيد الحياة قبل غد عندما تصدر الإشارة من المغارة في اتجاه أبناء غايا وسيتعاملون معها ثم يقومون باستنتاج مواقعنا وتحليل كل البصمات الحرارية في المنطقة.

فقالت ألم نكن نرافق حسن أنا وستيف؟، إذن هم سجلوا بصمتنا الحرارية أيضًا فقال لقد تم تزويدكم قبل الخروج ببصمات زائفة.

بعد لحظات خلع حسن بدلته، وبعد أن استراحوا قليلاً استأذنوا للنوم لكن مولانا أصر على أن يصلي الفجر وينام، فانتظر حسن بجانبه وصلى معه الفجر، دخل حسن غرفته، حاول النوم لكنه لم يستطع النوم وقال لما

تبـدو القاهـرة متوتـرة إلى هـذا الحـد، عـلى الرغـم أن المظهـر العـام للقاهـرة لا يـشي بذلـك إلا أنـه يعلـم فخبرتـه الأمنيـة ومعرفتـه بأحـوال القاهـرة توحـي باللهيـب المستتر تحـت الرمـاد، هـل سـاعة الحـرب بـين الشـمال والجنـوب قـد دقـت والـكل يسـتعد لهـا، اسـتطاع حسـن أن يعـرف أيـن يقيـم إنـه في المقطـم،

لم ينم حسن وفكر في كلمة مولانا تعليقًا على ما شاهده من السيارة.

- وقال مولانا أين ذهبت مصر الجميلة.

نـام حسـن لم يسـتطع أن يكمـل استرسـاله في الأفـكار لكنـه رد عـلى مولانـا وقـال متمتـمًا قبـل نومـه وهـو يعتـدل عـلى جنبـه الأيمـن:

- إنها كما أردت يا مولانا.

اسـتيقظ الجميـع في وقـت متأخـر لأن أجسـادهم كانـت تحتـاج إلى الراحـة ثـم أيقظـوا مولانـا حسـن البنـا وتناولـوا فطورهـم، ثـم قـال هولانـد لحسـن ومولانـا:

سـنقوم إلى أبحاثنـا ونعـد كل شيء حتـى نجعـل النـاس يعرفـوا أن مولانـا قـد عـاد مـن المـوت ويصدقـوه، هـل يمكننـي الاطـلاع عليهـا؟ قـال هولانـد لا، لكـن أعـدك حالمـا نتهـي سـأوضح لـك الأمـر.

- فقال حسن ومتى يمكننا أن نبدأ؟

- فقال هولاند، حالما ننتهي من إعداد أجهزتنا الحديثة لذلك.

- فقال حسن ألن تكون عرضة للتشويش من أجهزة الآخرين؟

- فقـال هولانـد لا أظـن ولا تعتقـد أنهـا أجهـزة بـث تلفزيـوني وضحـك وقـال هـذا خيـال قديـم.

- فقال حسن إذن ما عمل تلك الأجهزة؟

- فقال هولاند ستعلم عند اكتمال الخطة والشروع في البدء.

زم حسن على شفتيه ولم يشعر بالرضي عما قاله هولاند.

قال هولاند قبل أن يغادر بإمكانكم التحرك في جنينة القصر والتنزه فيها والمكتبة ودخول كل جزء من القصر حتى المعمل وتحرك هو ومن معه لكن هالة لم تتبعهم وظلت مع حسن ومولانا، خرج ثلاثتهم لاستكشاف جنينة القصر والتريض فيها كانت الجنينة كبيرة وفسيحة وتحتوي على أشجار قديمة وكبيرة متناسقة ذات منظر جميل وظل وفير. فجلس مولانا حسن البنا تحت ظل إحدى تلك الأشجار وكانت شجرة تين عتيقة وارفة الظل، وكان جوها يلائم خيال الشعراء فجلس مولانا صامتًا متأملاً.

لكن حسن الذي لا يعرف الراحة أخرجه من تأمله. وقال له سائلاً ماذا رأيت بعد موتك يا مولانا؟ هل كل ما أخبرونا عنه صحيح؟

كان ذهن هالة يحمل نفس السؤال، لذا أنصتت بكل جوارحها.

لكن مولانا لم يجب بل سأل وأعرب عن حيرته وقال لحسن أتعرف أن هناك ما يحيرني، هل ستضاف أعمالي بعد رجوعي للحياة لميزان حسناتي أو سيئاتي؟

وأمسك بيد حسن وقال هل وجودي حقيقي أم أنه مجرد حلم تعيشه الروح؟،

شعرت هالة أن كلمات مولانا قريبة منها وأنها تعرضت لتلك الحالة.

شعرت أن تلك الكلمات تخرج من مكان ما في وعيها لا تستطيع تعريفه، وأكمل مولانا على كلٍ ربما لم أمت ربما ما زلت أنا في غيبوبتي في المستشفى في انتظار الموت وقد اختلق عقلي تلك الحكاية ليعيش فيها. حتى تحين وفاتي، وربما يكون هذا دافع ناتج من شعوري بالذنب؛ ذنب تكوين تلك الجماعة، فاستبق عقلي المستقبل وقرأ إن كان وجودها سيضر المجتمع إلى هذا الحد فقرر أن يتخلص من هم ثقيل قبل موتي حتى لا أشعر بذنب فيوهمني أني قد قمت بحل تلك الجماعة، أو هي إرادة حقيقية من وعيي للتخلص من

عبء تلك الجماعة فألف قصة عودتي للحياة تلك، على كل لن يكون هناك مجال للتراجع لأن وجودها شرٌ أود أن أتبرأ إلى الله منه حتى ولو كان في وعيي.

ونظر مولانا إلى حسن فوجده واجم سارح الذهن ورأى دمعة تحدرت من عين هالة.

وصمت الجميع مرة أخرى..

وبعد وقت قضته هالة في نقل عينها من مكان إلى آخر استأذنت هالة وقالت سأذهب إلى المعمل، راقبها حسن بابتسامة حتى اختفت من أمام عينيه، وقام مولانا يتحرك ومعه حسن واتكأ على حسن.

وقال لكن يا حسن إن كان كل ما أنا فيه حقيقي فهناك شيء ما في داخلي يقلق ربما أنا لست من عصركم.

وصمت فقال حسن ما الذي يقلقك يا مولانا ؟

فقال مولانا هؤلاء الفرنجة هل يريدون خيرًا حقًا؟، هل هم غير متآمرين أو أن لهم من عودتي مآرب أخرى مثل أحداث فوضى شاملة؟، وأيضًا هل سيصدق الناس عودتي إلى الحياة مرة أخرى؟، فإن عزيرًا لم يصدق أنه مات وعاد إلى الحياة حتى أراه الله كيف أحيا الحمار.

لم يستطع حسن أن يجيب بالرفض أو بالقبول لأنه أيضًا ما زال رغم الذي رآه منهم شاكا.

وقام مولانا ومعه حسن للدخول إلى القصر وربما للجلوس في المكتبة وتصفح بعض الكتب لقد صارت القراءة من هوايات حسن فدخلا المكتبة ووجد حسن تلفزيون فشكر الله لأنه يريد أن يسمع الأخبار فجلس أمام التلفزيون للمشاهدة.

كانـت مانشـيتات عسـكرية، عـرف حسـن أن هنـاك خطـب مـا وقـام مذيـع الأخبـار بعـرض البيـان وقـال مـع عـرض الصـور لسـيادة اللـواء ولحسـن أيضًـا وقـال المذيـع لقـد تصـدت قواتنـا لمجموعـات قتاليـة يقودهـا الرائـد حسـن همـام المتآمـر قائـد ميلشـيات الجنـوب العميـل لـدى اللـواء السـابق محمـد عبـاس وسـنوافيكم بالتطـورات تباعًـا.

فنظـر مولانـا إلى حسـن وقـال أنـت تقـود مجموعـات، لإثـارة الفـوضى مـا كل هـذا الكـذب؟ إذن مـن يجلـس بجانبـي؟

تبسـم حسـن بحـزن، فقـال مولانـا إن الأمـر خطـير ويلزمنـا التحـرك بسرعـة حتـى نمنـع شـلالات الدمـاء التـي سـتراق.

- فقال حسن مستنكرًا نتحرك دون علم أبناء غايا.

- فقال مولانا أنا لا أثق في مقصدهم.

- فقال حسن لكن ليس لدينا خطة لفعل ذلك.

- فقال مولانا الخطة أمامك.

- فقال حسن مستغربًا أين؟ أنا لا أرها.

- فقـال مولانـا أن نظهـر في التلفزيـون ونقـول للنـاس مـا يجـب أن نقولـه وأعلن حـل الجماعة.

- فقال حسن مولانا إن مجرد ظهورنا سوف يودي بحياتنا.

- فقـال مولانـا هازئًـا ومـا جـدوى الحيـاة وشـلالات الدمـاء تلـك سـتراق تحـت سـتار الكـذب

- فقـال حسـن أنـا لا اضمـن وصولنـا إلى التلفزيـون ولا أن نعيـش حتـى تكمـل خطابـك، إنهـا فكـره خياليـة.

أذن الظهـر فذهبـا للوضـوء وصليـا الظهـر ومـا كادا ينتهيـان حتـى قـال مولانـا ألسـت رجـل أمـن؟، فقـال حسـن نعـم فقـال مولانـا أليـس الوضـع مرتبـك؟ فقـال حسـن نعـم فقـال لـو كان معنـا عبـد الرحمـن السـندي لوجـد ثغـرة بمنتهـى السـهولة ولنفـذ مـا آأمـره بـه.

كان هـذا الحديـث محفـزًا لذهـن حسـن الـذي وجـب عليـه أن يجـد ثغـرة وأن يعـود للعمـل كرجـل أمـن.

فقـال حسـن إن حركتنـا في النهـار وبعـد نـشر صـورتي ووجهـك للعامة سـتعجل بنهايتنـا، ثـم اسـتطرد حسـن وقال:

لـذا سـتكون حركتنـا في الليـل، لكـن كيـف ندخـل المبنـى؟ وسـكت قليـلاً ثـم قـال عـليّ أن أصنـع كارنيهًـا لي ولـك وأعـرف مـن يفعلهـا وقـال ذلـك بـسرور، لكـن يـا مولانـا هـل بإمكانـك أن تعـد كلمة مختـصرة وحاسـمة، أريـدك أن تسـيطر بهـا لا عـلى الشـعب الـذي يسـمعك وحسـب ولكـن عـلى العاملـين في التلفزيـون وأنـا سـأعيق وصـول رجـال الأمـن إليـك وأجبرهـم عـلى التراجـع حتـى تذيـع خطبتـك عـلى الهواء؟لكـن علينـا تغيـير ملامحنـا.

لكـن لسـبب مـا لم يطمئـن مولانـا لتلـك الخطـة ولا حتـى حسـن نفسـه اطمئـن وكان عقلـه في حالـة بحـث عـن بدائـل عندئـذٍ تذكـر أمـرًا كان لـه وقـع السـحر عـلى قلبـه.

- فقال لمولانا وجدتها.

- فقال مولانا قول لي.

فقـال حسـن أنـا أعـرف نفقًـا قديـمًا مـن النيـل يتصـل بشـبكة المجـاري القديمـة كانـت خاصـة بالتلفزيـون، لكـن يلزمنـا بدلتـي غطـس وقـد وجدتهـا ، فبدلتينـا التـي ارتدينـاهـا بالأمـس ربـما تكونـا جيدتـين لذلـك، لكـن عـلى أن أختبرهمـا أولاً.

- فقال مولانا كيف ستختبرها؟

- فقال حسن سأملأ البانيو وأغوص في قاعه وأجرب.

- فقال مولانا حسنًا ذلك جيد.

لم يضع حسن كثيرًا من الوقت وقام باختبار البدلة بعد أن ملأ البانيو واستقر في قاعه وكانت مفاجأة فقد كانت تلك البدلة صالحه لذلك الأمر أيضًا. كان على حسن وضع خطة، كان يعلم أنه لن يعود منها لذا عليه توديع هالة وشعر بقوة رهيبة تعتصر قلبه لرحيله عنها ورفضه هدية القدر التي جمعته بها بعدما ماتت، وسيذهب عنها دون وداع، هي الحياة كم حملت من مفاجئات غير مبالية بتقديرنا لكن على كل حال إنه ليس اختيار. وجلس في غرفته ليضع خطة للدخول وخطة للانسحاب إن استطاع الصمود وخطة يسطير بها على الأستوديو وإجبار العاملين فيه على الانصياع للأوامر دون رد وربما يقتضي الأمر أن يضحي بأحد العاملين و بمنتهى القسوة حتى يستجيب الآخرين.

- لماذا؟

كان صوت السؤال واضحًا فنظر حسن لمصدر السؤال فلم يجد، من أين أتى الصوت، بحث حسن في أرجاء الغرفة عن ميكروفون أو كاميرا ظننا أن هناك من يراقبه لكن هذا الصوت لا يشبه صوت أي من أبناء غايا، ورغم استبعاد حسن النفسي أنهم يراقبونه هو ومولانا عن طريق الكاميرات واعتقاده في قرارة نفسه أن أبناء غايا ذوي أخلاق رفيعة إلا أن عملية البحث كانت إجراء احترازي، وعاد للبحث في ذاكرته عن صاحب الصوت لأن هذا الصوت منسجم مع الأذن لأنه سمعه من قبل فهو مسجل في خلايا التذوق الموجودة في الأذن، وحاول حسن أن يعود إلى خيط أفكاره إلا أن محرك البحث في العقل لا يتوقف حتى وإن تظاهرنا أننا أوقفنا البحث، وما هي إلا لحظات حتى أخرج حسن صاحب الصوت من تلافيف عقله الداخلية إلى منطقة الوعي، إنه الشيخ الدرويش وتبسم حسن لأنه يشتاق إليهم، إلى مولانا وهؤلاء الرجال وإلى الشيخ الدرويش الذي لا يعرف اسمه ولم يسأل عنه مولانا.

نظر حسن في كل أرجاء المكان بحثًا عنه لكن لم يجده كان لدى حسن ظن أن هذا الشيخ بإمكانه العبور والوصول إلى أي مكان يريد وإلا لما استطاع أن يوصل صوته إلى حسن بهذا الوضوح. لكن حسن توقف أمام تساؤل هل من الممكن أن يكون هذا الشيخ افتراض عقلي لا علاقة له بالواقع أبدًا؟...... إنه حقيقي قال لنفسه بأسلوب تقريري غير قابل للنقاش فالوقت أمامه ضيق وعليه أن ينتهي من وضع اللمسات النهائية، وعاد إلى العمل لكن سمع مرة أخرى ذات التساؤل:

- لماذا؟

لكن الصوت هذه المرة كان صادرًا من عقله فانتبه حسن إلى أنه تجاوز سؤال الشيخ الدرويش ويبدو أنه كان عامدًا لأنه خائف من مناقشة ذلك السؤال مع نفسه....

- بكى حسن وبكى لماذا؟

يعلم حسن أن ما يفعله الآن عكس إرادته ويعلم أن المرشد الأول حسن البنا قد أوقع به واستثاره بعبد الرحمن السندي، فطن حسن بعدما اختلى بنفسه إلى أنه كان لعبه في يد المرشد وأنه تلاعب به وأوصله إلى حيث يريد ولأن حسن أعطاه وعدًا فلن يخلفه حتى لو كلفه حياته لكن قلبه الآن يتمزق فهو قد أحب الحياة بعدما رآها في الأيام السابقة، لم يكن يعلم أنها تحتوي على هذا الجمال وقد عاهد نفسه عهدًا قبل خروجه من النفق أن يعيشها حرًا وربما يذهب مع حبيبته إن أرادت مع أبناء غايا، ما أجمل أن تكون حرًا في هذه الحياة مع حبيبة. وجلس حسن ليتذكر كل حرف كل همسة، كل نظره مع حبيبتهأ وتأكد بعد أن مر شريط الذكريات أمام عينيه أنها تحبه وعليه أن يخبرها أنه يحبها... لن يخبرها لأنه ذاهب للموت. بكى حسن ونعى نفسه وأدرك أنه ممزق بين خيارين، فقلبه يختار البقاء بجانب حبيبته.

وكأن الشيخ الدرويش يقف أمامه ويذكره «عندما يأتي الاختيار بين قلبك وعقلك فاختار بقلبك»

فقـال لـه حسـن نعـم أذكـر مـا أوصيتنـي بـه لكـن لـن أختـار بقلبـي لأني قـد أعطيـت وعـدًا ثـم بكي.......وبعـد أن مسـح دموعـه أعـد الخطـة جيـدًا.

ولم يكـن عليـه أن يخبر مولانـا عـما سـيفعله لكـن عليـه أن يخـبره بميعـاد التحرك وهـو السـابعة والنصـف مسـاء، حتى يذيعـوا الخطبـة في التاسـعة لأن نشرة التاسـعة هـي الأكثـر جذبًـا ومتابعـة مـن الجماهـير وخاصـة مـع هـذا الجـو المتوتـر في مـصر.

وأخـبر مولانـا بالميعـاد حتـى يسـتعد، عندئـذٍ شـاهد هولانـد ومعـه هالـة وأعضـاء الفريـق قادمـون لتنـاول الغـداء مـع مولانـا وقبـل الغـداء تفحـص هولانـد مولانـا تمامًـا وقـال بصـوت رقيـق بعـد أن أعطـاه حقنـة، قـال لـه إنـك ستسـتعيد غـدًا عافيتـك الكاملـة تمامًـا وتصبـح جاهـزًا بعدهـا بمصارحـة النـاس.

فنظـر حسـن إلى مولانـا راجيًـا أن يوافـق عـلى مـا يقولـه هولانـد. لكـن نظـرة حاسـمة مـن مولانـا لحسـن جعلتـه يتراجـع ويكمـل الخطـة.

ومـا أن فرغـوا مـن الطعـام حتـى قـام أبنـاء غايـا بالعـودة إلى المعمـل وقامـت هالـة معهـم لكـن حسـن نـادى عليهـا فوقفـت فقـام لهـا ووقـف أمامهـا ونظـر إليهـا نظـرة طويلـة وترقرقـت دمعـة مـن عينـه قرأتهـا هالـة وكأنهـا دمعـة فـراق لكنهـا قالـت بصـوت خافـت مـا بـك يـا حسـن؟ ووضعـت يدهـا عـلى قلبـه، ولم تأبـه لوجـود مولانـا بـل حاولـت أن تخفـف مـن روعـه وتسـكن قلبـه واقتربـت مـن جبهتـه وكادت أن تقبلهـا.

التفـت هولانـد قبـل دخولـه المعمـل إلى تلـك اللفتـة وكان بداخلـه سر أراد البـوح بـه إلى حسـن. لم يـدر لم أراد أن يقـول لـه ذلـك السر، ولام نفسـه لأنـه لم يخـبره بـه مـن قبـل وقـال لنفسـه ربـما بعـد العشـاء أخـبره بـه.

فقـد أراد أن يخبر حسـن أن لهفـة هالـة لمولانـا كان سـببها أنـه ابنهـا، أو شـعرت أنـه ابنهـا فالبويضـة التـي تـم اسـتخدامها لحقـن الحامـض النـووي الخـاص بمولانـا كانـت بويضتهـا، ودخـل هولانـد المعمـل وقـال لنفسـه حتـمًا سـأخبره بعـد العشـاء.

كانت الساعة تقترب من السابعة، استطاع حسن ومولانا أن يتجاوزوا البوابة كما خطط حسن ودون أن يلحظه أي أحد، كانت شوارع القاهرة تحتضن توتر مكتوم بادي حتى في المنازل المغلقة، والطرقات تعاني من قلة المارة، ولم يمض وقت طويل حتى وصلا إلى كوبري قصر النيل، وشاهد حسن مبنى التلفزيون فأشار إلى مولانا أننا قد اقتربنا، وبدأ التوتر يظهر على وجه حسن، لكن نظرة مولانا البوهيمية العابسة التي كانت بلا معنى، عكست نفسها على أفعال حسن وكأن لا شيء يهم حتى الحياة، مضى حسن ومولانا، لأقرب نقطة قررها حسن، عندئذ اقتربا من كورنيش النيل ومضى حسن متجاوزًا التلفزيون في اتجاه الكوبري الحديدي، كوبري الشهيد عبد الرحمن عز وبعدما اطمئن من عدم وجود متابع أو مارة قفز من فوق السور الحديدي وساعد مولانا في القفز وقفزا في اتجاه الشاطئ ونزلا مرة أخرى حتى اقتربا من الماء، عندئذٍ قام حسن بفتح الشنطة التي كان يحملها وأخرج منها البدلتين اللتين سيستخدمهما في الغوص، كان الظلام والسكون يلف المكان وكان اختيار مكان النزول الذي اختير بعناية من قبل حسن يوشي بمعرفة حسن الكبيرة بالقاهرة، وضع حسن اللباس الذي كانا يرتديانه في شنطته ثم نزلا إلى الماء وسبحا حتى اقتربا من المدخل الذي حدده حسن مسبقًا و كان الوضع آمن كما كان متوقعًا لأن المتاعب لن تبدأ إلا مع دخول قطاع الأخبار وإجبار العاملين فيه على الإذاعة مباشرة استطاع حسن ومعه مولانا الوصول إلى قلب التلفزيون فبعد مروره من خلال أنبوب المجاري القديم تسلل إلى المخرج الآمن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب عندما كان يتدرب على يد سيادة اللواء، وكان قد تدرب على طريقة التسلل الآمن إلى داخل التلفزيون حتى يستطيع تحرير الرهائن والسيطرة علي الإرهابيين أو السيطرة على التلفزيون حين يتعرض لأي عمل تخريبي أو عمل عدائي بقصد الاستيلاء عليه، وبعدما خرج أغلق ذلك الممر الآمن جيدًا وبعدما خلع هو ومولانا بدلتي الغطس وارتديا زيهما كان أمام حسن أن يحصل على سلاح، وهو يعرف جيدًا مكان هذا السلاح والذخيرة، كان هناك خزانة في الجدار خلف صورة مولانا حسن البنا، عندئذٍ فتحها وأخرج منها السلاح بعدما أعده بالذخيرة تحرك مولانا مع حسن إلى قسم الأخبار وما هي إلا لحظات

حتى وصلا قطاع الأخبار وقبل أن يقوم بالسيطرة على القطاع سمع المذيع وهو يذيع نبأ القبض على خلية من أعوان اللواء المنشق عبد الكريم القاسم في منطقة المقطم وكان المذيع كما هو مكتوب في التقرير يدلل على خيانة اللواء واتهامه بالعمالة بأن تلك الخلية تتكون من جنسيات متعددة وامرأة من أسرة ليبرالية كافرة، شعر حسن بغصة كبيرة في حلقه وأراد أن يصرخ كذب، وصرخ فعلا، صرخ في العاملين وكرجل خبير سيطر على الوضع وأمرهم بترك الهواء لمولانا.

لكن قوات مكافحة الإرهاب كانت من السرعة والمهارة أن اقتربت بوابل نيراني، تطايرت أشلاء ودماء من أعضاء الغرفة على وجه حسن الذي اتخذ ساترًا وتمكن من قتل الكثير منهم لكنهم بسرعة ومهارة بدأوا في السيطرة على الوضع تمامًا، نظر حسن إلى مولانا فوجده يتحدث غير عابئ لم يكن يسمع صوت الرصاص لكن المشاهدين كانوا يسمعون صوتًا ضعيفًا غير واضح مختلطًا بأصوات الطلقات، بدأ البارود يتجه صوب مولانا الذي اخترقت الرصاصات ذراعه فجرى حسن بسرعة كبيرة تجاه مولانا حتى يستطيع إنقاذه، لكن قبل أن يتحرك شاهد حسن تلك الطائرة التي تحدثت عنها حبيبته هالة وتحدث عنها أبناء غايا كانت تقف حاملة الموت في اتجاه مباشر لمولانا، جرى حسن بكل ما يملك من قوة في اتجاه مولانا لكن قبل أن يتحرك دوى انفجار عنيف، فطار جسد حسن في عكس الاتجاه، وشاهد حسن قبل أن يسقط اللقطة مرة أخرى.

راح عقله يكررها، الصاروخ توجه مباشرة إلى مولانا، شاهد حسن جسد مولانا وهو يتفكك إلى بخار وأشلاء وأحدث التفريغ موتًا لكل الموجودين حتى اللذين هم خلف حسن لكن لماذا لم يمت حسن فقد كان الكرسي الذي جلس عليه مولانا والذي طار والتصق بجسد حسن حاميًا له من تلك الشظايا، وارتمى جسد حسن بعيدًا وسقط جسده في بركة من الدماء وبقايا أجساد ممزقة وفي تلك الأثناء كان هناك صاروخ آخر لم يسمعه حسن لكن شاهده وهو يمر من فوق جسده ولفحت حرارته خلايا جلده لكن حسن لم يشعر بأي ألم ومر الصاروخ فوقه ثم مضى وانفجر، وتبعه صاروخ

ثالث في زاوية مختلفة تتبع حسن لهيبه ببصره، ثم أغلق عينيه من شدة الضوء الصادر عن انفجاره ومع ذلك لم يسمع صوتًا للانفجار لأن أذنه أضحت خارج الخدمة بعد الانفجار الأول مما جعل المشهد مؤلمًا لكن بلا نكهة الألم، وكانت عين حسن ترصد كل شيء حتى الغبار المتطاير من المبنى الذي زادت كثافته تدريجيًا وبسرعة مع توالي الصواريخ ملأ الفراغ حتى أنه لم يستطع أن يرى أي شيء، وتنفس بصعوبة وبطء وبعد الصاروخ الرابع انصرفت الطائرة وتركت سكون الموت، والغبار المتصاعد وألسنة اللهب، الكل موتى عدا حسن الذي يصارع من أجل أن يحظى بالموت، لكن لم تكن روحه قلقه أو متطلعة لا للموت أو الحياة.

كانت حالة بوهمية عابسة.

جلس حسن في القطار المتحرك في اتجاه الإسماعيلية، أنا لم أذكر لكم كيف نجى أو إلى أين يتجه.

خرج حسن من الحالة البوهمية تحت تأثير الخوف فقد كان لدى حسن الكثير من الأسئلة هل سيموت الآن أم أنهم سيقبضون عليه، تمنى أن يموت الآن فهو يعرف تمامًا ما الذي سيتم معه إن قبضوا عليه، فبحث عن السلاح الذي كان بيده حتى ينتحر به، نظر حوله لكنه لم يستطع أن يرى من كثافة الغبار أي شيء، وكان عليه أن يزحف حتى يحظى بالموت قبل أن يحظى بالتعذيب، فزحف، لم يكن يدري أنه سيستطيع لكنه استطاع، لكن لم يعثر على أي سلاح، كان مصرًا على أن يكمل راجيًا رحمة القدر في العثور على سلاح، لكن القدر لم يكن به رحيمًا لذا وصل حسن إلى الغرفة الآمنة، ودخل حسن فلم يكن أمامه أي خيار، ثم خرج في النهر، وترك نفسه للتيار آملاً أن يقتله، لكن النهر لم يكن رحيمًا فلم يقتله بل رماه بعيدًا، شعر حسن أن النهر يبغضه فلم يشأ الاحتفاظ بجسده ويجعل منه طعامًا لصغاره من الأسماك، ولفظه حتى يذوق العذاب، أنا لم أقصد أنهم سيمسكون به ويعذبوه فهو كما قلت لك يستقل القطار المتجه إلى الإسماعيلية الآن، لكن ربما فهمت قصدي.

إن عذابه ناتج عن فقده أعز ما يملك؛ حبيبته؛ التي قبض عليها وهو يعلم ما ستلاقيه من اغتصاب لروحها وتعذيبها حتى الموت، وفقده لمولانا الذي تناثر كحبات غبار ناعمة، وصار مثل الغبار المتصاعد من كومة تراب شديدة النعومة عندما تصطدم بها كرة حديد، على كلٍ كان مولانا حالة حياة، لكن لم يكن هذا هو الألم الذي أقصده، ألم أقل لك من قبل أن القدر لم يكن به رحيمًا بل غاضبًا، وكان نفير القطار قد صدر معلنًا استعداده للتحرك، عندئذٍ لمح حسن طرف بنطلون بدلة أبناء غايا التي تغير البصمة الحرارية للجسد تحت اللبس العادي الذي يرتدونه، فانتبه إلى وجه الرجل المرتدي ذلك الزي لكنه لم يتبين ملامحه، عندئذٍ ظهر ستيف وبجانبه امرأة، نظر حسن إليها، كانت هالة! نظرت إليه لكنها لم تعرفه فقد كان وجهه المحترق قد بدل ملامحه حاول أن ينادي أو أن ينزل من القطار لكن.... لكن القطار قد تحرك ورجله كانت مكسورة ولولا صياد طيب قد ضمدها له وألصق بها خشبة وأعطاه ذلك الملبس الذي يرتديه لمات أو قبض عليه، سيعيش حسن لأن الموت لم يقبله. سيعيش بحزن يملأ قلبه، حزن من فقد حبيب منّ القدر به عليه، أحبه حبًا... لا تستطيع الكلمات أن توصفه، عاش ينتظرها طوال عمره ثم اطمئن أنها ماتت مرة ثم يجدها، عاش ثلاثة عشر يومًا معها ولم يستطع أن يخبرها بحبه، ثم أدرك أنها ماتت مرة أخرى، ومرة أخرى لم تمت بل خرجت لترتحل مع أبناء غايا اللذين ينتشرون في كل الأرض، ولأنها حتمًا سترحل عن مصر، وهو يعلم أنها ما أن تخرج من مصر حتى تبخر في الأرض، تسيح فيها، تدخل معاملهم، تتعلم على يدهم، تفعل أفعالهم، وهي تعلم أن حسن قد مات، أي ألم الذي سيحياه حسن طوال عمره؟ وأي عذاب سيختبره بعدما فقد كل من حوله وفقد حبه؟، كانت أمام عينيه مرت، كان بإمكانه اللحاق بها، كان بإمكانه أن ينادي عليها لكن القدر منعه وتحرك القطار!

فقدتها للأبد يا حسن!

أما عن وجهته فهو ذاهب للبيت الآمن الذي يمتلكه في الإسماعيلية سيختبئ فيه حتى يشفى ثم يبدأ رحلته إلى الجنوب إلى مولانا مرة أخرى.